

روبرت . س . جوتفريد

الموت الأسود

جائحة طبيعية وبشرية فى عالم العصور الوسطى

ترجمة وتقديم: أبو أدهم عبادة كحيلة

2484

يتناول هذا الكتاب موضوع "الموت الأسود" من مداخل متعددة تاريخية واجتماعية وفلسفية وفنية وأدبية وبيولوجية وطبية، يتبين لنا من خلالها مدى ثقافة مؤلفه ورحابة اهتماماته، وهو يتعقب مادته فى موارد مختلفة بلغات مختلفة. وبعض هذه الموارد لايزال مخطوطًا، يمضى المؤلف بنا فى كتابه فيتتبع مسارد موضوعه أسلوب شائق وجذاب، ويتوصل إلى حقائق، ربما غابت عن أذهان بعضنا.

من هذه الحقائق أن "الموت الأسود" وما أتبعه من طواعين "الجائحة الطاعونية الكئيبة" وإن كان قد خلف وراءه ضحايا، تقدر أعدادهم بالملايين أو عشرات الملايين، إلا أنه كانت له حسناته؛ فى كونه سرع بالنهضة، والانتقال بأوروبا من عصور وسطى راكدة إلى عصور حديثة واعدة، فلم يمض وقت يسير على انكشاف تلك الغمة، حتى كانت أوروبا قد تحولت إلى مجتمع جديد، يختلف عن مجتمع آخر قديم فى الملامح والقسمات.

تصميم الغلاف: عبدالحكيم صالح

المـوت الأســود

جائحة طبيعية وبشرية فى عالم العصور الوسطى

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2484
- الموت الأسود: جائحة طبيعية وبشرية فى عالم العصور الوسطى
- روبرت س. جوتفريد
- عُبادة كُحيلة
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2017

هذه ترجمة كتاب:
THE BLACK DEATH:
Natural and Human Disaster in Medieval Europe
By: Robert S. Gottfried

Published by arrangement with the original publisher Free Press,
a division of Simon & Schuster, Inc.

شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الموت الأسود

جائحة طبيعية وبشرية فى عالم العصور الوسطى

تأليف : روبرت س. جوتفريد

ترجمة وتقديم : عبادة كحيلة



2017

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جونفريد، روبرت س – الموت الأسود: جائحة طبيعية وبشرية في عالم العصور الوسطى / تأليف : روبرت س. جونفريد؛ ترجمة وتقديم : عبادة كحيلة – القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٧

٢٧٦ ص ؛ ٢٤ سم

١ – الطاعون .

٢ – العدوى والأمراض المعدية

(أ) كحيلة ، عبادة (مترجم ومقدم)

(ب) العنوان ٦١٦,٩٢٢

رقم الإيداع ٢٦٦٤٤ / ٢٠١٦

الترقيم الدولى: 978-977-92-0925-8

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

خلال المدّة (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م – ٧٥٢هـ / ١٣٥١م) عمَّ العالم –المعروف إذ ذاك– طاعونٌ عُرف في الغرب بـ "الموت الأسود" The Black Death(*)، وعرف عندنا في الشَّرق بعدَّة مسمّيات؛ أشهرها "الفناء الكبير"(**).

لم يكن الطاعون بمرض جديد طارئ على مسرح التاريخ، فهو يعود في أصوله إلى عصور موغلة في القِدَم، وفي زمن الإمبراطور البيزنطي "جستنيان" Justinian (٥٢٧–٥٦٥م) نجم طاعون اشتهر باسم ذلك الإمبراطور الذي كان يطمح إلى أن يستعيد مجد الإمبراطورية الرومانية الغاربة، وكان ذلك الطاعون عاملا مهمًا في الحَدِّ من طموحات ذلك الإمبراطور، كما إن ما ترتب عليه من مضاعفات كان عاملا مهمًا في تيسير مهامِّ الفاتحين العرب بعد جيلين أو ثلاثة أجيال.

ولعلَّنا نتذكر في تاريخنا الإسلامي طاعون "عَمواس" الذي اجتاح بلاد الشام في زمن الفتوح، وراح ضحيته الآلاف من المجاهدين المسلمين، في مقدمتهم القائد الكبير "أبو عبيدة عامر بن الجرَّاح" ... ومن عجب أنْ رافق ذلك الطاعون مجاعةٌ اجتاحت بلاد الحجاز؛ حيث لم يَعُد الناس يجدون قوت يومهم، ودُعي العام الذي وقعت فيه تلك المجاعة –وهو عام (١٨هـ / ٦٣٩م)– بـ "عام الرمادة".

(*) في الفرنسية La peste noire، وفي الإسبانية la gran mortad.

(**) ويا حبذا مراجعة المقال القيِّم للصديق العزيز والمؤرخ الثَّبْت: "علي السيد علي محمود" بعنوان: "الفناء الكبير والموت الأسود في القرن الرابع عشر الميلادي؛ دراسة مقارنة بين الشرق والغرب"، المجلة التاريخية المصرية، العدد الثالث والثلاثون، (١٩٨٦م).

يعود السبب في الطاعون – أي طاعون – "عُصَيَّة" Bacillus تُدعى بـ"وباء يرسين" Yersina Pestis تنتقل إلى الإنسان عن طريق البراغيث التي تحملها القوارض لا سيَّما الجرذان كما هي الحال في الطاعون الدُّمَّلي Bubonic، وهو أكثر أنواع الطاعون شيوعًا، أو تنتقل عن طريق إنسان آخر، كما هي الحال في الطاعون الرئوي Pneumic، وهو إن كان أقل شيوعًا إلا أنه أشدها فتكًا وإماتة.

لا تستغرق العدوى بالمرض فترة حضانة طويلة؛ فلا يلبث أن تظهر أعراضه خلال ساعات وربما أيام، وتتمثل في بثور وتقيُّحات على جسد المريض، وتتخلل العُصَيَّة مجرى الدم والجهاز

العصبي، وسرعان ما يُصاب ذلك المريض بالتَّسمُّم، ويعاني من آلام رهيبة، إلى أن تأتي نهايته خلال ساعات أو أيام تالية.

لم يكن الطاعون Plague ليأتي على نحو مفرد Epidemic: إنما كان يأتي كجزء من جائحة طاعونية، Pandemic ، تتواتر ضرباتها على نحو حلقي كل عدة سنوات، وعلى مدى ربما يصل إلى مئات من السنوات، إلى أن تخفت حِدَّتها، بعد أن تكون قد أطاحت بحيوات الملايين –أو عشرات الملايين– من ضحاياها .

لم يتعرَّف العالم على عُصَيَّة ذلك المرض إلا في نهايات القرن التاسع عشر، وبالتحديد في عام (١٨٩٤م)، على يدي العالم السويسري الفرنسي "ألكسندر يرسين" Alexandre Yersin (ت: ١٩٤٣م)، وهو تلميذ نجيب للعالم الألماني الكبير "روبرت كوخ" Robert Koch(ت:١٩١٠م)، وكان لهذا الاكتشاف أثره في أن يتوارى هذا المرض، أو يتوارى بطشه على نحو أو آخر، وإن ظلت لعصيته بؤرتها المتأصلة في بعض الأنحاء ببلاد الصين.

* * *

فيما يتصل بنا ـــ في وطننا العربي ـــ فكتب التاريخ حافلة بالأخبار عن الطواعين، وتسهب في الحديث عن ويلاتها وتُغنّي – على نحو خاص – بـ"الفناء الكبير" أي "الموت الأسود"، ومع أنه لم يستمر عندنا في مصر سوى عامين (٧٤٨هـ/١٣٤٧م – ٧٥٠هـ/١٣٤٩م)، فإنه كما يقول شيخنا "المقريزي" (ت٨٤٥هـ)(*):

"لم يكن هذا الوباء كما عهد في إقليم دون إقليم؛ بل عمَّ أقاليم الأرض: شرقًا وغربًا وشمالا وجنوبًا، جميع أجناس بني آدم وغيرهم، حتى حِيتان (أسماك) البحر وطَيْر السماء ووحش البر". ويصف حال مدينة القاهرة، وما آلت إليه؛ فقد أضحت "خاليةً مقفرةً، لا يوجد في شوارعها مارٌّ، بحيث إنه يمر الإنسان من باب زويلة إلى باب النصر، فلا يرى مَنْ يُزاحمه؛ لكثرة الموتى والاشتغال بهم، وعلت الأتربة على الطرقات، وتنكرت وجوه الناس، وامتلأت الأماكن بالصياح، فلا تجد بيتًا إلا وفيه صيحة، ولا تمر بشارع إلا وفيه عدة أموات، وصارت النعوش لكثرتها تصطدم والأموات تختلط ... ويقال بلغت عدة الأموات في يوم واحد عشرين ألفًا، وأحصيت الجنائز بالقاهرة فقط في مدة شعبان ورمضان تسعمائة ألف ... وعدمت النعوش، وبلغت عدتها ألفًا وأربعمائة نعش، فحملت الأموات على الأقفاص ودراريب (مصاريع) الحوانيت وألواح الخشب، وصار يُحْمَل الاثنان والثلاثة في نعش واحد على لوح واحد..."

يستطرد "المقريزي" بعد ذلك، فيوضح كيف لحقت الندرة بأصحاب الحِرَف، وفي جملتهم المقرئون والحمَّالون وحفارو القبور لكَثْرة الموتان، وما ترتب على ذلك من حراك اجتماعي صاعد، فأصبح بعضهم من أصحاب العقارات لهلاك أصحابها الأصليين من الأجناد (أي المماليك)، كما ينوّه إلى الزروع حين أتى أوان حصادها، ولم يتوافر لها من يقوم بذلك الحصاد "فخرج الأجناد وغلمانهم لتحصد، ونادوا: "من يحصد ويأخذ نصف ما يحصده"، فلم يجدوا من يساعدهم على ضمِّ الزُّروع، ودرسوا غلالهم على خيولهم وذروها بأيديهم، وعجزوا عن كثير من الزرع فتركوه".

(*) السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٧م، جـ٣، صـ ٧٧٣–٧٨٥.

بطبيعة الحال قد ترك ذلك الطاعون أثره فى الأدب المعاصر؛ فيقول "الصلاح الصَّفَدي" (ت: ٧٦٤هـ)(*):

قد نغَّص الطاعون عَيْشَ الورى — وأذهل الوالد والوالدة

كم منزل كالشمـــع سكــانـــه — أطفأهم فى نفخةٍ واحدة

ويقول "ابن نُباتة" (ت: ٧٦٨هـ)(**):

سر بنا عن دمشق يا طالب العيـ — ش؛ فما فى المقام للمرء رغبةْ

رخصت أنفس الخلائق بالطا — عون فيها، فكل نفس بحبّـــةْ

وعلى نهجه يقول "ابن المعمار"(ت: ٧٤٩هـ)، وهو شاعر شعبي مات بالطاعون(***)

قبح الطاعون داءً — فقدت فيه الأحِبَّةْ

بيعت الأنفس فيه — فكلُّ إنسان بحبُــة

وفى لفظة (حبة) عند الشاعرين تورية واضحة عن الدُّمَّل الكبير.

* * *

على مدى قرون تالية كانت الطواعين ظاهرةً عامةً، تنجم بين حين وآخر، وهى وإن توقفت في أوروبا فى مطالع العصور الحديثة، إلا أنها تلاحقت عندنا، لا سيما فى العصر العثماني، إلى أن همدت وانطفأ سعيرها فى منتصف القرن التاسع عشر، وقد كانت بالتأكيد سببًا فى أن صار عدد سكان مصر فى بداية عصر "محمد على الكبير" – أى منذ

(*) السابق، صـ ٧٩.

(**) ديوان ابن نباتة، تقديم: عوض الغُباري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٧، صـ٥.

(***) المقريزي، السلوك فى معرفة دول الملوك، مرجع سابق، صـ ٧٩١.

مائتى عام أو نحوها – لا يجاوز ثلاثة ملايين، فى حين كان هذا العدد يجاوز ثلاثة أضعافه خلال مراحل سابقة للفناء الكبير.

بين تلك الطواعين ذلك الطاعون الذى عصف بالبلاد خلال عامى (١١٧١هـ/١٧٥٧م–١١٧٢هـ/١٧٥٨م)، ويدعوه "الجبرتي" (ت: ١٢٣٧هـ/١٨٢٢م)(*) بـ"قارب شيحة الذى أخذ المليح والمليحة"، وربما يقصد بهذا التعبير أنه كان يخصّ ببطشه صغار السن من الشباب، مثلما كانت الحال مع بعض الطواعين التى شهدتها أوروبا إبان الجائحة الطاعونية الثانية.

وربما كان الطاعون الذى وقع فى نهاية العهد بالحملة الفرنسية (١٢١٥هـ/١٨٠١م) هو آخر تلك الطواعين الكبيرة، وشمل بعدوانه مصر والشام معًا ... وفى خطاب له إلى أستاذه "الجبرتي"، يكتب الشيخ "حسن العطار" (ت:١٢٥٠ هـ/١٨٣٥م) (**) من مدينته أسيوط يقول إنه "كان يموت كل يوم من أسيوط زيادة على الستمائة ... وعلى التخمين مات الثلثان من الناس... ولو شئت أن أشرح لك يا سيدى ما حصل من أمر الطاعون لملأت الصحف...".

على أنه كانت للطاعون عندنا حسناته؛ فهو الذى أودى بحياة "لويس التاسع" ملك فرنسا لدى حملته الصليبية الثامنة بتونس (٦٦٨هـ/١٢٧٠م) بعد عشرين سنة من حملته الصليبية السابعة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) على مصر. كما كان سببًا فى أن رفع "نابليون بونابرت" حصاره عن مدينة عكا، بعد أن أذاق أهلها ويلاته (١٢١٣هـ/١٧٩٩م)؛ فقد أفضى ذلك الطاعون إلى هلاك شطر من فقدهم من جنوده(***) وفى كتاب له إلى أعضاء ديوانه بالقاهرة، يبرر فيه أسباب إخفاقه فى حملته تلك وعدتها خمسة عشر سببًا، فيجعل الطاعون السبب الثالث لانسحابه أو بالأحرى هزيمته(****)

(*) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٩٩٨م، جـ١، صـ٤٠

(**) السابق، جـ٣، صـ٢٦٦.

(***) عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م جـ٢، صـ٣٢.

(****) الجبرتي، مرجع سابق، جـ٣، صـ١١٥.

وليست لدينا فى وطننا العربى معلومات وافرة عن الدولة وأسلوبها فى التعامل مع "الفناء الكبير"، وما تلاه من طواعين، اللهم الحجر الصحى الذى يدعوه "الجبرتي" بـ"الكرنتيلات"، ويعرفه بـ "التباعد من الملامسة"، وتبخير الأوراق والملابس ونحو ذلك". وإذا شئنا تفصيلات أخرى، فكان يجرى تطهير البلاد من الحيوانات لا سيما الكلاب، وإشعال النيران لتنقية الهواء والتَّضرُّع إلى الله تعالى بالمساجد، وهذا كله أدخل فى مجال الوقاية، أكثر منه فى مجال العلاج الذى كان يتمثل أحيانًا فى مَسْح الأورام الناجمة عن العدوى بقِطَع الإسفنج المشبَّعة بالماء والخل، وتناول الأطعمة المطهيّة بالخل كذلك، والإكثار من العصائر وعصائر الفاكهة، والابتعاد عن الرياضة والاستحمام فضلا عن الفصد والحجامة(*)

أما ما صنفه علماء مسلمون عن ذلك الطاعون فأهمه ما صنفه "ابن خاتمة" (ت بعد ٧٧٠ هـ / ١٣٦٩م) و"ابن الخطيب" (ت: ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م)، ومما يجدر ذِكْره أنه ربما كان "محمد دُرّى باشا" (ت: ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م) هو أول من تناول الطاعون فى كتاب مفرد صنفه فى عام (١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م) وعنوانه "الإسعافات الصحية فى الأمراض الوبائية(**)

والكتاب الذى بين أيدينا يتناول موضوع "الموت الأسود" من مداخل متعددة تاريخية واجتماعية وفلسفية وفنية وأدبية وبيولوجية وطبية، يتبين لنا من خلالها مدى ثقافة مؤلفه ورحابة اهتماماته، وهو يتعقب مادته فى موارد مختلفة، بلغات مختلفة، وبعض هذه الموارد لا يزال مخطوطًا، بحيث إنه لم يترك شاردةً ولا واردةً إلا أحصاها.

يمضى المؤلف فى كتابه، فيتتبَّع مسار موضوعه، وما يتصل به من موضوعات فى أسلوب شائق وجذاب، ويتوصل إلى حقائق، ربما غاب بعضها عن أذهان بعضنا.

بين هذه الحقائق أن "الموت الأسود" وما أتبعه من طواعين "الجائحة الطاعونية الثانية" وإن كان قد خلَّف وراءه ضحايا، تُقَدَّر أعدادهم بالملايين أو عشرات الملايين إلا

(*) على السيد على محمود، الفناء الكبير والموت الأسود، صـ ١٥٩وما بعدها.

(**) عبد الرحمن الرافعي، مرجع سابق، جـ١، صـ ٢٧٨ .

أنه كانت له حسناته، وتتمثل على نحو خاص في كونه عجَّل بالنهضة، والانتقال بأوروبا من عصور وسطى راكدة إلى عصور حديثة واعدة، فلم يمض يسير على انكشاف تلك الغمة، حتى كانت أوروبا قد تحولت إلى مجتمع جديد، يختلف عن مجتمع آخر قديم في الملامح والقَسَمات.

وحيث إن المؤلف في كتابه هذا يتوجَّه بخطابه إلى قارئ غربي، ثقافته غير ثقافتنا؛ فقد تَوجَّب علينا أن نعقِّب على بعض ما ورد فيه بحواش شارحة، ونصحِّح بعض ما وقع فيه من هنات، ونرجع ما تخلله من نصوص عربية إلى أصولها في مواردنا، جعلناها جميعها على هوامش المتن.

كتاب جديد.. آهل بكل ما هو جديد ومجيد.

والله من وراء القصد.. وهو الموفَّق والمستَعان.

أبو أدهم

عُبادة بن عبد الرحمن رضا كُحيلة

الخميس، الثامن من جمادى الآخرة (١٤٣٤هـ)

الثامن عشر من أبريل/ نيسان (٢٠١٣)

الهرم – الجيزة

شكـــر وعـــرفـــان

كما كانت الحال فى السابق، فإن ما أعطانيه باحثون فضلاء من عَوْنٍ سَخِيٍّ، كان له أثره الوافر فى اجتياز ما صادفته من صعاب، فى فَهم بعض الأفكار، أو لدى الكتابة ذاتها؛ وأخص بالذكر منهم "مايكل أداس" Michael Adas و"پول كليمنس" Paul Clemens و"جيمس جرين" James Green و"جون جيلّيس" John Gillis و"أنجيليكى لايو" Angeliki Laiou و"موريس لي" Maurice Lee و"وليم ماكنيل" William McNeill و"وليم أونيل" William O'Neill و"ترايان ستويانوڤيتش" Traian Stoianovich و"جوزيف ستراير" Joseph Strayer.

وقد جرت مناقشة مسوَّدة الفصل الثانى من هذا الكتاب فى ندوة جماعة التاريخ الاجتماعى Social History Group Seminar بجامعة رتجرز Rutgers University، وأخذت بما تَقدَّم به أعضاؤها من مقترحات. وأنا مَدينٌ لمحررى دار ماكميلان Macmilian: "كولين جونز" Colin Jones و"جويس زايتر" Joyce Seitzer و"آيلين ديڤالد" Eileen Dewald بما أسدوه لى من نصائح جليلة. وقد تفضّل كل من مجلس الأبحاث بجامعة رتجرز The Rutgers University Research Council، وصندوق "تشارلز" و"يوهانّابوش" التذكارى للطب الحيوى Charles and Johanna Busch Momorial Bio – Medical Fund – تفضّلا بدَعْمى أثناء البحث فى هذا الموضوع والاطلاع على موارده وكتابته والنفقة على من استعنت بهم من مساعدين ومحررين، وأنوّه هنا بكلٍّ من "كلير.ب. جريفين" Claire P. Griffin و"پاتريشيا.ر. لاني" Patricia R. Lanni . كما كانت المنحة التى حبانى بها المجلس الأمريكى للجمعيات العلمية American Council of Learned Societies، عونًا كبيرًا لى خلال المراحل الأخيرة من تأليف هذا الكتاب. ودون تلك المساعدات البحثية والتحريرية والمالية ما تيسر لى إنجاز هذا الكتاب.

مقدمة

فى أكتوبر ١٣٤٧م اتَّخذ أسطول جنوى طريقه إلى داخل مرفأ مسّينا Messina الواقع إلى الشمال الشرقى من جزيرة صقلّية ... كان أفراد الطاقم يعانون من "مرض ينخر فى عظامهم"[1]، وما لبثوا أن ماتوا جميعهم أو كانوا بسبيلهم لأن يموتوا؛ بسبب عدوى أصيبوا بها إبّان كانوا فى المشرق. وشرع المسئولون عن المرفأ فى إقامة حَجْر صِحيٍّ عليهم، ولكن بعد فوات الآوان: فلم تكن المشكلة فى الرجال، إنما كانت فى الجرذان والبراغيث، وهى الأصل فى هذا المرض، فسرعان ما انطلقت بمجرد أن ألقت السفينة بمراسيها إلى الرصيف. وما كانت تمضى أيام حتى كان الوباء قد تفشّى فى أنحاء مسينا والأرياف المجاورة لها، وخلال ستة أشهر كان شطر سكانها قد هلكوا أو لاذوا بالفرار منها. وقد تكرر هذا المشهد آلاف المرات لدى الموانى وقرى الصيادين عبر القارة الأوراسية(*) وإفريقيا الشمالية، مُؤْذِنًا بمقدم أكبر كارثة طبيعية عرفتها أوروبا ... الموت الأسود.

والموت الأسود هو سلسلة من الطواعين الدُّمَّلِيَّة(**) bubonic والرئوية Pneumic والتعفُّنية Septicaemic التى اجتاحت العالم الغربى بين سنتى ١٣٤٧م و١٣٥١م، فأفنت ما بين ربع سكانه إلى نصفهم، وكانت السبب فى متغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية أو سرَّعت منها، واستبد بالناس روع وفزع وحيرة "فصار الأب يفر من ابنه، والزوجة من زوجها، والأخ من أخيه، فقد بدا الطاعون وكأنه يتسلَّل إليهم عبر الرؤية والتنفس ومن ثَمَّ الموت، ولم يعد يتوافر لمن يهلك منهم من يواريه التراب متطوعًا كان أو مأجورًا". كان الجميع قد شملهم الرعب من وباء يتعذر تفسيره، ولا يتوافر علاج

(*) أى القارتين الأوروبية والآسيوية.

(**) أو الدُّبَيْلِيَّة.

ناجع له[٢]، وكما سطَّر الكاتب الفلورنسي المعاصر "بترارك" Petrarch[*]: "أى أخلافنا السعداء الذين لن يقدر لهم أن يعانوا بلاءً مثل ذلك الذى عانيناه والذين سوف ينظرون إلى ما ألمَّ بنا وكأنه حديث خرافة"[٣].

كانت نتائج الطاعون على المدى البعيد أشد فداحةً، فقد كان الموت الأسود هو الطاعون الأول في الجائحة الطاعونية الثانية Second Plague Pandemic، وهى تتمثل فى سلسلة من الطواعين التى تكررت على نحو دورى حتى القرن الثامن عشر، وأخذ تعداد السكان يتهاوى بمعدل ثابت على مدى قرن بعد عام ١٣٥٠م، بحيث أضحى ذلك التهاوى ملمحًا بارزًا من ملامح القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وجوبهت المؤسسات القائمة: تشريعيةً وحكوميةً وتجاريةً بتحديات عنيفة، طالت كذلك الأفكار الفلسفية العتيقة والعقيدة الدينية ذاتها، ووجد الأرستقراطيون ورجال الكنيسة الذين كانوا في موقع الصدارة فى عالم ما قبل الطاعون من خلال استحواذهم على كل شيء- وجد هؤلاء أنفسهم فى مواجهة فلاحين وتجار انتعشت أحوالهم من اتِّجارهم بسلعٍ زراعية وصناعية، ويتململون فى الوقت ذاته من تدنى مكانتهم فى البنية الاجتماعية بأوروبا؛ فقد كان نمط الإنتاج خلال المرحلة السابقة للطاعون يستند إلى العمالة البشرية الوفيرة والرخيصة، ثم لم يلبث أن حل محله نمط آخر جديد؛ يستند إلى تقنية متطورة نسبيًّا؛ فالواقع أن الموت الأسود والجائحة الطاعونية الثانية قد تداخلا فى التطورات الحالة بالعالم الغربى بقوة دفع هائلة، قَلَّ أنْ وُجِدَ نظيرٌ لها على مدى تاريخه.

والحق أن المؤرخين كافةً يعزون إلى الموت الأسود دورًا مهمًّا فى تاريخ أوروبا، لكنهم يختلفون فى تقدير هذا الدور وطبيعته وتوقيته والآثار التى خلفها على المدى الطويل؛ فبينما يذهب بعضهم إلى أن نتائجه كان محدودةً بزمانها، يذهب البعض الآخر إلى أنه كان نقطة تحول مهمةً أو نقطة التحول المهمة فى انتقال أوروبا من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، ويؤيد هذا الطرح الأخير معظم الباحثين الأوائل فى هذا الموضوع؛

(*)(١٣٠٤-١٣٧٤م)، شاعر إيطالى وإنساني، كتب باللاتينية والإيطالية، ويعد فى الوقت ذاته أول شاعر غنائى حديث.

فكتب "جاسكيه" F. A. Gasquet(*) فى عام (١٨٩٣م) يقول: إن الموت الأسود يحدد نهاية العصور الوسطى(٤). وباعتباره كرينالاً فهو يحمله مغبة التدهور الذى أصاب الكنيسة المسيحية، خصوصًا في جانبها الديري، وعبّر عن تلك الرؤية ذاتها رائد من رواد التاريخ الاجتماعي هو "كولتان" G. Coultan(**)، وكان يدرك بأنه كان للتناقص فى عدد السكان الناجم عن الطاعون أثره الطيب في الارتقاء بالمستوى المعيشى لمن بقى منهم على قيد الحياة، وأسهمت الثروات التى تهيأت لهم فى التسريع بالنهضة Renaissance والإصلاح البروتستانتي(٥). أما "طومسون" J. W. Thompson(***) فإنه وإن لم يربط بين الموت الأسود وبين النهضة والإصلاح، إلا أنه يؤكد على التأثير النفسي له(٦)، ويعقد مقارنةً بين الدمار الذى أحدثه ذلك الطاعون، وبين الدمار الذى أحدثته الحرب العالمية الأولى، ويوضح كيف أن ما خلَّفه الدمار الأول من تأثير كان أعمق مما خلَفه الدمار الثانى وأبقى: فقد أهلك الموت الأسود من جيل واحد زهرة أبنائه، وترك معظم من أفلت منه صريع أزمة نفسية وأخلاقية. ووجدت تلك الرؤية من يؤيدها فى زماننا الحاضر، أعنى المؤرخ الفرنسي المتخصص فى تاريخ العصور الوسطى "إيڤ رينوار" Yves Renuoard(****)، وفضلاً عن ذلك فيتضح من دراسة حديثة نهضت بها مؤسسة راند Rand Corporation أن الموت الأسود واحدة من كوارث ثلاث هى الأسوأ فى تاريخ العالم(٧).

فى ثلاثينيات القرن العشرين، وربما بتأثير من أحداث جارية شرع بعض المؤرخين يقلِّلون بعض الشيء من هذا الدور، فيذهب عدد من الماركسيين: مثل الروسى "كوزمينسكي" E. A. Kosminsky(*****) إلى أن الطاعون لم يكن سوى جزء من أزمة عامة ألمَّت بالاقتصاد الريفى والمجتمع الذى كان يتمحور حول بنية اجتماعية تراتبية hierarchical(٨). ووجدت تلك الرؤية تأييدًا من باحثين آخرين غير ماركسيين؛ بينهم

(*) (١٨٤٦-١٩٢٩م)، راهب بندكتى إنجليزى ومؤرخ، نُصِّب كرينالاً فى (١٩١٤م).

(**) (١٨٥٨-١٩٤٧م)، مؤرخ بريطانى تخصص فى التاريخ الوسيط، حاضر فى جامعة كامبردج، زميل بالأكاديمية البريطانية.

(***) (١٨٦٩-١٩٤١م)، مؤرخ أمريكى تخصص فى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة، اهتم على نحو خاص بتاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

(****) (١٩٠٨-١٩٦٥م)، مؤرخ فرنسى تخصص فى تاريخ العصور الوسطى خصوصًا فى فرنسا وإيطاليا.

(*****) (١٨٨٦-١٩٥٩م)، مؤرخ سوفيتى متخصص فى تاريخ العصور الوسطى، له كتاب مهم عن تاريخ إنجلترا الزراعى فى القرن الثالث عشر.

"پوستان" M. M. Postan(*)، وهو واحد من الرواد فى تطبيق المناهج الإمبريقية (التجريبية) على التاريخ الاقتصادي، فقد هوَّن هو الآخر من دور الموت الأسود، ويزعم أن تلك الأزمة بدأت فى منتصف القرن الثالث عشر، وتنامت عندما جاوزت أعداد السكان ما كان متوافرًا من مواد غذائية[٩]، وبالتالي فقد أضحت أوروبا أكثر فقرًا بعد عام (١٣٠٠م)، ومن ثَمَّ فالتناقص فى أعداد السكان الناجم عن الطاعون، وما أفضى إليه من زيادة فى دَخْل الفرد، كان من شأنه التعجيل فقط بانهيار مجتمع كان بسبيله لأن ينهار بالفعل. وعلى العكس من ذلك يؤكد "ريمون ديلاتوش" Raymond Delatouche(**)، وهو مؤرخ فرنسى بارز متخصص فى العصور الوسطى، على الموت الأسود ولكن على أسس مغايرة[١٠]؛ فيذهب إلى أن الأزمة فى نهاية العصور الوسطى كانت أزمة أخلاقية أكثر منها أزمةً اقتصادية، وتكمن جذورها فى القلاقل الفلسفية والدينية التى وقعت خلال القرن الثالث عشر.

وقد استمرت فكرة التهوين من أهمية الموت الأسود تجد أنصارًا لها –بعد الحرب العالمية الثانية– ولكن على منحى آخر؛ فيحتج البكتريولوجى "شروسبيري" J. F. Shrewsbury (***)، بأن عُصَيَّة bacillus(****) الطاعون، وهى عُصَيَّة يرسين Yersina Pestis(*****) ليست على ذلك القدر من الشراسة كما يعتقد معظم المؤرخين، وإنْ فى الجزر البريطانية على الأقل؛ فلم يعصف الموت الأسود بأكثر من عشرين بالمائة من سكانها[١١]. بيد أن أفضل ما كُتب بعد الحرب العالمية الثانية من دراسات تختص بالعصور الوسطى المتأخرة هى تلك الدراسات الإمبيريقية، وبين أهم الباحثين المحدثين الذين يذهبون إلى هذا المذهب الأمريكى "ديفيد هرليهي" David Herlihy(******)، والفرنسيون: "إليزابيث

(*) (١٨٩٩-١٩٨١م)، مؤرخ بريطاني، روسى الأصل، تخصص في التاريخ الاقتصادي، عمل أستاذًا بجامعة كامبردج وشارك فى موسوعتها عن التاريخ الاقتصادي.

(**)(١٩٠٦-٢٠٠٢م)، مؤرخ فرنسى متميز فى تاريخ العصور الوسطى.

(***) عالم بكتيريا، ألف كتابًا عن "الطاعون الدُمَّلى فى الجزر البريطانية"، وله كتاب آخر عنوانه "المرض والتاريخ".

(****) طُفيل.

(*****) نسبةً إلى العالم السويسرى الفرنسى "ألكسندر يرسين" Alexandre Yersin (1863-1943م)، مكتشف تلك العصية فى سنة (1894م)، وهو تلميذ للعالم الألماني الكبير "روبرت كوخ"، ثم اشتغل بمعهد باستير، أما (Pestis) فتعنى فى اللاتينية مرضًا كما تعنى وباءً.

(******) (١٩٣٠-١٩٩١م)، مؤرخ أمريكى كتب عن العصور الوسطى والنهضة واهتم بتاريخ الأسرة والمرأة، وعمل بعدة جامعات؛ من بينها "هارفارد".

كارپنتييه" Élisabeth Carpentier، و"إدوار باراتييه"Éduoard Baratier(*)، و"جى بوا" Guy Bois(**)، وهم جميعًا يسلِّمون بأنه كانت هناك أزمة عامة فى نهاية العصور الوسطى، كانت بدايتها ما جرى من إفراط سكانيٍّ في القرن الثالث عشر، لكنهم يعتقدون بأن الطاعون كان يُشكِّل العنصر الأهم فى تلك المشكلة، وهو الذى نهض بمعظم ما جرى من متغيرات رئيسة، وقام "هرليهى" و"كارپنتييه" بدراسة المدينتين الإيطاليتين: پستويا Pistoia فى توسكانيا Tuscany، وأورڤييتو Orvieto فى أومبريا Umbria، والأرياف Contadi المحيطة بهما[١٢]، وتوصل الاثنان معًا إلى أنه إذا كان الموت الأسود بذاته جائحةً مهولةً، فإن أهم مظهر له أنه كان يتتابع على نحو حلقي، وهما يؤكدان على مرونة الجنس البشرى وتكيُّفه فى استجابته لأية كارثة مفردة، لكن تلك الجائحة كانت تتوالى ضرباتها كل عدة أعوام، فتزيد من الانحدار السُّكَّانى depopulation، وتعطى زخمًا مستمرًّا لما جرى من متغيرات فى العصور الوسطى المتأخرة(***)، وقد توصَّل "باراتييه" و"بوا" – من خلال دراساتهما التفصيلية لإقليمى پروڤانس Provence ونورماندى Normandy الفرنسيَّين– إلى نتيجة مؤداها أن الطواعين المتوالية أبقت أعداد السكان منخفضةً حتى سبعينيات القرن الخامس عشر[١٣].

هذا التأكيد على الجائحة الطاعونية الشاملة جرى إقحامه فى تفسير بيئى وبيولوجى واسع للعصور الوسطى المتأخرة. وكان أول من تحمس لذلك المنظور البيئى عالما السُّكَّان الإسكندناويان: "يوتيكالا" E. Jutikkala(****) و"كاوبنَين" M. Kauppinnen، كما عاود التأكيد عليه عدد من المؤرخين الإنجليز؛ من بينهم "تشامبرز" J. D. Chambers(*****) و"جون هاتشر"John Hatcher(******)، وأوجزه بدقة الفرنسيان: "بيرابان" J. N.

(*) (١٩٢٣–١٩٧٢م)، مؤرخ وخبير أرشيف، تخصَّص فى تاريخ مرسيليا وپروڤانس.

(**) ألف كتاب "الكساد الكبير فى العصور الوسطى" و"أزمة الإقطاع".

(***) أى المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى وتشمل القرون: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر.

(****) مؤرخ فنلندى وأستاذ التاريخ بجامعة هلسنكي، ركَّز فى كتبه على الظواهر الجماعية فى التاريخ، كتب عن الموت الأسود، كما كتب عن المجاعات خصوصًا المجاعة العظمى فى إيرلاندا.

(*****)(١٨٩٨–١٩٧١م)، أستاذ التاريخ الاقتصادى بجامعة نوتنجهام تخصص فى السكان والزراعة من أواخر القرن السابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر.

(******)(١٨٠٥–١٨٩٣م)، أستاذ التاريخ الاقتصادى والاجتماعى بكامبردج، متخصص فى تاريخ إنجلترا الاقتصادى والاجتماعى والديمجرافى فى العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر.

Biraben[*] و"إيمانويل ليروى لادوري" Emmanuel LeRoy Ladurie[**]: فهم يعرضون للموت الأسود، وما جرى من تغييرات عامة؛ ديمقراطية واجتماعية واقتصادية في إطار إيكولوجي[***] واسع[١٤]؛ فيذهب "بيرابان" على سبيل المثال إلى أن الجائحة الطاعونية الشاملة تأثرت بالمناخات المتغيرة ودورات حياة القوارض والحشرات، وهو وإن لم يتجاهل الدور المهم الذى قام به الإنسان فى نشر هذا المرض، لكنه كان يبتعد عن أن ينسب دورًا أكبر لطرق التجارة وما كانت عليه حال طرق النقل والمواصلات[١٥].

يتخذ هذا الكتاب نهج المدخل البيئى فى دراسة الطاعون، الأمر الذى يجعله يختلف عن دراسات أخرى معاصرة في تعاملها مع الموت الأسود؛ مثل تلك التي كتبها "فيليب زيجلر" Philip Ziegler[****][١٦]. فيمكننا أن نفهم الموت الأسود والجائحة الطاعونية الثانية فى سياقهما الوبائى فحسب، باعتبارهما جزءًا من أزمة إيكولوجية امتدت ثلاثمائة عام. ولا يستبعد هذا التأكيد على البيئة الخارجية ما صاحبها من مشكلات سياسية واجتماعية واقتصادية.

والأحرى بنا أن نبحث عن منظور أكثر توازنًا لتوضيح الدور الذى نهضت به القوارض والأحوال الجوية، إلى جانب المغامرين من التجار فى نشر الطاعون، وبالمثل فمن المهم عندنا أن ندرس ما جرى فى أواخر القرن الثالث عشر من تدهور فيما تنتجه الأرض الزراعية من غلال، وأن نتفحَّص ما أمكننا المتغيرات فى ترسيب التربة والمواد المغذية لها، فضلاً عن نوعية المحاصيل التى كان الفلاحون يزرعونها، وكيف كانوا يُوَرِّثون حيازاتهم.

هناك صعوبات تجبهنا لدى تأليفنا هذا الكتاب عن الموت الأسود والجائحة الطاعونية الثانية، تتمثل فى ذيوع عدد من المفاهيم المغلوطة؛ فما يزال العديد من المؤرخين يُصرُّون على المبالغة فى أعداد من ماتوا بسبب الموت الأسود، فى حين كانت البيئة السكانية من

(*) (١٩٠١-١٩٧٩م).

(**) مؤرخ فرنسى وأستاذ بجامعة باريس، ركز فى أعماله على تاريخ لانجدوك وتاريخ الفلاحين.

(***) فضلنا ترجمة (Ecology) بإيكولوجيا أى البيئة الطبيعية؛ تمييزًا لها عن (Environment) أى البيئة البشرية.

(****) ولد فى (١٩٢٩م)، كاتب سِيَر ومؤرخ بريطاني، بعد أن عمل بالخارجية البريطانية تقاعد ليعمل محررًا عامًا بدار نشر كولينز.

المرونة بحيث كانت تعاود النهوض من أية أزمة مفردة، حتى وإن كانت فتاكة كالموت الأسود. والصحيح هو أن الضربات المتوالية للجائحة الطاعونية الثانية هي التى أدت إلى تلك التغييرات الهائلة. وعلى العكس فهناك مؤرخون آخرون يميلون إلى تقليل عدد من هلكوا فى الطاعون؛ فيقدرون ضحايا الموت الأسود بالعشرين بالمائة فقط من جُمْلة سكَان أوروبا، وليسوا ثلاثين بالمائة أو أربعين أو خمسين كما يذهب بعضهم، والرأى عندنا أننا حتى إذا سلمنا بنسبة العشرين بالمائة، إلا أنها حين كانت ترتبط بطواعين متوالية فإن موتاها يصيرون أكثر عددًا من موتى أية كارثة أخرى مرت بها أوروبا عبر تاريخها كله. لكنه ما تزال لدينا تسمية خاطئة، فما يزال بعض المؤرخين يطلقون على الموت الأسود تعبير "الطاعون الأسود" Black Plague، وعادةً ما كان يطلق على الطاعون الذى وقع فى عام ١٦٦٥م تعبير "الطاعون الكبير" Great Plague: وذلك لسبب وجيه هو أن عدد ضحاياه يتراوح بين خمسة عشر بالمائة إلى عشرين من سكان غربى أوروبا، لكن لا هذا ولا غيره من طواعين العصور الوسطى دُعى بالطاعون الأسود. والحق فإن مصطلح الموت الأسود لم يستخدم فى تلك العصور، وربما كان أول استخدام له للتعبير عن الطاعون الذى وقع بين عامى ١٣٤٧م و ١٣٥١م كان زهاء عام (١٥٥٠م)[١٧]. وكان الناس فى العصور الوسطى يكتفون لدى الإشارة إليه بتعبير "الوباء" Pestilence، وهو تعبير بسيط شاع حول عام (١٤٠٠م) وعلى نطاق واسع لوصف أية كارثة تحل بمجتمع ما؛ طاعونًا كانت أو غيره.

هناك صعوبات أخرى تختص بالدليل؛ فلدينا ندرة فى وثائق العصور الوسطى خصوصًا فى تعاملها مع الظواهر الطبيعية، فتتحدَّث بعض الحوليات عن طقس سيء ولكن لا مزيد، ومع أنه وصلت إلينا أدلة زراعية، إلا أنه لا يَرِدُ بها شيء عن دورات حياة الحشرات والقوارض. وقد أتيحت لنا من خلال مناهج البحث الحديثة معلومات طيبة عما كانت عليه البيئة فى العصور الوسطى المتأخرة؛ فقد أفادنا مقياس عُمْرِ الأشجار Dendrochronolgy(*) وتحليل الطلع(**) Pollen analysis وكربون منتصف العمر Carbon half life الذى يحدد تواريخ البقايا الأثرية– أفادنا كل ذلك فى الوصول إلى

(*) أى التأريخ بدراسة حلقات الأشجار.

(**) أى حبوب اللقاح.

تقديرات لمستويات درجة الحرارة ومستويات الترسيب فى التربة وتشخيص الأمراض التنكسية degenerative، والنظر فى القيمة الغذائية للطعام، واستطعنا أن نتحصًل على مادة ديموغرافية وافرة من النتائج التى توصل إليها علماء الاجتماع من خلال البرمجة الحاسوبية والتحليل الإحصائي.

ولا يزال من الضرورى لنا أن نتفكر فى أشياء كثيرة مهمة، لكنه فى الحقبة الأخيرة ظهرت معلومات جديدة، ويمكن لكتاب مثل هذا أن يأتى للقارئ بمنظور جديد.

الفصل الأول

التاريخ الطبيعى للطاعون

كما هى الحال مع غيره من الأمراض المعدية، كان للموت الأسود تاريخ طبيعي، بحيث لا يمكن فهمه إلا فى هذا السياق، ولدينا البيئة فى المحل الأول[1]، ومن يقوم برحلة فى أيامنا هذه عبر القارة الأوروبية، فربما يصعب عليه أن يتخيَّل ما كانت عليه الحال فى تلك القارة قبل ألف عام؛ فلم تكن لتتوافر بها مجتمعات حضرية وصناعية، وهى الملمح البارز للقرن الأخير، بل إنه لم يتوافر بها سوى اليسير من المدن الصغيرة المتباعدة التى تقع على مقربة من البحر أو الأنهار الكبيرة. ولدى منتصف القرن الثانى عشر لم يكن يوجد سوى القليل من المراكز الحضرية فى إيطاليا والبلاد الواطئة(*)، بل إن باريس ذاتها لم تكن تضم سوى الخمسين ألفًا أو من يناهزهم من السكان، فى حين كانت غالبية تلك المراكز تضم ألفًا أو نحوًا من ذلك، بحيث كنا نجد تسعةً بين كل عشرة من الأوروبيين، يعيشون فى محلات صغيرة أو قرىً، تضم عدة مئات من السكان، وتصل المسافة بين الواحدة منها والأخرى إلى ما يتراوح بين خمسة عشر ميلاً إلى عشرين. وكانت المدن والقرى جميعها تتَّسم بالصِّغر وضيق المساحة، ولا تتهيَّأ لها وسائل صحية كافية ولا وسائل نقل، ومما يدعو للسخرية أن غالب سكان تلك المحلات الصغيرة والمنعزلة، كانوا يعيشون على مقربة من بعضهم، مع قَدْرٍ قليل من الخصوصية.

كانت تحيط بتلك القرى حقول ومراع وأحراج يعيش عليها معظم الناس، وفى سنة (١٢٥٠م) كانت الحقول والمراعى تسود المشهد الأوروبي، لكنه قبل ذلك، وحتى

(*) (Netherlands): وهى ما تعرف عندنا باسم أشهر مقاطعاتها: هولندا.

منتصف القرن الثاني عشر على الأقل، كانت الأحراج بامتدادها وكثافتها هي الملمح الأساس للبيئة الأوروبية؛ ففي قاصية الشمال في معظم أنحاء اسكندناوة وروسيا كانت الأشجار المخروطية تضم في أساسها أشجار التَّنُّوب fir(*)، مع يسير من أشجار البتولا birch(**)، وحيثما كانت الأرض فقيرةً في صرفها منخفضةً في رفعها كانت توجد المستنقعات والسبخات والسهوب الجرداء tundra، أما في سائر أنحاء أوروبا فكانت توجد غابات نفضية. وقد أفضى المناخ البارد الرطب والتربة الحمضية – حول البحر البلطي وبحر الشمال وفي معظم الأنحاء بشرقي أوروبا– إلى نمو أشجار الزان يحيط بها نبات الآس برِّي holly وغيره من aquifoliacs، وكانت معظم الأراضي في أواسط أوروبا مغطاةً بأشجار البلوط، وحيثما كانت التربة قلويةً، خصوصًا على جوانب الألب والكاربات Carpathians، كانت تلك الأشجار تختلط بجار الماء alders، وحيثما كانت تزداد الأمطار وتزداد كذلك حموضية التربة، كما هي الحال في معظم الأنحاء الوسطى والشمالية من فرنسا، وفي أواسط ألمانيا كانت تتوافر أشجار البلوط تحيط بها أشجار البتولا والحُور aspen، وفي جنوبي الألب أي في معظم حوض البحر المتوسط، حيث تكون أشعة الشمس أشد بريقًا وترتفع درجات الحرارة كان يقل تساقط الأمطار، مع تفاوتها على مدى العام، وكانت التربة في معظمها رمليةً وحمضيةً، وكان قد تم التوطُّن في ذلك الإقليم قبل أن يتم التوطُّن في شمالي أوروبا بزمن طويل، كما كانت توجد به كثافة سكانية عالية، ومن هنا كانت غاباته أقل منها شمالاً، لكنه كان ما يزال يحتفظ طيلة القرن الثاني عشر بمعظمها، لا سيما المخروطية بما فيها أشجار الصنوبر والعرعر Junipers، التي في إمكانها أن تحتمل التربة الرملية.

لدينا اعتبار آخر في دراسة الأمراض هو السببية[٢]؛ فجميع الأوبئة بما فيها الطاعون كان المتسبب فيها طفيليات لها صلات بغيرها من كائنات حية أكبر منها، وتعد هذه الصلات جزءًا طبيعيًّا في الإيكولوجيا البشرية والحيوانية، وهناك عامل ثالث مهم بالنسبة للإنسان هو السُّمِّيَّة. ويميز علم الأوبئة Epidemiology بين الأمراض الفتاكة والأمراض غير الفتاكة؛ فقد كانت الأخيرة قديمة العهد بالإنسان وذات تاريخ طويل معه، وغالبًا ما

(*) وهو المعروف عندنا بالشربين.

(**) أو السدر أو التامول.

كانت متوسطة الضرر بالنسبة لعوائلها، وتصير أعداد ضحاياها ثابتةً بالنتيجة، وعلى النقيض منها كانت تلك الأمراض الفتاكة التي طالما صعدت بين فترة وأخرى إلى مسرح التاريخ لتأتي على أعداد كبيرة من البشر، وكان المسئول عنها طفيليات أحدث تقيم توازنًا مع معيليها، ولدينا مثال عليها من مرض قديم هو البُرداء (الملاريا) malaria: فالجرثومة المسببة له وهي البلاسموديوم Plasmodium غاية في الخطورة، لكنها ليست مميتةً بالضرورة، ولدينا مثال آخر على مرض أحدث هو الطاعون الرئوي pneumic plague، وتتراوح إماتته بين ٩٥٪ : ١٠٠٪ وكان المرضان من الأمراض البارزة في الماضي، ولكن بسبب النسبة المرتفعة للموتى من الطاعون فإن نتائجه كانت أعمق بكثير.

لدينا فيما يختص بالأمراض المعدية اعتبار رابع – مهم كذلك في تمييز بعضها عن بعض– هو وسائل انتشارها؛ وإحداها هي انتقالها مباشرةً بين إنسان وآخر، وعادة ما يتم هذا الانتقال عبر الجهاز التنفسي، وتتضمن الأمراض التي تنتشر بهذه الوسيلة؛ النزلة الوافدة (الإنفلونزا) influenza والخُنَّاق (الدفتيريا) diphtheria والحصبة measles والطاعون الرئوي، ولأمراض الجهاز التنفسي خاصية الانتقال السريع، ومن غير الممكن اجتنابها، كما أن صلاتها مديدة بالكثافة السكانية؛ لذلك كانت واسعة الانتشار في مدن العصور الوسطى. وهناك وسيلة أخرى للانتشار وتشمل الأمراض المعدية، وهي تلك الأمراض التي ترتبط بالجهاز الهضمي، وبينها الزُّحار dysentery والإسهال diarrhea والتيفوئيد typhoid والهيضة (الكوليرا) cholera(*)، وكما هو شأن أمراض الجهاز التنفسي كانت الأمراض المعوية ذائعة الانتشار في عالم العصور الوسطى، وغالبًا ما كانت انعكاسًا لظروف اجتماعية، خصوصًا حالَ عدم توافر الشروط الصحية؛ لهذا -وعلى النقيض من أمراض الجهاز التنفسي- كان من الممكن تفادي الأمراض المعوية بسهولة، حالما كان يتم النهوض بالصحة العامة.

تنتشر الأمراض كذلك من خلال وسيلتين أخريين؛ الاتصال الجنسي والمثال الواضح على ذلك هو الإصابة بالجرثومة اللولبية treponema خصوصًا الزهري syphilis والسيلان gonorrhea، وعادةً ما تكون الكائنات المسببة للأمراض الجنسية ضعيفةً في

(*) وتعرف عندنا كذلك بالهواء الأصفر.

البيئات المعتدلة، وكانت أقل فى انتشارها خلال العصور الوسطى من أمراض الجهاز التنفسي والأمراض المعوية. ولدينا مجموعة رابعة من الأمراض هي تلك التي تنتقل إلى الإنسان من معيل حيواني، فإما أن يكون الحيوان وسيطًا كما هى الحال بالنسبة للبرداء، أو التيفوس، وإما أن يكون ضحيةً أوليةً أو ثانويةً لها كما هى الحال بالنسبة للطاعون الدُّمَّلي bubonic. وللحيوانات دور مهم فى انتقال الأمراض يمكن أن يكون حاسمًا؛ فيتشارك البشر والكلاب فى خمسة وستين مرضًا، كما يتشاركون والماشية فى خمسين، والأغنام والماعز فى ستة وأربعين، والخنازير فى اثنين وأربعين، والجياد فى خمسة وثلاثين، والفئران والجرذان في اثنين وثلاثين، والدواجن في ستة وعشرين[٣]، وعلى الرغم من كون هذه الأمراض التي تنتقل من الحيوان إلى الإنسان غير شائعة شيوع الأمراض التَّنفُّسيَّة والمعوية، إلا أنها أشد إماتة؛ حيث تصبح الفيروسات والبكتريا – وهى المسببة لها– أشد شراسةً من خلال تنقلها عبر سلسلة من المعيلين.

فضلاً عن خطورتها فلتلك الأمراض أهميتها لأسباب أخرى؛ فهى فى انتشارها وتواترها تستند فى إعالتها إلى الإنسان أكثر مما تستند إلى الحيوان، ولدينا مثال على ذلك فى الطاعون الدُّمَّلي؛ فحيثما تعيش القوارض فى بيئة يتوطن بها الطاعون، وتبدأ فى التكاثر لتصل إلى مستوى معين من الكثافة، سرعان ما تنتقل إليها البكتريا والطُّفيليَّات من خلال البراغيث، وعادةً ما تكون النتيجة وبائيةً وتُفْضى فى أحيان كثيرة إلى الطاعون الدُّمَّلي. ويذهب بعض الباحثين إلى أن الأمراض القابلة للانتقال هى جزء من البيئة الإنسانية ولصيقة بالكثافة السكانية، وأن الحضارة والمرض يترافقان[٤]؛ وبذا يتوقف الوباء – كما يتوقف مداه– على أنماط الاستقرار البشري. وتلك هى الحال مع الأمراض التنفسية والمعوية والتناسلية، لكنها ليست كذلك مع الأمراض التى تنتشر عبر وسائط حيوانية، فتستند الأخيرة إلى عوامل خارجة عن الحضارة؛ مثل المناخ وما عليه حالة القوارض والحشرات من إيكولوجية وكثافة، ومن الخطورة بمكان عند دراسة تلك الأمراض وتاريخها أن نركز على الإنسان ودوره فى نشرها، صحيح أنه فى كثير من الأحيان كان الإنسان هو العنصر الأهم كحامل للمرض، وذلك حين يقتحم مجالاً بيئيًا جديدًا مثل الأمريكتين فى القرن السادس عشر؛ فقد أتى معه بالجدرى Smallpox والحَصْبة، لكن الحال لم تكن كذلك وبالدَّرجة ذاتها فى مناطق أخرى من العالم القديم مثل أوروبا فى العصور الوسطى.

هناك مفتاح آخر - مميز للعدوى المرضية وتطورها - هو المناعة؛ فلدى الإنسان آليات (ميكانيزمات) دفاعية ضد الممرضات Pathogens، أي الكائنات الدقيقة التي تتسبب في الأمراض، وتتفاوت المقاومة الفردية ضدها بفعل عوامل كثيرة؛ مثل عدد الأجسام الدفاعية protective antibodies، أي البروتينات التي تتوالد كرد فعل لسريان سموم المرض في مجرى الدم. والمناعة immunity تكون فطريةً أو مكتسبة، وفي هذه الحال الأخيرة تكون إما إيجابيةً أو سلبيةً؛ فهي تكون إيجابيةً عندما يولِّد المعيل دفاعاته الخاصة به، وتكون سلبيةً عندما يؤتَى بها من خارجه، وعادةً ما تكون مؤقتةً. وكان للمناعة الإيجابية أهميتها الفائقة في تحديد مدى الوباء وكثافته في العصور الوسطى. ولم تكن بعض الأمراض المعدية - خصوصًا تلك التي تتَّصل بالجهاز التنفسي كالجدري والحصبة - لتختلف كثيرًا في إتيولوجيتها[*]، ومن هنا فالنجاة من هجمة أولية من شأنها أن تعطي درجةً من المناعة تحدُّ من معاودتها عند هؤلاء الذين ولدوا بعد الوباء الأخير. ولم تكن الأمراض التي تتوافر المناعة ضدها أقل في تأثيرها على أوروبا في العصور الوسطى من تلك الأمراض العديدة والمركبة كالزُّحَار والنزلة الوافدة والطاعون، والتي كانت المناعة ضدها محدودةً أو إنها لم تكن موجودة أصلاً.

كانت الأمراض المعدية تركةً ورثتها العصور الوسطى من العصور الكلاسيكية؛ فبين عام (٥٠٠ ق.م) وعام (٥٥٠م) كانت الصلات مديدةً بين الحيوانات وبين حضارات الصين وآسيا الوسطى والهند والنيل الأدنى[**] وحوض البحر المتوسط، وترتَّب على ذلك - كما يذهب ماكنيل[***] - كَمٌّ هائل من المناطق الموبوءة في أوروبا وإفريقيا أتت منها إلى حوض البحر المتوسط في غضون القرن السادس الميلادي معظم الأمراض التي يمكنها أن تتلاءم مع مناخات معتدلة[٤]. واقتضى الأمر سنوات طويلةً كي يتحقق لها الانتشار، وباستثناءات قليلة - مثل الطاعون الذي اجتاح أثينا في القرن الرابع قبل الميلاد - فإنه مما يسترعي النظر أن العالم الكلاسيكي كان بمنجاة من معظم الأمراض

(*) (Etiology): هو علم أسباب المرض.

(**) عند المؤلف النيل الأعلى (Upper Nile)، وهو خطأ واضح: فحضارة النيل ترتبط بأدناه - أي مصر - وليس بأعلاه.

(***) "وليم ماكنيل" William McNeill. مؤرخ أمريكي ألَّف ما يناهز العشرين كتابًا؛ أهمها "صعود الغرب" ينحو فيه نحو المركزية الغربية، ومنها "الأوبئة والناس". شغل منصب الأستاذية في جامعة شيكاغو وتقاعد في (٢٠١٠م).

الفتَّاكة، وهو ما يعد عنصرًا رئيسًا في النمو السكاني الثابت والذي تواصل حتى القرن الثاني الميلادي. على أن هذا السلم البيولوجي كان مخادعًا؛ فقد كان للنقل البرِّي الذي اعتادت عليه الإمبراطوريات القديمة دوره كحاضن لأمراض سوف تظهر في المستقبل، ولدينا مثال على ذلك في شبكة التجارة والمواصلات التي عُني بها الرومان في القرن الأول قبل الميلاد، وتشمل طرقهم الشهيرة، لكن الأهم هو شبكة الطرق التجارية البحرية التي كانت تتجمع لدى ساحل الليفانت Levant(*)، ثُمَّ تتفرَّع شرقًا عَبْر شمالي شبه الجزيرة العربية إلى بحر العرب والمحيط الهندي وجنوبي آسيا وغربًا إلى إيطاليا وجنوبي بلاد الغال Gaul(**) وإيبيريا، ومنها كان يتم نقل السلع إلى الداخل عبر وديان الأنهار الرئيسة كالرون، وكان النقل بحرًا يتسم نسبيًا بالسرعة، ومع طقس مُواتٍ تصير كل الموانى المتوسطية متاحةً خلال أيام قليلة، وعليه فإن امرءًا يبدو صحيح البدن لدى الإقلاع، يمكن أن يسقط صريع المرض على الطريق، كما تنتقل العدوى إلى رفاقه في السفر، وبذا ينتشر المرض على مبعدة مئات الأميال من ميناء الإقلاع. وفضلاً عن ذلك فغالبًا ما كانت شحنات البضائع من الضخامة، بحيث يمكن أن تختبئ داخلها وسائط محتملة لأمراض من حشرات وقوارض، وقد تصاعدت تلك الظاهرة مع ما جرى من رباط شمل جنوبي آسيا ووسطها والشرق الأوسط ودلتا النيل والسواحل الأوروبية على طول البحر المتوسط، مما كان يؤدي إلى ظهور بُؤَر موبوءة بالمرض.

بين القرنين الثاني والسادس الميلاديين ظهرت ثلاثة أمراض معدية وفتاكة، حددت نهايةً لما سبق من استقرار إيكولوجي في العالم القديم؛ بدأ أولها في عام (١٦٥م) واستمر حتى عام (١٨٠م)، واجتاح إيطاليا والجانب الغربي من الإمبراطورية الرومانية، ويبدو أنه وصل إلى هناك مع الفِرَق الرومانية، وربما كان هو البداية لانتشار مرض الجدري في أوروبا المتوسطية. ويذهب البعض إلى أنه كان لصيقًا بالقبائل الجرمانية التي اتخذت منازلها وراء خط الراين – الدانوب، لكنه لو كان الأمر كذلك ما كان لهؤلاء البرابرة أن ينقلوه إلى الشعوب الأوربية قبل القرن الثالث على الأقل(١)، ويُعَدُّ الجدري من أكثر الأمراض قابليةً للانتشار بين البشر، وبإمكانه أن يفتك بقوم ليست لديهم مناعة طبيعية

(*) تعبير مراوغ عادةً ما كان يقصد به – حتى مطالع العصور الحديثة– سواحل بلاد الشام.

(**) المقصود بها فرنسا والأقطار المصاقبة لها في غربي أوروبا.

تجاهه، وكانت تلك هى الحال فى الإمبراطورية الرومانية، ويقدر "جالينوس" Galen(*) الطبيب أنه قد مات ثلث سكان إيطاليا خلال الخمسة عشرة عامًا التالية لظهور المرض(٧). لكنه من حيث إن فيروس الجدرى قليلاً ما يتحوَّر، فإنه كان يعطى للناجى منه مناعةً؛ لذا فقد كان يرتبط فى العصور الوسطى بمناطق لم يكن له عهد بها، وأولئك الذين لم يسبق لهم أن أصيبوا به لا سيما الأطفال، ومن هنا كان يستمد شهرته فى تلك العصور بوصفه قاتلاً لهم.

فى عام (٢٥١م) صار للجدرى –بوصفه مرضًا وبائيًّا كبيرًا– شريك آخر يقع على الخط الفاصل بين العصور الكلاسيكية والعصور الوسطي، هذا المرض هو الطاعون الأنطونينى Antonine Plague(**)، ويُحْتَمل أنه مرض الحصبة، ويصفه القديس "كيبريان" St. Cyprian(***) أسقف قرطاجة بشمالى إفريقيا فيقول:

"ينطلق من الأمعاء إسهال يهدُّ البدن، وتتخلَّل الحمى العظامَ، وتُفضى إلى قُرح فى الحلق، ثم تتقلص الأمعاء بفعل القيء المتواصل، وتلتهب العينان المكتظَّتان بالدم، وتتساقط بعض الأطراف بسبب ما أصابها من عفن، ويحلُّ بالمريض ضعف عام، تزداد وطأته مع ما ألمَّ به من أوصاب؛ من وَهَن فى المشى أو ضعف فى السمع أو كف للبصر"(٨).

يقال إن الحصبة فى ذروتها كانت تفتك بخمسة آلاف فى أوروبا فى اليوم الواحد، وظلَّت تشكِّل خطرًا داهمًا حتى عام (٢٦٠م) أو نحوه، وهى أشبه بالجدري، ولم يتيسر للأطباء فى أوروبا أن يميزوا بينهما حتى القرن السادس عشر، ويعزى السبب فى حدوثها إلى فيروس ينتقل عبر الجهاز التنفسي، ويكون شديد الإماتة لمن ليست لهم مناعة جيدة أو كانت مناعتهم ضعيفةً، ومثلما هى الحال مع الجدري، تصير لدى الناجين منه مناعة مستقبلة، لذلك كان هو مرض الأطفال فى العصور الوسطى، وليس لنا أن نقلل من تأثير أيٍّ من المَرَضَين خصوصًا فى بدايتهما؛ فقد كانت الحصبة تفتك بالناس وتعجل بتصحر مناطق ريفية كثيرة (لا سيما فى الأقاليم المنتجة للحبوب فى صقلِّيَّة وشمالى إفريقيا)

(*) (ح ١٣٠ – ح ٢٠١م)، طبيب يوناني، كانت كتاباته معتَمَد الأطباء على مدى العصور الوسطي.

(**) نسبةً إلى عصر الأباطرة الأنطونينيين فى تاريخ روما (١٣٨-١٩٢م).

(***) (ح ٢٠٠ – ٢٥٨م)، أحد الشهداء المسيحيين وأسقف قرطاجة (٢٤٨-٢٥٨م).

وتقطع طريق الخبز عن الجيش الرومانى وعن دافعى الضرائب، وكانت تتسبب فى إضعاف التجارة بين الشرق والغرب. أما الجدرى فصار يُشكِّل عند بعضهم حَجَر الزَّاوية فى تداعى الإمبراطورية الرومانية[٩].

على الرغم مما كان للجدرى والحصبة من أهمية فى التاريخ الطبيعى للأمراض المعدية، فإن تلك الأهمية تتضاءل مقارنةً بما جرى فى عام (٥٤١م) حين أتى مرض ثالث؛ وهو طاعون ناشئ من سلسلة معقدة لسلالات بكتيرية تدعى وباء يرسين Yersina pestis[١٠]. ولدى دراسة الطاعون دراسة إبتيولوجية، فإنها تساعد على تفسير أهميته التاريخية، وعلى الرغم من تفاوت سميته، لكنه مميت إلى أبعد مدىً. وتعيش عُصَيَّتُه فى القناة الهضمية للبراغيث، لا سيما براغيث الجرذان التى تدعى Xenopsylla cheopis أو Cortophytus fasciatus، لكنه يمكن أن يعيش كذلك فى برغوث الإنسان Pulex irritans، ولأسباب ما تزال غائبةً عن إدراك علماء الأوبئة فإن العُصَيَّات bacilli تتكاثر فى معدة البرغوث لدرجة تكفى لأن تُحْدِث بها انسدادًا يهدده بالهلاك جوعًا. وهكذا فبينما يتغذى هذا البرغوث على ضحاياه فإنه يتقيأ عليهم أعدادًا كبيرة من تلك العُصَيَّات، وهى عملية حاسمة على طريق الطاعون؛ حيث إنه لا يمكن لهذه العصيات أن تخترق جلد كائن صحيح البدن إلا عن طريق ثُلْمة فيه.

لدينا العديد من القوارض التى فى إمكانها أن تكون حاملة للطاعون، بينها الترباجون tarbagons(*)، والفئران الجبلية أو المراميط marmots والسوالق susliks(**)، فى آسيا وكلاب المروج prairie dogs وسناجب الأرض ground squirrels فى أمريكا واليرابيع gerbels والفئران فى إفريقيا. وتعيش هذه القوارض بوجه عام فى شبكات من الأنفاق تحت الأرض، وتتضاعف أعدادها على نحو لافت؛ ففى سهوب الفولجا بجنوبى روسيا قُدِّر عدد السوالق بثلاثمائة وخمسة وعشرين ألفًا فى كل أربعة أميال مربعة. أما فى أوروبا فيعد الجرذ الأسود Rattus rattus غايةً فى الخطورة كحامل للعُصَيَّات، وتتسم هذه الجرذان بالقرارية، فقلما تتحرك لمسافة تُجاوز العشرين ميلاً خارج جحورها، وحيث

(*) قارض أشبه بالمرموط.

(**) السولق: حيوان من القواضم الحافرة.

إنها تعيش على مقربة من الإنسان فإن خطورتها تزداد، ونظرًا لبراعتها فى التَّسلُّق، فإن حياتها تتلاءم مع أسقف المنازل التى يعيش فيها الفلاحون والعوارض العالية والزوايا القاتمة للمنازل الحضرية، لكنه ومع اعترافنا بأهمية الجرذان السوداء فى نشر الطاعون، فمن واجبنا أن نُنَوِّه إلى أنها ليست بمفردها المُعيل الثانى له؛ فمع القوارض الأخرى التى أتينا على ذكرها هناك حيوانات المنزل والحظيرة جميعها فيما عدا الفرس؛ حيث إن رائحته تُنَفِّرُ منه البراغيث ذات الأمعاء المسدودة.

عندما تصيب تلك العُصَيَّة قارضًا أى تصير متوطنةً فيه، فإنها تدعى طاعونًا غابيًّا (أو خشبيًّا) silvatic plague، ويعد هذا الطاعون هو الأصل للطواعين البشرية؛ لأن وجوده فى القوارض يجعل منها مستودعًا أو بؤرةً يمكن أن يعيش فيها لفترات ممتدة من الزمان، الأمر الذى من شأنه أن يفسر تلك الموجات الحلقية للطاعون بما له من أهمية عظمى فى العصور الوسطى، كذلك يمكن للعُصَيَّات أن تعيش فى جحور القوارض المظلمة والرطبة، حتى بعد أن تهلك القوارض بسبب الطاعون، وهكذا فعندما يحل بتلك الجحور جيل جديد من القوارض فإنه يمكن للطاعون أن يعاود مسيرته من جديد.

تنتقل البراغيث الحاملة لعُصَيَّة يرسين إلى البشر، عندما تتناقص مئونتها من المُعيل الثاني، وبإمكان المعيلَين الثانويَّين أن يحتملوا قدرًا معتدلاً من تلك العُصيَّة فى مجارى دمائها، لكن عندما تتكاثر تلك العُصَيَّات وتغزو الجهاز التنفسى أو الجهاز العصبى للمعيل الثانى فإنه يموت، وعندها تسعى البراغيث إلى البحث عن مُعيل آخر، وأحيانًا ما يكون هذا المعيل هو الإنسان، والإنسان ليس معيلاً مفضلاً لعُصَيَّة يرسين، لكنه بالأحرى يكون ضحيةً لحيوان متوطن به، وواقع الحال أنه ضحية لمتغيرات فى إيكولوجيا الحشرات والقوارض جميعًا.

لدينا ثلاثة أنواع رئيسة من الطَّاعون؛ دُمَّلى bubonic ورئوى Pneumic وتعفُّنى septicaemic، ويعد الطاعون الدُّمَّلى هو النوع الأكثر شيوعًا؛ ولذا فهو أكثرها أهميةً، وتقدر فترة حضانته – من لدن العدوى إلى ظهور الأعراض الأولى– بستة أيام، ويبدأ ببثرة سوداء فى مكان لذعة البرغوث غالبًا ما تكون متقيحةً، يليها تضخُّم فى الغدد الليمفاوية بالإبطين أو الأربية (أصل الفخذ) groin، أو العنق تبعًا لمكان اللذعة، ثم نزف تحت الجلد يُفْضى إلى بقع أرجوانية تدعى خراريج buboes، ومن هنا يأتى مسمى ذلك

الطاعون، يتبعه نخر خلوى cell necrosis وتسمُّم للجهاز العصبي، تنتج عنه اضطرابات عصبية ونفسية، وربما يفسر ذلك طقوس الرقص الرهيبة التى كانت تصاحب الموت الأسود، ومع أن الطاعون الدُّمَّلى هو الأقل سُمِّيَّةً بين سائر الطواعين، لكن تتبقى له سُمِّيَّة عالية تفتك بما يتراوح بين الخمسين بالمائة إلى الستين من ضحاياه.

أما الطاعون الرئوي، فيتفرد بقدرته على الانتقال مباشرة من شخص إلى شخص آخر، ويعد ذلك من إحدى الزوايا نتيجةً لإتيولوجيته العجيبة، فهو يحدث عندما يكون هناك هبوط حادٌ فى درجات الحرارة، فتنتقل العدوى إلى الرئتين، وبعد فترة حضانة ليومين أو ثلاثة أيام يحدث هبوط فى حرارة الجسم، يصحبه سُعال عنيف وتصلُّد فى الرئتين وازْرقاق سريع وإفراز لبصاق بلون الدم، ويحتوى هذا البصاق على عُصَيَّة يرسين، وينتقل عبر الهواء مباشرةً من إنسان إلى آخر، ويتبع ذلك مشكلات عصبية وغيبوبة ثم موت تتراوح نسبته بين خمسة وتسعين بالمائة إلى مائة بالمائة؛ لذلك فالطاعون الرئوى وإن كان أقل تواترًا، إلا أنه أكثر فتكًا.

فإذا انتقلنا إلى الطاعون التعفُّني، نجد أوجه شبه بينه وبين الطاعون الدُّمَّلى من حيث نشأته، لكنه يصعب علينا تحديد مسبِّباته على نحو دقيق، ولم يتم الاستقرار بعدُ على تفسير كافٍ لظهوره العارِض فى بعض الطواعين. والمعلوم أنه فى حال الطاعون التعفنى فإن عُصَيَّة يرسين تقتحم مجرى الدم فى ضحاياه بأعداد هائلة، وخلال ساعات يحدث طفح جلدي، وتتحقَّق الإماتة خلال يوم واحد، حتى قبل أن تظهر الخراريج، ويتسم هذا الطاعون بكونه مميتًا فى الأحوال كافةً، لكنه غاية فى الندرة، وحيث إنه يكون حاضرًا فى مجرى الدم بكميات هائلة؛ يصير من السهل أن ينتقل إلى إنسان آخر عن طريق برغوث الإنسان P.irritans بل حتى عن طريق قملة الإنسان.

لدينا شروط بيئية عجيبة تحدد وجود الطواعين وشراستها؛ أولها إيكولوجية الحشرات والقوارض، فيفترض أن تعيش البراغيث والقوارض على مقربة من البشر، وأن يصاب البرغوث بالانسداد، أو أن تظل عُصَيَّة يرسين حيةً بجهازه الهضمي. وأن يموت المعيل الثانى قبل أن يتحرك البرغوث إلى معيل ثالث، وهنا يشترط أن يكون إنسانًا أكثر منه حيوانًا ثدييًا. ويلعب المناخ كذلك دورًا مهمًا؛ فلدى برغوث الجرذان X.cheopis من القوة ما تمكنه من العيش لمدة تمتد من ستة أشهر إلى عام واحد دون معيل من القوارض،

بل يمكنه أن يعيش فى الرَّوَث أو جُحْر مهجور من جحور الجرذان أو حتى فى بالات النسيج، لكنه لا ينشط إلا عند درجة حرارة تتراوح بين ١٥ إلى ٢٠ درجة مئوية تصحبها رطوبة تتراوح بين ٩٠٪ : ٩٥٪، فالبرد يحد من نشاط البرغوث، فى حين تعوق الحرارة من خصوبته، كما أن درجة رطوبة أقل من ٧٠٪ تقتله. وكانت تلك العوامل المناخية تقلص كثيرًا من تفشّى الطواعين فى فصول معينة فى أنحاء متفرقة من العالم الغربي، ففى أوروبا الغربية كمثال كانت الطواعين عادةً ما تبدأ فى أواخر الصيف وأوائل الخريف. ومن المهم بمكان التأكيد على أن تفشّى الطواعين يحدث فقط عندما يتهيأ عدد من الشروط البيئية.

ربما كان الطاعون أشد الأوبئة المُعْدية حدَّةً، لكنه – من الناحية التاريخية– كان تواتره أهمَّ بكثير من حدته. فلم يكن الطاعون ليأتى على نحو منفرد، إنما كان يأتى كجزء من جائحة طاعونية Pandemic أي سلسلة من الطواعين epidemics التى تهب على نحو حلقي، وهي تحدث عندما تكون عُصَيَّات يرسين قد مكنت لنفسها فى بؤرة محلية للقوارض كما نوهنا أعلاه، وترتبط بشروط مناخية وإيكولوجية. وعندما تصبح الجائحة الطاعونية جاهزةً، فإن الطواعين تتوالى بمسافات زمنية تتراوح بين عامين إلى عشرين عامًا تفصل بين الواحد منها والآخر. وبذا تقع مرةً واحدةً على الأقل لدى الجيل الواحد، وتقوم بدورها ككابح سكانى منظم، ويتفرد الطاعون بين سائر الأمراض الوبائية بكونه مميتًا على نحو عنيف ومتواتر.

تتوطن عُصَيَّات يرسين فى أجزاء معينة من العالم هى المستودعات الدائمة لها، ويطلق على هذه المستودعات "بؤر متأصلة" inveterate foci تشمل آسيا الوسطى وسيبريا وإقليم يونان Yunan فى بلاد الصين وأجزاءً من إيران وليبيا والجزيرة العربية وشرقى إفريقيا، وربما لم يكن لتلك البؤر وجود فى القارة الأوروبية، لكنها بحكم صلاتها التجارية بتلك المناطق الموبوءة والطبيعة الجغرافية للكتلة الأوراسية وحوض البحر المتوسط، فإنها كانت تقع على مقربة من تلك المستودعات. وقد اتخذ الطاعون فى أوروبا هيئتين: أولاهما ما يطلق عليها علماء الأوبئة تعبير "البؤر المؤقتة" temporary foci أى مستودعات تكفى لبقاء الطاعون لمدة طويلة مثل الجائحة الطاعونية السالفة الذكر، وعندما تتغير الظروف الإيكولوجية والإتيولوجية المحيطة بمجتمعات القوارض والبكتيريا تختفى تلك البؤر المؤقتة، والهيئة الأخرى هى بؤر قصيرة الأمد، وبؤر مثل تلك هى بؤر

عارضة لم يتم التمكين لها في مجتمعات الحشرات والقوارض، وتشمل أوبئةً مثل الطاعون التعفُّني – فهي تهاجم بشراسة وعنف، وتفتك بكل إنسان وبذا فهي لا تكون بحاجة إلى أية مستودعات في المستقبل – وأوبئة أخرى تأتي عن طريق السفن، وهي محدودة في انتشارها.

عصفت بأوروبا خلال العصور الوسطى جائحتان طاعونيتان، يحتمل أن أولاهما أتت إليها من شرقي إفريقيا عبر نهر النيل إلى مصر السفلى، ومنها إلى مناطق شرقي المتوسط[١١]، وعرف الطاعون الأول من تلك الجائحة الطاعونية الأولى بـ"طاعون جستنيان" Justinian[*] نسبةً إلى الإمبراطور البيزنطي المعاصر لذلك الطاعون، وكانت بدايته في عام (٥٤١م) بينما كان "جستنيان" مستغرقًا في محاولاته لاسترداد الأجزاء الغربية من الإمبراطورية الرومانية القديمة من الجرمان سادتها الجدد، وبخصوص ذلك الطاعون كتب المؤرخ بروكوبيوس Procopius[**]:

"خلال ذلك الزمان وقع وباء كاد يعصف بالجنس البشري كله، والآن ففي سائر البلايا التي هبطت علينا من السماء، قام رجال يتسمون بالجرأة على تفسير أسبابها، ومثلٌ كثيرٌ من النظريات التي أتى بها من لديهم حذقًا في مثل تلك الأمور؛ ذلك أنهم كانوا يخترعون أسبابًا يصعب على الإنسان فهمها ويصطنعون نظريات غريبةً في الفلسفة الطبيعية، مع أنهم يدركون أن ما يزعمونه هراء محض، وكان يكفيهم أن يخدعوا بعض من يلتقون بهم ويقنعوهم بوجهة نظرهم، على أنه يتعذر علينا أن نعبر عن هذه النكبة بكلمات أو أن نتصور في أذهاننا تفسيرًا لها عدا أن نرجعه إلى الله.

كانت البداية لهذا الطاعون عند المصريين المقيمين في بيلوزيوم Pelusium[***] ثم تحرك في اتجاه الإسكندرية وسائر الأراضي المصرية، ثم في اتجاهات أخرى؛ فحط على فلسطين التي تقع على تخوم مصر، ومن هناك انتشر في العالم بأسره، وكانت تتسارع

(*) (٥٢٧– ٥٦٥م)، وإلى جانب محاولته لإعادة الإمبراطورية الرومانية إلى ما كانت عليه في الماضي، اشتهر بجمعه للقانون الروماني وبنائه لكنيسة أيا صوفيا التي تحولت مع العثمانيين إلى جامع.

(**) (ت:٥٦٢م)، مؤرخ بيزنطي، ألف كتاب "التاريخ السري".

(***) الفرما، وتقع على مقربة من مدينة بور سعيد الحالية.

خطاه ويتقدم متى شاء، وبدا وكأنه يتحرك على نحو منظم، فيتلكأ بعض وقت فى كل بلد يرميها بحممه، لكنه كان ينتشر فى كل اتجاه يمضى به إلى نهاية العالم، وكأنه يخشى أن تفلت منه بقعة من بقاعه، فلم يدع جزيرةً ولا جبلاً يقيم بهما بشر، وإذا ما مرَّ فى طريقه بأرض لم يصب أحدًا من أهلها أو حتى لم يلمسه، فإنه يعاودها بعد يسير فلا ينجو منه أحد.

بالنسبة لغالب الناس، كان المرض يحدق بهم، وهم لا يعلمون هل هم فى يقظة؟ أم فى منام؟ فكانوا يصابون بحمىّ مفاجئة، البعض حالما ينهضون من نومهم، والبعض الآخر وهم منهمكون فى أعمالهم، ولا يبدو ثمة اختلاف فى لون البدن، كما لا ترتفع درجة حرارته كما هو متوقع مع الحمى ولا تلاحظ عليه أية التهابات، لكن الحمى لا تلبث أن تظهر على نحو هامد فى بدايتها وحتى المساء، بحيث لا تبدو على المرضى أنفسهم أو على أطبائهم لدى لمسهم إياهم ما يشى بخطرٍ ما، لكنه فى اليوم نفسه فى بعض الحالات، وفى اليوم التالى فى حالات أخرى تظهر دمامل فى ذلك الجزء من البدن الواقع إلى أسفل البطن ويدعى بالأربية وداخل الآباط، وفى بعض الأحيان إلى جوار الأذنين، وتظهر على الفخذين أورام كبيرة أو دمامل"[١٢].

خلال القرن السادس تحول طاعون جستنيان إلى ظاهرة عالمية؛ فقد اجتاح أواسط آسيا وجنوبيها وشمالى إفريقيا وبلاد العرب وأوروبا حتى تناهى إلى الدنمارك فى قاصية الشمال وإيرلندا فى قاصية الغرب، وكانت نسبة المَوَتان عاليةً، فى حين كان شرقى آسيا بنجوة منه، أما فى القسطنطينية وهى قصبة الإمبراطورية، فقد وصل الطاعون إلى ذروته فى المدة بين خريف (٥٤١م) حتى ربيع (٥٤٢م)، والمقول إنه فتك - خلال أربعة أشهر فحسب- بمائتى ألف من أهلها، أى ما يناهز الأربعين بالمائة[١٣]، كما كانت له نتائجه الهائلة فى إيطاليا وجنوبى فرنسا ووادى الراين وأيبيريا، واستمر حتى خريف (٥٤٤م)، ولدى نهايته كان قد أهلك ما بين خُمْس السكان جنوبى الألب إلى ربعهم، ومن الناحية السياسية فقد سدد ذلك الطاعون ضربةً كاسحةً للمشروع البيزنطى الخاص بفتح حوض المتوسط الغربي، وربما كان له دور فى إضعاف بيزنطة لدى مُدَافَعَتها للعرب بعد جيلين أو ثلاثة، ومن منظور الأمراض المعدية يُعد طاعون جستنيان هو المرض الوبائى الثالث الذى حل بأوروبا خلال أربعمائة سنة، وآخر ما أتى من تلك الأمراض من أراض مصاقبة للمحيط الهندى على مدى ألف عام.

هيأ طاعون جستنيان بؤرةً مؤقتةً لعُصَيَّة يرسين بين براغيث أوروبا وقوارضها، تكفي لأن تتوالى طواعين أخرى من الجائحة الطاعونية في هيئة حلقات تتراوح بين عشر سنوات إلى أربع وعشرين سنة على مدى مائتي عام[١٤]؛ فقد عاد الطاعون بين سنتي ٥٥٨م و٥٦١م مبتدئًا بمصر، ولم يلبث أن انتشر على طول الحوض الشرقي للبحر المتوسط إلى القسطنطينية، ثم يرتحل منها غربًا عبر موانى إيطاليا إلى رافنا Ravenna وجنوة وجنوبى فرنسا، ثم يعاود الكرَّة بين سنتى ٥٨٠ م و ٥٨٢م ثم ٥٨٨م إلى ٥٩١م، وفي تلك المرة الأخيرة ينطلق من إسبانيا إلى جنوبى فرنسا وإيطاليا على عكس النمط المعتاد لانتشاره، ولدينا من الدلائل على تفاقم الطواعين الثلاثة الأخيرة مع مقدم الحصبة. أما عن الطاعون السادس الذى أتى في عام ٥٩٩-٥٦٠ م فقد اتخذ مقامه في إيطاليا وجنوبى فرنسا، ليصبح أكثر الطواعين فتكًا بعد طاعون جستنيان، فقد أودى بحيوات خمسة عشر بالمائة من جملة السكان.

بعد ذلك الطاعون كانت الطواعين التالية من الجائحة الطاعونية الأولى أقل فتكًا، وإن كانت قد تواترت، وأصابت جهات واسعةً من أوروبا المتوسطية في الأعوام ٦٠٨، ٦١٨، ٦٤٠[*]، ٦٥٤، ٦٨٤-٦٨٦، ٦٩٤-٧٠٠، ٧١٨، ٧٤٠-٧٥٠م)، كما كانت هناك طواعين محلية انتشرت في صقلية وكلابريا Calabria[**] سنة (٧٤٦م)، وفى نابولى وجنوبى إيطاليا سنة (٧٦٢م)، ويتَّضح من هذين المثالين أن الطاعون كان يقتصر على مكان محدد، مما يفترض معه أنه أتى في صحبة سفن أجنبية، وأن عُصَيَّة يرسين لم تعد متوطنةً في مجتمعات القوارض المحلية، وربما نشأ ذلك عن طفرة ألمَّت بتلك العُصَيَّة، أو تغيير في إيكولوجية الحشرات والقوارض، ولدى نهاية القرن الثامن كانت الجائحة الطاعونية الأولى قد شارفت نهايتها.

(*) ويتوافق هذا التاريخ تقريبًا مع طاعون عَمَواس، وهي بلدة صغيرة في فلسطين أتاها الطاعون في سنة (١٨هـ / ٦٣٩م) وفتك - فيما يُروى- بخمسة وعشرين ألفًا من الأجناد المسلمين: بينهم القائد الكبير أبو عبيدة عامر بن الجراح. تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩م، جـ٤، ص ٦٠ ، ٩٦، ١٠١ ومن غريب أنه في العام ذاته وقعت المجاعة في بلاد الحجاز: لذا فقد دعى ذلك العام بـ "عام الرمادة".

(**) تدعى في الموارد العربية "قِلَّورِيَة".

تتسم الجائحة الطاعونية الأولى بارتباطها بحوض البحر المتوسط وبكونها فى أساسها جائحة دُمَّلِيَّة، وخلَّفت آثارًا لا تمحى على القارة الأوروبية فى مستهل عصورها الوسطى، وحيث إنها كانت تتوالى بين حين وآخر: فقد أبقت مستويات الكثافة السكانية أقل مما كانت عليه فى عام ٥٤١م، أى قُبيل الطاعون، ويحدد المؤرخ الديموغرافى "راسل" J. C. Russell نسبة من هلكوا من ضحايا تلك الجائحة بما يتراوح بين ٥٠٪ : ٦٠٪ من جملة السكان[١٥]، وأصيب المعاصرون لها بحالة من الذهول، شأنهم فى ذلك شأن نظرائهم فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وانصرفوا إلى تفسيرها بتأويلات للكتاب المقدس، وعزيت نسبة الموَتَان العالية إلى مشيئة الله، فتصاعدت الحجات إلى الأضرحة المقدسة، كما تصاعدت مظاهر التقوى، وبدت الكنيسة وكأنها حظيت بنفوذ أوسع، ولا يتوافر لدينا سوى اليسير من الإحصائيات التى يمكن من خلالها أن نقيس تأثير تلك الطواعين على الاقتصاد والمجتمع، لكنه يتأكد لنا أنها عوَّقت التجارة وطرقها، كما أنها غيَّرت من الغذاء وأنماطه وكانت عنصرًا رئيسًا فيما ران على أوروبا من تخلف خلال العصور المظلمة(*).

ظلت أوروبا منذ أواخر القرن الثامن حتى منتصف القرن الرابع عشر بنجوة من معظم الأمراض الوبائية[١٦]. وإن عرفت أحيانًا أوبئةً معزولةً أو أُحادية مثل الطاعون غير محدد الهوية والذى اكتسحها فى عام (٨٧٣م)، وأهلك نحو عشرة بالمائة من سكان إنجلترا وفرنسا. وكانت غالب الأمراض المعدية متوطنةً بها، أو إنها كانت ترتبط بمجاعة، أو سوء فى التغذية، أو أمراض نبات: مثل ذلك الوباء الذى أصاب الحنطة ودعى بـ "داء القديس فيتوس" St.Vitus(**)، وقد ضرب أوروبا عدة مرات بين منتصف القرن العاشر حتى منتصف القرن الحادى عشر، وبذا لم تشهد أوروبا طاعونًا أتى على نحو كاسح حتى عام (١٣٤٧م)، كما أن الجدرى والحصبة كانا يرتبطان بصغار السن، وحيث إن أمراض الطفولة لم تكن بذات أهمية فى ديموغرافية العصور الوسطى؛ فإن تأثيرها كان محدودًا على المجموع الكلى للسكان. أما عن النزلة الوافدة والتيفوس واللذين عانت منهما أوروبا فى أواخر القرن الخامس عشر وطيلة القرن السادس عشر، فلم يكن قد تحقق لهما ذلك

(*) أى المرحلة الأولى من العصور الوسطى، وتمتد من سنة (٤٠٠م) تقريبًا حتى سنة (٩٠٠م) تقريبًا.

(**) قديس إيطالى يحيط الغموض بحياته، مات من التعذيب فى عهد الإمبراطور "دقلديانوس" (٢٨٤-٣١٣م)، وكان يُستغاث به من بعض الأمراض.

التأثير الكاسح بعدُ، وبذا فقد وصلت أوروبا خلال القرون من التاسع إلى الرابع عشر إلى أقصى مداها ديموغرافيًا واقتصاديًا.

كان الجُذام Leprosy أو ما يعرف بمرض هانسن Hansen(*)، أهم الأمراض المعدية التي أصيبت بها أوروبا منذ القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر(١٧)، وهو ينجم عن عدوى مزمنة تتنامى على مدى سنوات، ونادرًا ما كان يؤدى إلى موت ضحاياه، ومع ذلك فقد كان يخلّف في مرضاه معاناةً وآلامًا لعشرات السنين، يتعرَّضون خلالها لاضطرابات عصبية ومعوية. والجُذام في حَدِّ ذاته ليس من الأمراض السارية Contagious(**)، لكنه بحكم ما كان يُلْحِقُه بضحاياه من تشوُّهات وتعفُّن يُعدُّ مَرَضًا مُخيفًا، فيُصاب المريض بتعفُّن في وجهه تضيع معه ملامحه، كما يُصاب بتعفُّن في أطرافه، وتصاحب هذه الهيئةَ البشعة ريحٌ كريهة تنجم عن الأُكلة (غنغرينا) الأمر الذى كان يجعل من هذا المرض وضحاياه مصدرًا للرعب والفزع.

لم يكن المجتمع في العصور الوسطى بقادر على أن يهيئ للمجذوم العلاج الوقائى ولا العلاج الشافي، وكان البديل المُفضَّل هو العزل؛ ففَوْر تشخيص المرض يصير المجذوم شخصًا ميتًا، ويقام له قداس جنائزي، وتجرَّف الأرض تحت قدميه دلالة على مفارقته هذا العالم الذى يعيش فيه، ويتم نقله إلى مشفى للجذام؛ حيث يتم عزله عن مجتمعه بمن فيه أقرباؤه وأصدقاؤه ويقضى فيه بقية أيام حياته. وكانت المَرَاجع الطبية في معظمها تعتبر ذلك المرض قَدَرًا من السماء، وبذا لا يحظى المريض بأية عناية. ولم نجد سوى طبيب واحد فقط تفرَّد عن غيره من الأطبَّاء في موقفه من هذا المرض هو الطبيب الإنجليزى "جلبرتوس أنجليكوس" Gilbertus Anglicus(***)، الذى عاش في القرن الثالث عشر، فلدى ملاحظته على مدى سنوات لعدد من المجذومين، ينتهى إلى أن الجذام ليس مرضًا من اليسير انتقاله، وأنه في أساسه ابتلاء من الواجب التعامل معه، كما يتعامل مع

(*) نسبة إلى "أتما وير جرهارد هانسن" Atmauer Gerhard Hansen (1841-1912م) الطبيب الأوروبى الذى اكتشف عُصَيَّة الجذام في (١٨٧٩م).

(**) أي الأمراض السريعة العدوى.

(***) (ح ١١٨٠ - ح ١٢٥٠ م)، ويعرف أيضًا بـ "جلبرت الإنجليزي"، وهو طبيب اشتهر بكتابه: الخلاصة Compendium في الطب، ويجمعه بين الطب والجراحة.

الأمراض العصبية الأخرى، وحيث إنه كان ينحو نحوًا تجريديًا، فقد اقترح طُرقًا بعينها، من أجل أن تتوازن "أخلاط البدن"، وهى العلاج المفضل الذى ورثته أوروبا فى العصور الوسطى من اليونانيين. وبذا كان العزل هو الوسيلة المثلى للتعامل مع هذا المرض وربما كان أكثرها إنسانية.

لم يكن الجذام فى حد ذاته مرضًا فتاكًا، كما كان تأثيره الديموغرافى محدودًا، ولا يمكن بأية حال مقارنته بالطاعون أو الجدري، والأحرى أنه كان ظاهرةً ثقافيةً مهمةً أُدخل فى عالم النفس والفن والدين. واعتبرت الكنيسة المجذومين أنجاسًا، وصار الجذام يعرف بـ "مرض الروح".

وبسبب عزلتهم القسرية أضحت الهوية القانونية للمجذومين ملتبسةً، وفى عديد من المدن فى شمالى إيطاليا كان يستدعى محامو الكنيسة للتداول فى شأن ممتلكات المجذومين وبيعها، وصدرت لوائح فى عدة مدن من الراينلاند(*)، بما فيها تريير Trier ومايننس Mainz لتنظيم الحياة اليومية للمجذومين؛ فكان يحظر عليهم الاختلاف إلى الكنائس والأسواق والحوانيت وغيرها من الأماكن العامة. كما أنه ليس لهم أن يغتسلوا أو يشربوا من أى مصدر عام للمياه، وأن يختصوا بلباس معين يميزهم عن غيرهم، وليس للمجذوم أن يلمس شيئًا إلا بقضيب، وليس من حقه أن يدخل حانةً أو خانًا، ومُنع المجذومون من ممارسة الجنس حتى مع زوجاتهم، كما منعوا من دخول المبانى العامة بدون قفَازات وأحذية تلازمهم طوال الوقت، بل وأن تكون أنفاسهم بعيدةً عمن يتخاطبون معهم.

بدأت الإصابة بالجُذام تزداد بين القرنين الثامن والثالث عشر. ووصل المرض إلى ذروته فى مطالع القرن الرابع عشر، ثم اختفى تمامًا زهاء عام ١٤٠٠م، وطرحت العديد من النظريات لتفسير ظهور ذلك المرض فجأةً ثم اختفائه فجأةً: فعادة كان يجرى الربط بين ظهوره وبين ما كان يجرى فى المجتمع من تطورات. فالزيادة فى أعداد السكان تفترض زيادةً محتملةً فى أعداد المجذومين، لكنه من الصعب تفسير اختفائه، وقد تعددت النظريات فى هذا الشأن[١٨]. وتفسره إحداها بالموت الأسود وأنه اكتسح كذلك معظم

(*) أى بلاد الراين فى ألمانيا الحالية.

المجذومين. كما كان للطواعين المتلاحقة من الجائحة الطاعونية الثانية تأثير مشابه، ولم يأت عام ١٤٠٠م إلا وقد هلك معظمهم. وهناك نظرية أخرى تعزو ذلك الاختفاء إلى ما جرى من تقدم في مجال التحليل الطبي؛ فالجذام بما فيه من طفح جلدي، يعلن عن نفسه على نحو مماثل لأمراض جلدية كثيرة. ويذهب بعض الباحثين المحدَثين إلى أن المدونات التاريخية الوسيطة وإخبارييها كانوا يطلقون – وببساطة– على كل من لديهم أمراض جلدية تعبير مجذومين، بصرف النظر عن كون هذا المرض جدريًا أو حصبةً أو مجرد طفح جلدى أو غُدَّة (حب الشباب) وفى أواخر القرن الرابع عشر كان الأطباء – بل حتى الجراحين والعقاقيريين Apothecaries[*]– أكثر حِنْكةً فى تشخيصهم؛ فتارةً ينصحون بالعِلق الطفيلى leechbooks ومستحضرات صيدلانية شتى لأمراض جلدية شتى، وكانوا أكثر دقةً فى تعاملهم مع مرض هانسن[١٩].

لدينا كذلك نظرية تفسر اختفاء الجذام، وهى ترتبط بظهور السُّلّ الرئوي؛ فقد كانت المناعة منه وفى ظل ظروف معينة تُفضى إلى قَدْر من المقاومة لمرض هانسن. ويذهب "ماكنيل" إلى أن السُّلّ الرئوى بوسائله السريعة للانتشار كان يصيب أعدادًا أكبر ممن يصيبهم الجذام الذى كان أدنى فى عدواه[٢٠]، وبالتالى تصير لدى الناجين منه درجة من المناعة ضد الجذام. وهناك نظرية رابعة تُنوِّه إلى ما جرى من تحسُّن فى الخدمات الصحية خصوصًا فى المناطق الحَضَرِيَّة، بينما تُنوِّه نظرية خامسة إلى الاستهلاك المتزايد لفيتامين(ج). وأيًّا كان السبب فإنه – باستثناء أقاليم قليلة منعزلة بالنرويج وبولندا– قد تقلَّصت حالات الجذام بوضوح، وأغلقت العديد من دور المجذومين، وتحول اهتمامها إلى أمراض أخرى خصوصًا الطاعون، أو تحولت إلى مأوى لكبار السن والفقراء.

مع منتصف القرن الرابع عشر كان العهد بخُلو أوروبا من الأمراض قد انقضى، ولكن بعد أن ارتفعت أعداد سكانها بين القرن العاشر ومنتصف القرن الثالث عشر من ٧٥ إلى ٨٠ مليونًا: أى بنسبة تصل إلى ثلاثمائة بالمائة، وهى أعلى نسبة خلال ألف عام[٢١]، وتوسعت إمبريالية العالم المسيحى العسكرية شرقًا إلى روسيا وأقطار البحر البلطى وبحر الشمال، وباتت تلك البلاد مرتبطةً بالقارة. على أنه يصير مهمًا – من منطلق علم

(*) ويأتى الحديث عنهم فى الفصل السادس.

الأوبئة- أن نشير إلى ما نشأ من صلات حميمة بين أوروبا وبين آسيا وإفريقيا؛ فمن أجل سبيكة من الذهب، كان على التجار الإيطاليين أن يلجئوا إلى الوسطاء العرب للوصول إلى ذهب الصحراء، وقامت سفن كبيرة وقوافل بالرحلة إلى جنوبي آسيا ووسطها للظفر بالسلع الفاخرة والتوابل، وكان الكثير منها يأتى عبر وسطاء من الشرق الأوسط. لكنه منذ القرن الثاني عشر فصاعدًا صار الأوروبيون يقومون بدور أكبر ومتنام فى تلك التجارة، وانتعشت الصّلات بين الشرق والغرب أكثر من أى وقت مضى، تلك الصلات وإن كان لها مردودها الإيجابى على التجارة، إلا أنها غيَّرت من توازن الأمراض المعدية وأنماطها، فبعد أن كانت بيئة المرض في أوروبا قد استقرت[٢٢]، ولم يعد للجدرى والحصبة والملاريا والجذام وأمراض أخرى قليلة سوى وجود محدود، كما اختفى الطاعون وهو أشد الأوبئة فتكًا، إلا أنه - وفى غضون القرن الثالث عشر- حدثت تغيرات في المناخ، كان من شأنها أن تؤثر فى إيكولوجية الحشرات والقوارض فى أوراسيا، وفى الوقت ذاته بدأت القبائل المغولية اجتياحها لآسيا الوسطى .. وقد أفضت تلك العوامل عندما نربطها بما جرى فى أوروبا وقتذاك من تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية إلى تغييرات حاسمة فى تاريخ الغرب.

الفصل الثانى

البيئة الأوروبية (١٠٥٠-١٣٤٧م)

كان العنصر الدافع وراء ما جرى من تطورات فى العصور الوسطى العليا High Middle Ages أى الحقبة التى تمتد من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر هو – وبلا منازع– ذلك النمو الثابت للسكان، وقد حظيت تلك الزيادة السكانية التى أعقبت قرابة السبعمائة سنةٍ من الركود باهتمام العديد من الباحثين، ومع أنهم يختلفون فى تقدير أهميتها، فإنهم يتفقون فى طائفة من الأسباب التى أدت إليها؛ فبداية نجمت خلال القرنين العاشر والحادى عشر مجموعة من المستحدثات فى الزراعة وتقنياتها انتهت إلى فائض زراعي[1]، يتضمن محاصيل جديدة، فضلاً عن ثلاثية زراعية للحقول، وظهور نوعيات جديدة من السروج يسَّرت من استخدام الجياد كدواب جر، بدلاً من الثيران، وابتكار مصادر جديدة للطاقة كطواحين الهواء وطواحين الماء. وأعان على ذلك ما جرى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر من استقرار سياسى عَمَّ القارة الأوروبية بأسرها، وهو ما لم تعرفه أوروبا منذ العصر الكارولنجي[*] فى القرن الثامن، وقد بدأ ذلك الاستقرار مع تنامى سلطة الملوك والحكومات الأرستقراطية، وتصاعُد قُواها العسكرية، وأضحت أوروبا – وبعد معاناة على مدى مائتى سنة– بمنأى عن أية غزوة خارجية. وأخيرًا ما طرأ من توازن فى مجال الأمراض، الأمر الذى نوَّهنا إليه فى موضع سابق، وبذا أصبحت أوروبا –وعلى نحو واضح– بمأمن من الأمراض؛ ونتيجةً لذلك فقد ارتفع تعداد سكانها من خمسة وعشرين مليونًا فى سنة ٩٥٠م إلى خمسة وسبعين مليونًا فى سنة ١٢٥٠م،

(*) نسبة إلى الإمبراطور "شارلمان"Charlemagne (٧٦٨-٨١٤م)، ويمتد ذلك العصر من ٧٥١-٨٤٣م.

وكانت نسبة الزيادة فى أقاليم بعينها أعلى منها فى أقاليم أخرى غيرها: ففى بعض من أنحاء فرنسا وصل النمو السكانى إلى ١٪ سنويًا، وهى نسبة عالية فى مجتمع ما قبل العصر الحديث(٢)، كما كانت النسبة أعلى كذلك فى بعض المناطق الحدودية. ويذهب باحثون كُثْر إلى أن عدد السكان فى شرقى ألمانيا وصل فى نهاية تلك الحِقْبة إلى أربعة أضعاف أو خمسة(٣).

صاحَبَ ذلك النُّمو السُّكَّانى وسرَّعت به تطورات مهمة طرأت على المجتمع والاقتصاد معًا: فقد سادت تلك العصور ما يعرف بـ"نظرية الوظيفية الثلاثية" triumfuctionality أى التقسيم الثلاثى التَّراتبى hierarchical للطَّبقات. وقد تمَّ طرح تلك النظرية لأول مرة خلال القرن الحادى عشر على أيدى بعض رجال الكنيسة الفرنسيين – وبخاصة "أديلبرتو" Adelberto(*) من لاءون Laon، و"جيرار" Gerard(**) من كامبراى Cambrai – وكانت مصالح هؤلاء تتفق مع مصالح الملوك من أسرة كاپيه Capet(***) الذين كانوا يحكمون مجتمعًا منظَّمًا تنظيمًا جيدًا ومستقرًا(٤): فالطبقة الأولى هى طبقة الخطباء oratores أو رجال الدين، ويتحدد دورهم فى منح البركة المقدسة لكل إنسان من خلال الصلاة وصالح الأعمال، وحيث إن كثيرًا منهم كانوا قد حظوا بسَهْم وافر من التعليم، فقد تقلَّدوا العديد من الوظائف فى الجهاز الإدارى بالدولة، والطبقة الثانية هى طبقة المحاربين bellatores أى النخبة العسكرية، ويتحدد دورهم فى الدفاع عن الوطن، والطبقة الثالثة هى طبقة العاملين laboratores، وهم عامة الناس الذين يقومون على خدمة الطبقتين الأولى والثانية، وكان هؤلاء العاملون فى القرن الحادى عشر عمالاً زراعيِّين agricolae، rusticae بالدرجة الأولى، لكن – منذ القرن الثانى عشر– بدأت فى الظهور أقلية من سكان المدن عمال وتجار، هى التى صارت تدعى "البرجوازية" bourgeoisie، لم تلبث أن تصاعدت أهميتها وازدادت أعدادها. هذا وقد هيأت تلك الوظيفية الثلاثية مجتمعًا منظمًا ومتجانسًا، يسوده

(*) (ت: ١٠٧٢م)، كبير أساقفة بريمن وهامبورج.

(**) (١٠١٢-١٠٥١م)، نبيل ورجل دين، كان مقربًا من "هنرى الثاني" إمبراطور ألمانيا، كما كان له دور بارز فى مناهضة الهرطقات السائدة فى عصره.

(***) حكمت فرنسا بين عامى (٩٨٧-١٣٢٨م)، كما حكمت فى نابولى بين عامى ١٢٦٥-١٤٣٥م، والمجر بين عامى ١٣٠٨-١٣٨٢م.

الاعتماد المتبادل، ويحفظه نائب الله على الأرض أي الملك، ويزعم هؤلاء أن ذلك ما هو إلا جزء من غاية إلهية تُعين عليها وسيلة مهمة من وسائل الاتصال في ذلك الزمان هي منبر الوعظ.

وحيث إن معظم الثروة في أوروبا، حتى بعد التَّوسُّع الحضري في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت تأتي من الأرض الزراعية؛ فقد تحدَّدت لكل من الأرستقراطيين والعمال الزراعيين مهامُّهم؛ فكان هؤلاء العمال فلاحين يمارسون حياتهم وفقًا لنظام الضَّيْعة manorial system، واتخذ ذلك النظام خلال القرن الحادي عشر هيئته الأخيرة: فكان هؤلاء الفلاحون في معظمهم مستَأْجَرين غير أحرار، أو أقنانًا يحوزون أرضًا تقع تحت سيطرة الأرستقراطية العسكرية التي إليها كان ينتمي الملوك، وعلى الرغم من ادعاءات أنصار الوظيفية الثلاثية، فحتى زهاء عام (١٢٠٠م) تقريبًا كان الملك لا يتميز عن غيره من الأرستقراطيين إلا بكونه الأول بين أكفاء primus inter pares، في حين كانت السلطة السياسية الحقيقية منوطةً بمُلاك الأراضي المحليين، ولما كان هؤلاء يخوضون معاركهم مدجَّجين بالسلاح على ظهور جِيادهم؛ فقد كانوا في حاجة إلى وقت، وفي حاجة كذلك إلى موارد لازمة لصَقْل مهاراتهم والنفقة على حروبهم باهظة التكاليف. ولم يكن هناك أفضل من الفلاحين الخاملين الأذلاء للوفاء بتلك الحاجات، وبذا فإلى جانب عجزهم عن حماية أنفسهم أصبح غالب الفلاحين في أوروبا من غير الأحرار.

لم يكن الفلاحون يمتلكون الأراضي التي يزرعونها[٢]، والصحيح أنهم يقومون بزراعتها مقابل ثلاثة شروط؛ أولاً أن يؤدوا لساداتهم أُجْرةً عن الأراضي الصالحة للزراعة arable، أي الأراضي التي تتم زراعتها داخل الحقول، ومن الدور والبساتين التي يحوزونها في الضَّيْعة، وثانيها خضوعهم للسُّخْرة في تلك الأجزاء من الضيعة التي تُعْرف بالدَّوار demesne(*)، وكان السيد يحتفظ بالعائد من الدَّوار لكنه لا يقوم بزراعته بنفسه، أي إن الفلاحين كانوا يزاولون العمل فيه مجانًا، ولدينا جانب آخر لخدمات العمل تتمثَّل فيما يُعرف بالعمل المبارك؛ أي عمل هؤلاء الفلاحين في الدوار خلال موسم الحصاد وربما قبل حصاد محاصيلهم الخاصة، وثالثها أن يخضعوا لالتزامات أخرى تشمل ضرائب

(*) كان يعرف عندنا في القرن التاسع عشر وعلى المستوى الرسمي بـ"الدومين".

دورية عن التركات وإشهار الزواج فضلاً عن رسوم يؤدونها نظير استخدام طواحين السيد.

بدأت تلك الالتزامات تتغير فى الشطر الأخير من القرن الثانى عشر، وذلك مع ظهور طريقة جديدة للإعفاء من الالتزامات الإيجارية: ففى القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر، كان معظم الفلاحين يؤدون قيمة إيجاراتهم "نوعًا"؛ أى من الطعام أو غيره من السلع المادية، لكنهم زهاء عام (١٢٠٠م) صاروا يؤدونها نقدًا، مما يحصلون عليه من عائد بيع سلعهم الزراعية الزائدة عن حاجاتهم، وعادةً ما كان يتم ذلك البيع لسكان المدن، وتعود نشأة تلك المدن إلى ما جرى من نمو سكانى متواصل.

هناك تطور آخر فى نظام الحيازة، هو ما تم من حرية أو حرية جزئية لقسم كبير من الفلاحين، فكان من الممكن الحصول على تلك الحرية بإحدى طريقتين: الأولى نقدًا من خلال ما يتقاضونه نظير بيعهم مواد غذائية، فتتهيأ لهم الفرصة بالتالى لدفع البدلية فى مقابل إعفائهم من خدمات العمل، ولا يعنى ذلك إعفاءهم من الإيجار؛ فما تزال الأرض فى قبضة السيد باعتباره المؤجر الأصلى لها، ومن واجب الفلاح أن يؤدى تلك الأجرة مقابل استغلاله لها.

تتمثل الطريقة الثانية للحصول على الحرية فى اقتلاع الغابات أى التوسع الطبيعى للأراضى القابلة للزراعة، وقد تمَّ ذلك خلال القرون من الحادى عشر إلى الثالث عشر، ويتضح ذلك التوسع على نحو خاص لدى السهل الأوروبى الشمالي؛ حيث كان يتم تجفيف المستنقعات وإقامة السدود على سواحل بحر الشمال والبحر البلطي، وتقطيع الأشجار النفضية والصنوبرية الكثيفة، وكانت تلك العملية الأخيرة تتم أحيانًا على حوافِّ الضِّياع فى المناطق القديمة العهد بالاستقرار، لكن معظمها كان يتم فى أراضٍ تقع على تخوم العالم المسيحي، وكان فى إمكان السادة أن يكونوا مُلاكًا لتلك الأراضى الجديدة أو مستأجرين أساسيين لها على الأقل، لكنه كما كانت الحال دائمًا كان ذلك من شأن الفلاحين الذين ينهضون وحدهم بالعمل الحقيقي، فكانت الوسيلة الوحيدة لمعظم الفلاحين الراغبين فى النزوح إلى مناطق التخوم، أن يعطوا أرضًا كحيازة حرة، ما دام فى إمكانهم أن يدفعوا إيجارها، وهو أمر لم يكن متاحًا لبعضهم، إذا هم استمروا مقيمين فى أقاليمهم الأصلية.

وكان هناك طلب متزايد على الفلاحين الهولنديين ذوى الخبرات العالية فى زراعة الأراضى المغمورة بالمياه، واستقر كثيرون منهم خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر بالمناطق البرية فى شمال شرق أوروبا، وهو عين ما نهض به الرواد الأمريكيون فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وكانت تلك الأراضى تتلاءم على نحو مثالى مع زراعة الحبوب، وبمجرد ما كان يتم تجفيفها وزراعتها ثم حصادها، فإنها تصبح أهراءً رئيسةً للغلال، خصوصًا بالنسبة لتلك المدن الواقعة فى الراينلاند والبلاد الواطئة.

كان تقطيع الأشجار أى التوسع في الأراضى الصالحة للزراعة بالضياع الكبيرة أقل رومانتيكيةً، لكنه ربما بدا أكثر أهميةً من التوسع عند الحدود، فكان الفلاحون الذين كانت لهم أسر كبيرة ويفضلون البقاء حيث هم، يتطلعون إلى ما تبقَّى من شُجيرات قصيرة ومروج وأراض غابية أكثر مما يتطلعون إلى الفضاءات المفتوحة في الشرق، فكان يتم ببساطة إلحاق الأراضى المجاورة بالحقول القائمة بالفعل، والأهم من ذلك أنه كان فى إمكانهم أن يحوزوها حيازةً حرةً، وبما أنها لم تكن تزرع حتى الأمس القريب، فلم يكن يتقرر عليها سوى اليسير من الالتزامات المعهودة، ولما كان السادة لم يكونوا ليتحصلوا على شيء منها قبل استصلاحها، فإنهم كانوا يؤثرون أن يحصلوا على أجرة ثابتة منها والتخلى عن التزامات العمل التقليدية؛ فالقليل أفضل من لا شيء، وبذا تهيأ للفلاحين الذين لم يتهيأ لهم أن يلحقوا بحركة الرواد، أو ليس لديهم ما يكفى لشراء البدلية، أن يستمتعوا بقدر من الحرية فى تلك الأراضي. ومن المهم لنا أن نكرر بأن كل هؤلاء الفلاحين "الأحرار" وحتى الرواد واصلوا دفع الإيجار؛ حيث لم يكن ليمتلك أى منهم فى حقيقة الأمر أيًا من الأراضى التى صاروا يفلحونها، ومع ذلك فقد تخلصوا من أشد الأمور مشقَّةً؛ وهو العمل غير المدفوع الأجر.

أتاح الناتج من المزارع الجديدة فائضًا غذائيًا، ومع أن سكان أوروبا واصلوا نموهم بخطى حثيثة، فإن معظم الباحثين يعتقدون أن المواد الغذائية -لا سيما الحبوب- كانت تزداد بمستويات أعلى، وكانت الابتكارات الزراعية التى تمَّت خلال القرنين العاشر والحادى عشر - والتى تم تطبيقها على التربة العذراء الغنية- قد زادت من إنتاجية حصيلة البذور (أى عدد الحبوب التى يتم حصادها من حبة واحدة يتم بذرها) من اثنتين أو ثلاث مقابل واحدة إلى خمس أو ست أو سبع أو حتى ثمانٍ مقابل واحدة[9]، وقد ظلت الكربوهيدرات

هي المكون الرئيس للطعام في أوروبا طيلة القرن الثاني عشر ومطالع القرن الثالث عشر؛ فقد كان البروتين - والحيواني منه خاصةً - على قدر من النُدرة النسبية، بحيث كان معظم الفلاحين في شمالي أوروبا يبدأون يومهم بتناول إفطار؛ يتألف من الثريد Porridge(*)، ثم يتناولون في الغذاء خبزًا وربما قطعة من الجبن والمزر ale(**)، والعدس في العشاء، وكانوا يُلحقون بطعامهم شرائح من الرنجة والخضروات ولحم خنزير مدخن ولبن وَعْيَدر eider(***)، يضاف إليها - ولكن في إبان الأعياد - لحم البقر أو الغزال أو الدجاج أو الخنزير الطازج. وفي سائر الأنحاء بحوض البحر المتوسط كان الطعام يتفاوت بعض الشيء في النوع، ولكن ليس في تكوينه الغذائي؛ فكان يتم تناول النبيذ ولحم الضأن ومشتقات زيت الزيتون في بعض الأحيان، لكن كانت هي منتجات الحبوب التي تشكل الطعام الرئيس، وربما كان معدل استهلاك السعرات الحرارية للفرد الواحد أعلى مما كان عليه فيما سلف من قرون، فقد كانت أوروبا تنمو من كل ناحية.

في أواخر القرن الثاني عشر طرأت تطورات أخرى أساسية على نظام الضيعة: فكان كثير من السادة بعد حصولهم على البدلية يتخلون عن زراعتهم المباشرة لضياعهم: فمهما كانت قوة السيد، كان التحكم في عمال متذمرين أمرًا صعبًا، وبسبب نَفاق سوق الطعام الذي صاحب الفوائض الزراعية الجديدة، أصبح من البساطة بمكان أن يقوم المُلاك بـ"إجهاد" أراضي الضيعة بأسرها، بمعنى إدخال الدوَّار في نظام الحقل العام الذي يقوم الفلاحون بزراعته كله لصالحهم وحدهم، وإحلال الدفع النقدي مقابل خدمات العمل، وبذا أصبح السادة في واقع الحال أشبه بأصحاب الأسهم الذين يحصلون على دخول ثابتة من ممتلكاتهم أكثر من زراعتهم المباشرة لها.

دفعت تلك التطورات في الاقتصاد الريفي إلى التسريع في نمو اقتصادي مطَّرد هيأ حافزًا لمكاسب فردية ملموسة، ولم يعد لنظام الضيعة ذلك الدور المؤثر والفَعَّال، كما لم يعد في إمكان فلاحي الضِّياع الذين يحصلون على أراض مقابل رسوم ثابتة ثم لا يتلاءمون

(*) وتصنع من الشوفان.

(**)شراب شاع في العصور الوسطى وهو أشبه بالجعة (beer).

(***) طير أشبه بالبط.

مع شروط السوق الجديدة أن يحصلوا على فرصة لتعظيم مكاسبهم. على أنه وعلى الرغم من ذلك فقد أفضت التطورات الاقتصادية لنظام الضيعة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر إلى تعديل ذلك كله؛ فقد شجع النمو السكانى والزيادة فى استهلاك الفرد الواحد للطعام على زيادة الإنتاج. الفارق هنا يكمن فى الزراعة المتقدمة؛ حيث إن أى فائض غذائى يمكن أن يباع مع قدر من المكسب، إذن فقد نما اقتصاد السوق فى أنحاء الريف الأوروبى كافةً فى ثمانينيات القرن الثانى عشر.

أدى الازدهار الذى حققه الاقتصاد الريفى فى أوروبا إلى قيام ثورة حضرية حقيقية[٧]. فكان توافر فائض غذائى وزيادة سكانية يعنيان أن قليلاً من الناس هم الذين كانوا يضطرون إلى الإقامة فى أرضهم، وكان هناك تخصص متزايد فى الإنتاج غير الغذائى لا سيما فى المناطق التى لها منافذ على الأنهار الكبيرة أو البحار – فقد كان النقل البرى للسلع غير المعبأة كالمواد الغذائية بطيئًا ومحفوفًا فى الوقت نفسه بالمخاطر، الأمر الذى كان يقلّل من عائده – أو الأراضى التى كانت أقل ملاءمةً لأن توجد بها مزارع. وفى الواقع قد نمت مدن مهمّة ومستوطنات ريفية، وتأسست مدن جديدة زاهرة أشهرها فى شمال إيطاليا ووسطها وفى البلاد الواطئة وشمالى ألمانيا، وتضاعفت طرق التجارة القديمة، وأقيم الجديد منها وكانت السلع المستقدَمة من آسيا والشرق الأوسط يحملها تجار إيطاليون إلى أسواق أوروبا بأسرها، ونشأت جماعات تجارية وصناعية هى التى نعرفها بـ"البورجوازية" التى كان لديها من الأموال السائلة أكثر مما كان لديها من أراض كأصول تمتلكها، وجرت تطورات مصرفية وائتمانية فى إيطاليا، وأضحى فى إمكانها لدى أوائل القرن الثالث عشر أن تجتذب المستثمرين إلى مُضاربات؛ فقد كانت الفائدة مرتفعةً للغاية والمخاطرة بالمقارنة متدنيةً، وتحقق لبعض الأقطار الأوروبية، خصوصًا مدن الفلاندرز(*)، وتوسكانيا – نموًّا شبهَ رأسمالي– وقد كان هذا النمو الاقتصادى مُذْهلاً لدرجة جعلت كثيرًا من الباحثين يطلقون على تلك المرحلة "عصر الثورة التجارية".

كذلك فقد جرى توسُّع فى الحكومات ونموها خلال القرن الحادى عشر حتى مطالع القرن الثالث عشر[٨]؛ حيث كان اتساع قادة الأغنياء يعنى فى حقيقته موارد جديدةً تتدفق

(*) إقليم يقع فى بلجيكا الحالية.

إلى خزائن الملوك والسادة وكبار التجار، وتمت الإفادة من تلك الموارد فى معظم أنحاء أوروبا، وهو ما يتمثل فى قيام بيروقراطيات ناشئة التحق بها موظفون مدنيون وجنود محترفون، وظهر فى معظم أنحاء أوروبا ملوك أقوياء نازعوا الأرستقراطيين سلطاتهم السياسية، بينما أكد سكان المدن فى إيطاليا والبلاد الواطئة على سيادتهم. كما كانت هناك مكاسب ثقافية هائلة، حتى أنه صار يطلق على ما تمَّ من تراكم معرفى بدأ فى ثمانينيات القرن الحادى عشر "نهضة القرن الثانى عشر"(٩)، ولدى مطالع القرن الثالث عشر كانت تلك الحركة الفكرية تكمن وراء ما صار يعرف بـ"البعث"، وأضحى التعليم مكثَّفًا ومعقَّدًا، كما أضحى التعليم العالى شأنه شأن النشاط الاقتصادى متخصِّصًا، بل إنه أضحى مؤسسيًا فى الجامعات.

لا أدقِّ فى التعرُّف إلى طابع ذلك النمو خلال القرون من الحادى عشر إلى الثالث عشر من ذلك التوسع الذى نهض به الغرب المسيحي(١٠)، وأطلق على ما يتصل منه بشرقى أوروبا بـ"الزحف نحو الشرق" Drang nach Osten وترتب عليه أن أدخلت شعوب سلافية كثيرة برعاية ألمانية فى مجتمع أوروبى أوسع، كما بدأ الفرسان الفرنسيون والنورمان والإسبان حركة الاسترداد Reconquista(*)، أى استرداد جزء من أوروبا كان خاضعًا للسيادة الإسلامية منذ القرن الثامن، وشارك جنود مسيحيون من أنحاء أوروبا كافةً فى الصليبيات، وهى الحملات العسكرية التى توجهت لانتزاع السيادة على الأراضى المقدسة من أيدى الأتراك(**)، وكانت لحركة الاسترداد والصليبيات فائدتها فى الحصول على مكاسب ثقافية هائلة للحضارة الأوروبية، فقد صار هؤلاء الجنود الأوروبيون على اتصال بحضارات أرقى فكريًا وماديًا، ثم أتوا بسلع وأفكار أعانت على تسريع النمو فى أوروبا وتواصله.

وصلت أوروبا فى النصف الأول من القرن الثالث عشر إلى أَوْج نموها؛ فقد بدأ عهد طويل من السلام الدولي، وتمتَّعت الكنيسة بنفوذ هائل، وربما كان البابا "إنوسنت الثالث"

(*) مصطلح إسبانى الأصل أطلقه الإسبان على الصراع الذى امتد عدة مئات من السنين بينهم وبين المسلمين، إلى أن انتزعوا السيادة منهم على شبه الجزيرة الأيبيرية على نحو نهائى فى سنة (٨٩٧هـ / ١٤٩٢م).

(**) التعبير هنا غير دقيق؛ فقد توزعت السيادة على الأراضى المقدسة بين عدة شعوب إسلامية بينها الأتراك.

Innocent III (١١٩٨-١٢١٦م) هو أكبر باباواتها(*)، وأضحت لجماعتي الفرانسيسكان والدومينيكان مكانة رفيعة، ووقفت الكاتدرائيات القوطية الضخمة شاهدًا على عَظَمَة المسيحية، وقويت سلطة الحكومة أكثر من أي وقت مضى، وأصبحت الحالة الاجتماعية والعلاقات الشخصية ترتبط بالثروة ارتباطًا يفوق ارتباطها بالميلاد، وبوجه عام فقد كان ذلك العصر هو عصر الآمال الناهضة.

في منتصف القرن الثالث عشر بدأت أشياء كثيرة تتغير لأسباب بعضها اجتماعي وبعضها الآخر بيئي، وينوِّه العديد من المؤرخين في السنوات الأخيرة إلى ما جرى من تحوُّلات في المناخ، ويعزون إلى تلك التحولات دورًا رئيسًا في مجتمع ما قبل العصر الحديث؛ ففي اقتصاد مثل اقتصاد أوروبا في العصور الوسطى، حين كانت الثروة في معظمها تأتي من الأرض، كانت تلك هي الحال بالتأكيد، فيتضح لدينا من الشواهد الثلجية glacial، والطلعية Pollen أنه جرى تحسُّن في الطقس بأوروبا بين سنوات (٧٥٠ - ٨٠٠م)، (١١٥٠ - ١٢٠٠م)(١١)، ويطلق علماء المناخ الأثريون Paleoclimatologists على ذلك العصر "الدفء الوسيط المبكر"، وعلى نحو أكثر شيوعًا "الأوج الأصغر" the little optimum، في مقابل "الأوج الأكبر the big optimum في عصور ما قبل التاريخ. وفي أواخر القرن الثامن كانت المثالج الألبية قد بدأت في التراجع، وتشير دراسات الطلع إلى أن غابات الزان على طول مثلجة فرناو Fernau وإقليم الأرْدِن Ardennes في شمالي فرنسا قد تناهت إلى ما كانت عليه في عام (٢٠٠م)، وفي ألمانيا فإن عددًا من الأشجار المتساقطة الأوراق والتي كانت قد اختلفت بعد عام (٢٠٠م عاودت ظهورها، كما ترسَّبت نوايا من المثقبات foraminifera(**)، على طول ساحل الأطلسي الشمالي، وكانت تلك الظواهر مؤشِّرات على الاتجاه إلى موجة دافئة خلال الحقبة (٧٥٠/ ٨٠٠ - ١١٥٠ / ١٢٠٠) وتصاعد متوسط درجات الحرارة خلالها، بحيث إنها ربما جاوزت ما كانت عليه خلال الحقبة (٣٥. / ٤...- ٧٥. /٨..) لأكثر من درجة واحدة مئوية، بحيث أضحى مناخ القارة أمْيل إلى الاعتدال شتاءً وأمْيل إلى الجفاف صيفًا.

(*) استثنل "حنا" (جون) ملك إنجلترا، وأطاح بـ"أوتو الرابع" إمبراطور ألمانيا، ودعا للحملة الصليبية الرابعة.

(**) وهي فصيلة من الأوليات Protozoa الوحيدة الخلية.

يشير بعض الباحثين إلى ما كان لـ"الأوج الأصغر" من دور فى التمهيد للاتجاهات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى العصور الوسطى العليا، كما يشيرون إلى ما جرى من نشاطات زراعية فائقة، وكيف أعان "الأوج الأصغر" على الزيادة الكبيرة فى المواد الغذائية خلال المدة بين القرنين التاسع والثانى عشر، فى حين ينوّه باحثون آخرون إلى ما نهض به من دور فى كل من النقل البحرى والنقل البرى والتوسع بالتجارة والتحضير(*)، وحتى الثورة التجارية بأسرها.

فى أواخر القرن الثانى عشر كانت الأربعمائة سنة من "الأوج الأصغر" بسبيلها لأن تنقضي، وأضحى الجو أكثر برْدًا وأغْزر مطرًا، وتقدمت المثلجات الألبية فرنا وفرناجت Vernagt وألتيش Altesch وجريندلفالد Grindelwald، وذلك لأول مرة منذ القرن الثامن، مع تراجع خط الشجر، وتوضح لنا المعطيات الراديوكربونية من مخثة ألتيش Aletsh's peat bogs(**)، أن ذلك التراجع وصل إلى أقصاه خلال الفترة (١٢٠٠ – ١٢٣٠م) أما تلك المعطيات الخاصة بجريندلفالد فقد وصلت أقصاها كذلك فى (١٢٨٠م)، بينما وصلت الأخريات إلى تلك النهاية بين (١٢١٥ ، و ١٣٠٠ م)، وتوضح السجلات الأرشيفية لأصحاب مزارع الماشية فى وادى ساسرفيسب Saaser Visp بسويسرا وكانت منطقة رعى رئيسة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر أنه وبعد مئات السنين من النشاط صار مهجورًا، بسبب زحف المثلجات، ولم يقدر له أن يعود إلى الحياة حتى أواخر القرن الرابع عشر.

لدينا شاهد آخر على تلك المرحلة الجديدة الباردة يأتينا من إسكندناوة؛ فبعد أن كان "الأوْج الأصغر" قد زحف شمالاً فكان سببًا فى النمو السكانى فى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر، وما ترتَّب على ذلك الزحف من استقرار فى أيسلندا وجرينلاند، إلا أنه ما لبث أن بدأت مرحلة التراجع خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وانحرف الجليد العائم جنوبًا، ليغلق طرق الملاحة التقليدية بشمالى الأطلسي، وتم التخلى عن الطرق الغربية المباشرة من النرويج إلى أيسلاند أو جرينلاند، ليحلَّ محلَّها طريق برجن Bergen – ريكيافيك Reykjavik الجنوبى الذى يزيد عليها طولاً بأربعمائة كيلو

(*) Urbanization نسبةً إلى الحضر: أى المدن بمعنى اتساع ظاهرة المدن وتعددها.

(**) قطع من الفحم المكربن.

متر، وأضحى الموقف حَرِجًا فى القرن الرابع عشر، فلم يعد بإمكان السفن النرويجية أن تزود سكان أيسلاند بالمواد الغذائية، وكان على هؤلاء أن يتوجَّهوا بتجارتهم جنوبًا صَوْب الجُزر البريطانية، ويزداد حرج الموقف مع جرينلاند؛ فقد صارت الفيوردات Fjords(*)، لدى ساحلها الغربى مغطاةً بالجليد اثنا عشر شهرًا فى السنة، ولم يعد بُدٌّ من مغادرة مزارعها الواحدة تِلْو الأخرى بعد أن أصبح موسم النمو أقصر، ولدينا نص مهم لقسٍّ نرويجى هو "إيفار باردسون" Ivar Baardson وكان قائمًا على تدبير شئون أسقف جاردر Gaarder؛ فقد كتب يقول : "تقتضى الرحلة من سنيفلنس Snefleiness إلى أيسلاند ثم إلى جرينلاند يومين وثلاث ليال من الإبحار غربًا والمرور خلال شِعاب مرجانية تدعى "جوبيرنيسهير" Gunbierneshier .. كانت تلك هى الطريق المعتادة. أما الآن فقد صار الجليد يأتى من الشمال حتى يلتصق بتلك الشعاب، بحيث لا يستطيع امرؤ أن يسلك هذه الطريق دون أن يجازف بحياته"(١٢)، وتجمد البحر البلطى مرتين فى عام (١٣٠٣م) وعام (١٣٠٦ / ١٣٠٧م)، ارتفع مستوى المياه فى البحر المتوسط وبحر قزوين إلى حد كبير، وتجمد نهر التيمس Thames فى إنجلترا اثنتى عشرة مرة بين ١٤٠٠م و ١٤٨٠م، ومن ثم فقد أطلق علماء المناخ الأثريون على ذلك العصر – الأكثر بردًا والأغزر مطرًا– تعبير "العصر الجليدى الأصغر"، وأضحى مناخ أوروبا شديد القسوة، مثلما كان فى العصور المظلمة، بل ربما كان أشد سوءًا مما كان عليه فى أى وقت منذ العصر الجليدى الكبير من عصور ما قبل التاريخ.

على أن أهم ما ترتب على العصر الجليدى الأصغر كان فى الزراعة. ومن المهم لنا أن نعاود التأكيد على أن المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى كان فى أساسه مجتمعًا ريفيًا، يعتمد فى معظم ثروته على ما تغلّه الأرض، ويتبين لنا أن حصادًا خريفيًا طيبًا، يأتى عندما يكون صيف العام السابق وخريفه جافَّين، ويكون الشتاء إمَّا معتدلاً أو باردًا، والصيف جافًّا(١٣). ويكون الحصاد سيئًا، عندما يكون الخريف الماضى غزير المطر، فتغرق الحقول بالتالى، ثم يتبعه شتاء وصيف ممطران، أو عندما يكون الخريف الماضى ممطرًا والشتاء معتدلاً والصيف جافًا، فبرد أشد ومطر أغزر يفضيان إلى تجريف للتربة

(*) أى الخلجان العميقة المجاورة للساحل مباشرة وتشتهر بها بلاد النرويج على نحو خاص.

السطحية ومن ثَمَّ قتْل البذور وذبول أوراق القمح ونمو الأعشاب الضارة، وبذا تتهيأ الفرصة للمجاعة، ومن السخرية بمكان أن ندرة تساقط الأمطار في جنوبي أوروبا من شأنها أن تجعل المحاصيل تفتقر إلى مكوناتها الغذائية، وعندما يصاحب ذلك رياح قوية تتعرض التربة السطحية للتجريف، وبوجه عام فالطقس البارد الغزير المطر يكون كارثيًا بالنسبة للزراعة.

كان يفاقم من مشكلات البيئة في أوروبا ما نشأ من أمراض اجتماعية[11]: فقد ظلت مستويات الخصوبة بين السكان عاليةً، وازدادت أعدادهم خلال القرن الثالث عشر، وفي الوقت نفسه وزهاء عام ١٢٥٠م لم يعد هناك المزيد من الأراضي التي يمكن استصلاحها، وأصبح الكثير منها خلوًا من غطائه النباتي، مما ترك أثره على المحاصيل التي كانت قَيْد الحصاد، فلم تعد لها سوى قيمة هامشية، وبدأ الفائض الغذائي يتقلَّص بسبب ما جرى من إجهاد للتربة بالزراعة الكثيفة، حتى أنه كانت هناك محاولات لاستزراع الأراضي البور أو حتى أراضي المراعي، وتمَّ التخلي عن محاصيل العَلَف، وكان تسييح المراعي يعني اختفاء تربية الحيوانات في بعض الأقاليم، مما يستَتْبعه بالضرورة من استبعاد مصدر مهمٍّ للبروتين، ومصدر آخر مهمٍّ لتخصيب الأرض هو السماد. وبسبب زيادة ما يغلّه القمح من حبوب، فقد أقبل عدد كبير من الفلاحين على زراعته، وزهاء عام ١٢٥٠م بدأت أوروبا تجتاز إلى دائرة الفقر، شأنها في ذلك شأن مجتمعات أخرى آسيوية؛ فنمو سكاني متزايد من ناحية ومحدودية في الأراضي الزراعية من ناحية آخرى أدَّيا إلى زراعة أحادية للقمح، فإذا حدث وفشل محصوله في إحدى السنين، ولم يتوافر بديل له. فلا بُدَّ وأن يعاني الناس من المجاعة.

صارت الأمور أسوأ بعد عام ١٢٥٠م[12]، وركدت مستويات المعيشة وبدأت في التهاوي، فالزراعة الأحادية الكثيفة التي أجهدت التربة أدت إلى تضاؤل الناتج من الحبوب، وتوضح لنا المعلومات المستقاة من ضياع أسقف ونشستر Winchester في جنوبي إنجلترا – وهي منطقة رئيسة في إنتاج القمح– أن الغلة المحصولية (أي نسبة الحبوب التي يتم حصادها إلى الحبوب التي يتم استنباتها) تهاوت من خمس أو ست مقابل واحدة في سنة (١٢٠٩م) إلى اثنتين مقابل واحدة في سنة (١٣٠٠م)، كما تهاوت بالنسبة للشعير من أربع أو خمس مقابل واحدة إلى اثنتين مقابل واحدة، والشيلم من

قرابة أربع لقاء واحدة إلى أقل من اثنتين مقابل واحدة في بعض الأحيان. وبذا صارت الحال هنا أشبه بما كانت عليه في العصور المظلمة، حين كان الناتج يعدل بالكاد ما كان يتم بَذْله من جهد، بل إنه يتحوَّل إلى الأسوأ مع استمرار برودة الجو وغزارة المطر، وفي نهاية القرن الثالث عشر بدأت أوروبا تعاني من أزمة الغذاء المالثوسية(*)(١٦)؛ فقد تعدَّى النمو السكاني ما كان متاحًا من ناتج غذائي وعَمَّ الفقرُ أوروبا بأسرها.

رافقت تلك الويلات التي ناخت بكَلْكَلها على الفلاحين ويلات أخرى تتَّصل بالحِيازة، فكما ذكرنا في السابق كان كثير منهم خلال السنوات الذهبية الخوالي يؤدون البدلية مقابل إعفائهم من جزء من التزامات العمل أو كلها، وفي الوقت نفسه قام بعض كبار الملاك بتسييج ضِياعهم بما في ذلك عزبهم، وترتب على ذلك أن أقدم كثير من الفلاحين على زراعة أراضٍ أكثر مما كان يتصوره أسلافهم، لكن ارتفاع الأسعار - خصوصًا أسعار الطعام- بسبب الزيادة السكانية جعل كثيرًا من الملاك يدركون صعوبة أن يعيشوا على إيجارات قديمة وثابتة، ثم واصلت الأسعار ارتفاعها فجاوزت سبعين بالمائة خلال مائة عام، وتنبه هؤلاء الملاك إلى أنهم سوف يتحصلون على مكاسب جمة إذا هم نهضوا بحصاد ناتج عزبهم بأنفسهم وتسويقه، وبذا نجدهم بعد عام ١٢٥٠م يتوقَّفون عن تقاضي البدلية، ويعودون إلى خدمات العمل الإجبارية القديمة، ووجد الفلاحون أنفسهم ينفقون جزءًا كبيرًا من وقتهم يزاولون عملاً غير مدفوع الأجر، في حين كان الأحرى بهم أن يركِّزوا جهودهم على ما يحوزونه من أراضٍ، ومما زاد الأمر سوءًا أنهم عندما كانوا يحتاجون إلى المزيد من القمح؛ فغالبًا ما كانوا يلجئون إلى السيد لشراء ما سبق أن زرعوه هم لصالحه(١٧).

في ضوء تلك الصعوبات الاقتصادية المتنامية، نتساءل: لماذا تواصلت الزيادة السكانية عند الفلاحين؟ ويعود السبب من ناحية إلى غياب الأمراض الفتاكة وما أفْضَت إليه من انخفاض نسبي في مستوى الموَتان، ويعود السبب من ناحية أخرى إلى مستويات الخصوبة العالية الناجمة عن الزواج المبكر(١٨)، وكانت سن الزواج، خصوصًا بالنسبة

(*) نسبةً إلى "توماس مالتوس" Thomas Malthus (١٧٦٦-١٨٣٤م) نشر كتابه الرائد "مقالات في مبادئ علم السكان" في عام (١٧٩٨م).

للمرأة أمرًا مهمًا؛ لأن معظم الولادات فى العصور الوسطى كانت تأتى من خلال الزواج، وكانت للمرأة مدة خصوبة تمتد من سن السادسة عشرة إلى سن الأربعين، وعندما كان يتم الزواج مثلاً فى سن الخامسة والعشرين تكون ثلث فترة الخصوبة قد انقضت، مما يؤثر بالتالى على عدد الولادات، وإبان ما قبل العصر الصناعى كانت سن الزواج تتحدَّد بما هو متاح من أراضٍ زراعية، وكان من شأن التوسُّع الكبير الذى تمَّ فى القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر أن يُتيح الفرصة للزواج فى سن أصغر، وبالتالى ترتفع معدلات الخصوبة، وهو الأمر الذى صار من الصعب له أن يتحقق بعد عام (١٢٥٠م)، حين لم يعد متاحًا المزيد من الأراضى القابلة للزراعة. ويذهب معظم الباحثين إلى أن ظاهرة الزواج فى سن مبكرة نسبيًا، أوائل العشرينيات بالنسبة للفتيات ومنتصفها بالنسبة للشباب قد استمرت، لكنه يصعب علينا أن نتقبل مثل ذلك المذهب فى ظل ظروف اجتماعية واقتصادية جديدة، وربما كان السبب هو ما سبق أن اعتاد عليه الناس لمدى يناهز قرنًا من الزمان.

هكذا أصبحت أوروبا بعد عام (١٢٥٠م) أبرد جوًا وأغزر مطرًا، وتواصل النمو السكاني، حتى فى حال بقاء الأراضى الصالحة للزراعة كما هى وجرى إجهادها، حتى بعد أن تهاوت الغلة المحصولية، وقد أدى الطلب المتزايد على الأراضى الزراعية إلى أن ترتفع إيجاراتها، وترتفع كذلك إتاوات الدخولية entry fines، وهى مَبالغ يدفعها المستأجرون عند الموافقة على حيازاتهم، كما أن الحيازات الخالية – وكانت ظاهرة غير مألوفة قبل عام ١٢٠٠م– ما لبثت أن اختفت تمامًا، وانكمشت الحيازات الأصلية، بحيث أصبح كثير من صغار الأبناء فى عِداد المعدَمين، واضطروا إلى أن يعملوا نظير أجور زهيدة، وهكذا أضحت أوروبا خلال المائة عام التالية لعام ١٢٥٠م عهدًا من الرخاء بالنسبة لكبار الملاك، فى حين أضحت عهدًا من الشقاء بالنسبة للفلاحين المعذبين فى الأرض.

فى الأعوام العادية أى عندما يكون الحصاد كافيًا كان الفلاحون يعانون من التآكل المتواصل فى عوائدهم، لكن الكارثة كانت تتمثَّل دائمًا فى فشل المحصول؛ فقد استمر تردِّى الأحوال الجوية فى أواخر القرن الثالث عشر، وسرعان ما عصفت بأوروبا سلسلة من المجاعات[11]؛ ففى تسعينيات القرن الثالث عشر هطلت الأمطار بغزارة، فتعفَّنت المحاصيل فى بعض الحقول، وفى السنوات (١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٣م) أصيب محصول القمح بالفشل فى إنجلترا، أما فى فرنسا وألمانيا فقد تهاوى إلى نصف ما كان عليه فى

الثمانينيات، ومع أن الحصاد لم يلبث أن اعتدلت حاله فى العامين التاليين وأصبح كافيًا، إلا أنه لم يلبث أن عاود تهاويه فى عام ١٢٩٧م، وشمل ذلك التهاوى الأراضى الواقعة على البحر المتوسط والأراضى الواقعة شمالى الألب على حد سواء، وليست لدينا مادة متاحة عن نسبة المَوَتان، لكن ثمة إجماعًا على أنها كانت أعلى بخمسة بالمائة عن المعتاد، على أن تلك المجاعات لم تشمل أنحاء أوروبا كافةً، فقد ظلت شمالى ألمانيا والبلاد الواطئة وبولندا وأيبيريا بنَجْوة منها، حتى إنه فى إنجلترا وفرنسا اللتين كانتا أكثر تضرُّرًا منها فإن تأثير المجاعة كان محدودًا، ونخرج من هذا كله إلى أن الأنماط الديموغرافية والاجتماعية لم تتغير كثيرًا، فى حين واصلت أزمة السكان / الإنتاج ترنَيها.

استمر التدهور بين سنتى ١٣٠٠م و ١٣٤٧؛ فقد نشأت عن مواسم متتابعة من الأمطار الغزيرة سلسلة من الفشل فى المحصول ونَقْص فى الطعام تواصلت إلى ما بعد الموت الأسود؛ ففى سنتى ١٣٠٤م و ١٣٠٥م عصفت المجاعة بشمالى فرنسا والبلاد الواطئة، وفى سنة ١٣٠٩م أدًى هطول الأمطار بغزارة إلى وقوع أول مجاعة كبرى على مدى مائتين وخمسين سنة، وتواصلت فى فرنسا حتى العام التالي، واستمرت رداءة الجو على نحو دائم من سنة ١٣١٠م إلى سنة ١٣١٩م، كما توالى تساقط الأمطار بغزارة، وتحالفت الأمطار مع الكثافة السكانية العالية والاعتماد الزائد على القمح وزراعة المزيد من هوامش الأراضى لتفضى إلى أسوأ مجاعة فى تاريخ أوروبا، وقد استمرت تلك المجاعة عشر سنوات، وأدت الرطوبة العالية إلى أن تنمو الحشائش بغزارة وأن تطمى الأنهار وتتعفن المحاصيل في الحقول، وكان جملة ما تم حصاده بين سنتى ١٣٠٨م و (١٣١٩م) أدنى مما كان عليه بين سنتى ١٣٠٠م و ١٣٠٥م، وربما كانت تلك هى الحال نفسها فى ألمانيا بين سنتى (١٣١٢م) و (١٣٢٠م)، وفى إنجلترا بين سنتى (١٣١٢م) و (١٣٢٠م)، حتى أن الأقاليم المنتجة للقمح فى شمالى شرقى أوروبا بدأت تتمرس بنقصه مع مقدم عام (١٣١٤م)، ووجد سكان المدن فى البلاد الواطئة وجنوبى ألمانيا وشمالى إيطاليا صعوبات فى الحصول على الطعام، ووافتنا من إنجلترا وهولندا وفرنسا وأواسط ألمانيا إشارات متزامنة لما استشرى فيها من مجاعات.

كان الحصاد فى (١٣١٥م) هو الأفضل خلال خمس سنوات، وتفاءل البعض بأن المجاعة بسبيلها لأن تُشارف نهايتها لكنهم كانوا واهمين، فقد عاود محصول القمح فشله

فى العام التالي، وعلى مستوى القارة بأسرها، وأصبحت الأحوال أسوأ مما كانت عليه، وإذا نحن جعلنا سنة (١٣١٠م) سنة أساسًا نجد أن أسعار القمح فى لندن تشيب London Cheap وهى السوق الأساس للغلال كانت تقف عند خمسة شلنات وسبعة بنسات للرُّبعة quarter (وهى مكيال شائع كان يساوى فى العادة ثمانية بوشلات bushel(*)) وكان ذلك بعد عشرين سنة من تضخم ثابت، وفي يوليو (١٣١٦م) ارتفعت الربعة لتباع بأربعين شلنًا، وبالمقارنة فإنها كانت تُباع بأربعة وأربعين شلنًا فى أسواق ليسيستر Leicester، وستة وعشرين شلنًا فى قرى سفُولك Suffolk، وهى واحدة من أخصب أقاليم إنجلترا. والغريب أن كل ذلك حدث قبل حصاد (١٣١٦م) الكارثي، وبعدها عاودت أسعار القمح ارتفاعها لتصل نسبتها إلى ٧٥٪ في بلاد مثل إنجلترا التى عادة ما كانت مصدرةً للقمح، والتى كانت أسعار الطعام فيها أدنى من مثيلاتها فى معظم أسواق القارة. أما فى أقطار أخرى فكانت الأمور أسوأ بكثير فقد تهاوت حصيلة بذور القمح فى فرنسا بين (١٣١٠م) و (١٣١٤م) خمسين بالمائة لتصبح نحو أربع مقابل واحدة، ثم اثنتين ونصف مقابل واحدة، وفى (١٣١٦م) واحدة مقابل واحدة.

وكتب الإخبارى "جيوم دى ناج" Guillaume de Nages(**) يقول:

"أبصرنا أعدادًا غفيرةً من الرجال لا يأتون فقط من الجيرة، إنما يأتون كذلك من أماكن تبعد عنَّا بخمسة فراسخ، وكانوا حُفاةً، وربما كانوا فيما عدا النساء عُراةً، يصْحبهم قساوستهم فى مسيرة إلى كنيسة الشهداء المقدسين، وقد برزت عظامهم، وهم يحملون أجساد القدِّيسين وغيرها من ذخائر آملين فى الخلاص"(٢٠).

كانت السنوات (١٣١٥-١٣١٧م) هى الأكثر سوءًا فى المناطق الحضرية بأوروبا، ولم يعد فى إمكان تجار البلاد الواطئة أن يشتروا الحبوب من مصادرها التقليدية فى إنجلترا وفرنسا ومناطق البحر البلطي، وارتفعت أسعار الأسماك فى هولندا إلى أكثر من خمسمائة بالمائة، ونضب فائض الطعام المتراكم عبر السنين، وخلال الشهور الستة

(*) مكيال إنجليزى يساوي: ٣٦،٣٥ لترًا.

(**) (ت: ١٣١٣م)، واسمه الأصلى "جيوم دى نوجارنيه" Guillaume de Nogarnet، كان من خاصة "فيليب الرابع" ملك فرنسا (١٢٨٥-١٣١٤م).

الأولى من عام ١٣١٥م كان ألفان وثمانمائة من سكان إيبرس Ypres قد هلكوا، وهو ما يعدل عشرةً بالمائة من سكان المدينة قبل عام (١٣١٠م)، وفى عام (١٣١٧م) مات ما يتراوح بين ١٧٪–٢٠٪ على الأقل من هؤلاء السكان، وهى نسبة تقترب من نسبة الموَتان التي عانت منها تلك المدينة في زمن الموت الأسود، أما عن غنت Ghent وبريجس Bruges ولوڤان Louvain والمدن الهولندية الأخرى، فربما تراوحت تلك النسبة بين ١٠٪ : ١٥٪.

كانت المدن الإيطالية قد برعت فى تدبير احتياطياتها من الطعام، وأمكن لغالبها لدى القرن الرابع عشر أن تنجح فى التحكم فى الأرياف المحيطة بها، والتى كان يأتى منها معظم طعامها[٢١]، وأفادت المدن البحرية الكبيرة مثل البندقية وجنوة من تجارها وأساطيلها فى تخزين ما تستورده؛ ففى البندقية كانت هناك هيئة تقوم بتنظيم أسعار الطعام، على أنه ما لبثت إيطاليا أن تعرضت فى أوائل القرن الرابع عشر لأزمة فى الطعام، كتبها عنها الإخبارى الفلورنسى "جيوڤانى ڤيللاني" Giovanni Villani[*].

" لم تكن المجاعة ملموسةً فقط فى فلورنسا، فقد امتدت إلى توسكانيا وسائر أنحاء إيطاليا، وبلغ من فظاعتها أن سكان پيروجيا Perugia وسيينا Siena ولوتشيا Lucchia وپيستولا Pistola وغيرهم قاموا بطرد من كان عندهم من شحاذين، بعد أن عجزوا عن عونهم ... وكان لما نهض به أهل فلورنسا من شغب عظيم فى سوق سان ميكيلى San Michele أثره فى أن صار ضروريًا أن يقوم حراس مجهزون بمناجل وقضبان حديدية بحماية كبار المسئولين والتهديد بقطع أيادى هؤلاء المشاغبين وأقدامهم"[٢٢].

بحلول عام (١٣٢٠ م) كانت المراكز الحضرية الكبرى فى إيطاليا قد فقدت عشرة بالمائة من جملة سكانها.

أما عن الراينلاند فتخبرنا الحوليات بأن الحاجة استدعت إرسال قوات إلى ماينتس وكولونيا Cologne وشتراسبورج Strassbourg، فقد كانت الجموع الهائجة تقتحم المشانق وتختطف أجساد الموتى وتنهشها، وبصرف النظر عن تلك الروايات الخاصة

(*) (١٢٨٠ أو ١٢٨٠ –١٣٤٨م)، مصرفى ودبلوماسى وإخبارى من أهل فلورنسا، ألف كتاب "التواريخ" عن تاريخ مدينته، مهتم بالقوى الخارقة وتأثيرها فى الأحداث واشتهر بتمجيده للبابوية.

بأكل لحوم البشر. فلدينا العديد من السجلات التى يرد فيها ما يشى بندرة الحبوب فى أزمنة المجاعات الكبرى، ويؤكد الإخباريون الإنجليز على أن لحوم الخيل التى كان الناس ينظرون إليها فى الماضى بازدراء صارت مرتفعة الأسعار عند السواد الأعظم من الناس فيما عدا الأرستقراطية، ووصلت الحال بهم إلى أن كانوا يقدمون على أكل لحوم الكلاب والقطط وغيرها من "الأشياء النجسة"[٢٣]، وارتفعت أسعار الماشية فيما عدا دواب الجر، حتى أنه صدر إعلان ملكى فى فبراير (١٣١٦م) فى محاولة لتثبيت أسعار الغذاء، لكنه "لم يلبث أن أثبت فشله فيما يختص بالماشية والطعام والبيض؛ حيث إن القليل منها فقط هو الذى كان متاحًا بسبب الندرة والافتقار إلى المئونة"، وكان الناس يدفعون أى ثمن من أجل أن يحصلوا على ما يحتاجونه من طعام.

إلى جانب ذلك الشقاء العام كانت هناك سلسلة من الأمراض المعوية: ربما كانت التيفوئيد والزُّحار (الدوسنتاريا) والخُنَّاق (الدفيتريا) والتى زادت من نسبة الموَتان المتزايدة بالفعل. وارتفعت الرسوم التى كان يؤديها ورثة المستأجرين فى ضِياع إنجلترا لدى موت ذويهم بنسبة ١٠٪ : ١٢٪ فى سنة (١٣١٦م)، وعمَّ البلاء كل الطبقات فى العام التالي، وتوقفت النشاطات الاجتماعية اليومية في أوروبا، وبينها تلقى الصدقات، وازدادت أعداد المتشردين واللصوص على نحو ظاهر، وبين عامى (١٣١٤م) و (١٣١٦م) ارتفع عدد السرقات فى كنت بإنجلترا بمقدار الثلث، فى موسم السِّلْم(*) بالميدلاندز Midlands كان ١٥٪ من الجرائم التى دفع بها إلى المحاكم تتصل بسرقات للطعام[٢٤].

فى سنتى (١٣١٧م) و (١٣١٨م) تحسن الحصاد فى أنحاء أوروبا كافة، وبالتالى فقد بدأت الأحوال العامة بدورها تتحسن، لكنه لم تلبث أن بدأت تلوح فى الأفق كارثة جديدة هى طاعون الماشية: فبين سنتى ١٣١٦م و ١٣٢٢م توالت موجات من ذلك الطاعون فاجتاحت ما تبقى لدى أوروبا من مواشٍ، وما كادت الغُمَّة تنقشع فى العامين ١٣٢٢م و ١٣٢٣م حتى تبعها طاعون الغنم فى العامين ١٣٢٤، ١٣٢٥.م، وكان من شأن تلك الطواعين وما رافقها من فشل فى حصاد القمح فى سنتى ١٣٢١م و ١٣٢٢م أن جرى المزيد من التفاقم فى مشكلات أوروبا على مدى الثمان السنوات التالية.

(*) يقصد المؤلف هدنة الله Treuga Dei. وهى اتفاق عرفي على توقف المعارك لدى زمنى معين.

كان لأزمة (١٣٠٩-١٣٢٥م) الزراعية آثارها العميقة فى المجتمع الأوروبى واقتصاده، وعلى الجملة فقد تناقصت أعداد السكان على نحو لافت، وأدت نسبة الموتان العالية إلى انحدار ديموغرافى تتراوح نسبته بين ١٠٪ - ٢٥٪، وأصبح محصول الغلال أقل من المتوسط، وإن كنا نستثنى من ذلك الشوفان الذى يمكنه النمو فى ظروف المطر الغزير والرطوبة العالية، وفى تلك الأثناء كان هناك نقص كبير فيما لدى أوروبا من ماشية، ولدينا فى ضيعة إنكبن Inkpen ببيركشاير Berkshire بإنجلترا مثال واضح على ذلك، فبعد أن كانت تمتلك ٤٦٨ رأسًا من الغنم فى عام ١٣١٣م أصبحت تمتلك ١٣٧ فقط فى عام (١٣١٧م)، وفى الضياع الثلاث التابعة لدير رامزى Ramsey فى إيست إنجليا تناقصت أعداد الغنم فى الفترة ذاتها من ٤٨ إلى ٦، ومن ٤٥ إلى ٢، ومن ٥٦ إلى ٩ على التوالي[٢٥]، وكان لا بد أن تمضى سنوات طويلة حتى يعود الانتعاش إلى سوق الأصواف؛ فقد كان يعوز الكثيرين من كبار ملاك الأرض ما يكفيهم من رءوس الأموال التى يمكنهم استثمارها فى تربية المواشي، وفى حالات كثيرة كان الأمر يحتاج إلى أجيال حتى تصل القطعان إلى المستويات التى كانت عليها فى القرن الثالث عشر.

وعلى الرغم من كل ما جرى من خراب، فقد خلّفت مجاعات العشريات والعشرينيات من القرن الرابع عشر تغييرًا ديموغرافيًا محدودًا، وأسفرت مستويات الزواج والخصوبة عاليةً، بحيث تصاعدت الزيادة السكانية فى أعقابها مباشرةً[٢٦]. لكنه لدى منتصف الثلاثينيات تجددت الأزمة الغذائية؛ ففى شمالى فرنسا وقعت مجاعات فى السنوات (١٣٣٠- ١٣٣٤م)، (١٣٤٤م) و(١٣٤٩-١٣٥١م)، (١٣٥٨-١٣٦٠م)، (١٣٧١-١٣٧٣م)، (١٣٧٤م)، (١٣٩٠م)، وأصبح الطعام شحيحًا فى باريس فى (١٣٢٣م) و (١٣٢٥م)، ووصل الأمر إلى حد المجاعة فى جنوبى فرنسا فى الأعوام (١٣٢٩، ١٣٣٥، ١٣٣٧ ، ١٣٤٣ م)، ثم تردت الأحوال بشدة فى أنحاء المملكة كافة؛ بسبب حرب المائة عام(*) مع إنجلترا والتى كانت فرنسا نفسها مسرحًا لها، ووقعت المجاعة فى إنجلترا فى (١٣٣٥م) و (١٣٤٤)، وفى ألمانيا وشرقى أوروبا فى (١٣٣٦م) ثم من (١٣٤٦-١٣٤٨م)، وصاحبتها سلسلة من الأمراض المعوية التى عصفت بالسكان، ثم امتدت

(*) وهى أطول حرب فى التاريخ: استمرت من (١٣٣٧م) حتى (١٤٥٣م) بين إنجلترا وفرنسا.

المعاناة إلى جنوبى أوروبا، فشاهدنا مجاعات كبيرة تجتاح أيبيريا والمدن الواقعة فى شمالى إيطاليا، وذلك فى منتصف الثلاثينيات ومطالع الأربعينيات وأواخرها، وأضحت الأمور أكثر سوءًا، حتى أن معوزى مدينة سيينا التى أقدمت على طردهم منها اضطروا إلى أن يلوذوا ببوابات دور العجزة والمساكين بلفورنسا.

بينما كانت أزمة الموارد شديدة الوقع فى الزراعة، فإنها وبالقدر نفسه امتدت إلى مجالات أخرى؛ فما لبثت أن عانت المنتجات الصناعية منها، وكانت مستويات السكان فى أربعينيات القرن الرابع عشر فى مجملها عاليةً، كما كانت لدى استدارة القرن، لكن العوز لم يلبث أن شمل الجميع ما خلا الصفوة، فقد استمر طلب هؤلاء على سلع الرفاهية عاليًا، لكن المعاناة ما لبثت أن طالت الكثيرين من السراة والبورجوازية شأنهم فى ذلك شأن الفلاحين، فقد كانت النفقة على الطعام تستحوذ على نسبة عالية من دخولهم، كذلك اهتز النظام المصرفى فى القارة بأسرها؛ ففى أربعينيات القرن الرابع عشر انهار أكبر مصرفين فى إيطاليا وهما باردى Bardi وبيروتسى Peruzzi، ويرجع ذلك فى المحل الأول إلى تراخى ملوك إنجلترا وفرنسا فى أداء ما كان يتوجَّب عليهم من أموال؛ حيث كانت قدرتهم على الدفع قد تأثرت بما حاق برعاياهم من ضنك، على أنه كانت هناك استثناءات لتلك الأزمة العامة؛ فقد توسعت بعضها التجارات، لا سيما بين المدن الإيطالية والهولندية، لكنه من المهم بالنسبة لنا أن نتذكَّر أن المنتجات الزراعية كانت تشكِّل ما يتراوح بين ٧٥٪–٨٠٪ من إجمالى السلع الدائرة فى التجارة، وفى النهاية فقد أثر التدهور فى الإنتاجية الزراعية فى كل النشاطات التجارية وزاد من تدهور أحوال المعيشة.

من واجبنا أن نفهم الأزمة المعيشية لأوروبا فى سياق اجتماعي[٢٧]؛ فقد كان نظام الوظيفية الثلاثية يتداعى، وعلى الرغم من التباطؤ التجارى والمالى والصناعى إلا أن البرجوازية كانت فى مركز أقوى مما كانت عليه فى القرن الثانى عشر، فقد توافر لسكان المدن رأسمال سائل يمكنهم من شراء الإعفاءات والامتيازات والألقاب من السادة والملوك، كما كانت لديهم مهارات فى مجال الأدب والرياضيات، وهما ضروريان للإدارة الحكومية وعلى النقيض منهم كان مركز رجال الدين الذى كان يتضاءل بعد أن نهضت البرجوازية على منافستهم، وساعد على ذلك ما انتاب الكنيسة من ضعف نتيجةً للسَّبْى

البابلي(*)، ومقام البابا فى أڤينيون Avignon بعيدًا من روما، فضلاً عن الشكوك الفكرية واللاهوتية التى أثارها التجريبيون: من أمثال "دونس سكوتوس" Duns Scotus(**)، و"وليم أوكام" William of Ockham(***)، والنزعة الاستقلالية المتنامية عن الكنائس القومية فى إنجلترا وفرنسا وأيبيريا.

كان معظم ما طرأ من متغيرات يرتبط بتلك الجماعات التى تعتمد فى حياتها على نحو مباشر على إنتاجية الأرض الزراعية، ونعنى بها الأرستقراطيين والفلاحين، وكانت أحوال النبلاء، فى معظمهم قد تحسنت خلال القرن الثالث عشر ومطالع القرن الرابع عشر؛ فقد ارتفعت أسعار منتجاتهم، كما ارتفعت قيمة الإيجارات التى يتحصَّلون عليها من الفلاحين، لكنهم لم يلبثوا أن واجهوا مشكلات مستحكمة؛ فقد كانوا يدينون بوجودهم إلى دورهم كقوة عسكرية راكبة، ومن الضرورى بالنسبة لهم النفقة على أسلحتهم وخيولهم، فضلاً عن ساعات طويلة يقضونها فى التدرب للارتفاع بمهاراتهم القتالية، وكان من واجبهم كذلك أن ينهضوا للمحاماة عن فلاحيهم الذين يكدحون من أجلهم، ولم تكن الحياة سهلةً بالنسبة لهؤلاء الفلاحين، لكنه كان لديهم على الأقل الأمل فى أن تنتقل حيازاتهم إلى أولادهم. وقد تغير كل ذلك خلال القرن الرابع عشر، فشكلت الأسلحة الجديدة وما رافقها من تنظيمات عسكرية تحديًا لتفوق النبلاء فى ساحة الوغى، فكان هؤلاء يتحسبون لأسلحة المرتزقة الذين يستخدمون مناخس وأقواسًا طويلةً، كما كان من شأن المدفعية التى توافرت عند الملوك أن تشكل تهديدًا لهم فى قلاعهم. وما دامت السلطة الملكية قد تنامت فى الغرب على نحو ظاهر، وتنامت كذلك السلطة البلدية فى أجزاء من إيطاليا والبلاد الواطئة وألمانيا؛ فقد صار فى إمكان الفلاحين أن يتلمسوا أشكالا جديدةً للحماية، فلم تعد هناك جيوش لكفار أو وثنيين(****)، وفيما عدا مناطق متفرقة تقع إلى الشرق والجنوب الشرقى من

(*) فى سنة (١٣٠٥م) جعل البابا "كليمنت الخامس" من مدينة أڤينيون فى فرنسا مستقرًا له بدلاً من روما، وتابعه خلفاؤه حتى سنة (١٣٧٧م)، وبطبيعة الحال صار هؤلاء البابوات خاضعين لمشيئة ملوك فرنسا؛ لذا يطلق على تلك الفترة (١٣٠٥-١٣٧٧م) فترة السَّبْى البابلي.

(**)(ح١٢٦٦-١٣٠٨م)، فيلسوف إسكتلندى أسس مدرسة إسكتلندية مناهضة للتوماويين(أتباع توما الأكويني).

(***) (ت: ١٣٤٩)، فيلسوف مدرسي إنجليزي، وصاحب "مبدأ النصل" Ockham's Razor principle.

(****)قصد المؤلف هنا - فى جملة من يقصد- المسلمين.

العالم المسيحي، أضحت وظيفة السادة قصرًا على حماية فلاحيهم وواقع الحال أن هؤلاء كانوا ينظرون إليهم على أنهم الخطر الأكبر والداهم على أمنهم واستقرارهم.

كانت إنتاجية الأرض هي ما تعني الفلاحين في المحل الأول؛ فمنذ عام (١٢٥٠م) كان الحصاد يتناقص، في حين جرى بعث خدمات العمل التي كانت قد تم تناسيها منذ بعيد، وفي الوقت نفسه فقد كان توريث الحيازة حصريًّا من حق الابن الأكبر في مناطق كثيرة من أوروبا، وحيث إن مستوى الحيازات قد تقلص خلال المدة بين (١٢٥٠م) و (١٣٤٨م)، فلم يعد في إمكان غالب الأبناء الأصغر سنًّا ما يكفيهم لأن يتزوجوا أو يعيلوا أُسَرًا؛ بل إنه بدأ كثير من الأبناء الأكبر سنًّا في ثلاثينيات القرن الرابع عشر يجدون أنفسهم في أوضاع مماثلة، وبذا صار الوضع بعد عام (١٢٥٠م) أصعب بكثير، وبدأ نظام الضَّيْعة يتهاوى، بينما ازداد السادة ثراءً على الرغم من تناقص الحاجة إليهم. وبوجه عام فقد بدا المشهد في عام ١٣٤٧م مجتمعًا أوروبيًّا تتفكك عُراه بعد أربعمائة عام كاملة من الاستقرار.

الفصل الثالث

البدايات الأولى

فى نهايات القرن الثالث عشر وبدايات القرن الرابع عشر كان التوازن البيئى فى أوراسيا قد اهتز بشدة، وكانت النتيجة هى انطلاق عُصَيَّة يرسين من موطنها الدائم فى صحراء جوبى Gobi وامتدادها شرقًا إلى الصين وجنوبًا إلى الهند عبر آسيا الوسطى إلى الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط، محددةً بذلك الطلائع الأولى للموت الأسود والجائحة الطاعونية الثانية.

لدينا عدة نظريات لتفسير تلك الظاهرة، عبَّر عن إحداها جزئيًا "وليم ماكنيل" William McNeill فهو يعزو إلى حكام الإمبراطورية المغولية(١)، دورًا بارزًا فيها، وكانت تلك الإمبراطورية قد تأسست فى نهايات القرن الثانى عشر على يدى "جنكيز خان"، وظلت محتفظةً بقوتها خلال القرن الرابع عشر، وأضحت لها أهميتها الفائقة، من حيث إنها شكلت حلقة اتصال بين المجتمعات الأوراسية الأقل حركيةً فى الصين والهند والشرق الأوسط وبين أوروبا، ويعود الفضل فى الربط بين أقطار تلك الإمبراطورية الواسعة إلى الفرسان المغول الذين كانوا على قَدْرٍ عالٍ من الكفاءة، ثم إنهم هيئوا شبكةً من المواصلات العسكرية والحكومية؛ امتدت عبر آسيا من روسيا إلى فارس ومن البنجاب إلى منشوريا، وفى أواخر القرن الثالث عشر تناهت تلك الإمبراطورية إلى إقليم يونان Yunan فى جنوبى الصين، ويعد هذا الإقليم فى زماننا بؤرةً أصليةً للطاعون، ويعتقد الكثير من الباحثين أنه ظل كذلك منذ القرن السادس عندما حلت به عُصَيَّة يرسين قادمةً من شرقى إفريقيا فى سياق الجائحة الطاعونية الأولى، ومن أجل التدليل على ذلك يذهب "ماكنيل" وآخرون غيره إلى أن الفرسان المغول وقوافل إمدادهم نهضوا فى أوائل القرن الرابع عشر بنقل

الحشرات المعدية أو القوارض المعيلة لتلك العُصَيَّة إلى حاضرة إمبراطوريتهم فى قراقورم Karakorum بصحراء جوبي، ومن هناك تسللت تلك العُصَيَّات إلى قوارضها المحلية، التى صاحبت بدورها هؤلاء الفرسان أينما حلُّوا عبر إمبراطوريتهم الشاسعة، وبالطريقة ذاتها التى أتت بها إلى صحرائهم. وتوجد بعض التعديلات على هذه النظرية؛ فيذهب باحثون آخرون إلى أن تلك الصحراء تعد بذاتها بؤرةً لتوطُّن عُصَيَّة يرسين. وأيًا كان الأمر فلا شك أن سيطرة المغول على معظم أقطار أوراسيا كانت عاملاً حاسمًا فى انتشار الطاعون.

لدينا تفسير آخر يعترف بما كان للمغول من دور مهم فى هذا الشأن، لكنه يذهب إلى أن العوامل البيئية كانت أهم فى ظهور الطاعون وانتشاره[٢]، من العوامل البشرية وتستند هذه النظرية إلى المتغيرات المناخية التى أتينا عليها في الفصل السابق. فما دامت أنماط الرياح السائدة في آسيا قد تغيرت، فقد أضحى غربي أوروبا أغرز مطرًا بفعل نسيم البر الذي يسوده، وعلى العكس كانت رياح السَّموم Sirocco القادمة من الصحراء الكبرى تدفع بالهواء الحار والجاف إلى أواسط آسيا، التى هى بطبيعتها حارة وجافة. ويعتقد علماء البيئة أن هذا الجفاف المتواصل الذى بدأ فى منتصف القرن الثالث عشر واستمر حتى أوائل القرن الرابع عشر هو الذى دفع بالرُّحَّل من المغول والأتراك، لأن يزحفوا بقطعانهم التى كانت تشكل الجانب الأهم من اقتصادهم الرعوى فى اتجاه الشرق والغرب معًا سعيًا إلى المراعى الخضراء، ودفع فى الوقت ذاته بقوارض آسيا البرية؛ كالمراميط Marmots والسوالق Susliks والترباجون tarbagons وسناجيب الأرض Ground squirrels وغيرها لأن تتحرك كذلك سعيًا وراء الطعام والماء، ونقلت العدوى بدورها إلى مجتمعات القوارض المحلية، وبذا فقد توسعت بالجائحة الطاعونية الثانية.

تتسم هاتان النظريتان بصدقية عالية، ونذهب إلى أن الحقيقة تكمن فى الجمع بينهما، وأهمية منغوليا بالنسبة لموضوعنا فائقة، ولا شك فى أن من عاش فيها من بشر وقوارض هم الحاملون الأوائل لذلك الطاعون، ويبدو لدينا أن رجال القبائل الرُّحَّل كان لديهم إحساس للربط بين الطاعون ووسطائه من القوارض، فتنامت عندهم عادات تحول دون انتشار عُصَيَّة يرسين، فكان يحظر نصب أفخاخ للإيقاع بالمرموط، وهو المعيل الأهم لبرغوث X. Cheopis وكان يصرَّح فقط بصيده من مسافة آمنة، وكان يُمتنع من لمس

الحيوانات التى تسير متباطئةً، كما كانت هناك محرمات taboos تحول دون استخدام فراءات من أنواع معينة من القوارض. وأيًا كان السبب الدقيق أو الزمن المحدد، فهناك طاعون نجم فى صحراء جوبى فى لحظة زمنية بعينها، تقع فى أواخر العشرينيات من القرن الرابع عشر.

فى أوائل الثلاثينيات من القرن ذاته بدأت تتسرب إلى أوروبا أخبار كان يحملها رحالة غربيون[٣]، تشير إلى كوارث أصابت القارة الآسيوية من جفاف وزلازل وقعت بين سنتى ١٣٣٠م و ١٣٣٣م وفيضانات متتالية وقعت فى سنة ١٣٣٤م، تبعتها مجاعات شاملة، زادت منها جحافل الجراد التى أتت على ما كان قد تبقى من محاصيل، ثم تتابعت تلك الضربات البيئية المتوالية خلال الأربعينيات. وارتبطت فى فترة مبكرة تعود إلى سنة ١٣٣١م بالطاعون، وعلى الرغم من كونها معلومات حافلة بالغموض، فإن السجلات الصينية تتحدث عن تفشى طاعون غير محدد الهوية فى ولاية هوبى **Hopei** فى تلك السنة، ويقال إنه فتك بتسعين بالمائة من سكانها. لكنه يراودنا الشك فى دقة ذلك الرقم، كما يراودنا الشك كذلك فى كَوْن ذلك الطاعون هو الموت الأسود، على أن أول معلومة موثوق بها تعود إلى عام ١٣٥٣م، فيحكى الإخباريون أن ثلثى سكان الصين كانوا قد هلكوا منذ عام ١٣٣١م[٤]، وأيًا كانت تلك التواريخ من حيث دقتها والمُلابسات المحيطة بها، فإن الموت الأسود صار يُعَرْبد فى الصين فى أواسط القرن الرابع عشر. وبعد سلسلة من الطواعين المتوالية هوى تعداد سكانها لدى عام ١٣٩٣م إلى تسعين مليونًا، بعد أن كان يناهز المائة وخمسة وعشرين مليونًا فى القرن الثالث عشر.

على أنه قد جرى توثيق انتشار هذا الطاعون غربًا على نحو أفضل، وربما يكون قد قرع أبواب هذا الغرب فى مرحلة ما بين سنتى (١٣٣٠م) و (١٣٤٦م)، وذلك عن طريقين؛ أولاهما إيكولوجية بامتياز. فقد أصابت قوارض آسيا الوسطى فى رحلتها نظيراتها المحلية، ثم أصابت تلك القوارض مَنْ جاورها من بشر، وهى عملية تدريجية لكنها شاملة، وثانيتهما كانت بفعل الإنسان: فبفضله نشأ نظام عتيد للتجارة بين الشرق والغرب خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر[٥]، وقد كانت هناك ثلاث طرق رئيسة: أولاها طريق برية عبر شمالى الصين ثم آسيا الوسطى وتنتهى إلى المستودعات التجارية القائمة على طُول السواحل الشمالية للبحر الأسود، وهى طريق كانت تَنْعَم بما يمكن أن يطلق عليه تعبير

السلام المغولي، أي السلام الذى فرضه خانات المغول هناك. أما الطريق الثانية فكانت في أساسها بحريةً، وترتبط بتجارة التوابل ذات العوائد المجزية في جنوبى آسيا. فكانت السفن تُبْحر غربًا عبر المحيط الهندى إلى بحر فارس(*)، ومن ثَمَّ تقوم القوافل بحمل سلَعها عَبْر شمالي الجزيرة العربية إلى سواحل بلاد الشام(**). فإذا انتقلنا إلى الطريق الثالثة نجدها طريقًا بحريةً كذلك تبدأ من جنوبى آسيا، فتحمل السلع عبر المحيط الهندى وحول الجزيرة العربية مرورًا باليمن، ومنها إلى البحر الأحمر، فيتم نقلها برًّا إلى غزة أو إلى تلك الموانئ الواقعة بدلتا النيل.

في نهاية كل طريق من تلك الطرق كان التجار الإيطاليون -لا سيما الجنوية في البحر الأسود، والبنادقة والبياشنة(***) في البحر المتوسط- يحملون السِّلع بسفنهم إلى إيطاليا وجنوبى فرنسا وقطالونيا Catalonia(****)، ثم تنقل من هنالك إلى شمالي أوروبا. وفي عام (١٢٩١م) أضحت الطرق التي تربط أوروبا بعضها ببعض متاحةً للجميع، فصارت سفن جنوة تبحر لأول مرة عبر مضيق جبل طارق إلى المحيط الأطلسي، ومن القناة الإنجليزية إلى موانئ بحر الشمال في البلاد الواطئة. ولم تلبث تلك الطريق أن صارت أسرع نسبيًّا وأكثر كفاءةً، وبذا صار من الممكن لعُصَيَّة يرسين أن تنتقل من خلال الجرذان والبراغيث التي تحفل بها السفن التجارية، أو تنتقل كما هى الحال في الطاعون الرئوى من خلال التجار أنفسهم. وفي الأربعينيات كانت شبكة التجارة الأوراسية كافيةً لأن يأتي الطاعون عَبْرَها، وذلك قبل أن يتحول حاملو المرض إلى ضحايا له.

يختلف المؤرخون في تحديد أيٍّ من تلك الطرق كانت الأهم في الإتيان بالموت الأسود، ويترجَّح لدينا أن الطريق البرية من أواسط آسيا هى الأهم، لكنه كان للطريقين الأخريين أهميتهما كذلك، خصوصًا في بداياته؛ فقد كانت السفن العابرة لهاتين الطريقين هى التي أتت إلى الغرب بجرذان آسيا السوداء المصابة وهى أكثر القوارض حملاً للطاعون.

(*) Persian Gulf، وهو ما يعرف عندنا اليوم بالخليج العربي.

(**) يذكر المؤلف تعبير Levant، وهو تعبير يعني أحيانًا سواحل بلاد الشام (لبنان خاصةً).

(***) نسبة إلى بيشة Piza، وهي مدينة تجارية مهمة في شمال إيطاليا واشتهرت ببرجها المائل.

(****) أو Cataluña في شمال شرق إسبانيا.

تعود السجلات المبكرة عن تحرك الموت الأسود إلى عام (١٣٣٩م)[٦]، ويستدل من الشواهد الأثرية على هلاك أعداد كبيرة من المقيمين بالمستقرات المسيحية النسطورية قرب بحيرة إيسيق — قول Issyk kul في إقليم تيان شان Tien shan بأواسط آسيا، وكان الطاعون الدُّمَّلي هو السبب في هلاكهم، ويتضح من المرويات أنه في أواخر ذلك العام وصل الطاعون إلى بلاساغون Belasagun وطراز Talas وربما سمرقند على طول نهرَي سيحون Jaxartes وجيجون Oxus في بلاد ما وراء النهر Transoxania، ثم وصل عام (١٣٤٥م) إلى سراى Sarai[*]، وهي مركز تجارى مهم يقع على نهر الفولجا الأدنى، ووصل في العام الذى يليه إلى أستراخان Astrakhan[**]، والقوقاز وأذربيجان، وبدأت الشائعات عن أهواله تترى في موانئ البحر المتوسط، وتبالغ إحدى الروايات، فتذهب إلى أن الهند أضحت مقفرةً من سكانها وأن أقطارًا مثل بلاد التتار وبلاد ما بين النهرين والشام وأرمينية صارت مغطاةً بأكداس من جثث الموتى، بينما لاذ الأكراد بجبالهم، ولم تعد توجد أحياء في قرمان Carmania وقيصرية (في آسيا الصغرى)[***][٧].

كانت بلاد التتار والشرق عمومًا في تصورات الغربيين المعاصرين بلادًا بعيدةً، يعيش فيها وثنيون وكفار، وتجرى بها أحداث غريبة، ولم يكن ثمة داع للتفكير في حدوث كوارث مماثلة في الغرب، بيد أنه في سبتمبر (١٣٤٥م) كان الموت الأسود يقرع أبواب أوروبا: فقد وصل إلى بلام القرم Crimea على الساحل الشمالي للبحر الأسود، حيث كان للتجار الإيطاليين عدد من المستعمرات التجارية.

تعزو الرواية التقليدية دخول الموت الأسود إلى أوروبا إلى المستوطنات الجنوية في كَفَّة Caffa، فقد تحول شجار وقع في أحد شوارعها بين تجار مسيحيين وسكان محليين مسلمين إلى حرب، وبعد مناوشات أولية التمس المسلمون عَوْن الحاكم التتاري، وسرعان ما أرسل هذا الحاكم – وهو من القبچاق Kipchak ويدعى "جاني بك" Janibeg– جيشًا كبيرًا إلى الجنوية ألجأهم إلى أن يحصنوا الأحياء التي يختصون بها داخل المدينة.

(*) مدينة إسلامية مهمة كانت مستقرًا لخانات القبيلة الذهبية التي سيطرت على روسيا لمدة طويلة.

(**) مدينة إسلامية تقع لدى دلتا نهر الفولجا وكانت عاصمة لخانية أستراخان ثم أخضعها إيفان الرهيب.

(***) السلوك، المقريزي، تحقيق: زيادة، القاهرة، دار الكتب المصرية، ٢٠٠٧، ٢ / ٢، صـ٨٧٧ وما يليها.

ومن ثم فقد فرض التتار حصارهم على كَفَّة، وخلال ذلك الهجوم انطلق الطاعون ليفتك بأعداد كبيرة منهم، حينئذ أمر "جاني بك" سائرهم بأن يحملوا ضحاياهم على مقاليع وأن يُقْذَف بهم فوق أسوار كَفَّة وإلى داخل القلعة، فتناثرت الجثث المتعفنة وتفشى الموت الأسود بها، وأرغم الجنوية فى نهاية المطاف على الهرب، فهرعوا إلى سفنهم، وانطلقوا بها راجعين إلى إيطاليا، وبذا قاموا بنقل الموت الأسود إلى حوض البحر المتوسط.

هناك جوانب يصعب تصديقها فى تلك الرواية: أولها أن صاحبها هو الإخبارى "جابرييلى دى موسيس" Gabriele de Mussis(*)، من أهل بياشنز Placenza[8]. فنحن نعلم أنه لم يفارق داره فى إيطاليا إبان الموت الأسود، وربما تلقى تلك الرواية من التجار العائدين إلى وطنهم، وهم مصدر لا يُعَوَّل عليه بالضرورة. والأهم لدينا تلك الإتيولوجية المعقدة للطاعون، وتتمثل فى ضرورة وجود معيلين من الحشرات أو القوارض أو بشر على قَيْد الحياة مصابين بالطاعون الرئوي. ومن شأن ذلك أن يُلْقِى بظلال من الشك على دور الجثث المتعفنة، مهما كان عددها كبيرًا، والأرجح لدينا أن قوارض كَفَّة الحضرية قد أصابتها العدوى من نظيراتها الريفيات، ولكن أيًّا كانت دقة التفصيلات الواردة فى رواية "موسيس"، فإنه يُسْتَخرج منها قدر من ميكانيزمات لمسار واحد على الأقل من مسارات الطاعون الذى تسبب فى الموت الأسود، والمهم عندنا أن هذا الطاعون تحرك برًّا إلى أن وصل إلى نهاية الطريق التجارية القادمة من آسيا، ثم حملته السفن التجارية عبر البحر إلى أوروبا، وسرعان ما تسلل إلى داخلها عبر الأنهار والطرق البرية الرئيسة، ثم عاد ليهاجم المناطق التى استدار حولها أولاً.

وتتضح لنا أهمية طريق التجارة فى تيسير انتشار الموت الأسود، من وصول الطاعون إلى روسيا المسيحية، فلم يكن لذلك الزحف صلة بشبه جزيرة القرم وبلاد التتار: لأنه لم يصل إلى هناك قبل أواخر عام (١٣٥٠ م) وأوائل العام (١٣٥١م) آتيًا من شرقى أوروبا، وليس عبر الأراضى العشبية (الاستبس)، والواقع أنه لم يحل بها "كما يطير الطائر"، ولكن من خلال الطرق التجارية الملتوية.

(*) (ت:١٣٥٦م)، محام، ويعد كتابه فى التاريخ هو المرجع المعتمد لوصول الطاعون إلى أوروبا .

في أواخر عام (١٣٤٧م) كان الموت الأسود قد حل بالقسطنطينية، تلك المدينة التى كانت تطل على القرن الذهبي، وتتحكم فى الممر الذى يصل البحر الأسود بالبحر المتوسط، كما كانت حاضرةً للإمبراطورية البيزنطية وواحدةً من كبريات المدن المسيحية فى العالم بأسره، يُقيم بها ما يناهز المائة ألف وربما المائتين والخمسين ألفًا، وعلى الرغم من أنه لم يعد لها من التأثير والأهمية ما كان لها فى العصور الوسطى المبكرة، إلا أنها كانت ما تزال مركزًا تجاريًا كبيرًا وميناءً مهمةً بالنسبة لغالب تجار البحر المتوسط، وقد ذهب "جون كانتاكوزينوس" John Cantacuzenos(*)، إلى أن الموت الأسود ما هو إلا عقاب من الرب ألحقه بالبيزنطيين والجنوية لما قدموه من عون للمسلمين من أجل أن يستولوا على مدينة رومانيس Romanis فى آسيا الصغرى، وقد وصف تأثير الطاعون فى شرقى المتوسط: يقول: "هاجم الطاعون معظم سواحل العالم، وفتك بمعظم سكانها، فلم يتوقف عند بُنْطُش Pontus وتراقيا Thrace ومقدونيا Macedonia، بل امتد إلى اليونان وإيطاليا وكل الجزر ومصر وليبيا واليهودية Judea(**)، وسوريا بل عم العالم بأسره"(٩).

وكما يذهب "كانتاكوزينوس"، فقد امتد الموت الأسود من القسطنطينية إلى سائر الأراضى البيزنطية وشرقى المتوسط، وكتب المؤرخ "نقفور جريجوراس" Nicephoros Gregoras(***) – الذى قُدِّر له أن ينجو من الطاعون– يقول: "غزا هذا الطاعون جزر بحر إيجة، بعدها فتك بالرودسيين ... وغيرهم من سكان الجزر الأخرى، ولم تتوقف تلك الكارثة عند إفناء البشر، لكنها أفنت كذلك دوابهم، وأنا أقصد هنا الكلاب والجياد (يذهب عامة أهل الاختصاص إلى أن برغوث X.cheopis لا يهاجم الجياد) وكل صنوف الطير حتى الجرذان التى تَصادف أن كانت تعيش فى جدران البيوت"(١٠).

من الشائق لدينا أن يرد ذكر الجرذان عند "نقفور"، لكنه لا يبدو لدينا أنه كان على يقين من أهميتها البالغة، ولم يطرح هو ولا غيره ولا أى مؤرخ بيزنطى آخر أو طبيب أو لاهوتى مثل ذلك لدى مناقشة أيٍّ منهم لبدايات الموت الأسود وأسبابه.

(*) (١٣٤٧–١٣٥٤)، إمبراطور بيزنطى له كتاب فى التاريخ من أربعة أجزاء.

(**)وتتطابق الآن مع الشطر الجنوبى من الضفة الغربية لنهر الأردن فى فلسطين المحتلة.

(***) (١٢٩٥–١٣٦٠ م) مؤرخ بيزنطى وعالم فلكي، حاول أن يوفق بين الكنيستين اليونانية واللاتينية ولم يوفق فى مسعاه.

يصعب عليه أن نتقصى تأثير الموت الأسود كميًّا على سكان الإمبراطورية البيزنطية، وتوضح لنا دراسة حديثة عن مجتمعات الفلاحين في مقدونيا كما في أقطار مسيحية أخرى، أن الموت الأسود عَصَفَ بسُكَّان، كانت أعدادهم تتناقص بالفعل[11]، وزاد من هذا التناقص ما جرى من قلاقل سياسية وحروب أهلية مُسْتَعِرَة وحملات عسكرية نهض بها العرب والأتراك العثمانيون فضلاً عما كان للإيطاليين من هَيْمنة اقتصادية، لكن الموت الأسود هو الذى سرَّع بذلك التناقص، بل هو الذى سدَّد الضربة القاضية، ومع ما فى الزعم الذى يأتى به كاتب بندقى معاصر من أن تسعين بالمائة من سكان القسطنطينية قد هلكوا فى الموت الأسود - من مبالغة، إلا أنه يعطينا صورةً حيةً لما كان لهذا الموت من تأثير.

كذلك أتى التجار الإيطاليون بالموت الأسود إلى الأقطار الإسلامية الواقعة على البحر المتوسط[12]، وربما حل بالإسكندرية وهى أهم الموانئ المصرية فى نهاية خريف عام (١٣٤٧م)، وكان يفتك فى الأسابيع الأولى بما يتراوح من مائة إلى مائتين فى اليوم الواحد، وكان يشتدُّ فَتْكه عندما يشتد البرد، وتحكى لنا الحَوْليات المعاصرة عن ضحايا كانوا يَبْصُقون دمًا، ويُعَدُّ ذلك مؤشّرًا على الطاعون الرئوى المُميت، ولم يلبث أن ارتفعت نسبة المَوَتان إلى سبعمائة وخمسين فى اليوم الواحد، وما إن حلَّ الربيع التالى حتى ارتفعت إلى ألف، ويترجح أن عدد سكان الإسكندرية كان يَقدَّر قبل الموت الأسود بزهاء مائة ألف، على أننا لا نستطيع أن نحدد نسبة من هلكوا بدقة، لكن ما نعلمه جيدًا هو أن المدينة لم تصل فى تعداد سكانها إلى مستويات ما قبل الوباء إلا فى القرن السادس عشر، وبالمثل فقد تعرضت مناطق أخرى فى دلتا النيل لعيث ذلك الطاعون الذى ضرب دمياط - وهى ميناء مهمة للصيد- بشدة، وسرعان ما حلَّ الجفاف ببساتينها وأشجار فاكهتها، وظل الصيادون يلزمون الميناء لعدة أسابيع بلا انقطاع. وكان مستوى المَوَتان بقُرى الدلتا عاليًا، لدرجة تعطلت معها المحاكم الشرعية، ولم يعد فى الإمكان توثيق الوصايا فى بلبيس؛ حيث صارت الجثث تتكدَّس فى المساجد والحوانيت، وعطَّل ما كان متخلِّلاً منها حركةَ المرور فى الطرقات، فقد تراكم بعضها على جوانبها، وأفاد قُطَّاع الطرق منها فى نَصْب كمائن.

انطلاقًا من الدلتا تحرك الموت الأسود على طول مجرى النيل ليصل إلى مدينة القاهرة في ربيع عام (١٣٤٨م)، وعلى غرار القسطنطينية كانت القاهرة من كُبريات مدن العالم المعاصر، وربما كانت تضم بضواحيها نحو خمسمائة ألف من السكان، وخلال ما تبقَّى من ذلك العام كان متوسط الموتان فيها قد وصل إلى ثلاثمائة على الأقل في اليوم الواحد. ثم وافى الوباء ذروته في أواخر الربيع وأوائل الخريف، واقترب عدد ضحاياه من السبعة آلاف يوميًّا، بل إن أحد المصادر يرتفع به إلى عشرين ألفًا في أيام بعينها، وسادت حال من الفوضى؛ إذ كان هناك نقص في التوابيت، فكان الموتى يُحمَلون على ألواح خشبية. كما كان يطاف بالجنازات في طرقات المدينة على نحو دائم، واستمرت الفوضى في الخريف، ولم يعد هناك ما يكفي من أكفان، فكان الوعاظ وحفَّارو القبور القليلو الحيلة يقدمون على دفن تلك الأعداد الهائلة في خنادق جماعية كبيرة، ومثلما كانت الحال في الدلتا فقد غُصَّت المساجد والحوانيت بجثث الموتى، وصاحب ذلك ارتفاع في الأسعار وانتشار المتسولين في طرقات المدينة.

كتب "ابن تغرى بردي"(*)، عن إحدى الجنازات بمدينة القاهرة إبَّان الطاعون الذي وقع في عام (٨٣٣هـ / ١٤٣٠ م)(**)، ما يمكننا معه أن نتصور ما كانت عليه الحال بالنسبة للموت الأسود: يقول(***): "ومات لشخص بخدمتنا ... ولد فخرجنا معه إلى المصلى، وكانت سن الميت دون سبع سنين، فلما أن وضعناه للصلاة عليه بين الأموات جيئ بعدة كبيرة أخرى إلى أن تجاوز عددهم الحد، ثم صُلِّيَ على الجميع، وتقدَّمنا لأخذ الميت المذكور فوجدنا غيره أخذه وترك لنا غيره في مقدار عمره، فأخذه أهله ولم يفطنوا به، ففهمت أنا ذلك، وعرفت جماعة آخرون ولم نعلم أباه بذلك، وقلنا لعل الذي أخذه يواريه أحسن مواراةً، وليس للكلام في ذلك فائدة غير زيادة في الحزن، فلما دفن الصبي وأخذ أهل الحانوت التابوت صاحوا وقالوا: ليس هذا تابوتنا هذا تابوتنا هذا عتيق وقماشه أيضًا خلق..."(١٣).

(*) (ت: ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م)، مؤرخ مصري ينتمي إلى طبقة أولاد الناس؛ أي أبناء المماليك، ويعد كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" مصدرًا رئيسًا لتاريخ مصر خصوصًا في عصرها المملوكي.

(**) في الأصل (١٤٢٩م)، وهو خطأ.

(***) طبعة دار الكتب المصرية، جـ١٤، صـ٣٤١.

بلغ عدة من ماتوا من أهل القاهرة مائتى ألف؛ يمثلون ثلث إلى خمسى عدد سكانها، وهو عدد هائل يعدل سكان أية مدينة مسيحية أخرى، ربما باستثناء القسطنطينية والبندقية.

من القاهرة انتشر الموت الأسود فى أنحاء الشرق الأوسط، وفى فبراير (١٣٤٩م) وصل إلى أسوان على نهر النيل الأعلى. وفى الصيف التالى صار جملة من كانوا يؤدون الضرائب من سكان أسيوط مائةً وستة عشر فقط من بين ستة آلاف كانت تجب عليهم الضرائب، وإلى الشرق عبر سيناء أصيبت مدينة غزة فى ربيع (١٣٤٨م)، وتعد تلك المدينة السوق الرئيسة فى إقليم زراعى مهم، وبذا تم إغلاق أسواق الطعام لمدة شهرين نتيجةً للطاعون، كما تعد تلك المدينة كذلك بوابة للطاعون لدى دخوله فلسطين وسوريا، وكتب رحالة قاهري(*)، كان موجودًا فى بيت المقدس يقول(**): "فسألته (أى سأل مقدسيًا) عن سببها، فأخبرنى أنه نذر أيام الوباء أنه إن ارتفع ذلك ومرَّ عليه يوم لا يصلى فيه على ميت صنع الدعوة. ثم قال لي: "ولما كان بالأمس لم أصَلِّ على ميت، فصنعت الدعوة التى نذرت". ووجدت من كنت أعهده من جميع الأشياخ بالقدس قد انتقلوا إلى جوار الله تعالى رحمهم الله ..."(١٤).

فى أواخر عام (١٣٤٨م) وصل الموت الأسود إلى أنطاكية، وهى ميناء تجارية رئيسة كانت تضم قبل الطاعون نحوًا من أربعين ألفًا، ويترجح أن الطاعون وصل إليها عبر فلسطين، كما وصل إليها كذلك عبر السفن التجارية القادمة من القسطنطينية أو قبرص أو الإسكندرية، وربما ناهز عدد الموتى بها الخمسين بالمائة من سكانها، وكان الذعر قد استبد بهم، ولاذ بعضهم بالبلدات التى تقع إلى شمالها، والتى لم يكن الموت الأسود قد وصل إليها بعد، وقد صحب هربهم هجمة بشعة للقوارض المصابة بالعدوى، مما يسر انتشار الموت الأسود، وهلك بعض هؤلاء الهاربين على الطريق، وعادت بهم جيادهم إلى المدينة، عندئذ لاحقها طغمة من أهل المدينة الطماعين وقاموا بتجريد الضحايا من أشيائهم الثمينة. وفى أوائل عام (١٣٤٩م) كان الموت الأسود قد حل بدمشق، وهى إحدى المدن

(*) يقصد به الرحالة الكبير "ابن بطوطة" (ت: ٧٧٠هـ / ١٣٦٩م)، ولم يكن قاهريًا؛ إنما هو مغربى من طنجة، وكان مقيمًا بالقاهرة إذ ذاك.

(**) رحلة ابن بطوطة، تحقيق: على المنتصر الكتاني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م، جـ٢، صـ ٧٥٠.

العريقة فى حوض البحر المتوسط وكان يقيم بها قبل الطاعون ما يتراوح بين ثمانين ألفًا إلى مائة ألف من السكان، وكان عدد موتاهم من الطاعون عظيمًا ولدى ذروته كان يتم الفتك بما يقارب الألفين فى كل يوم، وسرعان ما تهاوى عدد سكانها، ليصل إلى زهاء خمسين ألفًا، أى ما يوازى ٣٨٪ - ٥٠٪ من جملة السكان.

لدينا وفرة من المعلومات عن تأثير الطاعون فى مناطق أخرى من العالم الإسلامي، فمن مصر ثم فلسطين انتشر الموت الأسود فى الجزيرة العربية، وانتهت به الحال إلى مكة المكرمة، ومع أنه لا تتوافر لدينا روايات يُعْتمَد عليها، لكنه من المتفق عليه بين المعاصرين أن محصلة من مات هناك كانت عاليةً، ومن الشائق لنا القول بأن حضور الموت الأسود بالمدينة المقدسة قد استثار جدلاً بين علماء الدين، فيستنبط من حديث النبى (صلى الله عليه وسلم) أن تلك المدينة سوف تظل بمأمن من الأمراض الفتاكة(*)، وعندما أتاها الوباء ذهب بعض العلماء إلى أن السبب يَكْمُنُ فى وجود عدد من الكفار بها، وهو موقف بدا مُرْضيًا لمعظم المسلمين.

من الشرق الأوسط امتد الموت الأسود إلى شمالى إفريقيا بطريقى البر والبحر معًا، ويحتمل أنه أتى كذلك من الأقطار المسيحية التى تقع على البحر المتوسط، وكانت تونس وليبيا على نحو خاص ذاتَى صِلات وطيدة بالتجار الإيطاليين من أهل جنوة وبيشة وصقلية، وفى ربيع (١٣٤٨م) ضرب الطاعون تونس، وهى من كبريات المدن فى شمالى إفريقيا، ويُقدِّر المؤرخ "ابن خلدون" (ت: ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م) جملة من هلكوا من أهلها خلال شهرى مايو ويونيو بالألف يوميًّا، وأن البربر الرُّحَّل فى الصحراء الغربية هم وحدهم الذين كانوا بنجوة من تلك الكارثة، وقد نظم صديقه الشاعر "أبو القاسم الروحي"(**)، أبياتًا يقول فيها(***):

استغفر الله كل حين   قد ذهب العيش والهناءُ

(*) يرد حديث للنبى - صلى الله عليه وسلم- فى صحيح مسلم بشرح النووى يقول فيه: "على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال"، القاهرة، مكتبة أبى بكر الصديق، ٢٠١١ م، جـ٩، صـ١٤٢.

(**) يكتبه المؤلف: الرهاوى Ar- Rahawi، وهو خطأ صححناه.

(***) المقدمة، تحقيق: على عبد الواحد وافى، القاهرة، نهضة مصر، ١٩٧٩م، جـ٢، صـ١٢٢٢.

أصبحَ فى تونس وأمْسَى	والصُبْــح لله والمســـاءُ
الخوف والجوع والمنايا	يحدثها الهرْج والوباءُ[١٥]

لدى عام (١٣٤٩م) كان العالم الإسلامى بأسره قد سقط صريعًا للموت الأسود؛ فقد أتى على ثلث سكانه، وربما هلك ما يتراوح بين أربعين بالمائة إلى خمسين بالمائة من سكان الحضر، ويلخص "ابن خلدون" الذى فقد أبويه فى ذلك الإبان الموقف: فيقول(*): "هذا إلى ما نزل بالعمران شرقًا وغربًا فى منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذى تحيَّف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرًا من محاسن العمران ومحاها. وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها، وفلَّ من حدَّها، وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشى والاضمحلال أحوالها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخَلَت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن، وكأنى بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون فى العالم بالخمول والانقباض: فبادر بالإجابة، والله وارث الأرض ومن عليها"[١٦].

فى الأقطار المسيحية من حوض المتوسط الشرقى كانت الآثار التى خلفها الموت الأسود بمثل ما كانت عليه من سوء فى العالم الإسلامي، فإبان تفشى الطاعون بالقسطنطينية قامت سفينة إيطالية بنقل عُصبَّة يرسين إلى جزيرة قبرص فى أواخر الصيف من عام (١٣٤٧م) أو بدايات خريفه، وكانت قبرص آنذاك تعانى من كوارث طبيعية تمثلت فى زلزال وموجات مد عالية، لكن ما عانته من الموت الأسود كان أسوأ بكثير؛ فكانت نسبة الموَتان عاليةً، وتملك الفزع أهلها المسيحيين فجمعوا أسراهم وعبيدهم المسلمين وذبحوهم خشيةً من أن تقع الجزيرة فى أيديهم بعد أن هلكت أعداد كبيرة من المسيحيين، وعندما دلفت سفينة تجارية آتية من رودس فى نوفمبر (١٣٤٧م)، ولم يجد ربانها من يستقبله فى الميناء، اعتزم التوجه بها إلى مكان آخر، لكنه ما لبث أن انطلقت البراغيث والجرذان المصابة بطريقة ما إلى ظهر السفينة، وسرعان ما تفشى الطاعون بها، وما إن ألقت بمراسيها فى أنطاكية حتى عم الطاعون أنحاء سورية[١٧].

(*) المرجع السابق، جـ١، صـ٢٢٥،٣٢٦.

ومن جزيرة متوسطية أخرى هى صقلية اقتحم الموت الأسود أوروبا الغربية[١٨]؛ ففى أوائل أكتوبر (١٣٤٧م) وصل الأسطول الجنوى إلى مسينا Messina[*]، وهى الميناء الرئيسة فى الجزيرة، ويحدثنا "ميخائيل" - وهو راهب فرانسيسكانى من پياتسا Piazza- عن عقابيله؛ فقد حيل بين الجنوية وبين البقاء، لكنهم - كما يذكر فى مقدمة كتابه- خلَّفوا وراءهم ما يكفى لأن ينتشر الطاعون، وخلال بضعة أيام كانت العدوى قد انتقلت إلى قوارض صقلية ثم أهلِها. وفى منتصف الشهر كانت قد عمت الجزيرة بأسرها. وربما يكون من الممل أن نفصل فى الحديث عن حظوظ أهلها السيئة: فقد عانوا معاناة سكان الإمبراطورية البيزنطية والشرق الأوسط وشمالى أفريقيا، لكنه لدينا ما يشوقنا، فقد كانت كاتانيا Catania[**]، وهى مدينة تقع لدى الساحل الشرقى على مبعدة خمسة وخمسين ميلاً من مسينا، وتعد ثانية موانى الجزيرة، فقد اتجه إليها عدد قليل من أهل مسينا، حيث عوملوا معاملةً حسنةً، وأكرم أهلها وِفادتهم، لكنهم ما إن تحقق لديهم خطورة ما أصابهم من مرض واحتمال أن ينقلوه إليهم، فإنهم وطبقًا لما يقوله راهبنا "رفضوا حتى أن يتكلموا مع أحد من أهل مسينا أو أن يقدموا لهم شيئًا، وكان يهرعون إلى الهرب لدى اقترابهم منهم"[١٩]، وفرض الحَجْر الصحى عليهم، بيد أن هذا الحَجْر كانت حاله هى حاله فى أوروبا بأسرها؛ فقد تم عزل البشر ولم يتم عزل القوارض، وهى العامل الأهم فى انتشار الطاعون؛ لذا فلدى نهاية أكتوبر كانت العدوى قد أصابت الكاتانيين، وفى أوائل نوفمبر كانت صقلية بأسرها قد نُكِبت بالموت الأسود.

فى ديسمبر (١٣٤٧م) كان الموت الأسود قد طال جنوبى إيطاليا وكثيرًا من أنحاء جنوبى أوروبا، وحيث إن إيطاليا كانت المركز التجارى الأهم فى حوض المتوسط، فقد اجتاحها الموت الأسود من خلال عشرات - وربما مئات - المرافئ وقُرى الصيادين، وهو أمر من الأهمية بمكان، لأنه عندما تتعدَّد محطات الاستقبال يكون المرض مميتًا بالضرورة. وقد كانت مرحلة الأربعينيات من القرن الرابع عشر مرحلةً صعبةً، فكان شمالى إيطاليا ووسطها أكثر مناطق الغرب حضريةً، وكانت اقتصاديات مُدُنه تعتمد على التجارة والصناعة والصيرفة، وكانت المجاعات التى توالت فى أوائل القرن الرابع عشر

(*) وتعرف فى المصادر العربية بـ"مسيني".

(**) وتعرف فى المصادر العربية بـ"قطانة".

قد أدّت إلى ارتفاع في أسعار الطعام، ولم يعد في متناول الناس سوى اليسير من النقود، ليبتاعوا بها سلعًا جاهزةً، ويرتبط ذلك بالتعثُّر الذى أحدق بالكثير من المصارف، وأفضى إلى قلاقل سياسية واجتماعية طاحنة، وفيما عدا فرنسا كانت إيطاليا هى أكثر أقطار أوروبا معاناةً من الأزمات السابقة للموت الأسود، ثم أتى ذلك الطاعون ليزيد من تفاقمها.

كان الميناءان الكبيران: بيشة وجنوة هما المدخلين الرئيسين إلى وسط إيطاليا وشماليها، وأصيبت جنوة بالطاعون فى أواخر (١٣٤٧م)[٢٠]. مع أن تعداد سكانها كان يتهاوى منذ (١٣١٥م)، إلا أنه كان ما يزال يعيش فيها لدى مقدم الموت الأسود نحو من مائة ألف، هلك منهم ما يتراوح بين ثلاثين إلى أربعين بالمائة؛ أما بيشة فكانت تضم أربعين ألفًا هلك منهم قدر من هلك فى سالفتها، والأهم أنها كانت منطلقًا للوباء فى توسكانيا وهى أكثر أقاليم إيطاليا ازدهارًا وتحضُّرًا [٢١]. وكانت براتو Prato[٢٢] واحدةً من طلائع المدن الداخلية التى ضربها الطاعون، وحيث إنها كانت مدينةً تجاريةً ثرية، تقع على مبعدة أربعين ميلاً من البحر، فقد كان يقيم بها قبل الطاعون ما يتراوح بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألفًا، وتقدر سجلات – كان يحتفظ بها تاجر ثرى من تجارها يدعى "فرانشيسكو دى ماركو داتيني" Francesco di Marco Datini(*)– عدد موتاها بأربعين بالمائة، وأدى التهاوى فى عدد السكان إلى نقص شديد فى الأيدى العاملة وإلى انتعاش تجارة الرقيق، وكان المصدر الرئيس لتلك التجارة فى إيطاليا هو بلاد الجراكسة، ومعلوم أن معظم سكانها كانوا من ذوى البشرة البيضاء والعيون البراقة والشَّعر المستوي، وكانوا فى معظمهم مسلمين(**)، مما كان يحفز الكنيسة إلى الموافقة على استرقاقهم، بدعوى أنه ربما تتاح الفرصة لأسيادهم فيتحولون بهم إلى العقيدة "الحق" ولم يقدر لذلك الانتعاش أن يدوم طويلاً؛ فمثلما كانت عليه الحال فى الشرق الأدنى، فقد تناقص عدد السكان بتلك الأنحاء لدى اجتياح الموت الأسود لها، ولم يتبقَّ منهم سوى اليسير الذى

(*) (١٣٣٦-١٤١٠م).

(**) ليس صحيحًا تمامًا: فقد كان معظم الجراكسة في تلك الزمان وثنيين، مع يسير من المسيحيين والمسلمين، ولم يصبح الإسلام هو الدين السائد هناك إلا في القرن الثامن عشر، وحيث إنهم كانوا كذلك، فقد كان المسلمون يسترقونهم ويتخذونهم مماليك لهم، وحالما كانوا يتحولون إلى الإسلام يتم عتقهم، وتتاح لهم الفرصة (في مصر) للصعود في مناصب الدولة حتى منصب السلطنة.

يمكن استرقاقه. وتوضح سجلات "داتيني" أن الإيطاليين انصرفوا إلى تعقُّب الرقيق في أصقاع أخرى خصوصًا إفريقيا جنوبي الصحراء، وكانت ما تزال بنَجْوة من الطاعون، وكان التجار العرب يتطرقون إليها لاستجلاب الرقيق، وبذا تجدد اهتمام الأوروبيين بإفريقيا، وشرعوا بدورهم في استقدام الرقيق الأسود والاتِّجار به.

كانت پيستويا Pistoia[٢٣] - شأنها شأن پراتو - سوقًا تجاريةً مهمةً، فكانت تقع على مقربة من الطرق التجارية الرئيسة، وتلتقي عندها ست منها، الأمر الذي كان من شأنه أن يجعلها تنهض بدور مهمٍّ باعتبارها مركزًا رئيسًا للمواصلات والثقافة معًا، ولذا صارت مرشحةً قبل مدن أخرى غيرها لاستقبال الموت الأسود. ومثلما كانت عليه الحال في جنوة وبيشة فقد تناقص عدد سكانها لدى المجاعات التي وقعت في أوائل القرن الرابع عشر، وتهاوى من ثلاثين ألفًا في (١٢٤٠ م) إلى أربعة وعشرين ألفًا في (١٣٤٨م)، لكن هذا التهاوي تفاقم على نَحْوٍ مُفْجِعٍ مع الموت الأسود، فبمجرَّد ما حلَّ بها في مايو (١٣٤٨م) فرض الحجر الصحي، ولما كانت السلطات تحسب أن العدوى ربما تأتي من بيشة ولوكا Lucca، وكانت الأخيرة مركزًا ماليًّا وصناعيًّا يقع إلى الجنوب الغربي منها، فقد تم حَظْر الزيارات من هاتين المدينتين وإليهما، كما حظرت وارداتهما من النسيج والمواد الغذائية، ووضعت قيودًا على الاحتشاد في الجنازات، فلم يكن يسمح بحضورها إلا لأهل الميت وحدهم دون غيرهم، وعندما حلَّ الطاعون بها توقفت نواقيس الكنائس عن قرعها حتى لا ينزعج المصابون، لكنه لم يكن ثم جدوى من ذلك كله، ووصلت نسبة الموَتان إلى أربعين بالمائة.

في أبريل أو مايو (١٣٤٨م) وصل الموت الأسود إلى أورڤييتو Orvieto صحبة الحاشية التي أتت مع سفير پيروجيا Perugia وهي مدينة أخرى في توسكانيا[٢٤]، ويتضح لدينا من سجلات أورڤييتو الطبية، كيف كانت تلك المدينة وهي واحدة من أكثر المجتمعات التي شهدها القرن الرابع عشر تقدمًا، كيف كانت غير مؤهلة للتعامل مع ذلك الطاعون، فلم يكن يوجد بها سوى طبيب واحد تابع للبلدية وجراح واحد تابع للبلدية كذلك، وبين خمسة عشر إلى عشرين طبيبًا خاصًا، وكانوا جميعهم ينهضون على خدمة سكان يتراوح عددهم بين اثنى عشر ألفًا إلى خمسة عشر ألفًا وكانت هناك ثلاث مستشفيات، واحدة عامة واثنتان خاصتان وقوانين صحية تحدُّ من التلوث الصناعي، ويعد ذلك بالمقارنة نظامًا

صحيًا جيدًا، لكنه وعلى العكس فقد أثبت عدم جدواه في التعامل مع مرض وافد ومُعْدٍ ومُعقَّد ومُميت كالطاعون. لذلك فقد عربد الموت الأسود بها خلال شهور الربيع والصيف، أي في وقت يكون الجو فيه دافئًا أي غير ملائم للطاعون الدُّمَّلي والطاعون الرئوي معًا، ويستخرج من كون الضحايا هلكوا خلال أربع وعشرين ساعة فقط من إصابتهم بالعدوى على أنه طاعون تعفني. لم تلبث أن خفت حدته في سبتمبر وأكتوبر، وهما الموسم الذي كان الطاعون الدُّمَّلي يصل خلاله إلى ذروته. وكانت نسبة الموَتان في الصيف عاليةً، وهي ظاهرة لا يُستهان بها، حيث إن هذا المرض كان يصل إلى عنفوانه في الخريف. ويزعم الإخباريون أن خمسمائةً كانوا يموتون كل يوم، وإذا صدَّقْنا ذلك الزعم فإنه يعني ثلاثةً إلى أربعة بالمائة من السكان. وربما كانت نسبةً مبالغًا فيها. لكن السجلات البلدية تبين لنا أنه لم يتوافر بالمدينة طبيب واحد خلال شهور الصيف، وهلك الكثيرون من شهود العدل، لدرجة أن أرجئت المئات من صفقات رجال الأعمال إلى ما بعد الطاعون، وكانت المحصلة النهائية هلاك شطر سكان المدينة.

أثار الموت الأسود العديد من ردود الأفعال في أنحاء متفرقة، فبزغت في أورڤييتو صحوة دينية، وأضاف كهنتها في عام (١٣٤٩م) خمسين تاريخًا دينيًا إلى تقويمها البلدي، وتخلت السلطات في العام التالي – الذي كان عامًا يوبيليا(*)– عن المحظورات التقليدية، فأبقت أبواب المدينة مفتوحة ليل نهار للحجاج حتى يستطيعوا متابعة رحلتهم إلى روما، ووفَّرت لهم سبل الإعاشة. وأصبح هناك حضور ملموس لمظاهر التقوى، وابتنى كثير من الكاتدرائيات في حقبة الستينيات أو تسارع ابتناؤها، وذلك على الرغم ممَّا حلَّ بالمدينة من انكماش في أعقاب الطاعون ونقص في العمالة وارتفاع في نفقات البناء(٢٢).

امتدت المعاناة إلى سائر أنحاء توسكانيا، وكانت سيينا Siena التي تقع على بعد ثلاثين ميلاً إلى الجنوب من فلورنسا واحدةً من أهم المراكز المصرفية في أوروبا، وقد كتب "أنيولودي تورا" Agnolo di Tora (البدين) (**)، وصفًا مسهبًا للموت الأسود. فهو

(*) احتفالات تقام بمناسبة مرور خمسين عامًا على مناسبة ما.

(**) مؤرخ إيطالي عاش في القرن الرابع عشر، وكان إلى ذلك صانعًا للأحذية وجابيًا للضرائب، فقدَ زوجته وأبناءه الخمسة في الموت الأسود.

يقول: "فى مايو بدأ الموَتان فى سيينا وكان أمرًا إدًا وصعبًا ومهولاً، ولست أدرى من أين أبدأ، فأتحدث عن فظاظته وقسوته، وبدا الجميع مخدرين من فرْط الألم. ويستحيل على امرئ أن يحكى عن الواقع المرعب، والحق فإن من لم يعاينه قمين بأن يكون مباركًا، فقد كان ضحاياه فى معظمهم يموتون على الفور؛ إذ يصابون بأورام تحت آباطهم وفى أربياتهم، ثم يتساقطون قبل أن ينطقوا ببنت شفة، وكان الأب يفر من ابنه والزوجة من زوجها والأخ من أخيه، وبدا المرض وكأنه ينتقل من خلال التنفس أو الرؤيا، وهكذا كانوا يموتون دون أن يتوافر لدى الموتى من يواريهم نظير أجرة أو تطوعًا، وكان أهل المنزل الواحد يبذلون غاية جهدهم، من أجل أن يلقوا بموتاهم جميعهم إلى حفرة، فى غيبة الواعظ ودون طقوس دينية، فلا تقرع النواقيس لأحدهم، وفى مواضع عديدة بسيينا كانت تحفر خنادق كثيرة، لتتكدس بها أكوام هائلة من الموتى الذين كانوا يقضون بالمئات ليل نهار، ثم تغطى جميعها بالتراب، وعندما كانت تكتظ تلك الحفر بهم يجرى حَفْرُ غيرها، وأعترف بأننى أنا "أنيولو دى تورا" أننى قمت بدفن أربعة من أطفالى بيدى ... وقد هلك الكثيرون لدرجة جعلت الكثيرين يصدقون بأن تلك هى نهاية العالم"(٢٦).

يزعم "أنيولو" بأنه قد هلك من أهل سيينا اثنان وخمسون ألفًا، وهو رقم -لا مشاحة- كبير؛ حيث إن عدد سكانها لم يكن ليتخطى ستين ألفًا فى عام (١٣٤٨م)، وعلى أية حال فقد كانت نسبة الموَتان عاليةً، وأتت على نصف سكانها تقريبًا.

كانت فلورنسا واحدةً من أجمل مدن أوروبا وأزهرها وأبهاها، لكنها عانت بدَوْرها من نقص فى غذائها وتعثر فى مصارفها، إلى جانب أزمات سياسية اعتورتها خلال الشطر الأول من القرن الرابع عشر(٢٧)، وكان يقيم بها فى عام (١٣٤٨م) ثمانون ألفًا من السكان أى أقل بنسبة تتراوح بين ٢٥٪ -٥٠٪ من عددهم فى العام (١٣٠٠م)، ويذهب الإخبارى "جيوفانّى فيللانى" Giovanni Villani إلى أن الموت الأسود وافى فلورنسا فى أواخر (١٣٤٧م)، ففتك بما يقارب الأربعة آلاف من سكانها، ثم خفَّت حدَّته فى شتاء العام التالى، على أنه لم يلبث أن عاود تلك الحدة فى الربيع، ويعود الوصف الكلاسيكى لما آلت إليه الحال فى فلورنسا مع مقدم الموت الأسود إلى الكاتب الإنسانى الأشهر "جيوڤانّى

بوكاتشيو" Giovanni Boccoccio(*)؛ فهو يقول : "فى عام (١٣٤٨م) تفشى الطاعون فى مدينتنا الجليلة فلورنسا ... وسواءً كان ذلك من صنع كائنات سماوية أو من صنع خطايانا، فقد حاق بنا غضب الرب، وكان من ثم ذلك الطاعون الذى نجم فى المشرق قبل عدة سنوات، وسرعان ما عصف بحيوات من لا تحصى أعدادهم، وتنقل من صقع إلى آخر دون أن يتوقف فى أحدها، إلى أن عمَّ ويا للأسف الغرب كله، ولم يجد معه علم ولا بصيرة، وعل الرغم من أن المدينة كان يتم إخلاؤها دائمًا من معظم ما يكون بها من قاذورات، بفضل نخبة من العاملين بها، كما كان يمنع المرضى من دخولها، حفاظًا على صحة أهلها، ومع أن التضرُّعات والابتهالات كانت تتردَّد فى أفيائها مرات ومرات، وكانت تتخذ أحيانًا هيئة مواكب يقوم عليها مؤمنون أتقياء ابتغاء مرضاة الله، على الرغم من كل ذلك، فإنه لدى الربيع شرع الطاعون يجتاح المدينة على نحو غير متصور؛ إذ لم يعلن عن نفسه، مثلما فعل فى المشرق، حيث كان نزف الدم من الأنف نذيرًا على موت محتم. وفى بداية المرض كان الرجال والنساء جميعهم يصابون بأورام أعلى الأفخاذ أو تحت الآباط، ليصل حجم الورم أحيانًا إلى حجم التفاحة أو البيضة، وكانت بعض هذه التورمات كبيرةً وبعضها الآخر صغيرةً، ودرج العامة على أن يدعوها بثورًا، ومن هذين المكانين كانت تلك البثور تنتشر لتعم الجسم كله، وسرعان ما تتحول إلى لطخات سوداء بَشِعَة على الذراعين والفخذين والبدن كله، وكان لتلك اللطخات المعنى نفسه عند كل إنسان تظهر عليه... وهكذا كانت قساوة السماء فبين مارس إلى يوليو من عام (١٣٤٨م) كان قد هلك ما يناهز المائة ألف من سكان فلورنسا، نتيجةً للدمار الذى صاحب الطاعون، ونتيجة لوحشية الناجين فى تعاملهم مع مرضاهم، ترى من كان يظن قبل الوباء أن تلك المدينة كانت تضم ذلك الحشد الهائل من السكان"!!(٢٨).

بينما كان تقدير "بوكاتشيو" لنسبة المَوَتان عاليًا، فإن غالب الباحثين يقدرونها بما يتراوح بين خمس وأربعين بالمائة إلى خمس وسبعين بالمائة من جملة التعداد الكلى لسكانها، ربما مات ثلثهم خلال ستة أشهر، وكانت النتائج المباشرة فادحةً بأى قياس،

(*) (١٣١٣-١٣٧٥م)، من أعلام عصر النهضة انتهى من تأليفه للديكامرون Decameron أى "الأيام العشرة" فى عام (١٣٥٣م).

فقد أغلقت الحوانيت، وارتفعت أسعار المواد الغذائية والسلع الرئيسة. بانهيار الأسواق التي كانت تأتيها تلك السلع من الريف المجاور للمدينة، التي لاذ أثرياؤها بالفرار منها، وأضحى الأطباء والعقاقيريون يتقاضون أتعابًا باهظةً نظير خدماتهم، كما أضحت الشوارع قفراء خاليةً تتردد فيها أصداء أصوات العربات المخصصة لالتقاط الموتى. ويصف "بوكاتشيو" المشهد بعبارة تقطر شجنًا؛ فيقول: "درج كثير من الجيرة على عادة، لم يكن يدفعهم إليها تعاطفهم مع الموتى ولا إحسانهم إليهم بقدر ما كان الخشية مما قد يلحق بهم من أذى ناجم عن تعفن الجثث، وتتلخَّص هذه العادة في إخراج تلك الجثث من بيوتها ... ووَضْعها أمام تلك البيوت، بحيث يصير في إمكان المارة خصوصًا في الصباح أن يجمعوا ما لا يحصي عددًا منها، ثم يحملوها في توابيت ... وكثيرًا ما كانوا يحشرون ميتَين أو ثلاثةً وربما أكثر في تابوت واحد، وقد يجعلون في هذا التابوت المرأة وزوجها وهلم جرًا، وكان يتصادف أن يكون هناك قسَيسان يتقلدان الصليب، يمضيان في طريقهما لإقامة قُدّاس جنائزي لأحدهم، فيقوم بعض الحمالين بإضافة ثلاثة أو أربعة توابيت إلى ذلك التابوت، وعندها يتنبه القسيسان إلى أنه ليست هناك جثة واحدة، إنما ثلاث أو ست أو حتى ثمان وأحيانًا أكثر، ولم يكن يتم تكريم هؤلاء الموتى بالبكاء عليهم أو إشعال الشموع، فقد كان لروعة الحدث وجلاله أن صار الاهتمام في أيامنا بمن يموت لا يزيد عن الاهتمام بموت عنزة[٢٩]".

وعلى غرار جيرانهم من أهل سيينا نجح الكثيرون من أهل فلورنسا نهجًا إبيقوريًا(*)، فكانوا يشربون ويُعَرْبدون وينفقون الأموال، وهجر الآباء أبناءهم والأزواج زوجاتهم، ونبذ آخرون أقرباءهم المرضى، وظهرت جماعة تعرف بالـ becchini يعود رجالها إلى أصول متواضعة، كما كان معظمهم مصابين بالطاعون، فكانوا يجرِّدون الموتى من أشيائهم الثمينة، ويُقْدِمون على أفعال لا يُقْدِمُ عليها غيرهم، كما كان بعضهم يلجأ إلى السَّلْب والنَّهب والاغتصاب، والاعتداء على الآخرين أو حتى قتلهم، ويقتحمون دُور المرضى، ويهددون بأن يحملوا إليها هؤلاء الذين ما يزالون أصحاء، إلا إذا استجابوا لما يطلبونه منهم، وأصبحت الشوارع بسببهم مقفرةً ويذهب الإخباري "ستيفاني" Stefani إلى أن الأصوات الوحيدة التي كانت مسموعةً إذ ذاك، هي أصوات عربات الأغنياء الذين كانوا يفرّون بمتعلقاتهم وعربات الحنوطية المسرعة لنقل الموتى.

(*) نسبةً إلى "إبيقور" Epicurus (ح ٣٤٢-٢٧٠ق.م)، فيلسوف يوناني يذهب إلى اجتناب الألم والبحث عن اللذة.

لدينا معلومات أكثر تفصيلاً عن الموت الأسود وآثاره، تتجلى في تجربة المدينتين الإيطاليَّتين البندقية وميلان، فكانت البندقية هي كبرى مدن أوروبا[٣٠]، وأكثرها ثراءً. وعلى العكس من معظم المدن الواقعة حول حوض البحر المتوسط، فقد ظلت محتفظة بازدهارها حتى تبدَّت طلائع الموت الأسود، إذ كان يقيم بها ما يتراوح بين المائة والعشرين ألفًا والمائة والخمسين ألفًا، وكان رخاؤها يستند إلى ما حققته من نجاحات في مجال التجارة خصوصًا في شرقي المتوسط، وتهيأت لها حكومة أو ليجاركية(*)، قنصلية مستقرة، وجماعات من عمال الصناعة الذين كانوا يحظون بأجور هي الأعلى في أوروبا بأسرها، وكانت تلك الأوليجاركية تتحكم في إنتاج مختلف الصناعات الرئيسة وتسويقها، بما في ذلك صناعة السفن وصناعة الزجاج، كما كان لها نظام فعَّال للمضاربات التجارية، وتحقّقت للبنادقة إمبراطورية بحرية، تضم أجزاءً من البحر الأسود وسواحل بلاد الشام ودلماشيا Dalmatia(**)، وكثيرًا من الجزر المتوسطية المهمة، ومثلما كانت الحال في أورفييتو، فقد توافر بها نظام محكم للصحة والصحة العامة، يحوى أطباء مدنيِّين ومستشفيات، وبفضل ما كانت تتمتع به من حكومة كفء ومؤسسات طبية، فإنها كانت مهيأة أكثر من أي مدينة مسيحية أخرى للتعامل مع الطاعون، لكنه وبعكس ما كان متوقعًا ما لبث أن عصف بها، وقد كتب أهم مؤرخ لها وهو "لين" F.C.Lane يقول إن الموت الأسود "كان له تأثيره العميق في تاريخ البندقية الديموغرافي".

يترجح لدينا أن القواديس Galleys(***)، البندقانية هي التي أتت بالطاعون من كَفَّة في أواخر عام (١٣٤٧م)، وقد صار وقعه شديدًا في الشتاء التالي والربيع، فكان يفتك كل يوم بستمائة من ضحاياه، مما اضطر الدوج أندريا داندولو Doge Andrea Dandolo(****)، ومجلس الأعيان إلى إقامة نظام محكم للحجر الصحي ونظام محكم آخر للوقاية من المرض، وخصصت زوارق بعينها لنقل الضحايا إلى جزر معينة داخل الهور

(*)أي حكومة الصفوة.

(**) في صربيا الحالية.

(***) السفن الشراعية ذات المجانيف.

(****) (١٣٠٦-١٣٩٢م)، مؤرخ ورجل قانون ينتمي إلى عائلة عريقة، درس في جامعة پادوا، وأصبح أستاذًا بها إلى أن انتخب دوجًا (دوقًا) للبندقية، وكان صديقًا لـ"پترارك".

Lagoon(*)، وكان الموتى يُوَسَّدون على أعماق تصل إلى خمسة أقدام على الأقل تحت سطح الأرض، وفرض حَجْر صحِّي على السفن الواصلة مدته أربعون يومًا، وكان كل من ينتهك ذلك الحظر يعرض نفسه لعقوبة الإعدام، وتغيرت الطريقة التى كان يمارس بها الأطباء أعمالهم، وأتيحت الفرصة للجراحين الذين كانوا أدنى منهم درجةً لأَن يمارسوا مهنتهم باعتبارهم أطباءً محترفين، وقد أتى ذلك كرد فعل "لهرب الأطباء خوفًا ورهبة" وتعد خطوات مثل تلك جديرةً بالإعجاب، على أنه كان مقدرًا لها الفشل بسبب إتيولوجية الطاعون، ولأنه تم الحفاظ على سجلات البندقية، فقد كانت الأرقام الرسمية الخاصة بها أكثر دقةً منها فى أية مدينة إيطالية أخرى، وعليه فيقدر "لين" أن ستين بالمائة من سكانها هلكوا خلال ثمانية عشر شهرًا منذ ديسمبر (١٣٤٧م)[٢١].

كانت ميلان هى المدينة الرئيسة فى السهل اللومباردي، فقد كانت تتحكم فى معظم التجارة الواردة عبر جبال الألب من شمالى أوروبا، وكان يقيم بها فى عام (١٣٤٨م) قرابة المائة ألف وبذا فقد أضحت مثل جنوة وفلورنسا وروما والبندقية واحدةً من كبريات مدن إيطاليا، ومع ذلك فقد تفردت عن تلك المدن بطبيعة حكومتها؛ إذ كان يستبد بها حاكم من عائلة ڤيزكونتى Visconti جمع فى يديه سلطات أكبر من تلك التى اجتمعت لدى أى حاكم آخر معاصر له. وعندما تناهت أخبار الموت الأسود إلى ميلان، بادرت تلك العائلة ونصحاؤها إلى اتخاذ ما يلزم إزاءه، فقامت بسَدِّ مداخل البيوت التى كان يتبين وجود ضحايا للطاعون بها، فيعزلون ما بداخلها أصحاءً ومرضى على سواء، وأصبحت تلك الطريقة مألوفةً، حتى أن كثيرًا من أصحاب البيوت، كانوا يحذون حذوها، وكانوا يقدمون فى بعض الأحيان على قتل أفراد من عائلاتهم. وبسبب تعدد وسائل انتشار الطاعون، فلم يكن لمثل تلك الضوابط أن تحدَّ من نسبة المَوَتان، ومع ذلك فقد كانت تلك النسبة أقل من خمس عشرة بالمائة، وفيما خلا عدد قليل من القرى الألبية، فربما كانت تلك النسبة هى الأقل فى إيطاليا بأسرها. وبوجه عام فقد عانت تلك البلاد التى تُعَدُّ همزة الوصل فى التجارة الأوروبية بشدة، بسبب تعدد المنافذ التى تسرب من خلالها الطاعون، وتذهب

(*) مجموعة من الجزر الصغيرة المتقاربة داخل مساحة مائية قريبة من الشاطئ، وتعد البندقية (ڤينسيا) مثالاً واضحًا لها وتقابلها فى بلادنا العربية البطيحة أو البطائح وهى أهوار العراق.

أكثر التقارير اعتدالاً إلى أن تُقدَّر نسبة الموتى بين أهلها بثلاثة وثلاثين بالمائة، لكن بعض الباحثين يرتفعون بها إلى أربعين بالمائة أو حتى خمسين بالمائة، وإذا نحن أخذنا فى اعتبارنا المجاعات التى وقعت فى أوائل القرن الرابع عشر، يصبح من المحتمل أن يكون عدد سكان إيطاليا قد تراجع بمقدار يتراوح بين خمسين بالمائة إلى ستين بالمائة بين سنتى (١٢٩٠م) و (١٣٦٠م).

انطلاقًا من إيطاليا اقتحم الموت الأسود الحوض الغربى للبحر المتوسط، فوصل فى يناير (١٣٤٨م) إلى مرسيليا، وهى ميناء فرنسية مهمة، ويذهب بعضهم إلى هلاك خمسين ألفًا من سكانها وهو رقم مبالغ فيه، وربما يفوق عدد سكانها جميعهم[٣٢]، ومع ذلك فإن ما جرى فى بداية ذلك الشهر من طاعون رئوى ارتفع بنسبة المَوَتان إلى خمسين بالمائة أو ستين بالمائة، وكانت مونبلييه Montpellier هى كبرى المدن الواقعة فى جنوبى فرنسا بعدد من السكان يناهز الأربعين ألفًا، تليها ناربون Narbonne[*]، بسكانها الذين كان يتراوح عددهم بين خمسة وعشرين ألفًا إلى الثلاثين ألفًا وكاركاسون Carcosone[**]، وتولوز Toulouse ومونتوبان Montauban وبوردو Bordeaux[***]، التى كانت تعد مدينةً داخليةً أكثر منها مدينةً متوسطيةً، وكانت تلك المدن جميعها قد أصيبت بالطاعون فى صيف (١٣٤٨م)، ووصلت نسبة الموتى بها إلى أربعين بالمائة من جملة السكان، لكنها وصلت فى بعضها إلى ما هو أعلى من ذلك. ففى مونبلييه على سبيل المثال كان جملة من تبقى على قيد الحياة من رهبانها الدومينيكان البالغ عددهم مائةً وأربعين سبعةً فقط، ويذهب الإخباريون إلى أن رهبانها الفرانسيسكان البالغ عددهم مائةً وخمسين إما هلكوا أو لاذوا بالهرب.

لدينا دراسة دقيقة أجريت حول ما خلفه الموت الأسود فى پرپنيان Perpignan[٣٣]، وهى مدينة تقع إلى الشمال مباشرةً من الحدود الإسبانية، وتنحصر بين جبال البرتات Pyrenees والبحر المتوسط بعدد من السكان، كان يتراوح بين اثنى عشر ألفًا وخمسة

(*) نربونة أو أربونة فى المصادر العربية.

(**)قرقشونة فى المصادر العربية.

(***) برذال فى المصادر العربية.

عشر ألفًا، ولا توجد لدينا أرقام متاحة عن عدد موتاها، لكنه توجد مادة طيبة عن فئات بعينها كانت تقيم بها. فبين مائة وخمسة وعشرين من كُتَّابها العُدول بقي على قيد الحياة خمسة وأربعون، وبين تسعة من أطباء البلدية بقي طبيب واحد، وبين ثمانية عشرة من حلاقي الصحة بقي اثنان، وكانت توجد بالمدينة جماعة يهودية كبيرة درج جيرانها من المسيحيين على الاقتراض منها، ولدينا سجلات تبين أنه تم في يناير (١٣٤٨م) عقد ستة عشر قرضًا ارتفعت إلى خمسة وعشرين في فبراير ثم اثنين وثلاثين في مارس، وفي الأيام الأحد عشر الأوَل من أبريل انخفضت إلى أقل من ثمانية، لكنها كانت قريبةً من المعدل، وعندما أتى الموت الأسود كان هناك ثلاثة خلال الأيام المتبقية من أبريل، ثم لم تعد توجد هناك أية قروض حتى أواسط أغسطس.

كانت أفينيون Avignon(*)، التي تقع على نهر الرون على مبعدة خمسين ميلاً من مرسيليا مقرًا للبابوية[٢٤]، وعلى الرغم من اكتظاظها بسكانها، إلا أنها كانت مدينةً جميلةً، يجتاز بها مسافرون عابرون كان يتراوح عددهم بين عشرين ألفًا إلى خمسين ألفًا، وبحكم كونها مقرًا للبابوية(**)، فقد كانت فاحشة الثراء ومركزًا لنشاطات كنسية ومالية وتجارية فائقة، ويحتمل أن ظهر الموت الأسود بها في شتاء (١٣٤٨م)، ومثلما كانت الحال مع مرسيليا، فيترجح أن مصدره كان الطاعون الرئوي، وهو ما تؤكده نسبة الموتى العالية؛ فكان جملة من يهلكون يوميًا في المدة من فبراير إلى مايو أربعمائة، وخلال ستة أسابيع كان جملة الهالكين أحد عشر ألفًا، دُفنوا جميعهم في مقبرة واحدة، كما هلك بها كذلك واحد على الأقل من كل ثلاثة كرادلة، وربما جاوزت النسبة الكلية للموتى حاجز الخمسين بالمائة. والحق فقد تعامل البابا "كليمنت السادس"(***) مع تلك المشكلة بحكمة ومسئولية، وكذا كانت حال غالب رفقته من رجال الكنيسة، لكنهم لم يلبث أن شملهم الرعب جميعًا؛ حيث إن نسبة الموتى بينهم كانت هي الأعلى في أوروبا بأسرها. ويذهب الإخباري الإنجليزي "هنري نايتون" Henry Knighton(****)، إلى أن خمسة

(*) وتدعى في المصادر العربية أبنيون.

(**) في سنة (١٣٠٥م) اتخذ البابا "كليمنت الخامس"، مدينة أفينيون في فرنسا مستقرًا له بدلاً من روما، وتابعه في ذلك خلفاؤه حتى سنة (١٣٧٧م)، حين عادت البابوية مرةً أخرى إلى روما.

(***) (١٢٩١-١٣٥٢م)، وولي البابوية (١٣٤٢-١٣٥٢م).

(****) (ت. ١٣٩٦م) راهب ومؤرخ كنسي إنجليزي.

وستين من الرهبان الكرمليين Carmelites(*)، ماتوا في أفينيون خلال الأسبوع الأول من الموت الأسود، وأصدر "كليمنت" عدة مراسيم بابوية تحث على الهدوء، وخفف من قواعد الغفران، وحفز إلى الزهد وإقامة المواكب الدينية، إلا أنه ما لبث أن عَدَل عنها بعد أن تضخَّمت أعداد تلك المواكب وأفلت زمامها، كما أصدر مراسيم أخرى لحماية اليهود وشجب حركة السياطين Flagellants(**)، وهي حركة نجمت في أواسط أوروبا، وأخذ في تلمُّس الرأي الطبِّي المسئول، وأخيرًا وبعد أن تصاعدت أعداد الموتى في الربيع استكان "كليمنت" لنصيحة طبيبه "جي دي شولياك" Guy de Chauliac(***)، ولاذ بالفرار من المدينة، وجعل مستقره في ڤالنس Valence التي تقع على نهر الرون، ثم عاود إلى أفينيون حالما هدأ الطاعون.

امتدت العدوى إلى الأرياف الجنوبية من فرنسا في صحبة الهاربين من الموانى البحرية والقوارض المصابة، وفي تلك الأرياف - كما في إيطاليا- داهم الموت الأسود وضعًا كان في أصله متفاقمًا: من خراب شامل خلفته المجاعات التي وقعت في أوائل القرن الرابع عشر، ومعارك حرب المائة عام؛ ففي كونتية نيس على سبيل المثال كان ثلث سكانها قد هلكوا بين سنتي (١٣٠٠م) و (١٣٤٨م)، ولكن - وكما كانت هي الحال في أي مكان آخر- كان الموت الأسود هو الطامة الكبرى[٣٥]، وقد وجه أقسى ضرباته إلى ولاية لانجدوك Languedoc: ففي ألبي Albi - وهي سوق تقع شرقي نهر الجارون Garonne- تبين لدينا من سجل يختص بضريبة تدعى Compoix أنه قد انخفض عدد من يؤدونها من عشرة آلاف في (١٣٤٣م) إلى خمسة آلاف في (١٣٥٧م)، وبطبيعة الحال فلا أحد يهوى دفع الضرائب، وربما لم يكن هذا الهبوط ليتلازم مع هلاك خمسين بالمائة من سكان المدينة، لكن لم تكن الحال كذلك في قرية أخرى كبيرة هي مارسيارجي Marsillargues التي كان يعيش فيها قبل الطاعون حوالي الألف، فأتى الموت الأسود على نصفهم، وكذلك كانت الحال في مدينة جانج Ganges بإقليم سيڤان Cevannes على نهر هيرو Herrautt: ففي (١٣٣٩م) كان يوجد بها ما يناهز الثلاثمائة ناخب بجمعيتها المحلية، وفي (١٣٥٠م) صار عددهم مائةً وأربعين.

(*) جماعة رهبانية تأسست عام (١١٥٥م) تقريبًا، عند جبل الكرمل بفلسطين على يدي "برتولد" Berthold، وهو محارب صليبي، وتم الاعتراف بها في (١٢٢٦م).

(**) ويأتي الحديث عنهم في الفصل التالي.

(***) (١٣٠٠ - ١٣٦٨م)، طبيب فرنسي وجراح له كتاب مهم في الجراحة ترجم إلى عدة لغات.

يقدر عدد من أفناهم الموت الأسود في ولاية لانجدوك وهي واحدة من أغنى ولايات فرنسا بخمسين بالمائة، وكانت العواقب كارثية؛ فقد انهارت سوق المنتجات الزراعية، الأمر الذي كان من شأنه أن يسدد ضربةً قاضيةً إلى المحاصيل النقدية المتخصصة، والتي كانت تشكل واحدًا من عُمُد الاقتصاد في المنطقة بأسرها؛ فقد شهدت زراعة الكروم كمثال تراجعًا استمر إلى القرن السادس عشر، حتى أن أهم نشاط زراعي في المنطقة، وهو زراعة الحبوب، عانت من انخفاض الطلب عليها. ولما كانت لانجدوك تعتمد بشدة على اقتصادها الريفي؛ فقد نشأت فيها حالة يسميها المؤرخون (Wüstungen) أي "هجر الحقول الصالحة للزراعة"، وكان هذا الهجر يشمل أحيانًا قرى بأسرها، وكان السبب بطبيعة الحال هو الانخفاض في عدد السكان الناجم عن الطاعون[٣٦]. على أن ذلك الخراب الذي حل بأفينيون لم يكن استثناءً؛ ففي إقليم بروفانس – وهو إقليم غني يقع على طول نهر الرون– يُقدَّر عدد من هلك من سكانه بالموت الأسود بنصفهم، وفي بعض أنحائه وصل عددهم إلى سبعين بالمائة، وبذا عانت بروفانس من الظاهرة ذاتها، وأثبت الموت الأسود أنه الأكثر فتكًا في سلسلة النكبات الديموغرافية التي توالت منذ أواخر القرن الثالث عشر.

ومثلما كانت الحال في إيطاليا، فقد عانت أيبريا أهوالاً، عندما حل الموت الأسود بها آتيًا من عدة جهات[٣٧]؛ فقد اتخذ ثلاثة مسارات على الأقل لدى اقتحامه لها: أولها من الجنوب عبر مضيق جبل طارق، أي إنه أتى من البلاد الإسلامية(*)، التي تقع بشمالي إفريقيا إلى جنوبي أيبيريا، وثانيها من الشمال عبر جبال البرتات إلى قرى الباسك Basques(**)، وثالثها – وربما أهمها– من إيطاليا بواسطة السفن التجارية التي كانت تحط بجزر البليار Balearics(***)، ومنها إلى أهم ميناءين لدى الساحل الشرقي؛ وهما برشلونة Barcelona وبلنسيه Valencia، وكانت أيبيريا إذ ذاك شأنها شأن فرنسا، ساحةً لحروب متصلة تمزقها، لدى اقتحام الموت الأسود لها، فكانت أرغونة Aragon المسيحية

(*) في الأصل خلافات إسلامية Moorish Caliphates، وهذا غير صحيح؛ فلم تكن توجد خلافات إسلامية في تلك الوقت بشمالي إفريقيا.

(**) وهم البشكنس في المصادر العربية.

(***) وتدعى في مصادرنا العربية بالجزائر الشرقية، وكبراها ميورقة Mallorca أو Majorca.

والبرتغال المسيحية في حالة حرب، كما كان القشتاليون(*)، يحاربون مسلمي غرناطة Granada، وكان جيش "ألفونسو الحادي عشر"(**) يحاصر قلعة جبل طارق، عندما حل الموت الأسود بالطرفين، وأبى "ألفونسو" أن يتخلّى عن جيشه، وسرعان ما أصيب بالطاعون، ومات في مارس (١٣٥٠م)؛ وبذا فهو يُعدُّ الملك الأوروبي الوحيد الذي هلك به.

كان جبل طارق واحدًا من أقاليم أخرى في أيبيريا اجتاحها الموت الأسود، وتعود أولى الحالات المسجلة له إلى عام (١٣٤٨م)، وحيث إنه لا توجد مادة محددة متوافرة لدينا عن إسبانيا والبرتغال فإنه يتعذر علينا أن نقيس بدقة التأثير الديموغرافي للموت الأسود. وكانت برشلونة وبلنسية من كبريات مدن إسبانيا، وكان تعدادهما في المرحلة السابقة للطاعون خمسين ألفًا وثلاثين ألفًا على الترتيب، ويقدر الموتى في كل واحدة منهما بما يتراوح بين ثلاثين بالمائة وأربعين بالمائة. أما في أرغونة وقطالونيا وغرناطة والبرتغال فقد وصل إلى ثلاثين بالمائة في حين تراوح في قشتالة – القليلة السكان– بين العشرين بالمائة والثلاثين بالمائة، وتعطلت مؤسسات العدالة وتنفيذ الأحكام في أيبيريا بأسْرها، وانتشر فيها النهابون والعصابات الإجرامية وكانت قوافل الحج إلى ضريح القديس "يعقوب"(***) في كومبوستيلا Compostela – وهو واحد من أقدس الأضرحة المسيحية في أوروبا– تتعرض للسلب والنهب، وعلى غِرار ما جرى في أڤينيون، فقد استجابت السلطات الملكية، واتخذت الإجراءات اللازمة، فأصدرت تشريعات لمراقبة الأسعار والأجور وهبات الطعام اللازمة لتغطية النقص المحلي منه، وأقام "بدرو Pedro الرابع"(****)، ملك أرغونة حجرًا صحيًّا، وهي محاولة نبيلة منه وإن لم تكن فعالةً، لعزل الموت الأسود في بعض أنحاء مملكته.

كذلك فقد بذلت جهود أخرى ملكية[٣٨] لحماية اليهود، فقد كان يوجد في أيبيريا واحد من أكبر التجمعات اليهودية الناجحة، وعلى الرغم من حالات فردية من معاداة

(*)نسبة إلى قشتالة Castilla كبرى الممالك الإسبانية.

(**) (١٣١٢–١٣٥٠ م)، انتصر على المسلمين انتصارًا كبيرًا عند نهر سالادو Salado في (١٣٤٠م) واستولى على مدينة الجزيرة Algeciras في (١٣٤٤).

(***) ويعرف في مصادرنا العربية بشنتياقُب.

(****) (١٣٣٦-١٣٨٧م)، مكَّن للملكية في أرغونة، وذلك بعد أن انتصر على النبلاء المنشقِّين عنه والبلديات في (١٣٤٨م).

السامية، فقد عومل اليهود فى تلك البلاد بأفضل مما عوملوا به فى أية أقطار أخرى من العالم المسيحي، وكانوا يُزاولون أعمالهم بأعداد كبيرة: كجباة ملكيين للضرائب وأطباء وصيادلة ومترجمين ومديرين للضياع الواسعة فى شبه الجزيرة بأسرها، وقد أتى الموت الأسود على ذلك التسامح، وبدأت حقبة عنيفة من معاداة السامية، انتهت إلى اقتلاع أحد المجتمعات اليهودية الزاهرة، فقد سرى بين كثير من المسيحيين اعتقاد بأن اليهود هم الذين أتوا بالموت الأسود، وذلك بتسميمهم الآبار، وهى فكرة قديمة تعود إلى عام (١٣٢١م)، حين أدين عدد من المجذومين فى إقليم لانجدوك بتسميم آبار وتم إعدامهم، ثم تعالت أصوات بأن اليهود هم الذين حرضوهم على ذلك، وظلت تلك الفكرة ساريةً فيما بعد: ففى (١٣٤٨م) – وفى مدينة نويشتات Neustadt بألمانيا، وبعد مَطّة بآلات التعذيب– اعترف يهودى اسمه "بالوفيجنوس" Balovignus بأنه قام بتسميم آبار محلية، وادعى أن صبيًا يهوديًا أرسله إليه الحاخام الأكبر بطليطلة Toledo، اصطحب معه مسحوقًا، استخدمه "بالوفيجنوس" فى تسميم الآبار خشية أن يفرض عليه هذا الحاخام عقوبة الحرمان. ولم يلبث أن امتد الاضطهاد(*) فى ألمانيا إلى كل مكان يوجد به يهود. ولم يكن الإسبان بحاجة إلى مثل تلك الحجة فقد أفضى الانهيار الشامل فى القانون والنظام، إلى أن أضحى اليهود على نحو خاص عُرْضةً للهجوم، لا سيما إذا ما كانوا أغنياءَ، على أنه سرعان ما نهض ملكا قشتالة وأرغونة بحماية رعاياهم من اليهود، واقتضى ذلك سنتين حتى تعود الأمور إلى نصابها، وفى تلك الأثناء كانت أعداد اليهود قد تضاءلت إلى الربع مما كانت عليه قبل ذلك.

فى عام (١٣٥٠م) كان الموت الأسود يتَّخذ طريقه فى حوض البحر المتوسط، فهلك ما بين خمسة وثلاثين بالمائة إلى أربعين بالمائة من جملة السكان، ويلخِّص الإخبارى الفلورنسى "فيللاني" الأزمة التى صاحبت الطاعون؛ فيقول: "بعد ما عاث فى تركيا وبلاد اليونان، وامتد من هنالك إلى المشرق كله وبلاد ما بين النهرين وسوريا وكلديا(**)، وقبرص ورودس وجزر الأرخبيل اليوناني، وثب الطاعون المذكور على صقلية وسردانية

(*) يستخدم المؤلف هنا تعبير Pogroms، وهو تعبير كان يطلق على سلسلة الاضطهادات التى أصابت اليهود فى روسيا القيصرية فى أواخر القرن التاسع عشر، ومهدت بذلك الطريق إلى قيام الحركة الصهيونية.

(**) تعبير كان يطلقه الغربيون أحيانًا على جنوبى العراق؛ حيث كان يعيش الكلدانيون.

وكورسيكا وإلبا Elba(*)، ومن هناك ارتحل على عجل إلى سواحل القارة الأوروبية، وكان بين كل ثمانية قواديس جنوية ترتحل إلى البحر الأسود تعود أربعة فقط منها محمَّلةً بتجار أصابتهم العدوى واحدًا بعد الآخر. وكان كل واحد منهم لدى وصوله إلى جنوة يموت بعد أن يكون قد أفسد الهواء، لدرجة أن كل من كان يقترب منهم يموت بعد يسير، ولدى الإصابة بهذا المرض كانت تظهر أورام معينة في أعلى الأفخاذ وتحت الآباط، ثم يبصق المريض دمًا. وخلال ثلاثة أيام يموت، وكان القس الذى يقوم على الاعتراف ومن يقومون على التمريض يلتقطون العدوى، حتى أنه كان يتم التخلى عن الضحايا فيحرمون من الاعتراف وأسرار الكنيسة والدواء والتمريض. وأضحت مدن كثيرة وأراض موحشةً، واستمر الطاعون حتى .... [٣٩].

تعمد "فيللاني" أن يترك مساحةً خاليةً عند نهاية الجملة الأخيرة، وكان بصدد أن يسجل فيها التاريخ الذى انتهى عنده الموت الأسود، لكنه لم يكن بقادر على ذلك؛ حيث إنه لم يلبث أن مات فى ذلك العام (١٣٤٨م) عام الرعب annus terribilis.

(*) جزيرة تقع فى البحر المتوسط قريبةً من السواحل الإيطالية، وكانت منفى لـ"نابليون بونابرت".

الفصل الرابع

الطاعون يزحف شمالاً

من جنوبى فرنسا - وعلى طول مجارى الأنهار كالرون، وعبر الطرق التجارية الرئيسة- بدأ الموت الأسود يزحف شمالًا. وكانت فرنسا - إذ ذاك - هى أكثر الممالك المسيحية سكانًا، فكانت تضمُّ ما يتراوح بين ثمانية عشر مليونًا إلى أربعة وعشرين، وكان الشطر الشمالى منها يشكل جزءًا من السهل الأوروبى العظيم، الذى يُعدُّ بذاته واحدًا من أضخم نطاقات القمح فى العالم بأسره. وعلى الرغم من المجاعات التى وقعت فى بدايات القرن الرابع عشر، وما خلفته حرب المائة عام من دمار، فقد كانت توجد بريفها كثافة سكانية أعلى مما هى عليه فى أى مكان آخر بالغرب، ومثلما عصف الموت الأسود بالمناطق الشمالية والوسطى من إيطاليا، فكذا كانت الحال فى ريفها.

كانت قرية جيفرى Givry بمقاطعة بورجنديا Burgundy(*)، واحدةً من الأماكن القليلة فى أوروبا التى وصلتنا منها سجلات تعود إلى ما قبل القرن السادس عشر[١]، وتوضح لنا تلك السجلات أن عدد سكانها فى عام ١٣٤٠م كان يتراوح بين ألف ومائتين إلى ألف وخمسمائة، وبين سنتى ١٣٣٨م و ١٣٤٨م كان معدل الموتى بها فى العام الواحد ثلاثين، ويُعدُّ رقمًا منخفضًا فى مجتمع ما قبل الصناعة، لكنه لم يلبث أن تصاعد فى عام ١٣٤٨م؛ فخلال أربعة عشر أسبوعًا كان قد هلك من سكانها ستمائة وخمسة عشر، أى إن معدل الموتى أضحى قرابة الخمسين بالمائة من السكان. ولدينا معلومة أخرى أفضل، تعود إلى دوقية نورماندى Normandy[٢]؛ ففى غالب قُراها صارت الراية السوداء ترتفع

(*) تعرف فى الموارد العربية ببرغونية.

فوق كنائسها، منذرةً بحلول الموت الأسود بها، وفي قُرى أخرى تقع على نهر ڤير Vire: وهى لاجراڤيرى La Graverié ولاليڤيرى La Léverie وسان مارى لامون St. Marie Lamont، وخلال المدة بين يوليو وسبتمبر، كان نصف سكان سان مارى قد هلكوا. وفى لاليڤيرى ماتت صاحبة الضيعةَ، ولم يُتمكن من دفنها لأن قسيسها اختفى، ولم تتوافر الإمكانية لحضور كاهن من كنيسة أخرى مجاورة، وفى لاجراڤيرى تعفَّنت جثث الموتى على فُرُشهم، وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة، وتُبين لنا دراسة مهمة أجريت في نورماندى فى أواخر العصر الوسيط، أنها كانت شأنها شأن لانجدوك تعيش أزمةً عامةً، بدأت فى تسعينيات القرن الثالث عشر وعشريات القرن الرابع عشر، وفاقمتها أحداث حرب المائة عام، لكنه كان من شأن تلك الأزمة أن تتضاءل إذا هى قورنت بأزمة الموت الأسود، حين وصل عدد الموتى إلى ذروته فى أواخر الربيع من عام ١٣٤٨م ثم صيفه، وهلك ما يزيد على ثلث السكان.

كانت توجد فى شمالى فرنسا مدن كثيرة مهمة صار الموت الأسود فيها أشد فتكًا مما هو فى ريفها؛ ففى كان Caen وروان Rouen، وهما معًا كبرى مدن نورماندي، تراوحت نسبة الموتى بين أربعين بالمائة وخمسين بالمائة، أما فى تورناى – Tournai التى تقع على التخوم مع البلاد الواطئة، واشتهرت بأهميتها الفائقة فى صناعة النسيج – فكان أسقفها فى طليعة من ماتوا. وكما كانت عليه الحال فى نورماندي، فقد وصل الموت الأسود إلى ذروته فى أواخر الصيف.

"كانت أجساد الموتى يُؤتَى بها كل يوم إلى الكنائس: الآن خمسة، ثم عشرة، إلى خمس عشرة، ووصلت فى كنيسة سان بريس St. Brice إلى عشرين أو ثلاثين، وتوجب على القائمين على الكناس الإبروشية كافة – وفى مقابل ما يتقاضونه من أتعاب– أن يقرعوا نواقيس الموت صباح مساء، بينما كان الرعب يجتاح سكان المدينة جميعهم رجالًا ونساءً."[٢].

حل الموت بباريس فى أواخر الربيع من عام ١٣٤٨م، وربما أتاها عبر طرق التجارة الممتدة إلى الشمال من ليون Lyons(*)، ووادى الرون، وكانت باريس هى كبرى المدن فى

(*) وتعرف فى مواردنا بلوذون.

شمالى أوروبا بسكانها الذين كانت تتراوح أعدادهم بين ثمانين ألفًا إلى مائتى ألف، ومثلما كانت الحال فى نورماندي، فقد تصاعدت نسبة الموَتان بها خلال أشهر الصيف الحارة، مما يجعلنا نفترض معها كون طاعونها من النوع التعفُّني، ووصل الموَتان إلى ذروته فى أواخر الخريف ومطالع الشتاء، وربما يستخرج من مؤشراته على أنه رئوي، وخلال شهرى نوفمبر وديسمبر، وصل هذا الطاعون إلى أوجه بضحايا تقدر أعدادهم بثمانمائة فى اليوم الواحد. ويلخص "جان دى فينيت" Jean de Venette(*)، وكان راهبًا كرمليًّا وأستاذًا للاهوت فى جامعة باريس، يلخص الموقف حين كتب يقول: كانت أعداد الموتى فى أوتيل ديو Hetel Dieu – المستشفى الرئيس فى باريس– رهيبة، حتى أنه ولمدى طويل كان ما يناهز الخمسمائة منهم يحملون بخشوع كل يوم على عربات ليواروا بالثرى فى المقابر، وكان العدد الجم من الأخوات الطاهرات يقمن على خدمة المرضى برقة وتواضع كبيرين، لا يكترثن بالموت ولا بثناء من أحد، وكانت تتناقص أعدادهن برحيل بعضهن ورقودهن بسلام مع المسيح"[4].

هاك شاهد آخر شائق وصلنا من إبروشية سان جرمان لوكسروا St. Germain l'Auxerrois: فبين ١٣٤٠م ومايو ١٣٤٨م كان ثمانية وسبعون من شعبها قد أوصوا بتركاتهم لكنائسها، ثم وصل عددهم بين يونيو ١٣٤٨م ويناير من العام التالى إلى أربعمائة وتسعة عشرة[5]، ويترجح لدينا أن ثلث سكان المدينة قد لقوا حتفهم خلال الموت الأسود. ولما كانت تلك المدينة بطبيعتها تستلفت الأنظار، وتتوافر بها فرص اقتصادية جيدة، فقد نزح إليها الكثيرون بعد أن رحل الطاعون عنها، لكنها شأنها شأن المدن الأخرى الكبيرة فى إيطاليا، فقد خلَّف هذا الطاعون بها دمارًا هائلًا، ولا أدلَّ على ذلك مما كتبه "جان دى فينيت" فى معرض وصفه للفراغ الذى أحدثه الموت الأسود بها؛ فهو يقول:

"فى عام ١٣٤٨ م تلقى سكان فرنسا ومعظم سكان الدنيا ضربةً تفوق فى هولها الحروب ذاتها، فإلى جانب المجاعة ... والحرب ... كانت الجائحة وأوصابها تلوح بين حين وآخر فى أصقاع عدة من الدنيا؛ فذات يوم من أيام أغسطس عام (١٣٤٨م) وبعد صلاة المساء، وبينما الشمس تؤذن بالمغيب، بزغ نجم كبير شديد اللمعان فوق مدينة

(*) (١٣٠٧–١٣٧٠م)، كاتب حولى فرنسي.

باريس، ومضى فى اتجاه الغرب، ولم يكن مرتفعًا فى سمائنا كغيره من النجوم، بل كان شديد القرب منا، وعندما غربت الشمس وبدأ الليل يرخي سدوله غاب ذلك النجم عن مرآى ومرأى سواى من الرهبان الذين كانوا يراقبونه، وهو يتحرك من مكان إلى آخر، وعندما تقدم الليل بدا لنا ذلك النجم – ويا للغرابة – وقد انبعثت منه أشعة كثيرة، وبينما كانت تلك الأشعة تتساقط على باريس، وهي تمضى فى اتجاه الشرق، اختفى ذلك النجم تمامًا وسرعان ما تلاشى. وحيث إننى أجهل كنهه وطبيعته، فإننى أترك الحكم عليه لأهل الفلك، ومع ذلك فربما كان نذيرًا بمقدم تلك الجائحة الهائلة التى حلّت بعد يسير بباريس وسائر أنحاء فرنسا، بل وغيرها من الأنحاء، وطيلة ذلك العام والعام الذى تلاه شمل المَوَتان الجميع؛ رجالًا ونساءً، شيبةً وشبابًا فى باريس وفى فرنسا وفى سائر أنحاء الدنيا، لقد كان من الهول بحيث كان يتعذَّر معه مواراة الموتى ... واستمر ذلك الطاعون فى معظم سنتى ١٣٤٨م و ١٣٤٩م، ثم مضى، وظلت قرى كثيرة فى الريف ودور كثيرة فى مدن زاهرة خاويةً من سكانها تنعى من بناها، وتحوَّلت قصور فارهة إلى أثرٍ بعد عَيْن، وعمَّ الخرابُ الجمَّ الغفير منها حتى فى مدينة مثل باريس[٦]".

من شمالى فرنسا مضى الطاعون فى زحفه بخطًى ثابتة وعنيدة إلى بيكاردى Picardy، ومنها إلى البلاد الواطئة، وليس من اليسير وصفه أو تصنيفه أو تنميطه، وكان بوكاتشيو وغيره من أعيان القرن الرابع عشر – بمن فيهم أساتذة كلية السوربون الطبية– يدركون تمامًا أن الموت الأسود كان أشد فظاعةً فى المدن؛ لذلك كان ينصحون بالهرب إلى الريف، والحق أنه كان لنصيحةٍ مثل تلك نصيبها من الصِّحَّة؛ لأن نسبة الموَتان فى المناطق الحضرية بأواسط إيطاليا جاوزت حاجز الخمسين بالمائة، فى حين أنها لم تجاوز فى بعض الأرياف بجنوبى فرنسا حاجز الثلاثين بالمائة. على أنه كانت للموت الأسود عدة مسارات؛ فكان يتخذ أحيانًا هيئة الطاعون الدُّمَّلى فحسب، ويتخذ أحيانًا أخرى هيئة الطاعون الدُّمَّلى والطاعون الرئوى وحتى الطاعون التعفُّنى فى آن واحد، الأمر الذى من شأنه أن يفسر لنا لماذا كانت أنماط الموت فى بعض الأنحاء بالبلاد الواطئة – وهى أكثر أصقاع أوروبا بعد شمالى إيطاليا ووسطها حضريةً – تختلف عن أنماطه فى إيطاليا أو شمالى فرنسا؛ ففى غنت Ghent وبريجس Bruges وإيبرس ypres وبروكسل وأنتويرب Antwerp بكونتيتى فلاندرز Flanders وبرابان Brabant، وهى مراكز رئيسة فى صناعة النسيج، بعدد من السكان يتراوح بين العشرين ألفًا والستين ألفًا[٧]، كان مستوى الموَتان

يتراوح بين عشرين بالمائة إلى خمسة وعشرين بالمائة "فقط"؛ أى دون مستوى الموتى الذين هلكوا فى سياق المجاعات الكبيرة فى عشريات القرن الرابع عشر، وعلى العكس من ذلك فقد عانت كونتية هولندا خسائر تتراوح بين ثلاثين بالمائة إلى خمسة وثلاثين بالمائة، وهى خسائر فادحة أدَّت إلى أن توقفت عن استصلاح الأراضى الواقعة حول تسويدر تسى Zuider Zee، بعد ثلاثمائة سنة أمضتها فى حجز مياه البحر وصرفها وإقامة السدود.

ومثل كونتية هولندا كانت إسكندناوة تتّسم بطابع قروى زراعى فريد من نوعه، مع كثافة سكانية منخفضة، ومع ذلك فقد عانت من نسبة عالية من ضحايا الموت الأسود(٨)، ناهزت في بعض أنحائها الخمسين بالمائة، وربما يعود ذلك إلى ما كان يسودها من مناخ شمالى بارد، يهيِّئ بيئةَ مناسبةَ للأمراض الرئوية، ومن ثم للطاعون الرئوي. وقد أتاها الموت الأسود زهاء مايو ١٣٤٩م من قاصيتها شمالًا عبر ميناء برجن Bergen بالنرويج، وكانت برجن واحدةً من كبرى مدائن إسكندناوة، كما كانت مركزًا تجاريًّا رئيسًا من مراكز العصبة الهانزية Hanseatic League ، وهى اتحاد تجارى كان يضم فى معظمه مدنًا ألمانيةً تقع على البحر البلطي. فقد حدث في شهر مايو أن انحرفت إليها سفينة قادمةً من لندن محملةً بالأصواف، وقبل أن تصل تلك السفينة إلى الميناء كان الطاعون قد فتك بطاقمها، ثم جنحت فى النهاية، وصعد إليها رجال البلدية، لكنهم وقبل أن يتمكّنوا من فرْض الحجْر الصحى عليها ، كان الموت الأسود قد وافى الشاطئ، بالضبط كما كانت حاله في مسينا، وربما راودنا الشك فى صحة تلك الرواية، لكنها تصور لنا ما ساد من هول وخراب فى أعقاب الطاعون، ولدى نهاية عام ١٣٥٠م كان الموت الأسود قد عمَّ إسكندناوة بأسرها، وتردَّدت أصداؤه فى بكائية لـ"ماجنوس Magnus الثاني"(*)، ملك السويد؛ يقول فيها: "جزاءً وفاقًا لما اقترفناه من خطايا فقد أنزل بنا الرب عقابًا شديدًا، يتجلى فى موت مباغت أتى على معظم أبناء وطننا".

كان الأفظع من تلك الداهية – التى حلت ببرجن– والأروع هو معاودة الموت الأسود زحفه إلى أقصى بقاع المسيحية غربًا(٩)؛ ففى مطالع القرن العاشر كانت جماعات صغيرة من النرويجيين ثم من الأيسلانديين قد نزحت في اتجاه الغرب، وأمكنها فى غضون القرن

(*) (١٣١٩-١٣٦٥).

الثاني عشر أن تقيم مستقرات لها على طول سواحل جرينلاند الشرقية منها والغربية، وحيث إنها كانت تعتمد في معاشها على مؤن تأتيها من إسكندناوة، فربما أتاها الطاعون من المراكب المحملة بتلك المؤن. ويذهب غالب الباحثين إلى أنه ربما انتقل ذلك المرض من برجن إلى أيسلاندة أو منها إلى جزر هبريديز Hebrides وأوركني Orkneys وشتلاند Shetland وفارو Faroes، ومنها إلى جرينلاند، ربما في شتاء ١٣٥٠م، وليست لدينا سجلات خاصة بسكان جرينلاند تعود إلى مرحلة ما قبل الموت الأسود أو بعده، وكل ما لدينا سجلات قليلة مبعثرة تنوّه إلى ما أحدثه الطاعون من دمار بها، لكنه حدث في أوائل القرن الخامس عشر، عندما ألقت سفينة نرويجية بمرساتها لدى المستقرات الغربية أن شاهد الملاحون مواشي بريةً، تُحَوِّم حول قرىً مقفرة من أهلها. أما في إسكندناوة ذاتها، فيقدر ضحايا الموت الأسود بما يتراوح بين خمسة وأربعين بالمائة إلى خمسة وخمسين بالمائة من جملة سكانها، وربما ارتفعت تلك النسبة في أيسلاندة إلى ستين بالمائة. أما في جرينلاند فقد أفضى ذلك الطاعون وما صاحبه من تدهور في أحوالها المناخية إلى أن اختفت المستقرات المسيحية بها.

على أن أفضل ما لدينا من أخبار عن الموت الأسود في شمالي أوروبا إنما تأتينا من الجزر البريطانية[١٠]، فقد حلَّ بها في سبتمبر ١٣٤٨م صحبة سفن جاسكونية(*)، حلّت بميناء دورست Dorest الصغيرة بكونتية ملكومب ريجيس Melcombe Regis في جنوب شرقي إنجلترا، وكانت جاسكوني خلال معظم سنوات القرن الرابع عشر من جملة الممتلكات البريطانية، بحاضرتها في بوردو Bordeaux(**)، التي كانت تقتعد مكانةً عاليةً في تصدير النبيذ؛ لذا كان طبيعيًا أنه حالما يصل الموت الأسود إلى جنوبي فرنسا، فإنه لا بد وأن يتخذ طريقه إلى بريطانيا. وكانت البداية في ملكومب ريجيس، ولم تلبث أن تبعتها مواني أخرى تقع إلى الجنوب الغربي من إنجلترا: بينها بريستول Bristol وساوثهامتن Southhampton وبلايموث Plymouth وإكستر Exeter، واختصت بريستول وساوثهامتن بكونهما ميناءين مهمين على طريق التجارة بين إنجلترا وإيطاليا، مما يفترض معه أنه ربما أتاها الطاعون من إيطاليا وفرنسا معًا. وكانت لندن – وهي

(*) نسبةً إلى إقليم جاسكوني Gascony (غسقونية عند العرب) في جنوبي فرنسا، وكان تابعًا حينذاك لبريطانيا.

(**)تعرف في موارِدنا العربية ببردال.

حاضرة إنجلترا وكبرى مدنها وأهم موانيها- ذات صلات تجارية مديدة مع أوروبا، وقد حلَّ بها الموت الأسود فى نهايات خريف عام (١٣٤٨م)، وبذا كانت حال إنجلترا هى حال إيطاليا؛ إذ نفذ الطاعون إليها من عدة مداخل، وعليه فقد عانت بدورها من نسبة موَتان عالية.

يعود أفضل ما لدينا من مرويات عن حلول الموت الأسود بإنجلترا إلى ما كتبه "هنرى نايتون" كاهن دير سانت مارى أوف ذا ميدو **St.Mary-of-the-Meadow**؛ فهو يقول:

"حينها اتخذت الجائحة طريقها على طول سواحل ساوثهامتن إلى أن انتهت إلى بريستول، وسرعان ما هلك معظم أهلها، حين دهمهم الموت فجاءةً، بينما استغرق الأمر مع بعضهم يومين أو ثلاثة وأحيانًا نصف يوم. وما لبث أن انتشر ذلك الموت المخيف فى كل الأنحاء متتبعًا مسار الشمس؛ ففى ليسستر **Leicester** مات أربعمائة من رعوية الصليب المقدس **Holy Cross**، وتبعهم سبعمائة فى إبروشية سانت مارجريت **St. Margaret**، وكذا كانت الحال فى كل إبروشية اجتاز بها، وحينها أصدر أسقف لينكلن **Lincoln** منشورًا ليذاع فى سائر أنحاء أسقفيته، يخوِّل فيه سلطاته كاملةً للكهنة؛ نظاميِّين وعلمانيِّين، بما فى ذلك تلقى الاعتراف ومنح الغفران لكل امرئ، فيما عدا المدينين، إلا إذا أدى الواحد منهم ما عليه من دَيْن ما دام حيًّا أو أداه عنه آخرون حال وفاته، وعلى النحو ذاته منح البابا إبراءً عامًّا عن الخطايا لكل الذين يتلقون غفرانه لدى موتهم، ووافق على أن يمتد ذلك الإبراء حتى عيد الفصح التالي، ويستطيع المرء أن يختار القس الذى يعترف له فى أى وقت يشاء"[١١].

لدينا إخبارى آخر هو "جيفرى الخباز" **Geoffry the Baker**(*)، يذكر أن الطاعون وصل إلى بريستول فى منتصف أغسطس، الأمر الذى يؤكد عليه "نايتون"، وكانت بريستول هى ثانية كبرى المدن فى إنجلترا، لكنها كانت صغيرةً بالمستويات الأوروبية، فكان عدد سكانها يتراوح بين عشرة آلاف واثنى عشر ألفًا، وإذا انتخبنا فئات منها كعينة، يتَّضح لدينا أن الموت الأسود عصف بحيوات خمسين بالمائة من الكهنة ذوى المناصب، وثلاثين بالمائة من النبلاء أو النخبة، وحيث إن كثيرًا من أفراد تلك الفئتين كانوا قد لاذوا

(*)(ت: ١٣٦٠م)، كاتب حوليات إنجليزي.

بالهرب إلى بريستول فَوْر سماعهم بخبر الطاعون، تبدو لنا تلك النسبة معتدلةً. ثم واصل الموت الأسود عربدته لمدى يصل إلى اثنى عشر شهرًا، وزادت تلك العربدة فى ربيع ١٣٤٩م، ثم بدأت تهدأ عندما حلَّ الخريف. ويقدر إجمالى عدد من أهلكهم ذلك الطاعون فى بريستول وحْدها بما يتراوح بين خمسة وثلاثين بالمائة إلى أربعين بالمائة[١٢]، الأمر الذى اضطرت معه عشرون نقابة من نقابات الحرفيين إلى أن تحد من طول فترات التدريب بها، وشرعت خمس عشرة منها فى إقامة قواعد جديدة لمراقبة الجودة، وبذا فقد انخفض مستوى المهارات الحرفية.

كان الريف هو نمط الحياة السائد فى معظم أنحاء إنجلترا، من حيث كون تسعين بالمائة من سكانها يعيشون فى تجمُّعات يضم الواحد منها ما يقل عن الألف من هؤلاء السكان، ويمكن لنا أن نتعرف إلى سياقات الموت الأسود على نحو أفضل باستجلاء ما كانت عليه الحال فى قرى الريف وضياعه، وتوافرت لدينا من تلك القرى والضياع سجلات عديدة تتوزعها ثلاثة أنواع؛ أدراج حسابات دورية، وهى تقارير سنوية أو كل عدة سنوات، تختص بالأجور ومتأخرات الالتزامات التى يتحصل عليها وكلاء المالك والمساحات والامتدادات، واستقصاءات تؤخذ للتحقق بدقة مما يملكه السيد وما هو مدين به، وآخرها سجلات المحاكم التى كان يعقدها السيد الإقطاعى شهريًّا أو كل ستة أشهر، والتى عن طريقها يتهيأ للفلاحين تجديد التزاماتهم وإعلانها، وتعطينا معلومات مثل تلك – خصوصًا أدراج المحاكم– منظورًا «مجهريًّا» للطاعون وتبعاته.

كانت دوقية كورنوول **Cornwall** تقع لدى الركن الجنوبى الغربى من إنجلترا[١٣]، وفى أواسط القرن الخامس عشر كانت قد آلت فى معظمها إلى "إدوارد" الأمير الأسود(*)، وهو الابن الأكبر لـ«إدوارد الثالث»(**)، ملك إنجلترا وبطل حرب المائة عام. وكان اقتصاد تلك الدوقية اقتصادًا مختلطًا من زراعة المحاصيل النقدية وتربية للحيوانات وتعدين، وقد ازدهرت جميعها فى أوائل القرن الرابع عشر، وبينما كان عدد سكانها فى عام ١٣٤٨م أعلى مما كان عليه فى أى زمان سابق، إلا أن الإقليم كان بوجه عام أقل فى كثافته السكانية

(*) (١٣٣٠-١٣٧٦م)، اشتهر بمهاراته القتالية فى المعارك التى خاضها بإسبانيا وفرنسا.

(**) (١٣٢٧-١٣٧٧م). بدأ حرب المائة عام مع فرنسا وحقق نصرًا كبيرًا عليها فى كريسى سنة ١٣٤٦م.

من الأقاليم الأخرى المنتجة للقمح، الأمر الذى كان من الأهمية بمكان؛ لأن تجربة كورنوول مع الموت الأسود توضح كيف كان عبثه بأنماط الاستقرار البشري، فبينما كانت الأحوال الإيكولوجية المحلية تؤثر دائمًا فى ضراوة الطاعون فى منطقة ما، فإن كثافة السكان تكون مهمةً فقط فى حال ما إذا كانت الفصيلة الرئوية منه حاضرةً[١٤].

اجتاز الموت الأسود إلى كورنوول فى أواخر الشتاء من عام ١٣٤٩م قادمًا من بريستول وإكستر وبلايموث، ولا يتهيأ لدينا ما يكفى من مادة يمكننا من خلالها أن نُقدِّر العدد الكلى من الموتى، لكن أسقف إكستر والتى كانت كورنوول تدخل فى نطاق سلطته، خلَّف لنا سجلات، ترد فى بعضها أخبار عن تنصيب قساوسة جدد لإبروشيات، وتغطى تلك السجلات الحقبة من ١٢٧٢م حتى أربعينيات القرن الرابع عشر، ونستخرج منها أنه فيما بين سنتى ١٣٣٩م و ١٣٤٩م كان متوسط من كان يتم تنصيبهم هو أربعة فى كل عام، وعلى العكس من ذلك ما جرى فيما بين مارس ١٣٤٩م ومارس ١٣٥٠م؛ إذ تم تنصيب خمسة وثمانين قسًا؛ أى ما يزيد على عشرين ضعفًا مما كان يتم على مدى سنوات سابقة، مع ذروة تقع بين عيد الفصح وعيد القديس ميخائيل ٢٩ سبتمبر ١٣٤٩م.

أما عن سجلات الضياع، فهى تعطينا معلومات ضافيةً وأكثر تحديدًا لعقابيل الموت الأسود، فيتبين لدينا من سجلات صنيعة ريللاتون Rillaton أن "جون دى ريل" John de Rill وهو مندوب للدولة مات من الطاعون فى ١٢ من مارس ١٣٤٩م، كما مات "وليم كارنك" William Carnek وهو محضر بضيعة هلستون –إن – كيريير Helston-in-Kirrier فى ١١ من أبريل، أما "لوكاس سيرل" Lucas Cerle وهو مندوب الدولة بِضَيْعَة ليسكرد Liskeard فكان أضعف من أن يواصل أداء مهام وظيفته لدى نهاية مارس، ونَخْلُصُ من ذلك كله إلى أن معظم رجال الإدارة فى الريف البريطانى هلكوا بسبب الطاعون. وتوقفت صناعة القصدير، وهى من الصناعات المهمة التى اشتهرت بها كورنوول، وكانت الكمية الجاهزة منها فى عام ١٣٥١م لصك العملة أقل من الكمية ذاتها قبل الموت الأسود، أما طواحين الهواء الضرورية للحصول على الطاقة، فقد تعطلت جميعها عن العمل، وأضحت هناك خلاءات واسعة (حيازات لا يوجد بها مستأجرون) صاحبها تهاو فى قيمة الإيجارات، ويعد ذلك التهاوى نكسةً لأصحاب الضِّياع، لكن الأهم هو تدهور الأراضى الزراعية والابتناء فى الخلاءات، وكان من الضرورى توافر نفقات رأسمالية حتى يعاود استصلاح تلك الأراضى فيعاود زراعتها مرةً أخرى.

كانت الوست ميدلاندز West Midlands تتفوق على كورنوول، باعتبارها نموذجًا للمجتمع الريفي في شمالي أوروبا، فقد كانت تلك المنطقة المترامية الأطراف واحدةً من أهم مناطق إنتاج القمح في الغرب كله، وكانت ضيعة كوكسهام Cuxham التي تقع على مبعدة اثني عشر ميلًا إلى الجنوب من أكسفورد من الضياع النموذجية(١٠)، وكانت لدى عام ١٣٤٩م تدخل في جملة ممتلكات كلية ميرتن Merton College التابعة للجامعة، وهي واحدة من المراكز الرئيسة لدراسة العلوم الطبيعية في أوروبا، وأتى الموت الأسود إلى تلك الضيعة في مارس ١٣٤٩م، وكان من ضحاياه "روبرت أولدهام" Robert Oldham وكان يعمل محضرًا بها منذ عام ١٣١١م، وفتك به الطاعون في أواخر مارس، وحيث إنه كان أمينًا في أداء واجبات وظيفته فقد ظل حتى الساعات الأخيرة منكبًا على إنجاز حسابات الضيعة، وخلفه ولده "جون" الذي لحقه في أبريل، ثم "توماس إيت جرين" Thomas atte Green الذي مات كذلك في يونيو، ثم مات رابعهم في يوليو، وتلاه خامسهم أو لاذ بالهرب في الشهر عينه، وفي عام ١٣٦٠م كانت "ميرتن كولدج" قد توقفت عن استغلالها المباشر لضَيْعَة كوكسهام، وأوكلت ذلك إلى غيرها من مستأجرين.

أسفر الطاعون عن تداعيات اجتماعية واقتصادية هائلة؛ بينها الافتقار إلى الأيدي العاملة بسبب ارتفاع الأجور المدفوعة لكل خدمة من الخدمات، بل والتغيير في نوعيات المحاصيل المزروعة؛ فقد أدى التناقص المتزايد في البشر والحيوان معًا إلى أن صار يزرع اليسير من القمح والشوفان، في حين صار يزرع المزيد من الجلبان Vetches والشعير، مما يعد دلالةً مهمةً على ما جرى من تنوع في الغذاء، وازداد الطلب على المزر Ale، وأصبح العمل المعتاد Customary Labor أي الخدمة المجانية التي كانت تؤدى إلى المالك غايةً في الندرة، وعلى الرغم من الأجور العالية، فقد كان يؤتى بعمال المياومة المأجورين للعمل في الدوار، وفي كوكسهام، كما في كورنوول كانت الخلاءات في ازدياد وأقفرت بيوت القرية التي تقع لدى الطرف الشمالي لنهيرها، ومن ثم فقد تناقص العدد الكلي للسكان بمقدار الثلثين، وأضحت القوائم الخاصة بضريبة الرأس تضم في عام ١٣٧٧م أسماء ثمانية وثلاثين فقط ممن هم فوق الرابعة عشرة من عمرهم، بعد أن كانوا مائةً في عام ١٣٤٨م، والأدهى من ذلك أن ذلك العدد (٣٨) لا بد وأنه كان يضم الهجرات التالية للوباء؛ فلدى ديسمبر ١٣٤٨م كان اثنا عشر من أقنان كوكسهام قد ماتوا. كما كان من جملة النتائج المباشرة للموت الأسود أن تهاوت عائدات الضيعة؛ فبعد أن كانت تتراوح

فى المدة ١٢٩١-١٣٤٩م بين خمسة وعشرين جنيهًا إلى خمسة وستين فى العام الواحد، بمتوسط يناهز أربعين جنيهًا، أصبحت فى عام ١٣٥٤ / ١٣٥٥م، وهو العام الوحيد فى العقد التالى للموت الأسود الذى تم فيه تسجيل تلك العائدات أقل من أحد عشر جنيهًا، وخلال ما تبقى من القرن الخامس عشر لم تجاوز أبدًا الثمانية عشر جنيهًا.

وتقع ضيعة هلسوين Halesowen كذلك في غربى الميدلاندز إلى الجنوب الغربى من برمنجهام Birmingham وعلى مبعدة ستين ميلًا إلى الشمال الغربى من كوكسهام(١١)، وكانت إبروشيةً كبيرةً، يضم زمامها عشرة آلاف إيكر Acres(*)، تقع فى أرض جبلية، وتتناثر بها اثنتا عشرة قرية صغيرة، تتوسطها سوق مركزية، ويصعب علينا أن نحدد بدقة ما كانت عليه حال سكان الإبروشية قبل الطاعون، لكن سجلات عام ١٣٤٨م، وهى سجلات دقيقة تقدر عددهم بستمائة وخمسة وسبعين: أى أقل بأربعة عشرة من الذروة المسجلة فى العام السابق للمجاعة العظمى ١٣١٥ / ١٣١٦م، وقد وافاها الموت الأسود فى مايو ١٣٤٩م، ثم اشتدت ضراوته خلال الربيع والصيف التاليين، ولدى نهاية أغسطس كان قد دعى لأربع دورات خاصة بالمحكمة لتسجيل الوفيات الناجمة عن الطاعون، وعلى مدى الأشهر الستة التالية، كانت معظم فعاليات الدورات القضائية تختص بما ترتب على ذلك من مشكلات، وكانت نسبة الموَتان بين المستأجرين الذكور - وهى أفضل ما توافر لدينا من مادة - تقدر فى نهاية ١٣٤٩م بستة وأربعين بالمائة، وهى نسبة تتوافق مع ما وصل إلينا من قرىً إنجليزية أخرى: ففى صنيعة ألفتشيرش Alvechurch فى ورسترشاير Worcestershire التى تقع كذلك فى الوست ميدلاندز كانت النسبة أربعةً وأربعين بالمائة، أما فى ضيعة ردجريف Redgrave فى سفُولك Suffolk بشرقى إنجلترا، فقد فاقت نسبة الموَتان الخمسين بالمائة، كذلك وصلتنا من إنجلترا سجلات كنسية عن الطاعون ذات قيمة عالية، فقد أرسل أسقف باث Bath وويلز Wells فى يناير ١٣٤٩م بخطاب إلى القساوسة التابعين له، يلخص ما آلت إليه الحال فى أسقفيته: فيقول:

"كانت الجائحة الحاضرة فى أيامنا قد استشرت فى البلاد طولًا وعرضًا، بحيث أضحى المزيد من الكنائس الإبروشية بدون رعاة ولا قساوسة ينهضون على خدمة

(*) الإيكر هو الفدان الإنجليزي، وتقدر مساحته بحوالى أربعة آلاف متر.

رعاياهم، وحيث إنه لم يعد لدينا قسيسون يقومون من منطلق التقوى أو الحصول على راتب برعاية تلك الأماكن ويزورون المرضى ويمنحونهم العشاء الرباني، فإن الكثيرين منهم كانوا يموتون دون أن يقام لهم قدّاس الكفّارة (وعليه) ... أن تحاول إقناع من عندك من رجال لا سيما المرضى منهم أو من بسبيلهم إلى أن يمرضوا، وليس بمقدورهم الحصول على خدمات قس لدى احتضارهم، بأنه يمكن للواحد منهم أن يؤدى اعترافه لأى شخص آخر ... وإذا لم يتوافر رجل يمكنه أن يؤدى هذا الاعتراف إلى امرأة"[١٧].

بدت نسبة الموَتان بين رجال الدين فى إنجلترا عاليةً، بل وأكثر مما كانت عليه عند عامة الناس. ففي سومرست Somerset وهى أسقفية تقع عند مصب نهرى باث وويلز ارتفع عدد من تم إدراجهم فى مناصب كنسية بين نوفمبر ١٣٤٨م ويناير ١٣٤٩م إلى خمسمائة بالمائة[١٨]، ومات ثلاثة وأربعون بالمائة من رجال الدين في أكسفورد، كما مات أربعون بالمائة منهم في بيسستر Beicester التى تقع على بعد ثلاثة عشر ميلًا إلى الشمال الشرقى من أكسفورد، بينما مات – ويا للدهشة– ستة وستون بالمائة فى وايكومب Wycombe من أعمال باكنجهامشاير، ولدينا كذلك أخبار عن طلاب جامعة أكسفورد الذين حصل معظمهم على مناصب كنسية أدنى، فعندما أتى الموت الأسود إبان أوائل ١٣٤٩م لاذ معظم الطلاب والعاملين بالفرار وأغلقت الكليات أبوابها، وأعد اثنان من الأساتذة؛ هما "ريتشارد فيتزرالف" Richard Fitzralph(*)، و"جون ويكليف" John Wycliff(**) كشوفات ضخمة ، لكنها مهمة عن تداعيات الطاعون؛ فيقدر "فيتزالف" أنه كان يوجد بالجامعة فى عام ١٣٤٨م ثلاثون ألف طالب مسجَلون أصبحوا ستة آلاف طالب فقط بعد سنتين، بينما يقدرهم "ويكليف" بستين ألفًا أصبحوا ثلاثة آلاف، ونلاحظ فى هذين التقريرين مغالاةً واضحةً؛ فقد كان كل مَنْ لدى أكسفورد من طلاب يتراوح عددهم بين ألف وألف وخمسمائة، لكنه يستخرج منهما ما ترتب على الموت الأسود من تأثير سيكولوجي، ولدينا دراسة حديثة عن الموتى فى كلية اللاهوت، تقدر نسبتهم بأقل من عشرة بالمائة، وربما نفسر ذلك فى ضوء أن كثيرًا من الأساتذة لاذوا بالفرار[١٩]. وكانت نسبة الموَتى بين طلاب اللاهوت – وعلى الرغم من الهرب– تقترب من ثلاثين بالمائة، كما كانت نسبة

(*) (ت: ١٣٦٠م)، كبير أساقفة أرماج Armagh.

(**) (١٣٢٤–١٣٨٤م)، مصلح دينى وعالم لاهوت.

الموتى بين أهل المدينة ذاتها تتراوح بين خمسة وثلاثين بالمائة إلى أربعين بالمائة، أما من هربوا فيمكننا القول بأن الكثيرين منهم انتهت بهم الحال إلى الموت فى المدن والقرى والدساكر التى لاذوا بها.

فى أسقفيتى لنكلن ويورك اللتين تغطيان معظم الأنحاء الشمالية من إنجلترا[٢٠]، تتوافر لدينا مجموعة من السجلات الأسقفية المهمة، والتى تستخرج منها إحصائيات بمن هلك بها من رجال الدين خلال الموت الأسود؛ فقد بدأ الطاعون فى لنكلن فى فبراير ١٣٤٩م، ولم يلبث أن عصف فى أبريل التالى بتسعة من مقرات الأسقفية العظمى بهنتنجدون Huntigdon، وهلك خمسة وثلاثون بالمائة من رجال الدين، وبالمقارنة فقد كانت نسبة الموّتان بين عامى ١٣٤٧م و ١٣٤٩م أقل من ثمانية بالمائة، ثم بدأت الأمور تعود إلى طبيعتها فى عام ١٣٥٠ فكانت نسبة الموّتان أقل من اثنتين بالمائة، أما فى يورك فإن أربعين بالمائة من كهنتها ماتوا، وربما أعان على ذلك مناخها الأكثر بردًا وتلاحق الطواعين الرئوية والدُّمَّلية. ويتوجب علينا أن نتذكر أن الكهنة كانوا يعدون فى النخبة؛ فهم أكثر تعلُّمًا من العوام وجاهزيةً، ومع أنه لا يوجد ما يقطع بأن التعليم والجاهزية يعطيان مزيةً لأحدهم فى اجتناب الطاعون، فإنهما بلا ريب لا يزيدان منه، وبالتالى فإن نسبة الموّتان العالية بين الكهنة تجعلنا نفترض كونها عاليةً شأنها فى ذلك شأنها عند غالب السكان، وربما كانت أعلى.

كانت ونشستر فى جنوبى إنجلترا تضم بين خمسة آلاف إلى ثمانية آلاف من السكان[٢١]، وكان عدد هؤلاء يتهاوى تدريجيًا منذ القرن الحادى عشر، لكنها بقيت مع ذلك من أغنى مدن المملكة، وحل بها الموت الأسود فى أواخر ١٣٤١م، وفى يناير التالى أصبحت مدفن الكنيسة يغص بساكنيه، واستدعت الحال إضافة مدفن آخر، اتضح فيما بعد أنها لم تعد بكافية، ولم يلبث أن استبد الرعب بالأسقف، بعدما أقدم العديد من أهل المدينة على مواراة موتاهم فى حفر خارج أسوارها، وسرعان ما تناقصت أعداد سكانها إلى مستوى يقل عن نصف ما كان عليه قبل الطاعون، حتى أنه تحول جزء من الهاى ستريت High Street وهو أهم شارع تجارى بالمدينة إلى مدفن، وبذا خلَّف الموت الأسود فى ونشستر ذكريات لا تمحى، ولم تتسلم كاتدرائيتها برجين مصممين لها، كما أن جرى دعم واجهتها الغربية على نحو مؤقت أصبح دائمًا عندما أضحت تكلفة ما بعد الطاعون

تقصر عن استكمال ذلك الصرح، وفي وقت جباية ضريبة الرأس في ١٣٧٧م كان سكان ونشستر قد انحدر عددهم إلى أقل من ثلاثة آلاف.

يستدل من سجلات ضياع أسقف ونشستر على نموذج آخر لما خلّفه الموت الأسود في الريف الإنجليزي، فقد كانت "فاردهام هندردز" Fardham Hundreds تقع على مبعدة عشرة أميال أو نحوها جنوبي لندن، وكانت تضم عشر قرىً وسط إقليم من أغنى أقاليم إنجلترا وأكثرها سكانًا. ويرد في دفاتر حسابات مندوب الدولة عن ضياعها أنها كانت تضم حوالي ألفين وخمسمائة من السكان في ١٣٤٨م، وتنوه ما توافر لدينا من سجلات الحُلْوان Herriots أي ما كان يؤدَّى إلى الملاك عند وفاة أحد المستأجرين، وتتمثل في أهم ما كان يحوزه من منقولات، وكذا سجلات الخلاءات Defetus Per Pestilentium أن الموت الأسود حلَّ بها في خريف ١٣٤٨م، واستمر خلال صيف ١٣٤٩م إلى أنه من بين سبعمائة وأربعين من كبراء العائلات، مات منهم مائة وخمسة وثمانون أي حوالي ربعهم، ولحق بهم خلال ما تبقي من العام الأخير مائة وواحد آخرون، مما يرتفع بنسبة الموَتان إلى تسعة وثلاثين بالمائة.

انتهى الموت الأسود إلى لندن في أواخر سبتمبر ١٣٤٨م قادمًا من الغرب والجنوب، وذلك عبر الطرق من بريستول وسوثهامتن، وربما على نحو مباشر من السفن التي كانت تُبْحر في نهر التيمس إلى جسر لندن London Bridge، وكانت لندن بسُكَّانها الذين يقدر عددهم بنحو من خمسين ألفًا هي كبرى مدن إنجلترا والمدينة الوحيدة التي تعد ندًّا لمدن القارة الأوروبية[٢٢]، وقد أدى اكتظاظها بالسكان في أوائل القرن الرابع عشر إلى أن تداعت المرافق الصحية بها ونظام الصحة العامة، ثم تحسنت أحوالها نسبيًا في عام ١٣٤٨م، وذلك بمبادرة ملكية على الأغلب، لكنه ظل الفليت Fleet وهو نهيرها الرئيس الذي يصب في التيمز يختنق بما علق به من أوساخ وقمامة وفضلات بشرية وحيوانية حتى أنه كان يتخذ طريقه بالكاد . وبطبيعة الحال فقد كان من شأن القذارة والعناية الصحية المحدودة مع الكثافة السكانية العالية – خمسون ألفًا في ميل مربع واحد – أن تتهيأ السُّبل إلى نسبة موَتان عالية من الطاعون والرئوي منه خاصةً.

كانت أسوار مدينة لندن في القرن الرابع عشر تبدو متهالكةً، لكنها ظلت بنهرها الذي كان يسري على طول الجانب الجنوبي منها وبرجها الذي كان يشكل حدها الشرقي معزولةً

عن معظم الريف المحيط بها، الأمر الذى حاول معه المسئولون - وبدون جدوى- أن يدنُوا منه، وعلي غرار ما جرى فى أورفييتو، ومن أجل مكافحة الموت الأسود، فقد صدرت على عَجَلٍ قوانين للصحة العامة، كما تحددت معايير للحجر الصحي، تستهدف الإقلال من التلوث الصناعي والتخلص من الفضلات البشرية وإبعاد النازحين إلى المدينة من خارجها. وكان محكومًا على تلك الإجراءات بالفشل، فقد أتاها الموت الأسود فى موسم الأمطار، صحبة الجرذان والبراغيث المحملين بالطاعون الدُّمَّلي واستطال حتى خريف ١٣٤٨م، ثم تطور ذلك الطاعون فى الشتاء إلى طاعون رئوي، وخلال شهرين - أى من الثانى من فبراير حتى الثانى من أبريل- كان قد تم دفن ألفين من السكان فى مقبرة واحدة، لكن الأسوأ لم يكن قد أتى بعد، فيرد فى السجلات المدنية إنه ما بين يونيو إلى سبتمبر كان متوسط الموَتان مائتين وتسعين يوميًا، وبين سبعة مناصب كنسية كبيرة أضحت ثلاثة منها شاغرةً؛ فقد مات "جون ستراتفورد" John Stratford(*)، كبير أساقفة كانتربرى فى مايو (١٣٤٨م)، ولم يلبث أن لحق به خليفته "جون أوفورد" John Offord(**) بعد عام، وذلك قبل أن يتقلد مهام منصبه، ثم مات من تلاه وهو "توماس برادواردين" Thomas Bradwardine(***)، وهو واحد من مشاهير أكسفورد فى أغسطس. وكان مقرَّرًا للبرلمان أن ينعقد فى خريف (١٣٤٩م) بوستمنستر Westmister، لكنه لم يقدر ذلك الانعقاد؛ فقد استطال الموت الأسود حتى أواخر الربيع من عام (١٣٥٠م)، وكان قد فتك بما يتراوح بين خمسة وثلاثين بالمائة إلى أربعين بالمائة من سكان المدينة، وهو رقم يرتفع به بعض الباحثين إلى الخمسين بالمائة، ولكن المدينة وبحكم ما كانت تتيحه من فرص جيدة للارتقاء اجتماعيًا واقتصاديًا، فإنها ما لبثت أن عادت تجتذب النازحين إليها، وبذا وما إن تراجع الطاعون حتى بدأت أعداد سكانها تزداد، لكنها لم تعاود أبدًا مستواها الذى كانت عليه وهو الخمسون ألفًا قبل بدايات القرن السادس عشر.

كانت إيست إنجليا East Anglia هى أكثر أقاليم إنجلترا تضررًا بالطاعون[٢٢]، ومع أنها كانت تعد على نحو ما أشبه بمصغر للمملكة بأسرها، إلا أنها كانت تختلف على نحو أو

(*) كان إضافة إلى ذلك رئيسًا لمجلس اللوردات.

(**) كان من خاصة «إدوارد الثالث» ملك إنجلترا قبل أن يصبح كبيرًا لأساقفة كانتر برى.

(***) (١٢٩٠-١٣٤٩م).

آخر عن سائرها، وذلك بحكم انقطاعها عن معظم الأنحاء بالمستنقعات والسبخات، ويحيط بها من الشمال والشرق نهر الواش Wash وبحر الشمال، وزادت الطرق البائسة من صعوبات النقل البري، مما جعل تجارها يعتمدون على البحر في نقل تجاراتهم الرئيسة؛ وهى الأصواف والملابس الصوفية، ومن ثم فقد عقدوا الخناصر مع نظرائهم بالقارة؛ وبذا يترجح أن الموت الأسود قد حلَّ بها فى ربيع ١٣٤٩م جراء تجارتها مع البلاد الواطئة، ثم تفاقم لدى تسربه من لندن وإسكس Essex، وبذا كان على إيست أنجليا أن تستقبل ذلك الوباء من مصادر مختلفة، وتتمرس بتجربة غير عادية من الموتى بالطاعون.

يذهب المعاصرون للموت الأسود على أنه أهلك بين مايو وسبتمبر ١٣٤٩م ما يقدر بثلث سكان إيست إنجليا، ولدينا ما يستدل منه على أن ثلاثًا من قُراها عانت خسائر تقدر بثلاثة وخمسين بالمائة إلى سبعة وخمسين بالمائة إلى سبعين بالمائة على التوالي، وكان الخراب الذى حلَّ بكامبردج أسوأ مما كان عليه فى أكسفورد، فما بين أبريل وأغسطس كان خمسة عشر طالبًا بين أربعين طالبًا مقيمًا بها قد ماتوا، وفى عام ١٣٤٨م كان يوجد فى سدبيرى Sudbury – وهى سوق مهمة ومركز كنسى كبير– سبعة ومائة من المحالِّ المخصصة لبيع سلعها، صارت في عام ١٣٦١م اثنين وسبعين فحسب، وكان على "بيتمان" Bateman أسقف نورويتش Norwich، والذى كانت أسقفيته تغطى معظم أنحاء إيست إنجليا وهو يتنقل خلال عام ١٣٤٩م فى أنحاء إقليمه فرارًا من الطاعون أن ينحرف عن الجريت يارموث Great Yarrmouth ويتخذ طريقه إلى نورويتش Norwich، ومن هناك يتجه جنوبًا إلى إيبوتش Ipwich إلى الغرب من بيرى سانت إدموندز Bury St. Edmunds إلى جنوبى شرقى سود بيري، ثم يتوجه فى النهاية شمالًا حيث ضياعه الريفية فى هوكسن Hoxne.

على أن أهم ما لدينا من شواهد تأتينا من نورويتش وبيرى سانت إدموندز، وهى معًا أهم مدينتين فى إيست إنجليا، وكانت نورويتش هى الحاضرة الفعلية للإقليم بسكانها الذين كانت تتراوح أعدادهم فى ١٣٤٨م بين عشرة آلاف واثنى عشر ألفًا، مما كان يجعل منها ثانية المدن الكبرى فى إنجلترا أو ثالثتها[٢٤]، وقد حل الموت الأسود بها فى يناير ١٣٤٩م، وكان يتخذ أحيانًا هيئة الطاعون الرئوي، وظل حالًا بها حتى ربيع ١٣٥٠ م، بعد أن أهلك نحوًا من نصف عدد كهنتها، وأربعين بالمائة إلى خمسة وأربعين بالمائة من

علمانييها. وتوقفت أربع من كنائسها الإبروشية عن أداء مهامها، فلم يعد يوجد بها عدد كاف من القساوسة لإقامة القداسات، أو حضور كاف من جمهور ينصت بخشوع إليهم. وكان النقص شديدًا فى أعداد الكهنة، حتى أنه حين حاول أسقفها أن يضع حدًا للهرب أسس الترينتى هول Trinity Hall فى جامعة كامبردج بهدف إعداد المزيد من الكهنة.

أما عن بيرى سانت إدموندز، فكانت مدينةً مزدهرةً بسكانها البالغ عددهم سبعة آلاف[٢٥]، وكان لديها اقتصاد تجارى وصناعى متنوع، وابتنى حولها واحد من أغنى أديرة أوروبا، ويتضح من سجلات هذا الدير ما خلفه الطاعون من خراب، ففى ١٩ من يناير ١٣٥١م صدر إذن من الباب "كليمنت السادس" لمقدم ديرها وهو "وليم أوف برنهام" William of Bernham برسامة عشرة من الرهبان ممن هم دون سن الخامسة والعشرين ليصبحوا قساوسةً، ذلك لأن نسبة الموَتان العالية التى تبعت الموت الأسود أدت إلى نقص حاد فى أعداد الرهبان، فيتبين من السجل أن أربعين راهبًا – أى ما يعدل نصف العدد الإجمالى للرهبان– قد أهلكهم الطاعون، ويستدل من ضريبة الرأس عن عام ١٣٧٧م على أن إجمالى عدد السكان كان زهاء أربعة آلاف ومائتين، بمعنى أنهم تناقصوا بمقدار أربعين بالمائة، أما فيما يختص بالقرى المحيطة بالدير والتى كانت تعتمد فى معاشها على أسواق بيرى فقد وصل عدد الضحايا – ويا للهول– إلى الستين بالمائة، ويترجح أن نسبة المَوتان فى إيست إنجليا كلها قاربت الخمسين بالمائة أى إنها كانت فى مستوى توسكانيا وبعض أجزاء من إسكندناوة، وهى أكثر أنحاء أوروبا تضرُّرًا بالموت الأسود. ونشدّد هنا على أن يوجد عاملان كانا يفاقمان معًا من نسبة الموَتان بالطاعون: هما تسلله إلى إقليم ما من نقاط متعددة، مما يتيح الفرصة لأن تتكاثر سلالاته، وثانيهما – وعلى نحو خاص– المناخ البارد والرطب الذى يؤدى إلى مشكلات رئوية، يمكن لها أن تتحول بالطاعون، ليصبح طاعونًا رئويًا مميتًا.

غالبًا ما كان الموت الأسود عاصفًا بسائر أنحاء بريطانيا، وقد أتينا فيما سلف بتعقيب نايتون على نسبة الموَتان العالية فى ليسستر وليسستر شاير، وكانت النسبة عند الكهنة ثمانية وأربعين بالمائة فى نيوآرك Newark ونوتنجهامشاير Nottinghamshire وسبعة وخمسين بالمائة فى ستاو Staw ولنكلنشاير Lincolnshire وستة وخمسين بالمائة فى لنكلن وثمانية وخمسين بالمائة فى دونكاستر Doncaster[٢٦]، وإلى الشمال

من نهر تويد Tweed حلت البهجة بالإسكتلدنيين(*)، لما أصاب عدوهم العتيد من بلايا، وسرعان ما أعدوا جيشًا في صيف ١٣٤٩م، من أجل أن يفيدوا مما حلّ بإنجلترا من وهن، لكنه لم يقدر لهذا الجيش أن يتحرك أبدًا؛ ففي يوليو كان الموت الأسود قد حط بإسكتلندا، ولدينا وصف حي لما كتبه الإخباري "جون أوف فوردن" John of Fordun(**)؛ فقد كتب يقول: "في عام ١٣٥٢م ابتليت مملكة إسكوتلاندا بجائحة عظمى وطاعون ... لم يسمع بهما إنسان منذ بداية الخليقة حتى أيامنا ... فمن حظنا الأسود أن صب هذا الطاعون جام غضبه علينا، وتحتم على ما يقارب ثلث البشرية عددًا أن يؤدوا ما توجب عليهم من دين للطبيعة، والأنكى أنه – وبقدر من الرب– قد تسبب ذلك الشرير في نوع غير مألوف من الموت يتمثل في تقيح بجسد المريض وتورمه، وخلال يومين على الأكثر كانت تنسحب منه حياته الأرضية"(٢٧).

وصلتنا كذلك معلومات وافرة عن الموت الأسود؛ نتائجه وأنواعه في ويلز Wales وهي معلومات مهمة، من حيث إن كثيرًا من أنحائها كانت تكتنفها جبال شاهقة، مما يهيئ لنا بيئةً أخرى يمكن أن نقيس بها تلك التَّبِعات والأنماط(٢٨)، فقد حل بها ذلك الطاعون في مارس ١٣٤٩م قادمًا من وادي سيڤرن Severn، وخلال أسبوعين بدأت الإيجارات تتهاوى: ففي لوردية أبرجافيني Ablergavenny في جنوبي وسط ويلز على سبيل المثال تهاوت تلك الإيجارات إلى ثلث ما كانت عليه قبيل الطاعون، وكان الوضع أسوأ في قرىً بعينها؛ ففي ويريث Wereyth كانت الإيجارات قبل الطاعون أربعة عشر جنيهًا في العام تقريبًا، وفي ١٣٥٠م انخفضت إلى جنهين، وفي تريفجايثيل Trefgaythel كانت أربعة جنيهات في العام قبل الطاعون فتحولت إلى مجرد ستة شلنات في ١٣٥٠م "بسبب الموتان".

بحلول ربيع ١٣٤٩م وافى الموت الأسود شمالي ويلز، واستمر بها حتى الخريف، وأضحت الطواحين بلا قيمة تذكر: "وذلك للافتقار إلى الطحن، فلم تعد توجد غلال بسبب الجائحة"(٢٩). ولم تعد هنالك أموال في المحاكم ولا الأسواق، وأغلقت مناجم الرصاص في

(*) كانت إسكوتلندا على حال من العداء مع إنجلترا استمرت لفترات طويلة في العصور الوسطى ومطالع العصر الحديث إلى أن اتحدت مع إنجلترا في عام ١٧٠٧م.

(**) (ت: ح ١٣٨٤م)، قسيس وكاتب حولي كتب تاريخ إسكتلندا، في خمسة أجزاء تنتهي عند سنة ١١٥٣م.

هوليويل Holywell فلم يعد بها عمال، وكانت رثين Ruthin واحدةً من الأماكن القليلة في ويلز التي تناهت إلينا ملفات محاكمها، فكانت الحياة تسير خلال أبريل / مايو ١٣٤٩م في مسارها الطبيعي، ولا توجد أية سجلات عن موتى، بيد أنه في الأسبوع الثاني من يوليو مات سبعة أشخاص، ولدى نهاية الشهر كان سبعة وسبعون على الأقل - أي أكثر من ثلث عدد السكان- قد قضوا.

تناهي الموت الأسود إلى أيرلاند في أوائل الربيع من عام ١٣٤٩م، ربما طريق السفن الآتية من بريستول وتشستر Chester ووصلت الحال إلى أسوئها في الصيف التالي، حين هلك كبير أساقفة دبلن، وهو الشخصية الرئيسة في أيرلاند كلها، وليس في إمكاننا تقدير العدد الإجمالي للموّتان بالطاعون، بسبب ما يشوب المصادر الإيرلندية من بعثرة، ومع ذلك فلدينا أفضل انطباع عن الموت الأسود مما خلّفه لنا الراهب الفرانسكاني "جون كلين أوف كيلكني" John Clyn of Kilkenny: فهو يقول:

" أبدو كما لو كنت من الأموات، أنتظر أن يأتيني الموت، فأسجل بصدق ما وصل إلى أذني وتحقّقت منه، وحيث إنه ربما لا تموت الكتابة بموت الكاتب، ولا العمل بموت العامل، أضيف بدوري جلدًا من ورق، ربما يقدر له البقاء، وإذا تصادف أن عاش أحدهم بعد تلك الجائحة أو نجا أحد أبناء آدم فربما واصل كتابة هذا العمل الذي بدأته"[٣٠].

في الحولية ذاتها كتب أحدهم: "هنا يبدو أن المؤلف مات".

وصل الموت الأسود إلى ألمانيا آتيًا عبر جبال الألب من إيطاليا وعبر نهر الراين من البلاد الواطئة وفرنسا[٣١]، وتجنح الحوليات إلى المبالغة في عواقبه، لكن مبالغةً مثل تلك ربما تعطينا انطباعًا جيدًا عن التجربة التي تمرس بها المعاصرون، فيذهب العدد الجم منهم إلى أن واحدًا فقط بين كل عشرة من السكان هو الذي قدر له أن ينجو من الطاعون، كما يذهب هؤلاء إلى أن أحد عشر ألفًا هلكوا في مينستر Münster، وتسعون ألفًا هلكوا في ليبك Lübeck، وهي كبرى مدن العصبة الهانزية، وربما يعدل هذا الرقم الأخير أربعة أضعاف سكان تلك المدينة.

على أنه لدينا المزيد من التقديرات الدقيقة[٣٢]؛ ففي بريمن Bremen على نهر فيزيل Wesel أعد مجلسها البلدي لائحةً بموتاها تضم ٦٩٦٦ اسمًا لمن هلكوا إبّان الطاعون، إلى جانب ألف آخرين لم يتحدد سبب موتهم، ويتبين لنا أنه من تعداد سكانى يبلغ ما يتراوح بين اثنى عشر ألفًا إلى خمسة عشر ألفًا، فإن ما بين ثلث السكان ونصفهم قد أهلكهم الطاعون. أما فى هامبورج - وهى ثانية المدن المهمة فى العصبة الهانزية- فقد مات اثنا عشر من خبازيها البالغ عددهم أربعةً وثلاثين، وثمانية عشرة من أربعين قصَّابًا، وسبعة وعشرون من خمسين هم كبار موظفيها، وستة عشرة من عشرين هم أعضاء مجلسها البلدي. أما عن ليبك وهى ميناء مهمة، فقد هلك أحد وعشرون من ثلاثين هم أعضاء مجلسها البلدى واثنان من خمسة هم أمناؤه، وسبعة وعشرون من أصحاب العقارات. وفى فيزمار Wismar التى تقع على ساحل البحر البلطى على مبعدة خمسة وثلاثين ميلًا إلى الشرق من ليبك، فقد فقدت اثنين وأربعين من موظفى مجلسها البلدي. وفى لونيبرج Luneberg - التى تبتعد عدة أميال إلى الجنوب الغربى من هامبورج - كان الموتى من أمناء مجلسها البلدى يُقَدَّرون بستة وثلاثين بالمائة، وفى ريفال Reval (تالين Talinn الحالية)(*)، التى تقع لدى الجانب الشرقى للبحر البلطي، فقد وصلت نسبة الموَتان إلى سبعة وعشرين بالمائة. ولم يُفْلِت من ذلك الموت فى مجدبورج Magdeburg على نهر الإلب Elbe من رهبانها الفرانسيكان سوى ثلاثة فقط، ويصعب علينا أن نُقَدِّر على نحو دقيق نسبة الموَتان فى شمالى ألمانيا؛ حيث إنه من الناحية الواقعية لا تتوافر لدينا معلومات دقيقة من الظهير الريفى لمدن الهانزا، ومع ذلك فيستخرج من المادة التى تهيؤها لنا تلك المدن عما يتراوح بين خمسة وعشرين بالمائة إلى ثلاثين بالمائة من سكان ذلك الظهير هلكوا من الطاعون.

فى أنحاء متفرقة من ألمانيا كانت المعاناة أقل؛ ففى الألزاس Alsace واللورين Lorraine(**)، وبوهيميا Bohemia(***) كانت نسبة الموَتان زهاء عشرة بالمائة "فقط"، وهى النسبة ذاتها فى نورمبرج Nuremberg، وربما كانت تلك هى أقل نسبة بين كبريات

(*) أصبحت بعد الحرب العالمية الثانية فى دولة بولندا.

(**) ويقع هذان الإقليمان الآن فى فرنسا.

(***) وتغطى الآن معظم ما يعرف بجمهورية التشيك.

المدن في العالم الغربي[٣٢]، وباعتبارها مفتاحًا مهمًا للتجارة عبر الألب كان يقيم بنورمبرج ما يتراوح في مستهل القرن الرابع عشر ما يتراوح بين خمسة عشر ألفًا إلى عشرين ألفًا، ويتعذر علينا أن نعزل العوامل البيئية التي كان لها دورها الفاعل في حظوظ تلك المدينة، لكنه يجدر بنا ذكرها. بسبب ما توافر بها من نظام راقٍ للصحة العامة، فكانت شوارعها مفتوحةً، ويتم تنظيفها يوميًا. ومع أنه كان يلقى بالقمامة إليها، إلا أنه كان يتم تعبئتها ونقلها، ولم يكن يُسْمَح للخنازير بأن تحوم في طرقاتها، وكانت النظافة الشخصية من الأهمية بمكان، وهو ما كان يعد غير مألوف في الأقطار المسيحية في العصور الوسطى، وكانت الأموال المخصصة للاستحمام تشكل جزءًا من الأجور الأسبوعية التي كان يتقاضاها كثير من العمال. كما كان العاملون بالبلدية يغتسلون بانتظام، ووُجد بالمدينة أربعة عشر حمامًا، ونظام صارم للتفتيش عليها من أجل التأكد من نظافتها. وأنها لا تستخدم كمواخير. وهو ما كان شائعًا في مدن أخرى كثيرة. وكان يوجد بها في القرن الخامس عشر ستة أطباء تابعون للبلدية، وأطباء خاصون كثيرون، والعديد من العقاقيريين والجراحين والقابلات.

ونخلص من هذا كله إلى أنه تهيأت لها رعاية صحية جيدة، وبحسب هؤلاء الخبراء المحترفين، فإن جثث الموتى والتهوية السيئة والأحياء المتجاورة، وهو ما كان شائعًا في مدن العصور الوسطى هي التي أتت بالطاعون. لذلك اقتضى الأمر من الحكومة أن تقيم تدابير محكمةً، وخصوصًا ما يتصل منها بدفن الجثث خارج أسوار المدينة، وإخطار القساوسة بأن يوجزوا في إلقاء عظاتهم وأن يبكروا في صَرْفِ الحضور إلى كنائسهم، وكان يتم حرق ملابس الموتى وفُرُشهم وتبخير غُرَفهم، كما كان يتم تطهيرها بالبخور، حيث كان من المعتقد أن الروائح العَطِرة تُعين على التخلص من المرض. وبالطبع فلم يكن لتلك الروائح أن تجدي نفعًا مع استشراء الطاعون، وكان من الخطأ التعويل على مثل تلك الإجراءات الصحية بسبب الدور المحوري الذي نهضت به البراغيث والجرذان، وسبق لنا أن عرضنا لمثل تلك الإجراءات الصحية المتميزة بالبندقية، وإخفاقها في كَبْحِ جِمَاح الطاعون، ويتبقى لنا أن نذكر أن ذلك النظام الاستثنائي الذي تفردت به نورمبرج، ربما أعان على الأقل في منع الطاعون الرئوي.

كان الموتى فى ألمانيا إذن أقل منهم فى حوض البحر المتوسط وفرنسا والجزر البريطانية وإسكندناوة، وعلى الرغم من ذلك فلدينا ظاهرتان مهمتان كانتا ترتبطان بشدة بالموت الأسود، ونجمتا معًا فى ألمانيا: هاتان الظاهرتان هما السياطية Flagellism والمذابح ضد اليهود Pogroms، ولم تكن السياطية بغريبة عن ألمانيا فى منتصف القرن الرابع عشر[٢٤]: فالبدايات الأولى لها تعود إلى أواخر القرن العاشر، وذلك مع اقتراب الألفية Millenium (مرور ألف عام على ميلاد المسيح عليه السلام) (*)، وكان كثير من الناس وقتها يؤمنون بأنه سوف يعود مرةً أخرى ليعلن مقدم العصر الجديد، كما ظهرت السياطية خلال الموت الأسود فى أيبيريا وفرنسا والبلاد الواطئة، وربما كانت البداية الأولى فى المجر سنة ١٣٤٨م، لكن الإعلان الكثيف عنها كان فى الراينلاند Rhineland بألمانيا، ولدينا بهذا الصدد روايتان طيبتان: أولاهما لـ"جان دى ڤينيت" Jean de Venette: فهو يقول(**):

"بينما كان الطاعون فى عنفوانه، يتنقل من مدينة إلى أخرى، فقد نهض أناس فى ألمانيا وفلاندرز وهينو Hainault واللورين، وبدأوا نحلةً جديدة: هى أن يقوموا بتعرية أوساطهم وينتظموا فى جماعات كبيرة وعُصب، ويخترقوا شوارع المدن وميادنيها فى مواكب، وكانوا يشكلون فى المدن الكبيرة دوائر، ويقومون بجلد ظهورهم بسِيَاط ثقيلة الوزن، وقد علتهم البهجة، ويرددون بأصوات عالية ترانيم تتلاءم مع طقوسهم، وكانت تلك الترانيم قد أُعِدَّت خِصِّيصًا لهم، وهكذا يَظَلُّون على مدى ثلاثة وثلاثين يومًا يجوسون فى طرقات العديد من المدن يُكفِّرون عن ذنوبهم ويهيئون للمارة مشهدًا مهيبًا، فكانوا يضربون أكتافهم وأذرعتهم بسِياط مزودة بسنون حديدية، بحيث يجعلون الدماء تسيل من أجسادهم[٢٥].

(*)عاود دعاة الألفية نشاطهم مرةً أخرى فى الولايات المتحدة على نحو خاص لدى نهايات القرن المنصرم وبدايات هذا القرن مع المحافظين الجدد الذين تلاقت أهدافهم ومصالحهم مع أهداف الصهيونية العالمية ومصالحها، وكانوا وراء تلك الحرب المستعرة التى قادتها الولايات المتحدة فى أنحاء العالم كافة بدعوى مناهضة الإرهاب، ولدينا شواهد عليها فى العراق وأفغانستان وأقطار إسلامية أخرى.

(**) (ح ١٣٠٧ – ح ١٣٧٠م)، راهب كرملى فرنسى وشاعر ينسب البعض إليه مدونةً تاريخية عن حرب المائة عام.

أما الرواية الأخرى فهي لـ"جان فروازار" Jean Froissart(*)، الذى كتب يقول: " كان التائبون يطوفون بأنحاء ألمانيا، قادمين من خارجها، يكفرون عمَّا ارتكبوه من خطايا، فيجلدون أنفسهم بسِياط من جلد معقود بإحكام، وبهذه السياط مسامير حديدية صغيرة، تجعل بعضهم ينزفون بشدة لدى لوح الكتف، وكانت بعض النسوة الحمقاوات يأتين بخِرَق من قماش، يجمعن فيها الدماء السائلة، ويلطخن بها عيونهن بزعم أن فى تلك الدماء شفاءً لهن من الأمراض، وبينما كان هؤلاء يؤدون كفاراتهم تلك فإنهم كانوا يترنمون بأغنيات شجية عن ميلاد يسوع وآلامه، وكانت الغاية من كفاراتهم وضْع نهاية للموَتان، بعد أن هلك من سكان الدنيا ما يُناهز ثُلُثَهم "(٣٦).

سرعان ما امتدت تلك الحركة إلى أواسط أوروبا، وكان السيَّاطون يتقدَّمون فى زُمَر تتألَّف الواحدة منها من خمسين إلى ثلاثمائة إنسان، يسيرون فى مواكب طويلة، تتخذ هيئة الأفاعي، اثنتان اثنتان، وكان الرجال يتقدمون تلك المواكب ووراءهم النساء، وهم يرددون ترانيم، وكانوا يتخذون أرديةً بيضاء مزينةً بصلبان حمراء فى مقدمتها وخلفها، كما كان بعضهم يحمل صلبانًا، وكانوا يدعون قائدهم «بالسيد» أو «الأب» وكان هو بدوره ينصت إلى اعترافاتهم، كما كان – وهو ما صار يزعج الكهنة – يعرض عليهم الكفارة ويمنحهم الغفران، فى مقابل أن يؤدى الواحد منهم قسم الطاعة له طاعةً مطلقةً، طيلة بقاء الموكب، الذى كان يدوم ثلاثة وثلاثين يومًا وثلث اليوم؛ كنايةً عن العُمْر الدُّنيوى للسيِّد المسيح، ولم يكن للسياطين أن يغتسلوا أو أن يحلقوا ذقونهم ولا أن يغيروا ثيابهم، وليس لهم أن يناموا على فرش مريحة، ومع أنهم سمح لهم بأن يغسلوا أياديهم مرةً واحدةً فى اليوم، إلا أنهم كانوا يقومون بذلك رُكَّعًا، علامةً على المَسْكَنَة، ولدينا كذلك مزيد من النواهي؛ فكان محظورًا عليهم الحديث حتى لبعضهم، دون إذن من سيدهم، كما كان محظورًا عليهم كذلك ممارسة الجنس، أو التحدث إلى امرأة ولو بكلمة واحدة، وكان كل من يقدم على ذلك يؤمر بالركوع أمام سيده طلبًا للكفارة، عندئذ يقوم السيد بضربه وهو يقول له: «انهض على شرف الاستشهاد، ويتوجَّب عليك منذ الآن أن تُحصِّنَ نفسك ضِدَّ الخطيئة».

(*) (ح ١٣٣٣م – ح ١٤٠٥م)، مؤرخ فرنسي، له مؤلفات عن تواريخ الدول الأوروبية فى القرن الرابع عشر.

كان السيَّاطون فَوْر حلولهم بمدينة أو قرية يتخذون طريقهم إلى كبرى كنائسها، ويشكلون دائرةً. ويقوم الرجال بخلع ملابسهم الخارجية ويرتدون تنانير فضفاضةً، تمتد من الخصر حتى القدم، ثم يمارسون طقوسهم المعتادة، وكانوا يسيرون فى هيئة دائرية متخذين وضعًا صليبيًا، ثم يسوطون أنفسهم. وأحيانًا ينشدون خلالها ترانيم تُذَكِّرُ بآلام السيد المسيح وأمجاد السيدة العذراء، وعادةً ما كان السيد يقف واثنان من مساعديه فى مركز الدائرة يتابعون تلك العملية، ويتأكدون من أن لا أحد منهم قد فتَرت همته، وتوجب عليهم جميعًا أن يتساقطوا ثلاث مرات خلال قيامهم بذلك «وكأنما أصابتهم الصاعقة»، ثم يرقدون خائرى القوى، وهم يشهقون، ثم يسير السيد بينهم داعيًا الرب بأن يسبغ رحمته على الخاطئين، عندها يعاود السياطون ما كانوا يقومون به.

كانت تلك الطقوس تؤدى مرتين على الأقل فى اليوم الواحد، وإذا حدث ودخلت امرأة أو قس إلى تلك الحلقة، أو تسببت فى عرقلته بأية طريقة لا يكون قد سبق الاتفاق عليها مع السيد، يعاود السياطون الكَرَّة، وإذا شعر السيد بأن تلك السياطة لم تُؤدَّ على ما يرام يأمر بواحدة ثالثة، وكان يبدو على غالبهم أنهم يعون جيدًا ما يقومون به، وأحيانًا كانت المسامير الحديدية تنغرز فى أجسادهم، ويصبح من الضرورى انتزاعها، عندها يتدفق سيل الدماء إلى الخارج، ويتورم جسد السياط فى بعض الأحيان، ويصبح عرضةً للعدوى، ويبقى علينا أن نتذكر بأن توجب على كل سياط أن ينهض بتلك العملية كل يوم.

درج القوم فى الراينلاند على التباهى بسياطهم، فيتدفقون بأعداد هائلة لمشاهدتهم، ويُجْمِع المعاصرون على ما كان لمواكبهم من وَقْعٍ عميق فى نفوس مشاهديهم الذين كانوا بدورهم ينشجون ويبكون ويصرخون وينزعون شعور رءوسهم، فقد كان السياطون عندهم بمثابة شهداء يكفرون عن خطايا الدنيا، ومن ثَمَّ فهم يساعدونهم على اجتناب المزيد من المعاناة من الطاعون، واحتمالات عودته فى المستقبل، وكان غالب سكان القرى والمدن يؤمنون بأن زيارةً يقوم بها السياطون لهم، إنما هى شرف لا يدانيه شرف آخر، فكانوا يستقبلونهم بالترحيب وتُقْرَع لهم نواقيس الكنائس، دون موافقة من كهنتها الذين كانوا يرون فى ذلك انتقاصًا لمراكزهم، وكان البسطاء يفتحون لهم أبواب بيوتهم، ويقدمون لهم الطعام ويُزوِّدونهم بقناديل تساعدهم فى أداء طقوسهم، ودرجت المجالس البلدية فى عدة مدن على أن تعطيهم من أموالها ما يعينهم، الأمر الذى كان من شأنه أن يعكس عدم

الرضا عن الهبات المقدمة من الكنيسة التي صار يُنْظَر إلى رجالها على أنهم قوم فاسدون، وليس بمقدورهم التخفيف من ويلات الموت الأسود، وعلى النقيض من ذلك كان ينظر إلى السياطين بوصفهم نبلاءً طيبي القلوب، يستطيعون صرف الشياطين، فضلاً عن صرف الطواعين، فكان الناس يأتون إليهم بمرضاهم أملاً في شفائهم، ويعتبرون قصاصات شعورهم وأظفارهم بقايا مقدسةً، وكذلك كانت الحال مع قطرات دمائهم، وكانوا يتدافعون إليهم عسى أن يحظوا بملامستهم، بل إن هناك روايات عن فلاحين كانوا يأتون لهم بجثث موتاهم، علّهم يعيدون إليها حيواتها.

خلال ما تبقى من عام ١٣٤٨م ظل السياطون حسنى التنظيم أمناءً في سعيهم إلى أهدافهم، ونادرًا ما كانت السلطات المدنية أو الكنسية تضايقهم. لكنه ومنذ أواخر ذاك العام انفلت زمام بعض أفرادهم، وترددت روايات عن حالات فساد ووعود أخلفوها وممارسات جنسية محظورة، وعلى الرغم من كل ما كانوا يزعمونه عن الموت الأسود، إلا أنه واصل عربدته في معظم أنحاء ألمانيا، وأضحت الأحوال أسوأ من ذي قبل، وربما كان الأهم هو تحول الحركة بأسرها إلى «سباق دموي نحو الألفية»[٣٧]؛ ففي عام ١٣٤٨م وقعت كوارث طبيعية عديدة بينها زلازل، تؤذن بنهاية العالم، وأضحى الكثيرون من الألمان يصدقون بعودة الإمبراطور «فردريك برباروسًا» Frederick Barbarossa[*]، إلى الحياة، فيطيح برجال الكنيسة، ويرغم الأغنياء على تزويج الفقراء، كما يعود المسيح وينقضي الموت الأسود، ويبدأ من ثم عصر جديد للعالم، وصدَّق غالب السياطين بالألفية، وبدأوا يشكلون بطقوسهم الدموية تحديًا للسلطات المدنية الراسخة، وبذا وعلى نحو تدريجي بدأت عناصر من النبلاء والبورجوازية تشرع في الانقلاب عليهم، وحذا حذوهم حرفيون وفلاحون، ولم يلبث أن حلت محل هؤلاء السياطين في مطالع عام ١٣٤٩م عناصر هامشية تغص بأعداد متزايدة من المتشردين وعتاة المجرمين.

عند هذا الحد بدأت السلطات المحلية تتخلى عن تعاطفها مع السَّيَّاطين، وتتخذ إجراءات عديدة ضدهم وحيثما كانت توجد سلطات مركزية قوية كما هي الحال في إنجلترا

(*) وهو «فردريك الأول» ملك ألمانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (١١٥٥-١١٩٠م) أحد قادة الحرب الصليبية الثالثة ضد المسلمين، غرق في أحد أنهار آسيا الصغرى وهو في طريقه إلى بلاد الشام، وعُرف في التاريخ بـ«بربارُوسا»: أي ذي اللحية الحمراء، ودخل بهذه الصفة في المأثور الشعبي الألماني.

وفرنسا والممالك الأيبيرية كانت توضع العقبات فى طريقهم ويصير من اليسير إقصاؤهم، لكن لم تكن الحال كذلك فى ألمانيا، لما كان يشوب السلطات المركزية فيها من ضعف، ولا يتسنى لها تحديهم، وبذا تحقق للسياطين نفوذ واسع بها، وكان من الضرورى أن تتخذ ضدهم إجراءات صارمة. وجاءت الخطوة الأولى فى ١٣٤٩م حين التمس البابا "كليمنت السادس" رأى كليَّة السوربون بشأنهم، وكتب "جان دى ڤينيت" يقول إن "كليمنت":

"عمل طبقًا لنصيحة كبار اللاهوتين .. الذين قرروا أن تلك النِّحلة الجديدة، نشأت على عكس إرادة الرب وطقوس كنيسته المقدسة وخلاص أرواحهم، وهى نِحلة ظهرت مؤخرًا، ولأن البابا "كليمنت السادس" قد أحيط علمًا من قبل أساتذة باريس بما عليه تلك النحلة الجديدة الشاردة عن طريق الحق، وكونها جديرةً باللعنة وخارجةً على القانون، فإنه يحظر على السياطين مستقبلًا تلك الكفارة العامة التى يمارسونها بكل وقاحة، وإلا حل بهم الحرمان، ويشمل هذا الحظر كذلك من يساندونهم من قساوسة ورهبان حمقى يرددون أفكارًا أو آراءً شريرةً وخاطئةً وضالةً"[٣٨].

فى العشرين من أكتوبر ١٣٢٩م أصدر «كلمينت» مرسومًا يدين فيه السياطين، ويستحث إلى مطاردتهم، وأرسل كتبًا بهذا الخصوص إلى مختلف السلطات المدنية بما فيها ملوك إنجلترا وفرنسا وقشتالة وغالب قساوسة ألمانيا وأمرائها، حتى استؤصلت تلك الحركة نهائيًا زهاء عام ١٣٥٠ م.

كانت معاداة الساميَّة والاضطهاد الذى حاق باليهود فى جنوبى أوروبا، لا سيما أيبيريا، وهو ما نوّهنا إليه فى موضع سابق، من بين ما بشر به السياطون[٣٩]؛ ففى أوروبا الوسطى خصوصًا الراينلاندكان الوضع أسوأ بكثير وأفضى إلى نتائج بعيدة المدى، ولدى «جان دى ڤينيت» تعقيب مهم؛ يقول فيه:

«فجأة وبشدة اتهم اليهود بتسميم الآبار والمياه وإفساد الهواء، وبذا وقف العالم كله ضدهم بقساوسة وضراوة؛ ففى ألمانيا ... أقيمت لهم مذابح، وأقدم المسيحيون خلالها على الفتك بهم وألقى بالآلاف منهم فى المحارق فى كل نطاق وبدون تفرقة، وكان من اللافت للنظر ثبات رجالهم ونسائهم (أعنى اليهود)؛ فكانت النساء يلقين أطفالهن إلى النار حتى لا يتم تعميدهم، ثم يلقين بأنفسهن، حتى يحترقن مع أزواجهن وأطفالهن، وقيل

كذلك إنه تم إحراق كثير من المسيحيين الأشرار الذين كانوا يلقون السم فى الآبار، والحق أننا حتى لو سلمنا باقترافهم جرائم مثل تلك، فإن ما قاموا به لا يكفى وحده لأن يحدث طاعونًا فظيعًا مثل ذلك الطاعون، ولا أن يصيب مثل ذلك العدد الهائل من البشر»[٤٠].

أعلنت كليتا الطب فى جامعتى باريس ومونبلييه – وهما معًا أعرق الأكاديميات الطبية فى أوروبا فى القرن الرابع عشر– أن التُهم الموجهة ضد اليهود فى مجموعها ملفقة، وأشار أساتذتها إلى أن اليهود أنفسهم درجوا على أن يتناولوا الماء نفسه الذى يتناوله جيرانهم المسيحيون، وأنهم عانوا تقريبًا مثلما عاناه هؤلاء من الموت بالطاعون، وأبى البابا «كليمنت» بدوره توجيه أى لوم لهم، بل إنه أصدر مرسومًا يأمر فيه الكهنة بأن يشملوا بحمايتهم الجماعات اليهودية التى تقع فى نطاق رعويتهم، ونوَّه إلى أن «غالب (السياطين) وأتباعهم – وتحت قناع التقوى– يقترفون بشاعات هى أبعد ما تكون عن تلك التَّقوى المُدَّعَاة، ويسفكون دماء اليهود الذين كان يتقبلهم المسيحيون الأتقياء، ويتعاملون معهم»، وأقدمت السلطات فى عديد من الجهات على حماية اليهود، لكن الأمر لم يكن كذلك فى ألمانيا، حيث كان لغياب سلطة مركزية قوية ما يتيح للمتطرفين أن يفعلوا باليهود ما يشاءون.

فى سويسرا(*)، شنت السلطات حملةً بربريةً منظمةً معاديةً للسامية، وصلت إلى حَدِّ التَّطهير العِرْقي، وبدأت تلك الحملة فى سبتمبر ١٣٤٨م لدى إقدام المجلس البلدى بزيورخ Zürich إلى نفى يهودها جميعهم، على أن الأسوأ كان فى بال Basle، حين تم جمع يهودها فى جزيرة بنهر الراين، وهناك تمت التضحية بهم، وأصدر مجلسها البلدى قانونًا يحظر وجود أى يهودى ولمدى مائتى عام بها، أما فى شتراسبورج، فقد حاول مجلسها البلدى حماية يهودها المحليين من سخط المواطنين، فجُوبه بمعارضة من نقابة التجار وهى نقابة قوية، وبدأ فقد تم إقصاء أعضاء المجلس القدامى، وإحلال أعضاء جدد معادين للسامية مكانهم، وقام المجلس الجديد بإحراق ألفين من اليهود، وبينما كانت عظامهم تحترق ببطء كان العديد من السكان يُنَقِّبون فيها، علَّهم يقفون على أشياء ثمينة لم تكن النيران قد أتت عليها بعد. وخلال ربيع عام ١٣٤٩م وصيفه تصاعد العنف، وكان يشتد هول المذابح

(*) كانت تعد فى ذلك الزمان جزءًا من ألمانيا.

عندما كان يشتد الموت الأسود، وأضحت أشبه بتلك المذابح Pogroms (التى أقيمت بعد قرون لليهود فى روسيا القيصرية)(*)، وفى ربيع عام (١٣٤٩م) تمت إبادة التجمع اليهودى في فرانكفورت أم ماين Frankfurt-am-Main ، ثم فى ماينتس Mainz وكولونيا Cologne، وكان يقيم في ماينتس ما يزيد على ثلاثة آلاف يهودى ربما كانوا الأكثر عددًا والأوفر ثراءً بين سائر التجمعات اليهودية بشمالى أوروبا، كما كان لهم تراث عريق يدعو إلى المباهاة، وعندما شُرع فى الهجوم عليهم احتشدوا وقاوموا حتى إنهم قتلوا فى اليوم الأول مائتين من المسيحيين، لكنهم اضطروا فى اليوم التالى إلى التراجع إلى أماكن قريبة يتحصنون فيها، عندها عاود المسيحيون هجومهم، وأوقعوا الهزيمة بهم ثم قتلوهم جميعهم.

مذابح مثل تلك وقع مثيلات لها فى بروكسل Brussels وزولوتهورن Solothurn وتسوفينجن Zofingen وشتوتجارت Stuttgart ولاندسبرج Landsberg وبورين Burren وميمنجن Memmingen ولنداو Lindau وفرايبورج Freiburg وأولم Ulm وجوتا Gotha وأيزنباخ Eisenbach ودرسدن Dresden وفورمز Worms وبادن Baden وإرفورت Erfurt وشبيير Speyer، وفى هذه الأخيرة جرى جمع أجساد اليهود ووضعها في براميل للخمور ألقى بها في نهر الراين. ولدى نهاية ١٣٤٩م بدأ العنف يتضاءل عندما بدأ الموت الأسود يُقارب نهايته، لكنه لم يلبث أن عاود نشاطه مرةً أخرى فى بلاد الهانزا على البحر البلطى وفي معظم الأنحاء بشرقى أوروبا، حيث كان الموت الأسود ما يزال فى بداياته. وكانت النتائج النهائية لما يمكن أن ندعوه بالمحرقة Holocaust(**) كارثيةً: ففى عام ١٣٥١م كان ستون تجمعًا يهوديًا كبيرًا ومائة وخمسون تجمعًا يهوديًا صغيرًا قد تم استئصالها جميعها. وأقيمت ما يزيد على الثلاثمائة والخمسين مجزرة لهم، وكان من نتائجها كذلك دفع من تبقى من اليهود فى شمالى أوروبا إلى النزوح إلى بولندا أو روسيا، ليقدر لهم البقاء هناك نحوًا من ستمائة عام.

(*) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا يقتضيها السياق.

(**) تعبير أطلق على عمليات الإبادة التى نهض بها «هتلر» إبان صعود النازية، وكان ضحاياها من أعراق مختلفة وديانات مختلفة، لكنها ارتبطت فى المخيال الأوروبى باليهود وحدهم، الأمر الذى أفادت به الحركة الصهيونية فائدةً كبيرةً.

كانت الحماية التي أسبغها "كازيمير" Casimir ملك بولندا(*) على اليهود واحدة من الأسباب التي شجَّعت هؤلاء اليهود على الزحف شرقًا، وليس من الواضح تمامًا لماذا كان "كازيمير" مغاليًا في ترحيبه بهم؛ ربما لأنه كانت لديه خليلة يهودية، وربما كان في حاجة إلى مهاراتهم التجارية، أو إنه كان يؤمن بعدالة قضيتهم، لكنه من الممكن كذلك أن نفسره بالوهن الذي أحاط الموت الأسود في شرقي أوروبا، ومما يجدر ذكره أن معلوماتنا عن الأقطار السلافية هناك أقل منها في أقطار أخرى من أوروبا، ولا تتوافر لنا سوى أوصاف أدبية قليلة، كما لا تتوافر معلومات إحصائية يمكن التعويل عليها، فيما عدا تلك المعلومات التي وصلت إلينا من مدن الهانزا الواقعة إلى السواحل الشرقية للبحر البلطي، ولا يبدو واضحًا تمامًا لنا متى وصل الموت الأسود إلى المشرق، فلم يصل إلى ماركية براندنبورج Brandenburg(**)، التي تقع لدى الحافة الشرقية لأوروبا المتحدثة بالألمانية قبل يناير (١٣٥١م)، وليس من المحتمل أن يكون قد وصل إلى أي جزء من أوروبا السلافية قبل ربيع (١٣٥٠ م). وقد فقدت بولندا نحوًا من ربع سكانها، وتلك بالتأكيد نسبة عالية، لكنها أقل من نظيراتها في جنوبي القارة وغربيها، وكانت نسبة الموَتان في بعض الأنحاء ما تزال أقل منها في أنحاء أخرى، بحيث لم تتعد أحيانًا خمسة عشرة بالمائة "فحسب" الأمر الذي جعلها أقل أقاليم أوروبا إصابةً بالطاعون، وكانت العدوى في المجر أشد حدةً، مما كانت عليه عند جيرانها السلاف، وربما فقدت ثلث سكانها، لكن ذلك كان استثناءً على القاعدة، وعلى أية حال فيترجح أن النسبة الإجمالية لضحايا الموت الأسود في شرقي أوروبا كانت تتراوح بين عشرين بالمائة إلى خمسة وعشرين بالمائة.

يتقدم بعض الباحثين بطائفة من الأسباب لتلك النسبة المعتدلة، من ضحايا الموت الأسود في شرقي أوروبا[٤١]، فيرجعون السبب إلى أنها كانت أقل في كثافتها السكانية من مثيلاتها في الغرب، لكنه ربما لا يعد هذا السبب قويًا؛ لأن الكثافة السكانية العالية تيسِّر انتشار الطاعون الرئوي، لكنها لا تكون كذلك مع انتشار الطاعون الدُّمَّلي، وهو أكثر أنواع الطاعون شيوعًا فقد كان شرقي أوروبا أقل من كثافته السكانية، شأنه في

(*) هو «كازيمير الثالث» (١٣٣٣-١٣٧٠ م) استطاع أن يجعل من بولندا دولةً قويةً.

(**) وهي الأصل في مملكة بروسيا الألمانية كبرى ممالك ألمانيا قبل توحيدها في عام (١٨٧٠م).

ذلك شأن إسكندناوة وويلز وإيرلندا، حيث كان المناخ متشابهًا، لكن موتى تلك البلاد من الطاعون كان أعلى بكثير من موتاه فى الشرق. ونذهب من ناحيتنا إلى أن تلك النسبة المتدنية من الموَتان فى شرقى أوروبا نشأت فى غالبها من اختلافها إيكولوجيًا وبيئيًا: ففى ربيع ١٣٥١م كان الموت الأسود قد أناخ بظلّه على أوروبا لعامين ونصف العام، وبالتأمل فى عُصَيَّة يرسين وقابليتها للتحور، فيحتمل أنها بدأت ذلك التحور على نحو أقل عنفًا من السابق، فقد كانت بوهيميا مطوقةً من أطرافها فيما عدا شرقها بالجبال، مما أدى إلى أن صار لا يوجد بها سوى القليل من الجرذان الحاملة للطاعون، على عكس ما كانت عليه الحال فى المناطق السهلية، وقد عانت بعض المناطق الجبلية: مثل شمالى ويلز بشدة من الطاعون فى ١٣٤٩-١٣٥٠ م، ولكن إذا كانت عُصَيَّة الطاعون قد ضعفت فى مرحلة متأخرة، فربما كان من شأن أعداد أقل من حامليها من القوارض أن تجعل الأمر مختلفًا، وكانت المجر على العكس تتوسط سهلًا تتواجد فيه أعداد هائلة من القوارض، من شأنها أن تتسبب فريسة الموَتان العالية، وأيًّا كانت الأسباب الحقيقية لتلك الاختلافات فى الموَتان من الطاعون، فإن معظم العلماء يستبعدون إمكانية وجود مناعة فطرية وسلبية للطاعون فى شرقى أوروبا.

يبقى لنا فى النهاية القول بأنه مما يدعو إلى السخرية أن الموت الأسود زحف إلى شمالى أوروبا قادمًا من مناطق الاسبتس الواقعة فى جنوبى روسيا، ثم اتخذ زهاء عام ١٣٤٦م طريقه إلى الغرب، لكن عُصَيَّة يرسين لم تعبر ذلك الاسبتس مباشرةً إلى مناطق الغابات الشمالية الخاضعة لدوق موسكوفى Muscovy وغيره من الحكام المسيحيين، بل إنما وصلت إلى روسيا عبر طريق طويلة ودائرية، تمتد من كَفَّة إلى إيطاليا ومنها إلى فرنسا وألمانيا وبولندا وليتوانيا، وربما لم تصل إلى روسيا قبل نهايات عام ١٣٥٠ م أو بدايات عام (١٣٥١م)، ولم يكن الطاعون بجديد على روسيا فى منتصف القرن الرابع عشر، فقد كانت واحدةً من الأقطار الأوروبية غير المتساحلة التى كانت تصيبها الطواعين على نحو دورى بين الجائحة الطاعونية الأولى والجائحة الطاعونية الثانية، ولدينا مثال على ذلك من الطاعون الذى اجتاح مدينة سمولنسك Smolensk على نهر الدنيبير، فيرد فى الحوليات المعاصرة أنه فتك باثنين وثلاثين ألفًا من سكانها، وهو أمر مبالغ فيه، وربما كان يعدل ثلاثة أضعاف سكانها(٤٢)، كما يقال إن الطاعون الذى أصاب كييف فى ١٢٩٠م قد أهلك سبعة آلاف من أهلها على مدى أسبوعين، وهو رقم مبالغ فيه كذلك، لكنه كانت له

فائدته في التعرف إلى انطباعات المعاصرين له. وبالنسبة لشرقي أوروبا فلا تتهيأ لدينا مادة يمكن التعويل عليها للتعرف إلى عدد الموّتان في روسيا المسيحية، لكن المدونات التاريخية تتفق جميعها على أن الموت الأسود كان أسوأ طاعون مسجل يعصف بالريف والحضر معًا، وهو عصف كان من العنف إلى حد الزعم بأنه أتى على سكان مدينتين جميعهم، وبذا فقد كان الموت الأسود في روسيا كما كان في أي صقع آخر هو أكبر كارثة سكانية حلّت بها.

الفصل الخامس

النتائج الحاضرة

بنهاية عام ١٣٥١م كان الموت الأسود يشارف نهايته، وليس بإمكاننا التوصُّل على نحو دقيق إلى أعداد ضحاياه، لكن الواضح أن أوراسيا بأسرها وإفريقيا شمالي الصحراء ابتُليت به، وتذهب معظم التقديرات الحديثة إلى تحديد نسبة هؤلاء الضحايا في كل أوروبا بما يتراوح بين ٢٥٪ و٤٥٪، وهو ما يتوافق مع تحديد المعاصرين لهم[1]، فقد قدّر مندوبا البابا "كليمنت السادس" في عام ١٣٥١م أعدادهم في أوروبا المسيحية بـ ٢٣,٨٤٠,٠٠٠، فإذا كان جملة سكان تلك القارة قبل الموت الأسود يقدر بخمسة وسبعين مليونًا، فإن تقدير أولئك المندوبين كان يعدل ٣١٪، وهو معدل يقف وسطًا بين نسبة أولئك الضحايا في إيست إنجليا وتوسكانيا وأجزاء متفرقة من إسكتلندا – والتي تقدر بخمسين بالمائة– ونسبتهم في بوهيميا وغاليسيا Galicia[*] – والتي تقدر بأقل من خمس عشرة بالمائة– ويقترب كثيرًا مما يدعيه فرواسار بأنه ذلك الطاعون "أفنى ثلث العالم"، وربما كانت تلك النسبة مستقاةً من عدد الموتى الوارد عند القديس "يوحنا اللاهوتي" في سفر الرؤيا[**]، وهو مورد مفضل للأخبار عند أهل العصور الوسطى.

كانت لتلك الخسائر السكانية الفادحة نتائج فورية، لها وقعها وخطرها: أولاها وأظهرها سلوك الناس وسيكولوجيتهم، فقد كانت الصدمة مريعةً، وتوقفت الحياة الطبيعية في بداية تلك الوباء؛ فعلى الأقل توقف الفلاحون عن حصاد زروعهم، وأغلق

(*) إقليم يقع في بولندا الحالية.

(**) وردت في هذا السفر عدة صور متعلقة بالطواعين ١٥/٨ – ٩/٢١.

التجار محالهم، وأمسك معظم رجال الكنيسة – إن لم يكونوا كلهم– عن مزاولة مهامهم، وقام "بوكاتشيو" بوصف المزيد من تلك العواقب في رائعته الديكاميرون: فهو يقول:

"أحداث مثل تلك وغيرها، جعلت من بقوا على قيد الحياة – وقد استبد بهم الهلع والهذاءات– يتطلعون في معظمهم إلى هدف وحيد هو أن يجتنبوا المرضى وكل ما يتصل بهم، وبذا يستطيع أي امرئ منهم أن يحافظ على صحته، وذهب بعضهم إلى أنه باقتصاده في أمور حياته وابتعاده عن كل ما هو مغالى فيه يمكنه اجتناب هذا الخطر، وراح العديد ينتظمون في جماعات، ويعيشون بمعزل عن غيرهم، ملتزمين ببيوتهم، حيث لا يوجد مريض، وحيث يمكن لهم أن يستمتعوا بحيواتهم التي انقطعوا عنها، ويتناولون باعتدال ما طاب لهم من طعام ويحتسون أفخر أنواع النبيذ، ويتحاشَوْن الإفراط في الترف، وظلوا على هذا النحو ينعمون بالموسيقى وغيرها مما يشوقهم، ولا يسمحون لأحد بأن يتحدث إليهم، ويغلقون آذانهم عن سماع أية أخبار تأتيهم من العالم خارجهم عن موت أحد أو اعتلال صحته.

"غيرهم كانوا على النقيض منهم؛ فيفرطون في شرب الخمر والمرح والغناء، ويعيشون حياةً حرةً دون قيود، ويشبعون رغباتهم بأية طريقة، غير عابئين بما يقوله الناس عنهم، ويرون في ذلك أنجع السبل للوقاية من هذا المرض، ويحاولون قدر ما يستطيعون أن يُوفِّقوا بين ما يعتقدون وما يفعلون، ويتنقلون من حانة إلى أخرى يشربون دون ما توقف، ويَهْرعون إلى بيوت الآخرين، دون النظر لما هو أليق بهم، لا يمكن لأحد أن يمنعهم منها، فقد تخلَّى الجميع عن متعلقاتهم بل عن أنفسهم، باعتبار أن أيامهم في الحياة باتت معدودة، وأصبحت معظم تلك البيوت مشاعًا بينهم، يختلف إليها الغرباء وكأنهم أصحابها، وكانوا بهذه الطريقة في التفكير يحسبون أنهم يبذلون غاية جهدهم للهرب ممن ابتلوا بالمرض.

"في ذلك الإبان وفي غمار ما ران على المدينة من ابتلاء وشقاء، تهاوت القوانين إلهية كانت أم إنسانيةً؛ لأن القائمين عليها مدنيين كانوا أم كنسيين، إما أنهم ماتوا أو صاروا صرعى للمرض، فلم يخلفوا من يحلُّون محلهم، فينهضون بأعمالهم، وبذا فقد صار كل امرئ يسير على هواه.

"آخرون اتخذوا موقفًا وسطًا: فلا هم انصرفوا إلى طعامهم، كما هى حال الأولين، ولا هم انصرفوا إلى شهواتهم كما هى حال الآخرين، بل انصرفوا إلى أن يستمتعوا بحيواتهم على نحو معتَدل، فلم ينغلقوا على أنفسهم، بل كانوا يخرجون للتَّنَزُّه، يحملون زهورًا فى أيديهم، ويحمل بعضهم الآخر أعشابًا عطريةً، أو يحمل البعض الأخير أنواعًا من التوابل يشتمونها من حين إلى آخر، يحسبون أن روائح مثل تلك لها فائدتها فى إراحة الدماغ، سيّما وأن الهواء أضحى خانقًا، يعبق بروائح كريهة، بسبب الجثث النتنة والمرضى والعقاقير.

" يبقى أخيرًا آخرون استبدَّت بهم القسوة، يزعمون – وكأنهم أحكم من غيرهم– أن ليس ثم علاج لهذا المرض سوى الهرب بعيدًا عنه، وهكذا وبدون تفكير فى أحد سوى أنفسهم، فقد هجر رجال ونساء لا يحصى عددهم مدينتنا (فلورانس) متخلين عن دورهم وضياعهم وأهليهم ومتاعهم، إلى حيث يجدون ملاذهم فى بيت بالريف، لا فارق عندهم بين أن يكون من ممتلكاتهم أو من ممتلكات غيرهم، وبدت الحال (كما يعتقدون) أن غضب الله الذى يعاقب البشر على ظلمهم بذلك الطاعون لن يقف عليهم حيث هم، وأنه سوف يهلك هؤلاء الذين تَصادف وجودهم داخل أسوار المدينة، وكانوا على قناعة، بأنه قد حانت لحظة النهاية بتلك المدينة، وبذا فلا ينبغى أن يبقى بها أحد.

"ومع أن أفراد تلك الجماعات لم يهلكوا جميعهم، فإنهم كذلك لم ينجوا أيضًا جميعهم، على العكس فكثير من كل جماعة أصابهم المرض، وحيث إنهم صاروا أمثالًا لهؤلاء الذين قدر لهم أن يعيشوا فإنهم تركوا لمصيرهم"(٢).

بين كل تلك الاستجابات كانت الاستجابة الإبيقورية هى السبب فى التكالب على الموبقات حتى أفحشها، والحق فالسعى إلى اللذة هو الموضوع الأساس فى الديكاميرون؛ فالمشهد العام هو فلورنسا فى القرن الرابع عشر، وعشرة من الشباب يفرون من الموت الأسود بالانصراف إلى حكايات يتسم معظمها بالفجور والبعد عن الاحتشام، يستهدفون من ورائها أن يروِّحوا عن أنفسهم فى مقابل الخراب العام الذى أتى به الطاعون، وكان هؤلاء المعربدون يُجِلُّون المسيحية ويراعون مظهرها ومخبرها، وفى أحيان يلتزمون بالسلوك المسيحى المنضبط، فقد كانوا ينتمون إلى الطبقات العليا، ولم يكونوا ليرتابوا فى التراتبيَّة ونظام الحياة الدنيوية، كما لم يكونوا ليرتابوا كذلك فى جوهر العقيدة

المسيحية وغائياتها، وبينما لم تتشكك أية شخصية من شخصيات الكتاب فى قدرة الرب، فإن بعضهم كان يذهب إلى أن مستقبلهم محتوم ليس بأعمالهم – وهى إحدى عقائد الكنيسة الرومانية– إنما هو محكوم بالقدر والحظ والصدفة. وكان المسعى إلى الحظ السعيد عندهم علامةً على البركة المقدسة. وكانت شخصيات بوكاتشيو تُعْلِى من صفات مختلفة عن تلك التى كانت محلَّ تقدير لأسلافهم، فلم يكن للتقوى وإتقان العمل والذكاء ليبارى عندهم الفطنة والمهارة كوسيلة أساس للنجاح، وكان الديوث -ليس الشتام ولا الكذاب أو الجبان– هو الجدير بلعنتهم، وكان زير النساء – وليس العالم الورع ولا الفارس الجسور– هو الجدير بإعجابهم. وكان الفوز عندهم من نصيب من يسعى إلى خير نفسه دون غيره، ولم يأت الموت الأسود لقسم مهم من الأعضاء النشطاء فى المجتمع بقدر كبير من القبول الرواقى بالألم والمعاناة قدر ما أتى برغبة فى حياة دنيوية ناشطة.

ولم تكن الديكاميرون هى المثال الوحيد على ذلك الأدب الذى يعكس تلك القِيَم الجديدة، فما إن مضى جيل واحد حتى عبَّرت حكايات كانتربرى **Canterbury Tales** لـ"تشوسر" **Geofrey Chaucer**(*) عن منظور للحياة والقيم أشبه بما كان للديكاميرون، وكان لها تأثيرها العميق فى القارئ الإنجليزي، مثلما كان للديكاميرون من تأثير عميق فى القارئ الإيطالي[3]. وقد تواصل حضور تلك السيكولوجيا الجديدة أمدًا طويلًا؛ فبعد قرن كامل تخللت تلك الروح أعمال «ڤيللون» **François Villon**(**)، وجسدت القيم ذاتها[4]، وكان «ڤيللون» قد اعتاد حياة الجريمة والتشرد، ولأنه كان شاعرًا مبدعًا، فقد استخدم الأشكال الأدبية السابقة للطاعون وموضوعاتها، إلا أن إيقاع ما كتب ومواقفه كانت تنتمى إلى المرحلة الجديدة، كما كان شديد العنف والقسوة فى نقده وسخريته، مؤمنًا بالخرافة مفتونًا بالموت، مذعورًا من عذابات الجحيم، لكنه ينكَبُّ فى الوقت نفسه على مُتَع الحياة والتمرُّس بها إلى أبعد ما يستطيع، وربما يكون من التبسيط الشديد أن نشرح مذهب اللذة فى العصور الوسطى المتأخرة، فى ضوء الموت الأسود والجائحة الطاعونية الثانية، لكنه من المؤكد أن الطاعون كان يشكل عنصرًا رئيسًا من المسئولية عنه.

(*) (ح ١٣٤٠ - ١٤٠٠م)، شاعر إنجليزى من كبار شعراء العصور الوسطى.

(**) (١٤٣١ – بعد ١٤٦٣م)، شاعر فرنسى أثيم وحكم عليه بالإعدام، ثم تم العفو عنه، اشتهر بشعره الغنائي.

يبدو أن الإبيقورية Epicurianism(*) كان لها حضورها القوى بين الفئات الأعظم تأثيرًا فى المجتمع، لا سيَّما الأرستقراطية والمثقفين، وكان التشبث بها سبيلًا إلى أزمة أخلاقية عميقة وطويلة، ويذهب بعض الباحثين إلى أن أزمةً مثل تلك كانت موجودةً فى عام (١٣٤٧م)، بل ربما تعود بداياتها الأولى إلى ما كان عليه الاقتصاد المعيشى فى منتصف القرن الثالث عشر، لكنهم جميعهم يؤمنون بأن الموت الأسود شأنه شأن أزمات أخرى متزامنة قد فاقم من تلك الأزمة؛ فقد ذهب ما كان سائدًا فى الماضى من تراحم ومودة، وحلت مكانه فى حالات كثيرة فردية عارمة، وفى أماكن بعينها تنامت تلك الفردية على نحو بناء يتمثل فى صعود النزعة الإنسانية Humanism(**)، فى إيطاليا فى أواخر القرن الرابع عشر وطيلة القرن الخامس عشر، كما يتمثل فى صعود التقوى والتصوف فى الراينلاند والبلاد الواطئة زهاء المدة نفسها، لكنه فى العقد التالى مباشرةً للموت الأسود كانت الفردية تتجه على نحو مباشر إلى تضخيم الذات والبحث عن اللذة والدَّعَة، وتزعزعت المؤسسات العامة، وروح الجماعة ريفيةً كانت أم حضريةً، وكانت تلك الروح علامةً مميزة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، كما تمَّ التخفف من الروابط الاجتماعية والدينية القديمة حتى الروابط العائلية، وكانت استعادة تلك الروابط تحديًا يواجه الناس فى أواخر القرن الرابع عشر وطيلة القرن الخامس عشر.

بين تلك التغيرات السيكولوجيَّة التى أتى بها الموت الأسود إحساس جديد بالزمن، خصوصًا بين البورجوازية(٥)، وتقليديًّا كان لدى التجار ورجال الكنيسة إحساس مختلف بالزمن؛ فبالنسبة لهؤلاء الأواخر كان الزمن لانهائيًّا، فهو مملكة الله، وكان بالنسبة للتجار نهائيًّا يرتبط بالمكان، مثل عدد الأيام اللازمة لإقلاع سفينة من جنوة إلى بريجز، أو ما يرتبط بفصول السنة المتغيرة مثل عدد الأيام السابقة لغلق ممرات جبال الألب(***)، وكان الزمن عندهم يعنى النقود، وهو ما كان يتسبب فى فَزَع رجال الدين، ويدفع اللاهوتيين إلى إدانة تجارة الربا، واحتجوا على ذلك بأن الربا والمضاربات التجارية تدعو إلى الريبة، لأنها تستهدف الهيمنة على المستقبل، فى حين أن الزمن هو إرادة الرب.

(*) مذهب فلسفى يونانى ينسب إلى «إبيقور»، وينصرف إلى الانْهماك فى الملذَّات الحسية.

(**) حركة فكرية سادت الثقافة الأوربية خلال القرون من الرابع عشر إلى السادس عشر، اهتمت بالإنسان من حيث هو إنسان، كما اهتمت بإحياء التراث اليوناني / الرومانى القديم.

(***) بسبب تراكم الجليد.

غيّر الموت الأسود من كل ذلك، فقد أتى بالإحساس بما هو عاجل، وهو ما يتّضح على نحو كبير في المناطق الحضريَّة فقد استطال يوم العمل، وصار العمل الليلى شائعًا، ما دام التجار يسعون إلى المزيد من الربح، والعمال يسعون إلى أجور مرتفعة، ففى غنت ومدن أخرى من مدن الفلاندرز – وبمجرد ما خفَّت وطأة الموت الأسود فى أواخر ١٣٤٩م- طالب عمال النسيج بأن يسمح لهم بتحديد ساعات عملهم، وأضحت الصلة بين الساعات والقرع المتناغم لأجراس الكنائس أكثر أهمية عن ذى قبل، وأذن حاكم أرتوا Artois فى ١٣٥٥م لأهل آير–سور–لا–ليس Aire-sur-la-lys بأن يبتنوا برجًا لكنيستهم، يتمكن عمال النسيج بها وتجارها من سماع دقات أجراسها، ومن ثمَّ يتعرَّفون إلى الوقت، وتشابهت الأوضاع فى سائر المناطق الحضرية بأوروبا؛ ففى إيطاليا كان الإنسانى الفلوانسى يعتقد بضرورة أن تتوافر ساعة فى كل مكتبة من المكتبات، ومما له دلالة هنا ما كتبه الإنسانى "ليون باتيستا ألبرتي" Leon Battista Alberti(*)، فى حواره عن الحياة العائلية.

جيانوتسو: هناك ثلاثة أشياء، ربما يصدق المرء في قولها: حظه وبدنه ...

ليوناردو: وماذا بشأن الثالث؟

جيانوتسو: آه شيء ثمين للغاية أعز عندى من يدى وعيني.

ليوناردو: عجيب إذن ما هو؟

جيانوتسو: إنه الزمن يا عزيزى ليوناردو[٦].

عند نهاية القرن صار «زمن التاجر» وليس المفهوم المسيحى التقليدى هو القاعدة[٧].

تغييرات سيكولوجية مثل تلك صار لها تأثيرها الكبير فى الديانة المسيحية فى أواخر العصور الوسطى؛ فقد كان الشعور الدينى العميق أحد الركائز التى كان يقوم عليها المجتمع فى الغرب عند المسلمين والمسيحيين على سواء. فكان أتباع هاتين الديانتين يعطون حياتهم الأخروية أهميةً أكبر من حياتهم الدنيوية، ومع ما لمسوه من صعوبات تكتنف وجودهم الأرضى وقصر هذا الوجود صار الهدف الأسمى لهم هو الخلاص، وادعى

(*) (١٤٠٤–١٤٧٢م)، مهندس معمارى ورسام، اشتهر بتصميماته الكنسية.

رجال الدين أنهم الطريق إلى تلك الخلاص(*)، وبذا اقتعدوا مكانةً متميزةً، زاد منها الموت الأسود، ذلك القاتل المباغت المندفع المؤلم والشامل والذى زاد بدوره من شغل الناس بالموت والحساب والجحيم، وعندما بدأ يطرق أبواب بيوتهم تضاعفت أهمية الخلاص عن ذى قبل، وأصبح رجال الدين على المحك، فإذا ما نهضوا على نحو أو آخر بمسئوليتهم وتهيأت لهم القدرة على التخفيف من قلق رعاياهم، الذى تحول فى بعض الأحيان إلى هُراع Hysteria، يصير من شأنه أن يتوطد وضعهم، وإذا لم يتسن لهم ذلك توجب على المؤمنين أن يتلمسوا لأنفسهم طريقًا أخرىٰ جديدةً إلى السماء.

يمكننا أن نعمم فنقول: إن كلًّا من رجال الدين المسلمين والمسيحيين على السواء قد أخفقوا فى هذا الاختبار؛ فكان العلماء المسلمون يضعون أمام أتباعهم ثلاثة مبادئ جوهرية[٨]: أولها أنه ليس من واجب المؤمن أن يفرَّ من الموت الأسود، بل الأحرى به أن يظل حيث هو ويتقبل بمشيئة الله، وثانيها أن الموت بسبب الطاعون استشهاد أو رحمة للمؤمن الحقيقى وقصاص للكافر، وثالثها أنهم فى رفضهم لما يزيد على الألف سنة من الحكمة المتفق عليها أنكروا الرأى الطبى الشائع بأن الطاعون ما هو إلا عدوى مميتة تنتقل من شخص إلى آخر، فيصبح من الحماقة إذن أن يهرب المرء من الموت الأسود: لأن الله – وليس الإنسان– هو الذى يقضى بالمرض، وهناك سبب آخر لرفض ما نصح به الأطباء، هو أن الله خير والمرض لا يتواءم مع وجوده الأسمى.

كان بعض العلماء يختلفون فى نظرتهم إلى الموت الأسود عن تلك النظرة العامة، واتخذوا موقفًا أقل تعاطفًا معه، فكانوا يؤمنون بأن الطاعون ما هو إلا انتقام أتى به الله إلى البشر، لأنهم حادوا عن الصراط المستقيم، وهو فكرة تستند إلى تفسيرات للعهد القديم(**)، ومستقاة فى الأساس من أمثلة كالعقاب الذى أنزله الرب بالفراعنة، وكان معظم العلماء المسلمين يقولون لرعاياهم إن الله رحيم بالمؤمن الحقيقي، وكما هى حال من يقضى فى ساحة الوغى فالطاعون ما هو إلا رحمة، ويؤكدون على أن ضحيته يفوز بالخلاص.

(*) فى الغرب فقط، أما فى المشرق (الإسلامي) فكان الوضع مختلفًا.

(**) واضح هنا تزيُّد من المؤلف.

"قال يختصم الشهداء والمتوفون على فُرُشهم إلى ربنا فى الذين ماتوا بالطاعون فيقول الشهداء: أما إخواننا قتلوا كما قتلنا، ويقول المتوفون على فرشهم: إخواننا ماتوا على فرشهم كما متنا. فيقول ربنا عز وجل: انظروا إلى جراحهم، فإن أشبهت جراح المقتولين، فإنهم منهم، فإذا جراحهم قد أشبهت فيلحقون معهم[*][٩].

بالنسبة لكثير من المؤمنين؛ فقد كان من شأن وصايا مثل تلك أن تجلب لهم الرضا، أما بالنسبة لغيرهم فلم يكن الأمر كذلك، فكانت المؤسسة الطبية الإسلامية – وعلى الرغم من اتهامات رجال الدين لها وتهكمهم عليها– تتقدم لهؤلاء المؤمنين بنصيحة طبية واسعة، فاستنادًا إلى ما كان للأعمال الطبية من شعبية، فلم يكن كثير من المسلمين راضين عن التسليم بقضاء الله، وربما كان هناك مضغط barometer لقياس عدم الرضا عن العلماء المسلمين – فقد كانت هناك نخبة قليلة منهم متعلِّمة بإمكانها مطالعة الأطروحات الطبية– في حين ذاع بين العوام ضرب من السحر يجتنبون به الطاعون ويعالجون به هؤلاء الذين أصيبوا به، وكان هذا السِّحْر يتمثل فى صلوات خاصة، تستخدم فيها أعداد أو تعاويذ وطلسمات وتمائم، خصوصًا تلك المصنوعة من الذهب أو الفضة، وكانت العلامات الست شائعةً، سيَّما تلك المنحوتة بالياقوت الأزرق أو العاج، وكانت جميعها تعد واقيةً للصحة. ولذا كانت مستهجنةً من قِبَل رجال الدين الذين كانوا يذهبون إلى أن رموزًا مثل تلك إنما هى إهانة لله تعالى، لكنها ظلت مع ذلك محتفظةً بشعبيتها، مما كان يشكل صفعةً لسلطة رجال الدين[**] وتحديًا لهم.

كانت الخسارة التى لحقت بالمؤسسة الدينية فى أوروبا أشد فداحةً[١٠]، ويعود ذلك جزئيًا إلى أن الإدارة التراتبية لتلك المؤسسة كانت أعرض مما كانت عليه فى البلاد الإسلامية من ناحية، وإلى أن الكنسية المسيحية ذاتها، كانت قد بدأت تنهار على مدى جيلين على الأقل قبل الموت الأسود من ناحية أخرى؛ ففى عهد الباب "بونيفاس Boniface

---

(*)كتاب الطب المسنون في دفع الطاعون، تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة «شهاب الدين ابن أبي العباس أحمد بن حجلة المغربي الحنبلي، دار الكتب المصرية، مجاميع: مصطفى فاضل، ميكروفيلم ٥١٧٣٤ (٤١-٤٦) صـ٤ ب.

(**) فى النص الأصلى Mullahs وهو مصطلح ديني يختص بالشيعة وحدهم ولا يختص بالمسلمين كافة.

الثامن" (١٢٩٤-١٣٠٢)(*)، أصبحت البابوية علمانية إلى مدى بعيد، وشغلت بمكاسبها المالية والسياسية ومباهاتها بما ادعته من سيادة عالمية، وخسرت عدة معارك مع السلطات العلمانية بالدولة، وفى ١٣٠٩م انتقل الكرسى البابوى من روما إلى أفينيون، وهى مدينة تقع فى نطاق السيادة القانونية للإمبراطور الألماني، لكنها كانت فرنسية من الوجهتين: الجغرافية والثقافية، وقبل ذلك الانتقال كان أسقف روما بابا من حيث كونه خليفةً للقديس «بطرس»، وبيده مفاتيح مملكة السماء، أما فى أفينيون فلن يعد الأمر كذلك، وصار ينظر إليه من قبل كثير من المسيحيين خاصتهم وعامتهم على أنه مجرد تابع لملك فرنسا. وبوجه عام فقد وصلت الحال بالبابوية إلى أنه صارت أكثر دنيوية منذ أوائل القرن الثالث عشر، تهتم بما تحرزه من مكاسب مادية وسياسية، وتقصر فى أداء واجباتها الروحية، كان هذا الانهيار سابقًا للموت الأسود ولا صلة له بالآثار التى ترتبت على الانخفاض فى عدد السكان. بيد أن الكثيرين يذهبون إلى أن بابوات أفينيون كانت لهم أهميتهم، فقد نهض «كليمنت السادس» كمثال بدور مسئول إبان الموت الأسود، فقد أصرَّ على البقاء حيث هو حتى اللحظات الأخيرة إلى أن لاذ بالهرب من الطاعون، وهو لم يقم بذلك إلا بعد أن استجاب إلى نصيحة طبيبه. ومع ذلك فعندما استثار الموت الأسود انتباه الكنيسة الأم وأتى معه بتحدٍّ عنيف ليس له نظير، فإن هيئاتها الروحية والتعليمية جميعًا، لم تكن عند مستوى ذلك التحدي، صحيح أن المسيحيين لم يتخلوا عن إيمانهم لكن العديد منهم شرعوا فى البحث عن بدائل أخرى تحقق لهم سلامهم الروحى وخلاصهم.

كان فشل الكنيسة المسيحية فى أساسه يتمثل فى عدم نهوضها بتوفير العزاء الضرورى أو العون لرعاياها إبان الأزمة، وقد تمثل ذلك الفشل أولًا فى أنه فيما عدا أجزاء من شمالى إيطاليا كانت الكنيسة هى التى تنهض بالإشراف على التعليم وإجازة الأطباء الذين كان معظمهم من رجالها، صحيح أنه كان هناك جراحون وعقاقيريون وممارسون غير محترفين، كان يتم تدريبهم ومزاولتهم لأعمالهم خارج سلطة الكنيسة، لكنهم كانوا قليلى الحيلة تجاه النظريات والبحوث عن ذلك المرض المعدى الذى اكتسح أوروبا بعد عام (١٣٤٧م)، وعلى المدى البعيد فقد أثبتت كل تلك النصائح الطبية عدم جدواها، ولما

(*) المشتهر بنزاعه مع «فيليب الرابع» ملك فرنسا.

كان من شأن الكنيسة أن يحسب لها ما قد يحققه أطباؤها من نجاحات في التخفيف من أهوال الطاعون، فإنه كان عليها أن تتحمَّل كثيرًا من اللوم في حال ما إذا أخفق هؤلاء.

السبب الثاني والأهم هو أن الكنيسة لم تمنح رعاياها راحةً روحيةً كافيةً؛ فقد لاذ عديد من القساوسة بالهرب، ولم يخلِّفوا وراءهم أحدًا ينهض بالقداسات، ويؤدى الطقوس الأخيرة ويطمئن المرضى، وربما كان الهرب في ذاته قابلًا نظريًا للتبرير، لكنه غير قابل أخلاقيًا للتبرير: فقد لاذ عشرون بالمائة من كهنة أسقفتي يورك ولنكلن في إنجلترا بالهرب من الموت الأسود[11]، ولدينا مقطوعتان شعريتان تنتميان إلى هذين المكانين، وتعبر عن قدر كبير من عدم الرضا:

أيا كهنة البابا المقدسين المنتفخين غطرسةً

إنكم بقلانسكم المكسوة بالفراء والفارغة من الحصافة

تجعلون عِظاتكم تأتي على عكس المراد بها

فيصبح الناس أقل ورعًا[12]

ويأكل من يحتفظ بمنصبه الكهنوتي من أجل أن ينعم بالغنى والرفه

الأجدر بكم أن تبتلوا بالمرض

بدلا من أن تخدموا الرب على هواكم[13].

وكتب «وليم لانجلاند» William Langland(*)، في كتابه "حراث القناطر" Piers Ploughman: "وهكذا نحن أَحْوج إلى ترياق قوى يكفى لإصلاح حال هؤلاء القساوسة الذين يتوجَّب عليهم أن يُصَلُّوا في خشوع، لكنه يحول بينهم وبين تلك المهمة ما يحوزونه من ممتلكات، لذا يتوجب عليكم أيها النبلاء أن تستولوا على أراضيهم، وتجعلوهم يكتفون بعشورهم، وحيث إن الملكية ما هي إلا سُمٌّ زُعاف أفسدهم، يصير من الأفضل للكنيسة المقدسة أن تسعى إلى حِرْمَانهم منها وتطهيرهم من هذا السم، قبل أن تتردى الحال وتزداد سوءًا.

(*) (ح ١٣٣٢ – ح ١٤٠٠م)، شاعر إنجليزي ينحو نحو الرمزية في شعره.

وعلى كل أسقف لديه صولجان أن يجوس في أنحاء أسقفيته، ويظهر نفسه لشعبه، وعليه أن يُعلِّمهم الإيمان بالثالوث الإلهي، ويزودهم بغذاء روحي ويكفل الفقراء: لأن رجالًا من أمثالكم أيها الأساقفة هم الذين كان يعنيهم "إشعياء" و"هوشع" حين قالا: "إنه ليس من الواجب أن يكون حاكمًا، إذ لم يكن لديه غذاء جسدي وروحي يعطيه للمحتاجين"، يرفع صوته في ذلك اليوم قائلًا: "لا أكون عاصيًا وفي بيتي لا خبز ولا ثوب لا تجعلوني رئيس الشعب"(*)

بالنظر إلى مثل تلك الملابسات لا يصبح مُسْتَغْرِبًا أن ينصرف كثير من المسيحيين إلى متابعة طريقهم الخاصة بهم للوصول إلى الخلاص، حتى بعد أن انتهى زمان الطاعون وعاد قساوستهم إليهم.

اتخذ المؤمنون اتجاهًا واحدًا هو دَعْم الفكرة التقليدية التي تقول بأن الأعمال شأنها شأن الإيمان يمكن أن تُعين على الخلاص، وكان الحصول على الراحة من معاناة الطاعون والحصول على الخلاص كذلك أشبه بصعود الدَّرَج؛ فالمسيحي الطيب ينتقل من درجة إلى درجة أخرى، وهي عملية مؤلمة محفوفة بالغواية، وعلى الساعي في تلك السبيل أن يحيا دائمًا في خطر من الانزلاق، لكنه بإمكان المؤمنين أن يصعدوا بفضل ما يقدمونه من خير. ويعد الإحسان من أكثر أعمال الخير شعبيةً، فقد ازدهر في أعقاب الموت الأسود وظل يحتفظ بشعبيته تلك حتى أوائل القرن السادس عشر[١٥]؛ ففي إنجلترا توجه نحو ربع ضِياع المؤمنين وأراضيهم وأشيائهم المنقولة إلى أعمال الخير وأفادت بها المستشفيات، وارتفعت نسبة الهبات للمؤسسات القائمة في فرنسا نحوًا من خمسين بالمائة بين ١٣٠٠م و ١٣٥٠ م، وأقيمت في إنجلترا سبعون منشأةً جديدة بين ١٣٥٠ م و ١٣٩٠ م، وكانت المصليات العائلية من جملة التركات الموصى بها، وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان هناك صعود ملحوظ في عدد القداسات الخاصة ومدارس المرتلين، مما كان يشكل بدوره انعكاسًا للشعبية المتزايدة لمفهوم التطهر؛ لأنه كان حلًا وسطًا بالنسبة لهؤلاء الذين تم إنقاذهم مقابل ما أسدوه من خدمات في ظروف أشبه بالجحيم، فيطهرون أنفسهم من خطاياهم، قبل أن يُتاح لهم الصعود إلى السماء. كما إنه يمكن أن يختصر الوقت

(*) إشعياء ٣ / ٧.

الخاص بالتطهُّر بالمصليات أو غيرها من الأعمال الطبية[١٦]. وقد قام نظام الإحسان هذا بدور كبير في الممارسة الدينية في أواخر العصور الوسطى، وسدَّد ضربةً قويةً لاحتكار الخدمات الكنسية من قِبَل المؤسسة المسيحية التقليدية.

كان الإحسان مهمًا لسبب آخر: فإبان حال الانحلال التي أعقبت الموت الأسود، لم يعد بإمكان مؤسسات كنسية كثيرة أن تفي بالتزاماتها؛ ففي خطاب يعود إلى عام ١٣٦٠م بعث به أسقف إنجليزي إلى البابا يخبره بحاجة بيوت كثيرة وضِياع في أعقاب الطاعون إلى المال.

"كثير من البيوت والأهراء والمباني التي ابتناها الإيرل أضحت في معظمها خرابًا بسبب الإطماء المتوالي لنهر التيمس والعواصف الهوجاء، وبسبب الوباء الذي وقع في زمان سابق، وأضحى القوم يعانون من النقص في أعداد المستأجرين والزُّرَّاع ومن الطاعون الذي تفشى في مواشيهم وأغنامهم وجيادهم، وأنه بفضل بعض الوصايا (من) الأغنياء والفقراء جميعًا، فقد تم بناء دويرات على الطرق العامة على مقربة من (قلعة) ونتيجةً لتلك الأسباب الخارجة عن إشرافهم تناقضت مواردهم إلى مدى بعيد"[١٧].

في بعض الأحيان كان البر والإحسان هو المورد الوحيد المتاح لبعض الهيئات الدينية لسنوات بعيدة بعد الموت الأسود، وبسبب الانخفاض الحاد في عدد السكان بما يناهز الثلث، فقد هبط مجمل ما كان يتحصَّل عليه إلى حد كبير، ولم يتم استكمال بعض المشروعات- مثل كاتدرائية سيينا وكاتدرائية ونشستر- حتى بعد إضافة الوصايا الخيرية، ومع ذلك فقد كان للحضور الملموس للأعمال الخيرية تأثيره القوي في بعض الأحيان؛ ففي إنجلترا وفرنسا كانت النسبة المئوية لتلك الوصايا في خمسينيات القرن الرابع عشر أعلى منها في أوائله، ففي لندن كان خمسة بالمائة من الذين سجلوا وصاياهم في هاستنجر كورت Hustings Court اختصوا بتركاتهم مستشفيات، وقد تضاعفت نسبة أمثال هؤلاء ثلاث مرات بين ١٣٥٠م و ١٣٦٠م، ولم يلبث أن وصلت تلك النسبة إلى أربعين بالمائة، وكانت هِباتٌ مثل تلك لا سيَّما ما اختصَّ منها بالمستشفيات تعد رَدَّ فِعْل مزدوج للموت الأسود، فكانت تتكفل بالنفقة على مؤسسات تساعد ضحاياه كما إنها كانت ضربًا من صالح الأعمال يعمل حسابه للحصول على الخلاص، لكن الجديد أنها كان يمكن أن تتم مباشرةً، دون أدنى تدخل من رجال الكنيسة.

كان هناك عمل آخر له شعبيته هو الحج إلى أضرحة القدِّيسين(١٨)، وهنا وللمرة الثانية أيضًا كان المؤمنون يؤدون فعلًا دينيًّا مباشرًا يستعينون فيه بقديسين وليس بقسِّيسين للحصول على الشَّفاعة، وكان الحج يتوجه إلى أماكن تحتل المرتبة الأولى مثل روما وبيت المقدس ومرقد القديس يعقوب فى غاليسيا(*)، أو إلى أضرحة محلية لا حصر لها تضم رفات قديسين أو أى شيء آخر له أهميته الدينية. وكان الناس على اختلاف درجاتهم الأدنياء منهم والنبلاء يذهبون فرادى أو جماعات مشمولةً برعاية الأخويات Confratenities، وهى هيئات دينية مكرسة لصالح الأعمال، ولم يكن الحج فى حد ذاته أمرًا سهلًا، بسبب ما آلت إليه حال الطرق فى أواخر العصور الوسطى، وتخوف من قُطَّاع الطرق فى البَرِّ والقراصنة فى البحر، وبذا صار الحج واجبًا دينيًّا محفوفًا بالمخاطر، ولكونه كذلك كان ينظر إليه على أنه مهمة دينية طيبة وسبيل عظيمة للخلاص. ويستدل من وصايا عقدت فى إنجلترا وإيطاليا على طفرة مفاجئة فى عدد الهبات المخصصة للحج والحجاج، وفى خمسينيات القرن الرابع عشر وستينياته تجمعت لدينا وفرة من كتب أدلة الترحال بعضها هادئ ورزين، وبعضها الآخر مصطنع ومثير وجميعها تصف عملية الحج وترشد الحاج إلى أين يتوقف فيتناول طعامه ويقضى ليله، بل إنها ترشده كذلك إلى أنجح الوسائل للتعبير عن توقيره لقدِّيسين مُعيَّنين، وفى سنة ١٣٥٧م نشر سير "جون مانديفيل" John Mandeville(**)، كتابه "رحلات" Traveis الذى صار أكثر تلك الأدلة انتشارًا وشعبيةً، ووصلت إلينا منه ثلاثمائة مخطوطةً تم نسخها بين ١٣٥٧م و ١٥٠٠م، وفى تلك السنة الأخيرة كان قد ترجم من الفرنسية، وهى لغته الأصلية إلى اللغات اللاتينية والإنجليزية والألمانية العليا والألمانية الدنيا والدنمركية والتشيكية والإيطالية والإسبانية والغالية الإيرلندية(١٩). ولدى أواخر القرن الرابع عشر كان كثير من البلديات قد هيأت ترتيبات رسمية للسياح وتدابير لإقامتهم، حتى أن السلطات فى البندقية ابتكرت ما يمكن أن نطلق عليه تعبير "رحلة شاملة النفقات" package tour تضمُّ جوازات مرور والإقامة وما إلى ذلك. وكان الحج يعبر على نحو أو آخر عمَّا طرأ من متغيرات طيبة أو رديئة تدافعت بعد الموت الأسود: مثل الإقبال على صالح الأعمال والسعى إلى الخلاص، وإلى أن يقرر

(*) وهى غير غاليسيا فى بولندا الحالية وعرفت غاليثيا الإسبانية عند العرب بجليقية.

(**) (١٣٠٠ - ١٣٧٢م)، رحَّالة إنجليزى من أصل فلمنكي.

الإنسان مصيره بنفسه من ناحية واللهو وخُلُوّ البال، وهو ما يتضح في حجة تشوسر البديعة "زوجة باث" the wife of Bath من ناحية أخرى.

أتى الطّاعون كذلك بمتغيرات أخرى مفاجئة للمسيحية في أواخر العصور الوسطى[٢٠]. فقد تم تكريس قديسين جُدد، كانوا في مجملهم من رقيقي الحال اعترفت بهم التراتبية الكنسية عن كره، وخير مثال على ذلك القديس "روك" St. Roch، فقبل الموت الأسود كان القديس الذي يتوسل به هو القديس "سباستيان" S. Sebastian(*)، الذي كان الإمبراطور "دقلديانوس" Diocletian(**)، قد أمر بإعدامه، وارتبط ذِكْرُه بالطّاعون؛ فقد ذاع أن السهام التي اخترمت جسده كانت أشبه بـ"اندفاعات الطاعون"، وإبان الجائحة الطاعونية الأولى في القرن السادس خطى "سياستيان" بمكانة عالية داخل مجمع قِدّيسي المسيحية، أما "روك"، فكان من مواطني مدينة مونبلييه، وكرّس حياته لرعاية الفقراء الذين سقطوا ضحايا لسلسلة الطواعين التي تتابعت في أواخر القرن الرابع عشر، وكان يلفت الأنظار بتواضعه ومسكنته، مع أنه كان يقوم بذلك خارج الدوائر الكنسية، وقد تم تطويبه، ومن ثم صار يتوسل به مع "سباسيتان" فيما تلا الموت الأسود من طواعين.

اهتزت صورة رجال الكنيسة أثناء الموت الأسود وبعده[٢١]، وأضحى كثير من الناس يعتقدون – وغالبًا ما كانوا مغالين في اعتقادهم– أن رجال الدين قوم طماعون متمركزون حول ذواتهم يملؤهم الشعور بأهميتهم، على أنه يجب علينا التأكيد على أنه بينما كانت تتضاءل الثقة برجال الكنيسة المسيحية، فإن الحال لم تكن كذلك مع المسيحية ذاتها، والأحرى بنا أن نذهب فنقرر أن الموت الذي صار بمقدم الطاعون أقرب إلى أي امرئ من أي وقت مضى، جعل الحاجة إلى الخلاص أكثر إلحاحًا، وترتب على ذلك انتشار التصوف وإيمانُ العوام، وكان المتصوفة – وأشهرهم: "مايستر إكهارت" Meister Eckhart(***).

(*) (ت: ٢٨٨م)، كان استشهاده موضوعًا أساسًا لفنانين وأدباء، وتم تطويبه عند الكاثوليك والأرثوذكس على سواء.

(**)(٢٨٤–٢١٣م)، إمبراطور روماني اشتهر باضطهاده للمسيحيين، ويشكل اعتلاؤه للعرش بداية التقويم القبطي في مصر، وهو تقويم ما يزال مستخدمًا حتى أيامنا.

*** (١٢٦٠ – ١٣٢٧م)، متصوف ألماني ولاهوتي مؤمن بوحدة الوجود.

وجون رويسبروك John Ruysbroek (*) وجون تاولر John Tauler(**)، وهنرى سوسو Henry Suso(***) - يؤمنون بأن الله يعيش فى الإنسان ويرتبط حضوره بقدرة المرء على أن يقهر تطلعاته؛ الذاتية المادية منها والحسية، ويجعل إرادته طوعَ الله، ومن المهم بالنسبة لهم الطاعة ونُكْران الذَّات والصلاة، وكان إيمان العوام يتمثَّل فى تنظيمات مثل "أخوية الحياة المشتركة" التى تأسست فى البلاد الواطئة فى أواخر القرن الرابع عشر، على أنه كان أبرز ما فى الاتجاهين هو تضاؤل الحاجة إلى رجال الدين لتلمُّس السَّبيل إلى الفردوس، وبدأ الكثير من المسيحيين في مرحلة ما بعد الطاعون يقرون بأنه فى مقدورهم التعامل مباشرةً مع الله.

مما يشوقنا أن نربط بين تهاوى الكنيسة المؤسسية وبين حركة الإصلاح البروتستانتى فى القرن السادس عشر، الأمر الذى نهض به مؤرخون كُثر فى القرنين التاسع عشر والعشرين(٢٢)، على أنه ربما كان هناك قدر من التعسف فى الربط بين حدثين، يفصل بينهما قرابة قرنين من الزمان، وعلينا أن نتذكر بأنه كانت لدى الكنيسة المسيحية مشكلات كبيرة جبهتها قبل الجائحة الطاعونية الثانية، من حيث كونها مؤسسةً كبيرةً شديدة التعقيد وذات وظائف متعددة، وبمقارنتها بنظيرتها البروتستانتية يتضح أنها لم تكن على هذا القَدْر من السوء، لكنّ الموت الأسود هو الذى استثار المهمة الصحيحة المنوطة برجال الكنيسة. وأصبح الناس أكثر إدراكًا لقدرة الله وأعمق إحساسًا بها وبحتمية يوم الحساب، وترتب على الأداء السيئ لرجال الكنيسة أن صار الكثيرون من هؤلاء الناس يتلمسون وسائل أخرى بديلة يحصلون عن طريقها على خلاصهم. وربما كانت أفضل حلقة للربط بين الموت الأسود وتدهور الكنيسة الأم وحركة الإصلاح البروتستانتى فى القرن السادس عشر، هى الدور المتنامى لصكوك الغفران Indulgences خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فتمشيًا مع قلق رعاياهم، ضاعف رجال الكنيسة من تأكيدهم على صالح الأعمال، ومنذ خمسينيات القرن الرابع عشر، وبناءً على توجيهات البابا جرى التأكيد من جديد على صكوك الغفران؛ أى أن تمنح الكنيسة رعاياها فسحةً من الوقت

(*) (١٢٩٣-١٣٨١م)، متصوف هولندى اشتهر بكتابه: «الزواج الروحي».

(**)(ح ١٣٠٠ -١٣٦١م)، راهب دومينيكاني ألمانى اشتهر بتصوفه وكونه داعيةً.

(***)(ح ١٢٩٥-١٣٦٦م)، متصوف وناسك دومينيكانى ألمانى ألف كتابًا - ذاع صيته- عنوانه: «كناش الحكمة الأبدية».

للتطهر من الخطايا، تستحثهم خلالها إلى العمل من أجل "خزانة الحسنات" Treasury of Merits أو الأعمال الصالحات التي تراكمت عبر السنين منذ السيد المسيح وآباء الكنيسة والقديسين. ولم تكن تلك الصكوك تعطى مجانًا، لكنها عادةً ما كانت تمنح مقابل هبات مالية قليلة، ومن أجل المزيد من المكاسب بدأ قادة الكنيسة في بيعها بأعداد كبيرة إلى الأثرياء، ولم تكن تلك الصكوك في حد ذاتها هي التي استحثت "مارتن لوثر" Martin Luther(*)، إلى مسمرة موضوعاته الخمسة والتسعين، إنما الذي كان قد استهجنه هو بيعها.

هناك تطورات أخرى ترتبت على الموت الأسود، فكما ذكرنا في السابق، كانت الحياة قد اتخذت سمةً أكثر انفعالاً وعنفًا(٢٣) عمَّا كانت عليه قبل ذلك، وأضحى الموت قريبًا والحياة بالنتيجة قصيرةً، وتعمق الإحساس بتلك الحياة حلوها ومرها، وصارت العاطفة وردود الفعل السريعة والعفوية جميعها تلعب أدوارًا رئيسةً بها. وتتصل بتلك الموضوعة حادثة وقعت في دير سانت إدموندز البندكتي بإنجلترا في ستينيات القرن الرابع عشر(٢٤)، فحدث أن تعارك ثلاثة من رهبانه هم «جون دي نورتون» John de Norton، و"جون دي جرافتون" John de Grafton و"وليم بلاندستون" William Blundeston، وعندما هبط الليل، وبينما معظم الرهبان نيام زحف جرافتون إلى مهجع الدير، وسدد لنورتون طعنةً قاتلةً، وحالما نهض الرهبان من نومهم، واكتشفوا الجسد المطعون، فإنهم بدلا من أن يخطروا السلطات المدنية أو حتى الكنسية، أو أن يستدعوا الضابط القضائي، فإنهم واروا جسد القتيل بالتراب، وهو ما يعد بذاته انتهاكًا للقانون. ولما كانت الجثة قد دفنت في قبر قليل العمق، فسرعان ما اكتشف مقدم الدير هو "جون دي برينكلي" John de Brinkeley أمرها، وخشيةً من رد فعل سكان المدينة الذين كان الرهبان قد سبق أن دخلوا معهم في عدة مشاحنات، فقد نهض "برينكلي" بتحرياته الخاصة عن الحادثة، وتوصل إلى الفاعلين، وتم سجنهم، لكن السجن كان في حقيقته صوريًّا، وما كاد ينقضي عام حتى أصدر الملك "إدوارد Edward الثالث" عفوًا عنهما، حتى دون أن يؤتى بهما إلى المحكمة، بدعوى أن الجريمة ارتكبت لـ"سرعة الانفعال"، وبذا أمكن تبريرها، ونستدل من ذلك العفو على أن أحداث عنف مثل تلك كانت تقع بين حين وآخر.

(*) (١٤٨٣-١٥٤٦م)، المصلح الألماني الكبير الذي بدأ حركة الإصلاح البروتستانتي، ترجم الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية، وقد مسمر موضوعاته تلك على جدار كنيسة فيتنبرج Wittenberg في (١٥١٧م) متحديًا سلطة البابا.

يمكننا أن نتفهَّم معظم ما كان يجرى خلال الفترة التى تبدأ من أواخر القرن الرابع عشر، وتمتد طيلة القرن الخامس عشر، وما كان يتخللها من مظاهر القسوة والعنف وأيضًا من مظاهر التقوى والبهجة، إذا نحن تصورنا تلك الهجمة الشرسة للطاعون وما صاحبها من موت مفاجئ وأليم، فقد كانت تخايل الناس فى العصور الوسطى العليا نظرة ملؤها الأمل والثقة فى المستقبل، وعبَّر الأدب والفن المعاصران عن تلك النظرة التفاؤلية العميقة، ثم ما لبثت أن حلَّت محلَّها فى أعقاب الموت الأسود نظرة أخرى غاية فى تشاؤمها: فإلى جانب ما شاهدناه من ترف فى بعض أعمال "بوكاتشيو" و"تشوسر" و"فيللون"، كان هناك إحساس بالسوداء Melancholy صار له مكانه فى الأدب، ولدينا شاهد على ذلك فى شعر "يوستاس دوشان" Eustace Deschamps(*):

"السعيد هو من ليس لديه أبناء، فلا يعنى الأطفال شيئًا سوى البكاء والنتانة، وهم لا يعطوننا سوى المتاعب والقلق، ويصير من واجبنا إلباسهم وإنعالهم وإطعامهم، وهم دائمًا فى خطر السقوط والإضرار بأنفسهم، ثم هم يمرضون ويموتون، وعندما يكبرون يصبحون أشرارًا أو يزج بهم إلى السجون، لا شيء حولنا سوى العناية بهم والأسى من أجلهم، وليس لنا أن نتوقع بعد ذلك راحةً، تعوضنا عما سبق وعانيناه من قلق، وصادفناه من متاعب وأنفقناه من أموال من أجل تربيتهم وتعليمهم، وليس عند الشاعر بعد ذلك من مزيد"[٢٥].

أضحى الناس مفتونين بالموت[٢٦]، وصار الوعاظ ينصحونهم بأن يتخيلوا لدى نومهم إلى فرشهم كل ليلة، بأن تلك هى آخر ليلاتهم، كما لو كانت أسِرَّتُهم مقابرَهم، وكان يتم التركيز على خواء حياة الإنسان وقِصرها، والأجمل به الزهد فيها، لأن مآله إلى التراب والدود، والتعفن ما هو إلا دلالة واضحة على الخطيئة: فالقديسون وحدهم هم الذين لا تتحلل أجسادهم. وكان الناس فى العصور الوسطى المبكرة والعصور الوسطى العالية يتقبلون حتمية الموت ويتجهزون له، لكنهم نادرًا ما كانوا يشغلون به، وغالبًا ما كان يتم دفنهم فى مقابر عامة، فى حين كانت المقابر المعتنى بها قليلةً. أما بعد الموت الأسود، فقد تغير كل شيء، وتحولت الجنازات إلى احتفالات تعد أهم حدث فى حياة الإنسان، وحيثما

(*) (١٣٤٦ - ١٤٠٦م)، شاعر فرنسي.

كان ذلك ممكنًا كان يتم تعميق مقابر الأفراد «حتى يمكن لكل جسد أن يجد مكانًا له فى راحته الأبدية». وقبل الموت الأسود كانت النصب التذكارية قليلةً نسبيًا حتى عند الطبقة النبيلة، وكانت عندما تُقام فى إنجلترا كانت النحاسيات الجنائزية تصور النبيل وزوجته وهما فى أبهى حُلَّة، وبعد الموت الأسود ظلت تلك النصب وأقنعة الموت باقيةً، ولكن بعد أن تغيرت موضوعاتها[٢٧]، وصار كثير من تلك المصنعات تصوّر جثثًا متعفنةً وهياكل نتأت عظامها، وأحاطت بها أفاع وحيات، وقد علت وجوهها ابتسامات تبرز أسنانها على نحو مفزع. وكانت على القبور فى البلاد الواطئة صور بشعة لأجداث عارية ... بأياد ضامة وأقدام جامدة وأفواه فاغرة، إلى جوارها قصاع ملأى بالدود، ونجم فى ألمانيا فن عرف بـ«فن الموت» ars moriendi، ويتمثل فى رسومات مطبوعة على ألواح خشبية تصور دراما الموت، وأضحى ذلك الموت شيئًا آخر مؤلمًا، وليس الرقاد فى هدوء، كما كانت الحال فى أيام خالية، وكان الرعب يستبد بالناس لدى مقدمه، وبذا صار ذلك الفن موضوعًا أساسًا فى الفن والأدب.

ربما توافرت لدينا أفضل الأمثلة على شغل الناس بالموت والأسى الذى يصاحبه فى الفنون الجميلة[٢٨]؛ فقد كانت توسكانيا هى المركز المالى الأهم بالنسبة لأوروبا، وكانت بورجوازيتها القديمة الحاكمة مُشْرَبَةً بالحماسة للفنون، مما كان يعكس بدوره ما سبق أن أحرزته تلك البورجوازية من نجاحات فى النمو الاقتصادي، وكان أفرادها على ثقة عالية بأنفسهم، كما كانوا أثرياءً، وكثير منهم كانوا رعاةً للفنون، وكان الفن الذى يتطلعون إليه "جديدًا" (مثل فن "جيوتو" Giotto(*)، و"تشيمابوي" Cimbabue(**)، ناهضًا ومتفائلًا وفوق كل شيء فرديًا، وكانت تلك الصفوة البورجوازية تحسب أنه فى إمكانها أن تستمتع بحياة دنيوية، دون أن تغامر بفقد حظوظها فى الخلاص.

مع الموت الأسود تغير كل ذلك: فقد عم الخراب بأنحاء توسكانيا، وفقدت نصف سكانها، والأهم أنه جرت عملية توزيع كبيرة لمن بقى منهم على قيد الحياة، ولاذ الفلاحون بالمدن هربًا من الريف الذى كان يعانى من انحدار فى أسعار الطعام، وانهيار فى السلطة

(*) (ح ١٢٦٦ – ١٣٣٧م)، فنان فلورنسي، وأول الرسامين الإيطاليين الكبار.

(**) (ح ١٢٤٠ –١٣٠٢ م)، فنان إيطالي، وواحد من أوائل رسامى الفريسكو الفلورنسي.

المحلية، مما أدى إلى انتشار عصابات من المجرمين والمرتزقة في كل مكان، الأمر الذى كان من شأنه أن يسدّد ضربةً قويةً للفرص الاقتصادية والاستقرار النسبى الذى كانت تستمتع به الحواضر الكبرى: مثل فلورنسا وسيينا، ووجد هؤلاء السكان الجدد فرصهم فى صنع حظوظهم، فساروا على نهج النخبة القديمة رعاةً للفنون لكن على نحو مختلف، فقد اهتزت النزعة التفاؤلية السابقة بشدة، وكان يتسارع ذلك الاهتزاز مع كل موجة وبائية جديدة. وتغير فى المزاج العام، وأصبح الرعاة الجدد أشد محافظةً. تساورهم الشكوك فى دنياهم وفى تطلعاتهم، حتى فيما حققوه من نجاحات، لشغلهم بالخلاص، والإحساس بالذنب والاستبطان introspective.

كانت هناك متغيرات ألمت بالفنانين مثلما ألمت برعاتهم[٢٩]: فقد فتك الموت الأسود بعدد جمٍّ منهم، وأتى فى بعض الحالات على مدارس بأسرها ونقابات لرسامين ونحاتين وبنائين، كانت تدفعهم موضوعات متماثلة، ومن ثم كانوا يعملون معًا، ولم يقف الأمر عند اختفاء بعض من أعظم فنانى أوروبا، لكنه جعل من الصعوبة بمكان ظهور مواهب جديدة وصقلها وتدريبها، ولدينا نموذج على ذلك فى إنجلترا: فقد خلّف فنانو القرن الثالث عشر منمنمات بديعةً، ثم أتى الموت الأسود على عدد كبير منهم، ولم يظهر بعدهم نظراء لهم، وسرعان ما فقد الإنجليز ما كانوا عليه من مكانة فى ذلك النوع من الفن.

كان تأثير مثل هؤلاء الرعاة الجدد والفنانين الجدد حالًا، وكان الفن فى توسكانيا قبل الطاعون دافئًا مثيرًا للمشاعر ويركز على العلاقات الخاصة، وعندما كان يتطرَّق إلى موضوعات دينية، يركز على تواضع «يسوع» المسيح والعذراء «مريم» والقديسين، أما بعد الطاعون فقد استحوذت عليه – شأنه شأن الفكر والنصب الجنائزية– مشاهد الألم المريعة، وصور للموت يمكن تلمسها فى أشكال متعددة، وواحدة من أفضل تلك النماذج هى جدارية «فرانشيكو تراينى» Francesco Traini(*) العظيمة "انتصار الموت" فى كامبو سانتو Camposanto بپيشة والتى تعود إلى عام ١٣٥٠م أو حواليه، فلم يعد الموت يصَور بهيكل عظمى خيالى، كما كانت الحال فى السابق، إنما صار يصور فى هيئة امرأة عجوز بشعة، تتَّشح بالسواد وذات شعر أفعوانى وعيون جاحظة وأقدام برزت

(*) توفى بعد ١٣٦٥م، وجدير بالذكر أن تلك الكنيسة دمرتها طائرات الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية، تلك الكنيسة دمرتها.

منها مخالب ومناجل تحصد بها ضحاياها لكى تطعم بهم الأفاعى وضفادع الجبل، كما كان الموت يصور كذلك بطير جارح، ينْقَضُ على ضحاياه ولدينا منظر مماثل من صنعة أوركاجنى Orcagni(*)، فى كنيسة سانت كروتشى St. Croce بلفورنسا، يظهر فيه عدد هائل من الجثث وقليل من المخلوقات البائسة أشباه الأحياء يتوسلون إلى الموت كى يأخذهم ويأخذ معه معاناتهم.

كذلك فقد عكس فن التصوير ما ساد تلك المرحلة من فقْد التفاؤل، حتى أن الفنانين المعاصرين كانوا يقولون: "لقد نما الفن وواصل نموه ولكن من سيء إلى أسوأ يومًا بعد يوم". وإذا كان الكثير من الناس فى معظم العصور يتحسَّرون على الفن المعاصر لهم، فكذا كانت حال كبار الفنانين خلال المرحلة التالية للوباء، ولم يكن الانهيار هنا انهيارًا فى المهارات ولا فى أدائها، ولكن فى نشأة أسلوب جديد، يتمثل فى العودة إلى موضوعات دينية. وهى الشكل الأساس للأعمال الفنية فى القرن الرابع عشر قبل الموت الأسود وبعده، وربما كان أكثر النماذج الفلورنسية تأثيرًا فى حقبة ما بعد الوباء هو ذلك النقش الذى قام عليه "أوركاجني" بمذبح كنيسة سانتا ماريا نوفللا Santa Maria Novella بستروتسى Strozzi بين سنتى ١٣٥٤م و ١٣٥٧م، ونرى بين أجزائها العذراء "مريم" و"يسوع" الطفل وهما يحتفظان بما كان لديهما فى حقبة ما قبل الوباء من روعة وبهاء، ولكن كان هناك تباعد بينهما وجمود، وفى بعض المناظر كانت السيدة العذراء تُصور كجثة تلتهمها الأفاعى وضفادع الجبل – وهو موضوع لا سابقة لها فى تاريخ الفن التوسكاني– ويبدو المسيح مقمطًا ومكبَّلا وذا ملامح مقموعة لا تدعو إلى التعاطف، بخلاف ما كانت عليه تصاوير العهد الجديد فى الحقبة السابقة للطاعون.

لدينا متغير آخر حلَّ بالمكانة السامية للثالوث الأقدس؛ فعندما نعقد مقارنة بين صوره وصور قليلة له تعود إلى القرنين الثانى عشر والثالث عشر نجد الأخيرة توضع فى مواجهة خلفيات تتميز بالفرنية ويتفاوت سخاؤها حسب الفنان والراعي، وحلت محلها بعد الموت الأسود وصور وأشكال لا طابع شخصى لها، وأصبح النظراء المقدسون هم عمال

(*) (ح ١٣٠٨–١٣٦٨م)، فنان إيطالي: رسام ونحات على النمط القوطي.

الكيومبى Ciompi(*)، الذين قاموا بثورة ضد الأوليجاركية بلفورنسا فى عام ١٣٧٨م، وكان هناك تأكيد جديد على كل ما هو خارق للطبيعة، وهو ما يتجلى كذلك فى رسومات عصر النهضة، وشرع الفنانون رغبةً منهم فى إضفاء طابع أكثر تفوقًا للمسيح يركزون على ما هو إعجازى وخارق فى شخصيته.

كانت النزعة الفردية التى شاعت فى القرن الثالث عشر بفضل "جيوتو" ومدرسته، واهتمامها بما هو مبهج ومضيء، قد حلت محلها بعد الموت الأسود نزعة جديدة محافظة ونغمة أخلاقية، وأضحى الناس مهمومين بما حققوه من مكاسب مادية، ربما تؤثر على حظوظهم فى الخلاص، وفي لوحة "القديس يوحنا اللاهوتي" يظهر "دِل بيوندو" Del Biondo(**)، هذا القديس وهو يدوس البخل والغرور والكبر والخيلاء، فى رسالة مباشرة وصريحة فى معناها، وأضحى الطاعون والموت هما الموضوعان الجديدان المحببان عند البورجوازية، بل لدى بعض الأرستقراطية من رعاة الفنون.

كانت هناك تطورات فى الفن مثل تلك فى بلاد الشمال، فلم تكن نكبات القرن الرابع عشر سببًا فى الهبوط بالإبداع، لكنها كانت بالأحرى سببًا فى تغيير الاتجاه؛ فقد كان الرعاة القُدامى للفن فى العهد السابق للطاعون من كبار رجال الكنيسة خصوصًا الأساقفة ومقدمى الأديرة، فى حين كان الرعاة الجدد فى معظمهم من البورجوازية الأقل تعليمًا وأدعياء الثقافة، كما كان تذوقهم للفن كالحًا، ولم يعد الفن الذى يحظى برعايتهم يعبر عن التوافق بين الإنسان والعقل والطبيعة وهى صور الله التى وضعت فى تراتُبيَّتها الصحيحة والطبيعية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، والأحرى بنا القول بأن الفن الجديد كان حكائيًا، يأتى بقصص بعضها عن الله، لكن غالبها عن أشياء علمانية، وشاعت موضوعات عن الهرب من الواقع إلى عالم الخيال، وحيث إن الرعاة الجدد من البورجوازية غدوا أكثر أهميةً، فلم يعد الفنانون خدامًا للقساوسة.

وكما هى الحال فى الفنون الجميلة، فقد أتى الموت الأسود بمتغيرات فى الأساليب والأفكار الأدبية[٣٠]، وكانت فى معظمها قاتمةً، ولدينا مثال طيب عليها فى أعمال

(*) وسيأتى الحديث عنهم بعد قليل.

(**) (١٣٨٨-١٤٦٣م)، فنان إيطالى جامع للآثار القديمة.

«بوكاتشيو» المتأخرة، وكانت الديكاميرون وهي درّة أعماله الأدبية التي كتبها باللغة الإيطالية الناشئة، وأضحت لها شعبيتها الهائلة؛ تتسم بنزعة كلبية(*)، تعكس مفهومًا شاع خلال حقبة الموت الأسود وما بعده مباشرةً، لكنه لم تلبث أن تبدلت مواقفه، فبينما كانت الديكاميرون بريئةً من الذنوب، كانت أعماله المتأخرة على العكس يسودها جو شديد في قتامته، وهو ما يتضح من "الغراب" Corbaccio – التي كتبها خلال عامي ١٣٥٤م و ١٣٥٥م– في مواقفها التي تنضح بالقتامة والتشاؤم والقسوة والزهد، وكانت تلك النزعة تعلو كلما تقدم "بوكاتشيو" في السن، وشرع يتفكر في خلاصه؛ ففي خطاب له – يعود إلى سنة ١٣٧٣م – كتب يقول وهو يدين رائعته المبكرة: "بالتأكيد فأنا لست خائفًا عليك لأنك سمحت لحرائرك المصونات بأن يطالِعْن تفاهاتي، والحق فأنا أتوسل إليك بأن تعدني بأنك لن تسمح لهن بذلك مرةً أخرى، خاصةً وأنت أخبر بما تحفل به من تبذل وبُعْد عن الاحتشام والتواضع، كما تحفل كذلك بإثارة وحفز إلى الشهوة، حتى عند من يتحصَّنَّ منها ... إن قارئاتي من النساء سوف يدعونني بالقواد السافل ناكح المحارم العجوز الملطَّخ بالعار، الأحمق اللسان، التائق لإذاعة خطابات الغاية منها إفساد الآخرين"(٣١).

تحوّل "بوكاتشيو" إذن ضد الحب والعاطفة وحتى النساء، بل إنه بدا عدوًّا للمرأة، وربما يكون قد تأثر هنا بأستاذه "بترارك"، وكان "بترارك" هذا قد فقد محبوبته "لاورا" Laura وأربعةً آخرين من أحبائه في الطاعون، وتحوّل إلى التدين والتأمل العميق، وفي خطاب له إلى "بوكاتشيو" يعود إلى عام ١٣٦٧م، كتب يقول: "... بين كل أصدقائي، أنت الوحيد الباقي".

أتى الطاعون كذلك بتغيرات مماثلة في الأدب بشمالي أوروبا، فصار يتم التركيز على قِصَر الحياة وحماقة الفرح وأهوال الموت الناجمة عن الطاعون وآلامه، وهو ما نصادفه في موضوعات "تشوسر" الغارقة في اللذة، فيؤكد خزنة الظلمة والهلاك على أن الموت يوحي بشيء واحد هو أنه يساوي بين طبقات المجتمع كافة، وأصبحت تفسيرات الكتاب المقدس مألوفةً، لكن شراحها لم يأتوا سوى بالقليل من السلوان، وازداد الاعتماد أكثر

(*) الكلبية Cynicism هي مذهب ديوجين الفيلسوف (٤١٢–٣٢٣ ق.م) وينحو نحو العزلة والزهد وعدم الاكترات بالأعراف والتقاليد والأفكار الشائعة وإصداره أحكامًا سلبية على الأشياء.

من ذى قبل على العهد القديم، وجرى التركيز على أن الله أصاب شعبه المختار بالطاعون، شأنه فى ذلك شأن غيرهم من أعدائه. وكان أكثر أسفار العهد الجديد التى صار يقتبس منها هو سفر الرؤيا، حيث يوصف الطاعون وكأنه عقاب من الرب لخطايا البشر، ولم يعد الإنسان عند الله مخلوقه الوحيد المفضل، وصار يستخف بموضوعات "تشوسرو فنللون" التى تعبق بالشباب والمرح والسعادة، وبدت رقصة الموت موضوعةً مألوفةً، وشاعت مسرحيات الأسرار Mystery Plays[*]، بموضوعاتها الدينية، وكانت تتناول فى العادة الضعف الإنسانى وأهوال الجحيم، ولدينا الكثير مما كتب عن مراحل العمر وأتى غالبها فى هيئة تقاويم مع مقارنات لفصول العام، وكانت تلك التقاويم فى القرن الثالث عشر ومطالع القرن الرابع عشر تركز على الربيع والصيف، أما فى أواخر القرن الرابع عشر وطيلة القرن الخامس عشر فقد انصرفت إلى موضوعات الخريف والشتاء.

كانت هناك تغييرات مماثلة فى مفاهيم الطبقة الاجتماعية وحقيقتها[٣٢]: فقد بدأ نظام الوظيفة الثلاثية - الذى كان حاضرًا طيلة القرنين الحادى عشر والثانى عشر- فى التهاوى زهاء عام ١٢٥٠ م، لكن الموت الأسود وما صاحبه من انخفاض واضح فى عدد السكان هو وحده الذى أطاح بذلك النظام فى نهاية المطاف، وقد سبق لنا أن نوّهنا إلى ذلك المأزق الذى وجدت الهيئة الكنسية نفسها فيه، فلم يقدر لها كوسيط بين الله والإنسان أن تمنح العزاء والسلوان لضحايا الطاعون، كما أخفق النظام التعليمى الذى يرتبط بها فى منحهم العناية الطبية اللازمة، وفى عالم كان النهوض فيه بدور محدد أمرًا غايةً فى الأهمية، فقد صار ينظر إلى كثيرين من الكهنة على أنهم لا ينهضون بما هو منوط بهم من واجبات.

وبالمثل فقد أتى الموت الأسود على النبلاء بأزمة[٣٣]، كان منشؤها ما ترتب على نقص الغذاء من هلاك لما يتراوح بين ربع السكان إلى نصفهم، مما كان يعنى بالتالى حراكًا واسعًا عند أولئك الذين يرتبطون بالأرض الزراعية والسيولة؛ فقد بدأت قيمة الحاصلات تنخفض واستمرت على انخفاضها قياسًا بالسلع الصناعية حتى القرن السادس عشر، وفى الوقت نفسه فقد أفضى الانخفاض فى عدد السكان إلى ندرة فى عمال الزراعة، ومن

(*) وهى مسرحيات تتناول حيوات المسيح والقدّيسين.

ثم فقد ارتفعت أهميتهم، وهو ما أثار انتباه الإخباري الإنجليزي «هنري نايتون» الذي يقول: «أضحى كل شيء رخيصًا، ويمكن للمرئ أن يمتلك جوادًا قيمته أربعون شلنًا بستة بنسات أو ثمانية بنسات، وبقرةً باثني عشر بنسًا، وباتت الأغنام والماشية تسرح في الحقول وبين الزروع دون من يرعاها أو يجمعها[٣٤].

في ضيعة كوكسهام بإنجلترا ارتفعت أجرة الحصاد الأسبوعية من شلنين في عام ١٣٤٧م إلى سبعة شلنات في عام ١٣٤٩م ثم عشرة شلنات وستة بنسات في عام ١٣٥٠م[٣٥]، وكانت المحصلة النهائية دراميةً، تتمثل في ارتفاع مستويات المعيشة بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يحتلون المرتبة الدنيا من الطبقة الثالثة، ويلاحظ «وليم لانجلاند» في حراث القناطر أن الجوع لم يعد يتحكم في الفلاح، وأضحى كثير من المتسولين يرفضون ما يُقدَّم لهم من صدقات، مثل الخبز المصنوع من البقول، ويصرون على خبز أبيض وحليب[٣٦]، ولم يكتف عمال المياومة بالحصول على أجور أعلى، لكنهم سعوا سعيًا حثيثًا إلى وجبات غذائية من فطائر اللحم والجعة الذهبية، ولم يلبثوا أن نجحوا في مسعاهم. وقد كانت تلك العلاقة الجديدة بين الأجور والأسعار بعيدة المدى، لكن عواقبها الاجتماعية كانت أبعد من ذلك بكثير وبدأت بعد الموت الأسود مباشرة؛ فقد كان انخفاض عدد السكان خيرًا وبركةً بالنسبة للفلاحين الذين يقومون على زراعة الأراضي، لكنه لم يكن كذلك بالنسبة لهؤلاء الذين يمتلكونها من الأرستقراطية، فقد تحول الأمر عندهم إلى كارثة.

في البداية حاول ملاك الأراضي إحياء نظام الوظيفية الثلاثية، وذلك من خلال تشريعات تصدرها الهيئة التمثيلية التي يسيطرون عليها، وبدأت السلطات في أوروبا بأسرها تسن قوانين جديدةً لضبط الإنفاق، فسعت فرنسا من خلال مرسوم العمل الصادر في عام ١٣٤٩م إلى تحديد الأجور بما كانت عليه قبل العام السابق، لكنه لم يقدر النجاح لمثل ذلك المرسوم، وبعد سنتين صدر مرسوم آخر يقضي بزيادةٍ قدرها ٣٢٪، وفي عام ١٣٤٩م أصدر مجلس الملك في إنجلترا مرسومًا للعمل يجمد فيه الأجور، وهو ما أكد عليه تشريع للعمال صدر عن البرلمان في ١٣٥١م، ويجب علينا أن نتذكر أن البرلمان كان يتشكل أساسًا من رجال الطبقتين الأولى والثانية، مع عدد يسير من التجار الذين ينتمون إلى الطبقة الثالثة، والذين كان من حق معظمهم أن تكون لهم ممتلكاتهم الخاصة بهم،

وفى عام ١٣٥٠م أقدم كبير أساقفة «كانتر بري»، وهو عضو مهم في النخبة من كبار ملاك الأراضى على إصدار وثيقة دعيت بـ«الجشع الجامح» Effrenata Cupiditas ، وهي عبارة عن نقد شديد للجشع الذى طالت سهامه رجال الكنيسة الذين يعملون فقط من أجل المال أو تقاضى رسوم زائدة مقابل خدماتهم العادية. ولم تتمخَّض تلك الجهود عن شيء، واتضح لكبار الملاك أن الوسيلة الوحيدة المتوافرة لديهم للاحتفاظ بعمالهم هى أن يؤدُّوا لهم أجورهم التى كان يتنامى ارتفاعها.

من أجل ضبط الإنفاق صدرت قوانين جديدة لتنظيم طرز الملابس الخاصة بهؤلاء الذين ينتمون إلى الطبقة الثالثة[٣٧]، فقد تمخَّضت المستويات المعيشية المرتفعة والنزعات الإبيقورية عن مذاق جديد لتلك الطرز. لا سيما فى الملابس، فكان الرداء الملون والباهظ الثمن يتناقض مع ما ساد الأدب المعاصر من قتامة، لكنه كان يتوافق كثيرًا مع ما وقع من تناقضات فى العصور الوسطى المتأخرة، فأضحى الرجال مولعين بالسراويل الضيقة والأحذية الطويلة المدببة، كما إن النساء صِرْن يرتدين خصلات لشعورهن وملابس بفتحات صدر، غالبًا ما كانت منفرجةً تصل إلى حد أن يعرِّين صدورهن، وكانت الفراءات التى كانت محببةً من الناس متاحةً عند غالبهم أكثر مما كانت متاحةً لقرون عددًا. وكانت صناعتها مهنةً لها خطرها فى العصور الوسطى المتأخرة، وهيأت لتجارها من أهل الشمال معيشةً هنيئةً. وكانت السلطات المعاصرة تنظر إلى الفراءات من حيث صلتها بالحالة الاجتماعية لمن يرتديها من الرجال والنساء، وبذا أصدرت تشريعات للتأكيد على تلك النظرة.

فى مواجهة الأزمة المعيشية أعلن البرلمان الإنجليزى فى عام ١٣٣٧م أنه يجوز فقط للأرستقراطية والكهنة - الذين يصل دخلهم إلى ألف جنيه أو أكثر- أن يرتدوا الفراءات، ولا يجوز ذلك لغيرهم. ويصف قانون آخر صدر فى عام ١٣٦٣م تلك المتغيرات التى طرأت على مستويات المعيشة الجديدة على نحو طيب، فيسمح للجميع سوى أولئك الذين يزاولون حِرَفًا يدويةً دنيا بأن يرتدوا فراءات، وحددت قائمةً بمن يسمح لهم بها، فبإمكان الفرسان والنساء الماجدات الذين تزيد دخولهم على ٢٦٦ جنيهًا أن يرتدوا فراءات بيضاء ورمادية فاخرة من الـ muscalids الشمالية، أما مَن دونهم درجةً مِن الفرسان فيسمح لهم بأن يرتدوا فراءات القاقم ermine والسرعوب Weasel، ولكن على قلانسهم فحسب

ومعاطفهم، أما السادة الذين يتحصلون على مائتى جنيه سنويًا والتجار الذين يتحصلون على الألف جنيه سنويًا، فيمكنهم أن يرتدوا فراء السرعوب الأبيض على قلانسهم، أما السادة الذين يتقاضون أقل من مائتى جنيه والكتبة وغيرهم من التجار والحرفيين ممن يتقاضون خمسمائة جنيه سنويًا، فلهم أن يرتدوا فراءات من جلد الحمل، فى حين يمكن لمن يتقاضى ما يزيد على الأربعين شلنًا أن ينتحل جلد الغنم أو الأرنب أو القط أو الثعلب، وبطبيعة الحال فلم يقدر لمثل ذلك التشريع أن ينجح، وربما كان ما أفضى إليه من تأثير هو أنه كان مهمازًا للطامحين اجتماعيًا ...

وسوف تنتهى مستويات عالية مثل تلك – ارتداء العمال للفراءات – فى أوائل القرن السادس عشر. لكنه إبان ذلك التاريخ كان نظام الوظيفية الثلاثية يعانى متغيرات درامية.

كان للموت الأسود تأثير آخر على النبلاء، فلم يعد يلتفت إلى مكانتهم الاجتماعية وكانت نسبة الموَتان عندهم تقترب من نسبة الموَتان فى المجتمع بأسره، وحيث إن الوراثة عندهم كانت من الأهمية بمكان، فقد غدت أزمتهم البيولوجية أشد احتدامًا. مما زاد وضعهم سوءًا، فقد كان معدل الوفيات بين الأطفال وصغار السن فى العصور الوسطى عاليًا: فبين كل أربعة أطفال كان ثلاثة منهم يموتون قبل أن يبلغوا سن العاشرة، كما إن عشرين بالمائة من الأمهات كن يَمُتْن أثناء ولاداتهن، الأمر الذى كان يصعب معه وجود وريث، وعلى مدى جيلين لم تتهيأ الفرصة لمعظم الأسر النبيلة فى إنجلترا لوجود ذكر[٣٨]، الأمر الذى كان يعنى معه سيولةً مستمرة بين الأرستقراطية، وبالتالى فقد انقرضت عائلات قديمة، وحلت محلَها عائلات أخرى جديدة.

كان إصرار العائلات القديمة على التمسك بالفروسية وتقاليدها واحدًا من الاستجابات لتلك السيولة الهائلة: ففي بواكير العصور الوسطى، وعلى نحو ما فى العصور الوسطى العليا كانت الحرب هى المهمة الأولى للأرستقراطية، واستمرت الحال كذلك فى العصور الوسطى المتأخرة، لكن تلك الأرستقراطية لم تلبث أن ووجهت بتحدٍّ من قبل المشاة الذين باتوا يستخدمون أسلحةً جديدة، وعليه فقد أصبحت الأرستقراطية أكثر إحساسًا من ذى قبل بدور رجالها كفرسان مثقلين بالسلاح، وينظرون بتعالٍ إلى المشاة الذين يعودون إلى أصول متواضعة، والذين غالبًا ما كانوا لا يستطيعون هزيمتهم فى ساحات المعارك، وشغلوا أنفسهم بإتقان طقوس الفروسية، وأصبح سلاحهم مرتبطًا بالدروع أكثر من

ارتباطه بالسلاسل، كما أصبحت المباريات التى كانت تُقام فى السابق للمران أو الفوز والتى كانت تتم باستخدام أسلحة حقيقية، مثل تلك التى تستخدم فى الحرب، أصبحت احتفالية إلباس يصحبها عراك بسيوف ورماح مثلومة. وأسس الملك والنبلاء جماعات كبيرة للفرسان، مثل ربطة الساق Garter والجزة الذهبية Golden Fleece، وأقيمت معارك طقسية مثل عراك العشرين Combat of the Twenty الذى كان يُجْرى إبان حرب المائة عام[٣٩]، ومع أنه كان قد انتهى زمانها، فإن نشاطات مثل تلك كانت تساعد الأرستقراطية على الحفاظ على هويتها. وحدث تراجع مماثل – وإن كان أخف وطأةً – بالنسبة للسلوكيات والشمائل وصنفت العشرات من الكتب عن التنشئة والتهذيب، وآداب اللباس والتعامل وتناول الطعام والتفكير كرجل مهذب Gentleman، وصار النبلاء يزيدون من ازدرائهم للعمل اليدوى والعمال وحتى للتجار ونشاطاتهم النافقة.

كانت نسبة الموّتان العالية – كما سبق أن ذكرنا– بين النبلاء أكثر فداحةً منها بين الفلاحين، ويعود السبب فى ذلك إلى ما كانوا يولونه من أهمية لأنماط الوراثة الملائمة لهم، وفى الوقت ذاته، نشأ توازن جديد بين الأسعار والأجور، فلم تعد للأراضى الزراعية قيمتها السابقة على الموت الأسود، لكن العمال هم الذين ارتفعت قيمتهم، فقد بدأ المجتمع يتحول من قاعدة العمل الكثيف إلى قاعدة الأرض الكثيفة، كما أن أسواق المواد الغذائية تهاوت بتهاوى تعداد السكان، وحيث إن عددًا متزايدًا من المستأجرين ماتوا، فقد تحتَّم على كبار الملاك أن يستأجروا عمالاً لزراعة أراضيهم، وكان هؤلاء العمال بدورهم يطلبون أجورًا أفضل بشروط أفضل؛ ففى ضِياع "كلير" Clare بإنجلترا على سبيل المثال كانت أجور الحصاد لكوارتر Quarter(*)، أقل من خمسة بنسات للإيكر خلال السنوات (١٣٤٠–١٣٤٩م)[٤٠]، لكنها تضاعفت فى العام الأخير، وبذل مدققو الضياع غاية جهدهم للإقلال من تكلفة العمل، وكانوا يصلون بها فى بعض الأحيان – وعلى نحو تحكمي– إلى النِّصف، لكن جهودًا مثل تلك لم تكن مجديةً فى معظمها، ولدينا مثال على ذلك فى إنجلترا: فقد انخفضت دخول الأرستقراطية بين ١٣٤٧م و ١٣٥٣م بما يزيد على العشرين بالمائة.

(*) وزن يعدل ثمانية وعشرين رطلا فى بريطانيا.

من أهم تضاعيف الموت الأسود هو دوره في إثارة قلاقل شعبية[41]، وكان لتلك القلاقل تاريخ طويل ومعقد، وظلت حتى أواخر القرن الثالث عشر تتسم بصبغة دينية، لكن هذا كله تغير مع الصلوات الصقلية Sicilian Vespers(*) في عام (١٢٨٢م)، وما تلاها من قلاقل في البلاد الواطئة والريف الفرنسي، وقد اتخذت تلك الانتفاضات في بداياتها طابعًا سياسيًّا، ولم تلبث أن تفاقمت مع الانخفاض السكاني الذي تبع الموت الأسود، وبدأت تتخذ – وعلى نحو متزايد– صبغةً اجتماعية / اقتصادية.

كانت لقلاقل ما بعد الموت الأسود ملامح مشتركة: أولاها أنها اشتعلت في سياق التردّي العام للقانون والنظام[42]، وكان ملاك الأراضي المحليون هم الذين يُناط بهم جهازا القضاء والشرطة في معظم سنوات القرن الرابع عشر، في حين كان الملك ورجال الكنيسة يختصُّون أنفسهم بأعلى السلطات القضائية، لكنه باستثناء أجزاء معينة من إنجلترا وإيطاليا كان الإلزام القانوني منوطًا بامتياز محلي، وحيث إن السلطتين الاقتصادية والعسكرية لملاك الأراضي إلى جانب مكانتهم الاجتماعية قد تهاوَت جميعها، فقد ضعفت بالتالي قدرتهم على حفظ القانون والنظام، فإذا أضفنا إلى ذلك ما تنامى من عنف يصبح من الطبيعي أن تتصاعد الجريمة تصاعدًا مخيفًا؛ ففي إنجلترا حيث كانت سلطة الملك أكبر منها في أي مكان آخر أصبح معدل جرائم القتل بين سنتي ١٣٤٩م و ١٣٦٩م وعلى الرغم من كل ما جرى من انخفاض سكاني حادٍّ ضعفي ما كان عليه بين سنتي ١٣٢٠م و ١٣٤٠م ، وما دام نسيج المجتمع قد تآكل فقد انصرف الناس وعلى نحو متزايد إلى العنف، يلجئون إليه لحسم ما قد ينشأ بينهم من منازعات.

لدينا سبب آخر له صلة بالطاعون، فقد كان ذلك الفيض الهائل من القلاقل يعبر عن إحساس فائق بالهوية عند الفلاحين، فهم وعلى جهدهم وحصيلة جهدهم كانوا معتمد سائر الطبقات، وليس لنا أن نبالغ، فندعي أنهم كان لديهم إحساس إيجابي بقيمتهم الاقتصادية كما يذهب الماركسيون، والأحرى بنا القول بأنهم كانوا يؤمنون بأن مصالحهم باتت تتعارض مع مصالح الطبقتين الأعلى؛ أي رجال الدين والنبلاء، وقد بدأ هذا الإحساس يطالعنا في أوائل القرن الرابع عشر، حين بدأت المجاعات المتوالية تهد من نظام الضيعة،

(*) نسبةً إلى مذبحة قام بها الجيش الفرنسي في صقلية يوم ٣١ مارس ١٢٨٢م.

ثم علا زخمها فى أعقاب الموت الأسود، عندما نكص ملاك الأراضى عن الاعتراف بما قد اعترى حال الفلاحين من متغيرات.

كانت العلاقة الجديدة بين الأجور والأسعار سببًا ثالثًا، وسبق أن نوّه "بوكاتشيو" إلى ما جرى من ارتفاع للأسعار في حقبة الموت الأسود، وله الحق فى ذلك، لكن الأمور ما لبثت أن تغيرت فى عام ١٣٥١م، صحيح أن أسعار السلع الصناعية ظلت عالية، مما يعد انعكاسًا للطلب المتزايد عليها والعجز المتزايد فى العمال المهرة الذين يقومون على صناعة منتجات خاصة، لكن السكان بدورهم تناقصوا كثيرًا لدرجة أنه بمجرد ما كان ينتهى من بذر الحبوب وحصد المحاصيل، حتى كانت أزمة الإعاشة العظمى قد انتهت، واحتاج الأمر عامًا آخر أو عامين من أجل أن تعاود أنظمة التوزيع طبيعتها، وعندها تبدأ أسعار الطعام فى الانخفاض، وبسبب ذلك الانخفاض فى عدد السكان، فقد تصاعدت الأجور، ومن ثم مستويات المعيشة. وتعد العصور الوسطى المتأخرة – ولأسباب قوية– هى "العصر الذهبى للعمال" ويعتقد كثير من الباحثين بأن الأجور الحقيقية فى القرن الخامس عشر كانت أعلى من مثيلاتها فى أى زمان آخر حتى القرن العشرين، وكما سبق لنا أن أوضحنا فقد تمت استثارة حفيظة أفراد الطبقتين الأوليين، بسبب ما طرأ على الأجور من ارتفاع، وحاولوا وقفه من خلال التشريع، أما بالنسبة لأفراد الطبقة الثالثة، فقد كان ذلك يعد أقوى ضربة وجهت إليهم، ولأنهم قد تحقق لهم الفوز بقدر من الأمان فى اقتصاد يقوم على السوق، فقد صار يطلب منهم الآن أن يعيشوا فى ظل كوابح مصطنعة.

لدينا ثلاث انتفاضات كبيرة، انتهت إليها قلاقل ما بعد الطاعون؛ اثنتان منها فلاحيتان وقعتا فى فرنسا وإنجلترا، وواحدة – وكانت حضرية / صناعية– وقعت فى إيطاليا؛ ففى فرنسا اندلعت تلك الانتفاضة التى أطلق عليها تعبير الجاكيرى Jacquerie فى عام ١٣٤٨م لأسباب مختلفة أحدها الموت الأسود؛ فعندما اقتيد "جان Jean الثاني" ملك فرنسا (١٣٥٠ – ١٣٦٤م) أسيرًا على أيدى الإنجليز بعد هزيمته فى معركة پواتيه Poitiers ١٣٥٦م، أصبحت فرنسا بدون قائد، ولم يكن لأحد أن يتأكد من الكيفية لسد تلك الفجوة، ووقع فى حسبان كثيرين من أفراد الطبقة الثالثة، أن القساوسة والأرستقراطيين الذين كانوا ينازعون الملك سلطانه لم يبذلوا جهدًا حقيقيًا لتأمين عودة "جان"، وكانت ظاهرة عجيبة لقلاقل ما بعد الموت الأسود أن يتحمس الثوار لملكهم، أيًا كان ذلك الملك،

كما كانوا يعتقدون أن ما حظيت به تلك الطغمة الفاسدة هو السبب فيما علق بالحكومة من أوشاب، فالملك ليس سيئًا بالضرورة، وهناك أيضًا ما نشأ من سلب ونهب نهضت به حركة تعرف بـ"الرفقة الأحرار" routiers، وهم جماعات من المرتزقة، كانت تقوم عندما تتوقف معارك حرب المائة عام بالعيث في أهراء الفلاحين، وكان من بينهم عميل محترف agent provocateur يدعى "شارل النافاري"(*)، يتطلع لأن ينصب نفسه ملكًا على فرنسا، فأخذ يؤلب الفرنسيين ضد الإنجليز، لأنه كان من مصلحته أن يطيل في أمد الفوضى العامة التي أعقبت الطاعون.

كان للقلاقل الطبقية التي فاقمها الموت الأسود دورها الحاسم في اشتعال انتفاضة الجاكيري، فقد كان جنودها في غالبهم فلاحين، لكن كثيرًا من قادتهم خصوصًا المتحدث باسمهم وهو «إتيين مارسل» Etienne Marcel(**)، من البورجوازية، وكان هؤلاء يسعون إلى السلطة السياسية التي تتكافأ مع ما حققوه من مزايا اقتصادية، وكانت الطبقات المالكة للأرض محاصرةً اجتماعيًا واقتصاديًا لدرجة أن قال أحد المعاصرين "صار الفرسان وقطاع الطرق يتبادلون المواقع"، وكانوا راغمين عن التنازل عن امتيازاتهم السابقة، وكان أفراد الطبقتين الأولى والثانية خصوصًا المحاربين bellatores ينظرون باحتقار إلى أفراد الطبقة الثالثة خصوصًا من ينتمون منهم إلى الفلاحين، وكان مصطلح Jacques الذي اشتق منه Jacquerie إشارةً ساخرةً إلى السُّترات الجلدية التي كان الفلاحون يرتدونها في المعارك بدلًا من الدُّروع التي لم يكن بمقدورهم الحصول عليها، وتداول النبلاء عبارةً تقول: "اضرب فلاحًا يحسن إليك، وأحسن إلى فلاح يضر بك"، ولدينا نص يرد في Le Despit au Villain يقول:

"أفدني سيدي بأي حق وبأي سند تأذن لفلاح بأن يتناول لحومًا؟ ... إن في ذلك إزعاجًا للرب الذي يبدي تبرمه منها وأنا كذلك، فهؤلاء الفلاحون ليسوا سوى زمرة من الحقراء الذين يأكلون الإوز السمين ... أليس من الواجب أن يأكلوا السمك؟ أليس من الأحرى بهم أن يتناولوا الأشواك والحسك والقشّ والتّبن في أيام الآحاد وقرون البازلاء في سائر

(*) نسبةً إلى إقليم نافار Navarre على التخوم الإسبانية وعرف هذا الإقليم عند العرب بـ"نبرُة".

(**) (ت: ١٣٥٨م)، مناضل فرنسي وعميد لتجار باريس.

أيام الأسبوع؟ إن هؤلاء يلزمهم أن يظلوا منتبهين لا ينامون، ويلزم كذلك إزعاجهم، هذا ما يجب أن يعيشه الفلاحون، إننا نراهم في كل يوم يحتسون أفخر النبيذ، ويرتدون أبهى الثياب، وتكلفة نفقاتهم باهظة، وتتمثل في تخريب العالم وتدميره، فهم الذين أتوا على ما كان سائدًا من رَفَه، وهم الأصل في كل ما خيَّم علينا من تعاسات، لذا هل يتوجب عليهم أن يأكلوا اللحم؟ الأحرى بهم أن يمضغوا الحشائش في الأراضي البور مع ذوات القرون، ويمضون عراةً يحبون على أيديهم"(٣٢).

مواقف مثل تلك كان ينضح بها الأدب الأرستقراطي منذ القرن الثالث عشر، لكنها اشتدت حدةً بعدما أتى الطاعون بتحولات اقتصادية جديدة.

لم يلبث الفلاحون أن بادلوا هؤلاء مشاعرهم، ووجدت تلك المشاعر عند الجاكيري طريقها إلى الواقع، واستغرقت انتفاضتهم عدة أسابيع، لكنها كانت واحدةً من أشد الانتفاضات ضراوة ودمويةً في تاريخ فرنسا، وكان القتال يدور في معظمه حول الضِّياع الكبيرة بأودية اللوار والسين، أي في قلب المملكة، وعنها يكتب الإخباري "فرواسار" المعروف بانحيازه إلى الأرستقراطية، فيقول إنه في بداية حركتهم:

"اجتمع نفر من القرويين دون رئيس لهم يقودهم، اجتمعوا في بوفواسون Beauvoison وكانوا في مبدأ أمرهم أقل من مائة .. احتشدوا جميعهم، بلا هيئة تجمعهم ولا سلاح، ما خلا هراوات وسكاكين، ثم انطلقوا هكذا إلى دار الفارس القائمة هناك وحطموها، ثم ذبحوه هو وزوجته وأطفالهما جميعهم كبارهم وصغارهم، وأشعلوا النار في الدار، وبعدها انطلقوا إلى قلعة أخرى، وأمسكوا بفارسها، وأحكموا ربطه بشدة إلى وتد، ثم اغتصبوا زوجته وابنته في مواجهته ثم قتلوا الاثنتين وسائر أبنائه، وبعد أن عذبوه عذابًا شديدًا ذبحوه، وأشعلوا النار في القلعة فأتوا عليها تمامًا، وكرروا فعلتهم تلك بقلاع أخرى ومنازل مشيدة، وأخذت أعدادهم في الازدياد إلى أن صاروا ألفًا، وهكذا تجمع هؤلاء القوم الأشرار دون قائد ولا عدة ينهبون ويحرقون كل ما يقع تحت أيديهم، فيقتلون رجالًا فضلاءً، وينتزعون السيدات والصبايا من أهليهن فيغتصبوهن، وكان كل من يقدم على مثل تلك الأعمال الشريرة – التي ينبغي أن يصدف عنها أي إنسان– يحظى بترحيبهم ويجعلونه مقدمًا عندهم، وليس بمقدوري أن أسجِّل هنا كل ما ارتكبوه من فظاعات مع نسوة وعذراوات بمحضر من آخرين؛ فقد ذبحوا فارسًا (حينئذ) وضعوه على

سفود، وقاموا بشَيِّه على النار بمرأى من زوجه وأطفاله، وبعدها قام عشرة أو اثنا عشرة منهم باغتصاب تلك الزوجة، ثم أرغموها على أن تأكل من لحم زوجها، ثم قتلوها شرَّ قتلةٍ هي وأطفالها"(٤٤).

لم تكن نجاحات الفلاحين طويلة الأمد؛ إذ سرعان ما فقد قائدهم وهو "إتيين مارسيل" الذى كان يشتغل بتجارة الخوخ فى باريس سيطرته عليهم، وقتل على يد أحدهم، ولم يلبث أن دبَّ الذعر في قلوب هؤلاء التجار الباريسيين الذين سبق لهم أن ساندوا أولئك المتمردين وتخلوا عنهم . ولما كان "شارل النافاري" يسعى دائمًا وراء مصالحه الشخصية، فإنه قاد القوات التى توجّهت لحربهم، وبذا استعاد الأرستقراطيون ما كانوا يفتقدونه من شجاعة وتصدوا للفلاحين، وأمكنهم أن يقمعوهم بوحشية فائقة، ونصبوا لهم المذابح، وهكذا كانت نهاية الجاكيري، لكنه لم يمتنع أن يستطيل الاستياء العام وما صاحبه من قلاقل اجتماعية.

كان الكيومبى عمالًا فى مصانع النسيج بلفورنسا، وكانت أسعار السلع الجاهزة لا سيما المنسوجات الفاخرة مثل تلك التي كانت تنتجها تلك المدينة قد تواصل ارتفاعها خلال الجيل الذى أتى فى أعقاب الموت الأسود، وعلى الرغم مما صاحب ذلك من ارتفاع في الأجور إلا أن رجال الصناعة كانوا ما يزالون يتحصّلون على كم هائل من الأموال، لكن الأمور لم يكن لها أن تسير على نحو طيب؛ فمثل تلك القلاقل السياسية والاجتماعية التى كانت تسم العلاقات بين ملاك الأراضى والفلاحين فى فرنسا – والتى تفاقمت على نحو درامى مع مقدم الموت الأسود– وقع مثيل لها فى فلورنسا، ويشهد كل من كتب عن تلك المدينة بأنها كانت تتمتع بالديمقراطية، فقد توزعت السلطة فيها بين إحدى وعشرين نقابة، لكن الحق أن ذلك التوزيع لم يكن عادلًا؛ إذ اجتمعت السلطة الحقيقية لسبع نقابات فقط منها، يسيطر عليها حفنة من رجال المصارف وكبار التجار، إلى جانب أن عمال الكيومبى كانت لديهم شكاوى مالية ملحة؛ ففى حين كان هؤلاء التجار الكبار يتعاملون بالفلورين، وهى واحدة من أكثر العملات الأوروبية استقرارًا كان العمال يتقاضون أجورهم بالبنسات، وقد أبقت النخبة الحاكمة على قيمة الفلورين ثابتةً، لكنه عندما ما تدهورت صناعة النسيج فجأةً فى أوائل السبعينيات من القرن الرابع عشر انخفضت قيمة البنس، وبعدما كان كل مائتين وأربعين بنسًا تساوى فى عام ١٣٤٩م فلورين واحدًا، أضحى الفلورين فى عام

١٢٧٨م يعدل ما يزيد على الألف بنس، لذا فلم تكن المعاناة لتمتد إلى الأغنياء فى أزمنة الأزمات، لكن العمال وحدهم هم الذين وجدوا مستوى معيشتهم ينهار، ولم تكن فلورنسا لتنفرد فى أزمتها تلك عن مدن إيطالية غيرها[٤٥]؛ ففى مدن تقع فى شمالى إيطاليا ووسطها كانت هناك المعاناة نفسها الناجمة عما جرى من تخفيض فى قيمة عملاتها، ولدينا مثال واضح على ردود الأفعال من هيج الرعاع بروما، وهو ذلك الهيج الذى قاده – خلال سنتى (١٣٤٧م) و (١٣٤٩م)– "كولا دى رييننتسي" Cola di Rienzi[*]، لكن ما تفجر من عنف شامل وقلاقل حضرية إنما كان فى فلورنسا خلال الشطر الثانى من القرن الرابع عشر.

بدأ هيج الكيومبى فى صيف عام ١٣٧٨م، عندما سُرِّح كثيرون من العمال إبان احتدام العنف فى يوليو، وحدثت عمليات سلب ونهب وتخريب وإحراق لدور الأغنياء وقصورهم المشيدة، وتحقق للعمال فى النهاية – ولمدى خمس سنوات– ما كانوا ينشدونه، فشاركوا فى حكومة المدينة، وطالبوا بحقهم فى إقامة نقابات خاصة بهم، كما طالبوا بإصلاحات ضريبية وإنهاء الامتيازات وإلغاء الديون، وفى عام ١٣٨٣م كانت الأزمة المالية قد انقضت واستعاد البنس معظم قيمته، فاستعادت النخبة التجارية قوتها، وعاودت حرمان الكيومبى من حقوقهم السياسية، ومع ذلك فقد اختلف مصيرهم عن مصير الجاكيرى فى فرنسا؛ إذ تحسنت أوضاعهم الاقتصادية، واحتفظت أجورهم باستقرارها النسبى على مدى القرن الخامس عشر.

كانت انتفاضة الفلاحين فى إنجلترا فى عام ١٣٨١م هى الأشهر بين انتفاضات حقبة ما بعد الطاعون، وكان السبب المباشر لها سلسلة من ضرائب الرأس تم فرضها ثلاث مرات بين ١٣٧٧م و ١٣٨١م، وكما كانت الحال مع الجاكيرى والكيومبي، فقد كانت لتلك الانتفاضة مقدماتها التى تعود فى أصولها إلى ما قبل عام ١٣٤٧م، لكن الطاعون هو الذى سرَّع منها، فكان الفلاحون يريدون الإبقاء على أجورهم المرتفعة والحراك الذى تحقق بعد ما جرى من انخفاض فى عدد السكان، بينما كان كبار الملاك الذين أحدق بهم الخطر من كل ناحية يسعون إلى إبقاء الأوضاع على ما هى عليه، على الرغم مما استجدَّ من أوضاع اقتصادية جديدة.

(*) (ح ١٣١٣–١٣٥٤م)، ثائر إيطالي، أصبح ديكتاتورًا لروما بين ١٣٤٧ – ١٣٤٨م، واغتيل على يدى أحد الرعاع فى ١٣٥٤م.

تفجرت الانتفاضة فى شرقى إنجلترا الأكثر ثراءً منه فى الكونتيات الشمالية والغربية البائسة، فقد أبى بعض فلاحي إسكس أن يؤدوا ضريبة الرأس، وسارعوا إلى طرد الجباة من قراهم، وما لبث أن نهض سائر الفلاحين وغيرهم من سكان المدن فى مواجهة ما كان يعاينونه من مظالم وقاد انتفاضتهم فلاح ثرى يدعى "وات تيلر" Wat Tyler(*)، وقسيس عاطل يدعى "جون بول" John Ball(**)، وكان توجههم ضد النبلاء ورجال الدين والتسلط وكان "تيلر" يستنهض جموعهم وهو يقودهم فى اتجاه لندن يحرضهم على أن "يفتكوا بكل رجال القانون وخدام الملك"، بينما كان "بول" يقول - والعهدة على "فرواسار"-: "آه أيها القوم الطيبون، لا تمضى الأمور على نحو طيب، ومن أجل أن تصبح كذلك فلا بد من أن يصبح كل شيء مشاعًا، علينا جميعًا أن نتحد، ولا يعود الملاك أسيادًا لنا لماذا نستحق القنانة، ولماذا يجب أن نظل هكذا أقنانًا، فى حين أننا جميعًا ننحدر من أب واحد وأم واحدة: هما آدم وحواء"[٤٦]، وما يقوله "بول" هنا هو الأصل فى تلك الطنطنة الشهيرة: "حين خلق الله آدم وخلق من ضلعه حواء من كان إذن يومها النبيل".

سارت ثورة الفلاحين على نهج الجاكيرى والكيومبى وغيرهما من ثورات حقبة ما بعد الطاعون، وبعد قدر من النجاح تحقق لهم فى البداية ثم الثأر لما أحدثوه من قلاقل مثل فتكهم بكبير أساقفة كانتربري، وتدميرهم لغالب مواخير لندن، ولدى استعادة الارستقراطية والنبلاء لسيادتهم، فإنهم وكما كانت الحال فى فرنسا، فقد انتقموا من المتمردين أبشع انتقام، لكنه وكما كانت الحال كذلك فى القارة، فقد ظفر المتمردون بمكاسب أساس، فألغيت ضرائب الرأس، ولم يعد هناك المزيد من المراسيم أو القوانين التى تثبت أجورهم أو تحدُّ من حِرَاكهم، وأفاد الفلاحون من أجورهم العالية، وما إن أتى عام ١٤٠٠ م حتى كان قد تم تفكيك قيود القنانة أو تداعيها، ولم يعد هناك المزيد من انتفاضات الفلاحين فى أواخر العصور الوسطى؛ إذ لم يعد هناك من سبب لتلك الانتفاضات.

كانت تلك الانتفاضات فى الريف والحضر على سواء تعكس صراعات طبقيةً حادةً تنامت بعد الموت الأسود، ولم يكن بذاتها تعبيرًا عن أحوال عامة ألَمَّت بأوروبا بعد

(*) (ت: ١٣٨١م)، قتل فى سميثفيلد Simithfield.

(**) (ت: ١٣٨١م).

الطاعون، قدر ما كانت تعبيرًا لردود الأفعال الناجمة عن محاولات الطبقات الحاكمة لجَحْد المكاسب التى حصلت عليها الطبقات الدنيا، نتيجة للانخفاض الحاد في عدد السكان، وكان ما حل بنظام الوظيفية الثلاثية القديم من تفكك وتداع، وما صاحبه من تصاعد فى أعمال العنف سببًا فى التمهيد لمثل تلك الانتفاضات، وأن تحظى القبول عند كثيرين، كما إنها كانت فى مجموعها عفويةً وضعيفةً فى تنظيمها، لذا كان من اليسير قمعها فى أوانها، وربما كان الأهم ما تمخضت عنه في نهاية المطاف، وهو ما يتمثل فى انهيار البناء الاجتماعى التقليدي، وما يتسم به من تراتبية، وحلت محله أحقاد طبقية وقلاقل. ونتساءل عن تلك التطورات التى كان لها وقعها فى الجيل الذى قدر له أن يعيش بعد الموت الأسود، فأول ما نذكره هو موت ما يزيد على ثلث السكان، الأمر الذى كان من شأنه أن يسدد ضربةً لأزمة الإعاشة؛ فعند أوائل القرن الرابع عشر كان معظم الأوربيين فقراءً، وليس لديهم سوى اليسير من الأراضى ليزرعوها، ومن ثم كانوا يستهلكون طعامًا أقل، ولم يتوافر لهم ما يحددون به مستقبلهم، أى إن حالهم أصبحت أسوأ مما كانت عليه فى العصور المظلمة، فى الوقت الذى تغولت فيه سلطة النبلاء وصارت أوروبا أشبه بأقطار أخرى فى آسيا وأوروبا؛ أقطارًا فقيرةً تحترف الزراعة .. على أن تلك العملية تحولت حول عام (١٣٥٠م) إلى العكس على نحو درامي؛ فقد حل الخراب بكبار الملاك بعد أن ارتفعت الأجور وانخفضت الأسعار، وفى الوقت نفسه أصبح بإمكان أناس ينتمون إلى الطبقة الثالثة أن يستمتعوا – ولمدى يصل إلى مائة وخمسين عامًا– برخاء نسبي، لكنه ولأمد قصير وبالنسبة لهؤلاء الذين قدر لهم أن يكونوا بنَجْوة من الموت الأسود، كانت التأثيرات السيكولوجية أكثر أهميةً، فقد أصيب الناس برضخ نفسى traumata(*)، وفقدوا إيمانهم بقدراتهم الذاتية وقيمهم الدينية إن لم يكن فى الله نفسه، ومن ثم فى السبل التقليدية التى يتوسلون بها إليه وسرعان ما غرقت أوروبا فى أزمة أخلاقية، وحل الانهيار بالنظام القديم، لكن نظامًا جديدًا لم يكن قد جاء أوانه بعد.

(*) أى صدمة نفسية.

الفصل السادس

استنهاض الطب الحديث

يحدِّد الموت الأسود نهاية عصر من عصور الطب وبدايَة عصر آخر جديد[١]؛ ففى عام ١٣٤٧م كانت المؤسسة الطبية فى أوروبا قد أصيبت بصدمة عنيفة، وقفت إزاءها موقفًا بليدًا، فقد كانت ممارساتها تعوّل فى أساسها على مقولات «أبقراط» و«جالينوس» وعدد من شراحهما الذين كتبوا بالعربية: خصوصًا «ابن سينا»[*]، الذى ينتمى إلى الفرس، وقد تحدثوا جميعهم عن الأمراض المعدية، لكن لا أحد منهم تمرَّس بالطاعون، وكانت تلك المؤسسة تضم خمس فئات؛ هم الأطباء والجراحون وحلاقو الصحة Barber Surgeons – والعقاقيريون Apothecaries[**]، والممارسون من غير المجازين أو غير المحترفين، وكان هؤلاء جميعهم ينطلقون على نحو أو آخر من النظام اليوناني. لكنهم تأثروا بشدة بمفكرين ينتمون إلى العصور الوسطى العليا، وهى عصور كادت تنعدم فيها الطواعين المميتة والفتاكة، كما إن ما خلَّفته من تراث لم يكن بكاف للتعامل مع الطاعون وغيره من أمراض معدية، تفشَّت فى أوروبا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وقد أفضت استجاباتهم للمشكلات الطبية الوافدة إلى مجموعة من المتغيرات، انتهت إلى ما جرى من تطورات للطب السريرى الحديث فى القرن السابع عشر.

(*) (ت: ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م)، الشيخ الرئيس، علامة جليل نبه فى الطب والفلسفة على نحو خاص، له فى الفن الأول: «القانون»، وله فى الفن الثاني: «الشفاء».

(**) لا نجد لهذا المصطلح نظيرًا في لغتنا العربية، وربما كان عمل هؤلاء قريبًا من عمل العطارين أو العشابين أو المعاجينيين، وهؤلاء كانوا حتى زمن قريب أشبه بالصيادلة في زمننا.

ومن أجل فَهْم المراحل الأولى لتلك التطورات، يتوجَّب علينا التأمل فيما كان سائدًا من نظام قديم[٢]، فالتقسيم الذى عرضنا له كان يتلاءم مع مفاهيم العصور الوسطى عن الوظيفية الثلاثية، فقد استأثر الأطباء أنفسهم بالقمة، من حيث كونهم ينتمون إلى النخبة الذين تلقوا تدريبًا طبيًا على مستوىً عالٍ، وكان عددهم قليلًا، ويحظون فى الوقت نفسه بقدر وافر من الاحترام، يعدل ما كانت تحظى به الطبقات العليا، كيف لا وهم ورثة «أبقراط» و«جالينوس» ؟! وجرت العادة فى شمالى أوروبا على انتماء هؤلاء الأطباء إلى طبقة رجال الدين، ولذلك الانتماء أهميته، باعتباره دلالةً على الارتباط الواقع بين الطب والدين، وهو ارتباط يعود إلى عصور قديمة، حين اقترنت القدرة على الشفاء فى بداياتها بالسحر، ثم اقترنت بالدين، وبالتبعية كان التعليم الطبى فى العصور الوسطى يقبع بوجه عام تحت مظلة الكنيسة، وكان التعليم الجامعى أكثر من أى شيء آخر هو الذى يميز الأطباء عن غيرهم من العاملين فى مجال الطب[٣]، وفى القرن الرابع عشر كان على الطالب الذى يرغب فى دراسة الطب أن يبدأ تعليمه حال بلوغه التاسعة من عمره وذلك فى مدرسة تجهيزية، فيدرس الفنون السبعة الحرة(*)؛ وهى النحو والبلاغة والجدل والحساب والهندسة والفلك والموسيقى، وحالما تتاح له الفرصة لأن يستكمل دراسته، حيث إن التعليم العالى كان – كما هى الحال فى زماننا اليوم – مكلفًا، كان يمكن للطالب الواعد أن يلتحق بالجامعة فى سن تتراوح بين الخامسة العشرة والثامنة عشرة، فيقضى بها ما يتراوح بين أربع سنوات إلى سبع سنوات، يعاود خلالها دراسة الفنون السبعة الحُرَّة، وعادةً ما كان يتخصص فى واحدة منها، ويتوجب عليه بعدها أن يواصل دراسته، فيجتاز عدة اختبارات، إلى أن يحصل على درجة البكالوريا Baccalaureate المؤهلة لمزاولة الطب.

كانت معظم الكتب الدراسية مستقاةً من أصول كلاسيكية، ولكن فى قوالب تنتمى إلى العصور الوسطى، تعرضت لتعديلات بعد ما شاع المنهج المدرسي(**)، زهاء عام ١١٠٠م على يديّ "بيتر أبيلار" Peter Abelard(***)، وكان أستاذًا فى المدارس الكاتدرائية

(*) وهى ما تعرف فى اللاتينية بـ Artes Liberalis Septem.

(**) المدرسية Scholasticism هى فلسفة العصور الوسطى بامتياز، وتستند إلى فهم الدين فى ضوء العقل وأبرز ممثليها هو القديس "توما الأكويني" Thomas Aquinas.

(***) (١٠٧٩-١١٤٢م)، فيلسوف مدرسى فرنسى اشتهر بعشقه لـ إيلواز Héloise.

بباريس[٤]، وفى كتابه "نعم ولا" Sic et Non يؤكد "أبيلار" على الأهمية التربوية للجدل، ويذهب إلى أنه عند طرح قضية ما يتوجب البحث فى طرفيها، بهدف التوصل إلى البرهان الذى يستند إلى الجوانب الصحيحة لدى الطرفين؛ ومن ثم فعند مناقشة قضية ما مثل التشريح يؤخذ بمقولة لـ"جالينوس" فى نقطة، وبمقولة لأحد شراحه - وليكن "ابن سينا" - فى نقطة أخرى، ويؤتى بتفصيلات من كل منهما، ومن ثم يتم التوصل إلى نتيجة جديدة. وكان منهج "أبيلار" مفيدًا، لكنه كان إنجازًا فى الأسلوب أكثر منه إنجازًا فى الجوهر. وكان التراث الطبى نفسه - بأسسه الكلاسيكية- لا يستند إلى البحث الإكلينيكي، وإنما إلى التحليل النهائى للنصوص القديمة، وكانت الموضوعات التى يقال إنها جديدة، إنما هى فى حقيقتها ترديد لأفكار قديمة. ولم ينهض طلاب الطب بأبحاث، لما كان يعوزهم من ملاحظة، لذا فلم يكن بمقدورهم التعامل مع أمراض جديدة وافدة، فيتقدمون بعلاج فعال لها.

كان الأساس فى مرحلة ما قبل الوباء هو نظرية الأخلاط Humors[٥]، فبالجسم البشرى أربعة منها: هى الدم والبلغم والصفراء والسوداء؛ وجميعها ترتبط بأعضاء من هذا الجسم؛ فالدم يأتى من القلب والبلغم من المخ والصفراء من الكبد والسوداء من الطحال. واختَصَّ "جالينوس" - وبعده "ابن سينا" - كلًّا منها بصفات جوهرية؛ فالماء حار ورطب كالهواء، والبلغم بارد ورطب كالماء، والصفراء حارة وجافة كالنار، والسوداء باردة وجافة كالأرض. إذن فالجسم البشرى عالَم مصغر من عالم آخر أكبر.

عندما تتوازن الأخلاط داخل الجسم يصير الإنسان صحيحًا، وهى حالة تدعى إيوكراسيا Eukrasia، وعندما لا يكون الإنسان كذلك، فإنه يصبح مريضًا، وهى حالة تدعى ديسكراسيا Dyskrasia. هنا يأتى دور الطبيب، ليلتمس الوسائل الضرورية من أجل أن يستعيد هذا الإنسان توازنه، وعادةً ما تكون الراحة هى الوصفة الأولى، ولكن إذا كانت القوى الفطرية الشافية غير كافية، يبدأ الطبيب عمله، فيجب أولًا أن يتبدل طعام المريض؛ فإذا كان دافئًا توصف له أطعمة معينة لتبريده، وفى أحيان أخرى توصف له أطعمة معينة لتدفئته، وبالتالى يشفى من العدوى، فإذا حدث أن أخفق الطبيب، فعليه أن يوصى بالإدماء أو الفصد أو الكى أو الحجامة، وكان الإيمان بأن الغاية من الطب هى استعادة الإيوكراسيا هو الذى يفسر رد فعل الأطباء تجاه الموت الأسود، وبمعاييرنا الحديثة كانت

علاجات الطاعون فى العصر الوسيط تدعو إلى السخرية، ولكن بالنظر إلى ما كانت عليه حال الطب فى منتصف القرن الرابع عشر، فإنها تعد معقولةً ومدروسة، وكان اليونانيون وشراحهم الإسلاميون منظّرين رائعين، كما كانوا وفقًا لمعاييرهم فسيولوجيين أكفاءً، لكنهم كانوا قد أقاموا أفكارهم على النظر أكثر من أن يقيموها على المعاينة المباشرة والسريرية والتجربة، وكان أطباء العصور الوسطى يركزون على البرهان سيما القياس، وبالتالى كانوا أدنى درجةً فى مجال التشريح وعلم الأمراض Pathology وعلم الأوبئة Epidemiology، وبذا لم يتهيأ لهم سوى اليسير لمكافحة الطاعون.

إبان القرن الرابع عشر كانت توجد فى أوروبا عدة مدارس رئيسة لدراسة الطب فى سالرنو Salerno ومونبلييه Montpellier وبولونيا Bologna وباريس وپادوا Padua وأكسفورد Oxford[٦]. وفى أخريات القرن الحادى عشر تفردت سالرنو بالصدارة بين تلك المدارس، فقد أفادت بما عقدته من صلات بمن جاورها من أطباء عرب وبيزنطيين، وعليه فقد عنيت بدراسة التشريح، ومن أسف فإنه كان تشريحًا للخنازير، وما إن أتى القرن الثالث عشر حتى أضحت مدرسة سالرنو الطبية على شفير الاحتضار؛ فقد تخلت عن مكانتها العالية لمدرسة مونبلييه التى كانت بدورها تباهى بأطباء يهود كبار تقاطروا إليها من إسبانيا وشمالى إفريقيا، وكان هؤلاء الأطباء قد جرى إقصاؤهم من مدارس طبية أخرى، وكان البديل لهم فى مونبلييه، وفضلاً عن ذلك كانت تلك المدرسة تؤدى لأساتذتها رواتب مجزية، وأتاحت لهم أكثر مما أتاحت لمتنفذيها كنسيين ومدنيين بأن يمنحوا الإجازات اللازمة لممارسة الطبابة، وكان الطلبة لدى التحاقهم بتلك الدراسة يخضعون لشروط صارمة، مثل أن يكونوا قد حصلوا على شهادات فى الطب، وكانت تلك المتطلبات كفيلةً بأن تجعل من مونبلييه واحدةً من أفضل المدارس الطبية فى أوروبا بأسرها، فكانت تضم بين خريجيها وأساتذتها المبرزين صفوة أطباء أوروبا؛ مثل "برنار جوردون" Bernard Gordon(*)، و"هنرى دى مونديڤيل" Henri de Mondeville(**)، و"أرنولد بيانوبا" Arnold Villanova(***)، و"جى دى شولياك".

(*)(ت: ١٣٢٠) طبيب فرنسى ومصلح دينى.

(**) (ح ١٢٦٠-١٣١٦م)، طبيب فرنسي، ألف كتابًا عن الجراحة فى (١٣١٢م)، وعُرف به«أبو الجراحة» فى فرنسا، وصار طبيبًا لملك فرنسا، لكن نجمه خبا مع صعود «دى شولياك».

(***) (١٢٣٠ - ١٣١٢م)، طبيب إسبانى ولاهوتى وعالم فلكى وكيميائي.

خلال القرن الثالث عشر حققت مدرستا بولونيا وباريس شهرتهما، وكانت أولاهما تتفرد بين الجامعات الوسيطة بتخصصها في منح الدرجات العليا، وربما كانت مدرستها في القانون هي أرفع مدرسة في القارة بأسرها، لكنها كانت مشهورةً كذلك بمدرستها الطبية التي كانت تحفل بكل ما هو جديد، وكان أشهر أساتذتها هو الجراح "وليم ساليسيتو" William Saliceto كان رائدًا في مناهج الكي، كما كان يهتم بطوائف الجراحين[٧]، والحق أن أهم ما أضافته بولونيا كان في مجال الجراحة، وهو مجال لم يكن يحظى بالاهتمام ذاته في معظم المدارس الأوروبية الأخرى. وبدأ تشريح الجثث بها في ستينيات القرن الثالث عشر، ولم يلبث أن أصبح شائعًا في أوائل القرن التالي، حين نشر أحد أساتذتها وهو "موندينو دي ليوتسي" Mondino de' Liuzzi[*]، كتابه "التشريح" Anatomia الذي كان يتسم بالدقة، ويستند في أساسه إلى تشريح الإنسان، وظل المرجع الأساس في أوروبا بأسرها قرابة مائة عام، ذلك لأن "موندينو" كان يصفه بلغة واضحة وبسيطة؛ كأن يقول "بعد العضل تأتي العظام، وها هي عظام الصدر كثيرة، وليست على نسق واحد، فهي تتمدد وتنقبض حيث إن (الصدر) في حركة دائمة[٨]".

في زمن الموت الأسود كانت مدرسة الطب في باريس هي الأرفع مكانةً في أوروبا بأسرها، بحكم كونها مدرسةً كبيرةً وثريةً تتبع جامعةً كبيرةً وثريةً، وتحظى بعناية خاصة من قِبل الملك والبورجوازية والكنيسة الفرنسية، وفيها حقق "بيتر أبيلار" شهرته (على الرغم من أنه لم يتم الاعتراف بمدارسها رسميًا كجامعة حتى عام ١٢٠٠م)، وكان منهجه المدرسي، يرتبط أساسًا بها، ومع كون مدرستها الطبية بعيدةً عن الابتكار الذي نلمسه في مدرسة بولونيا إلا أنها كانت بفضل ما كانت تتلقاه من دعم جيد تؤدي لأساتذتها رواتب مجزيةً، فأضحت تضم أكبرهم وأشهرهم، وإن لم يكونوا بالضرورة أفضلهم، وكانت هي المدرسة التي ذهب إليها البابا ذات يوم يلتمس النصيحة في زمن الموت الأسود.

إذا كان الأطباء الجامعيون هم الذين كانوا يحتلون مواقع الصدارة بين المشتغلين بالطب، فإن الجراحين كانوا يأتون بعدهم مباشرةً [٩]، وتم إدراجهم في البرامج

(*) (ح ١٢٧٠ - ١٣٢٦م)، طبيب إيطالي ينحدر من عائلة فلورنسية نبيلة، وأصبح أستاذًا للجراحة في جامعة بولونيا، وألف كتابًا في التشريح هو الأول من نوعه.

الجامعية بمدارس الطب فى جنوبى أوروبا، وحصلوا على قدر من الاعتراف بهم فى مدارس الشمال، وكان من الواضح أنهم أطباء من الدرجة الثانية، ينظر إليهم باعتبارهم حرفيين مهرة مؤهلين لوقف النزيف وتضميد الجروح، وكان كثير منهم على دراية وافية بالقراءة والكتابة، ولدى بعضهم كتب يفيدون بها، لكن معظم ما لديهم من علم كان يقوم على التجربة، بخلاف الأطباء الذين درج غالبهم على أن لا يمسوا مريضًا، فى حين كان الجراحون ينهضون بعمليات مثل نشر الجمجمة (ضرب من جراحة المخ كان شائعًا فى العصور الوسطى) والفصد والكى وتصليب العظام، وهو أساس بالنسبة للطب، وبينما تهيأت للأطباء الجامعيين مكانة تعدل تلك التى كانت لأثرياء التجار (وإن لم يكونوا أندادًا لكبار المصرفيين أو المشتغلين بالتجارة الخارجية) والمحامين، كان الجراحون فى مكانة أدنى تتساوى مع ما كان لشهود العدل والصاغة من مكانة[١٠].

أما حلاقو الصحة: فكانوا يختلفون عن الجراحين، ولا يعدون من النخبة[١١]، وكانوا فى معظمهم أمّيّين لم يلتحق أى منهم بأية جامعة، وكان جملة ما لديهم هو ما تحصّلوا عليه من تدريب فى صِغرهم، وكانوا يشتغلون ببعض الأعمال التى كان يختص بها الجراحون؛ بما فى ذلك الفصد والكي، لكنها غالبًا ما تكون تحت إشراف من الطبيب أو الجراح، على أنه كان الشائع بينهم نهوضهم بأعمال أدنى؛ مثل الحجامة وتصليب الكسور واستخدام الكمّادات، وكان كل ما لديهم من عِلْم بالعدوى والصحة العامة أقلّ بكثير مما لدى الأطباء والجراحين، وربما يعود القضيب التقليدى ذو اللونين الأحمر والأبيض إلى الزمن الذى كان فيه حلاقو الصحة يعلقون خرقهم المصطبغة بالدم حتى تجف، والحق فقد كان حلاقو الصحة أطباءً بعض الوقت، فكانوا يقومون بحلق الشعور والأذقان لزيادة دخولهم، بل كانوا يزاولون أحيانًا أعمالًا تتصل بالجزارة، وعادةً ما كانت تنتظمهم نقابات حرفية، لكنهم يخضعون فى ممارساتهم الطبية لإشراف الأطباء المحليين أو الجراحين الذين درجوا على أن يخضعوا بدورهم فى ممارساتهم الطبية لإشراف الأطباء المحليين أو الجراحين الذين درجوا على أن يحتفظوا بمسافة معهم، ولم تكن لديهم أية دراية بعلم الأمراض ولا علم وظائف الأعضاء Physiology أو علم الأوبئة، وكان أهم ما يجتذب الجمهور إليهم هو أنهم كانوا يتقاضون أتعابًا أقل بالمقارنة.

يصعب عليه تصنيف العقاقيريين[١٢]، صحيح إنه كانت لديهم أهميتهم، من حيث إن الصيدلة كانت تشكل قسمًا أساسًا من العلاج الذى ينهض به الطبيب، لكن العقاقيريين أنفسهم كانوا ينهضون بدور أكبر من مجرد الوفاء بوصفة طبية، وهنا تكمن المشاكل فى تحديد مكانهم فى التراتبية الطبية بأوروبا فى أواخر العصور الوسطى، وكان كثيرون منهم يصفون العقار ومن ثم العلاج، مما يصعب معه التمييز بين دورهم ودور الأطباء الذين نادرًا ما كانوا يلمسون المريض، وكان كل ما لدى العقاقيريّين من تدريب هو كونهم فى الأصل عشابين، وكان توزيعهم لوصفاتهم الطبية أشبه بتوزيع كتب الطبيخ، مع معرفة يسيرة بجسم الإنسان والأمراض المعدية، وكان يحيط بتنظيمهم قَدْرٌ من الغموض، ففى بعض الأحيان كان الأطباء وحتى الجراحين ينظمون لهم ممارساتهم الطبية والصيدلانية، لكنهم وبسبب عقاقيرهم التى كان يستحضر معظمها من التوابل الثمينة أصبح العديد منهم تجارًا إلى كونهم كذلك، والحق أنه حتى منتصف القرن الثالث عشر كان يصعب التمييز بين العقاقيريين من ناحية وبين البقالين والعطارين من ناحية أخرى، وعادةً ما كانت دخولهم أعلى من دخول التجار، فكانوا يشكلون فى بعض الأحيان وضعًا اجتماعيًا أعلى مما لدى كثيرين من الأطباء المرموقين خريجى الجامعة.

لدينا فى الأخير مجموعة من غير المرخص لهم أو إنهم ممارسون غير محترفين، وهم قوم لم يحظوا بأى تدريب رسمي، كما لم تجمعهم مؤسسة بعينها، أو تنتظمهم قاعدة واحدة[١٣]، وكان يصعب تحديد دورهم، شأنهم فى ذلك شأن العقاقيريين، لغموض مثل ذلك الدور، والواقع أن كل ما لدينا من شواهد على ذلك الدور ضئيلة، ويترجّح لدينا أن جملة ما توافر لغير المحترفين هو اليسير من كل شيء، أو إنهم كانوا يسعون إلى ذلك اليسير، وحيث إنه لم يتهيأ لهم تعليم رسمى فإنهم كانوا يتعلمون ما أمكنهم من خلال التجربة والخطأ، وكان كل ما يجذب الناس إليهم هو ضآلة أتعابهم، ولم يكن لمهنتهم رواج سوى فى الأرياف، وبوجه عام كان هناك ارتباط بين حجم المحلة وبين حجم المعرفة التى لدى من يمارس الطب. ولدينا ملمح آخر لهؤلاء الرجال، فبالرجوع إلى موارد إنجليزية كانت نسبة لا بأس بها منهم، وهى نسبة ربما تتراوح بين خمس عشرة بالمائة إلى عشرين بالمائة كانت من النساء[١٤]، وبعضهن كن من العجائز، فحيثما لا تتوافر فرص للعمل، كانت النساء اللاتى لديهن قدر من الخبرة بالطب، يلجأن إلى الاشتغال بتلك المهنة خارج التراتبية الرسمية.

كانت تلك إذن المؤسسة الطبية الأوروبية خلال القرن الرابع عشر، وقد بدأت – وعلى نحو بطيء – في أن تصبح أكثر احترافية، وكانت المدارس الطبية والنقابات البلدية تتطلب قواعد صارمة، وبدا معظم الأطباء وقد صاروا يؤدون عملهم بجدية، وكان الطب السائد في مرحلة ما قبل الطاعون يعود بأصوله إلى الماضي اليوناني النظري، وعلى الرغم مما حققه من تقدم محدود إلا أنه في معظمه كان يعتمد على نصوص تعود إلى مئات السنين، ولم تعد في مجملها كافيةً في مواجهة الأمراض التي حلت بأوروبا في القرن الرابع عشر، ولم يتيسر لغالب الأطباء دراية جيدة بالتدريب في مجال التشريح والباثولوجيا، ولم يكن عند معظم الجراحين خلفية نظرية، وكان كل ما لدى الأوروبيين من معرفة بالأوبئة يستند إلى كتاب "جالينوس" عن الحميات وهو الكتاب الذي وافى عمره الألفين في عام (١٣٤٧م)، وليس بعجيب أنه عندما طلب "فيليب" ملك فرنسا(*)، من كلية الطب بجامعة باريس الرأي بشأن الطاعون، أتاه هذا الرأي بغير فائدة.

تعد الأطروحة التي تقدم بها الأطباء الباريسيون واحدةً من ذلك الفيض الهائل من المؤلفات التي صنفت عن الطاعون[١٠]، وعدد الأطروحات الفردية رائع عن جدارة واستحقاق، فقد تناهت إلينا آلاف النسخ من الأعمال الأصلية، ومعلوم أن نسخ المخطوطات الذي يعد بذاته عمليةً مكلفةً تحتاج صبرًا ومثابرةً لا تتهيأ إلا لجلائل الأعمال. وقد كتبت تلك الأطروحات في ظل ضغوط فظيعة ومناخ من الفزع والرعب، وهي لم تتوقف عند إعطائنا معلومات طبية، إنما هي أعطتنا كذلك نظرة نفاذةً لحياة النخبة المثقفة في أوروبا وسيكولوجيتها، والأهم من ذلك أن يتبين لنا من تلك الأطروحات كيف تسبب الموت الأسود في أزمة عرضت للطب في ذلك العصر، استثارت فيه الاحترافية واستنهضت الجراحة، ودفعت إلى إصدار قوانين جديدة للصحة العامة وإلى تطور في المستشفيات، فلا تقف بمهامها عند عزل المرضى، وإنما تسعى كذلك إلى علاجهم.

ليس عجبًا أن لا توجد أطروحة واحدة حددت لنا السبب في الطاعون، فلم يتسن فهم إتيولوجيته بوضوح حتى أوائل القرن العشرين، لكن العجب أن لا أحد من المعاصرين نجح في الربط بين الطاعون واكتظاظ دماء القوارض الميتة السابق لمقدم الوباء، ويذهب

(*) هو «فيليب السادس» (١٣٢٨–١٣٥٠م)، ويحدد عهده بداية حرب المائة عام.

القليل من الشراح بمن فيهم «ابن سينا» إلى أن إحدى نذر الوباء تأتى «عندما تخرج الفئران والحيوانات من جحورها إلى سطح الأرض وتصبح مزعجةً كما لو كانت سكرى»، والأبعد من ذلك ما يذهب إليه «بنجت كنوتسون» Bengt Knuttson وهو أسقف سويدى عاش فى القرن الخامس عشر، وكتب أطروحةً لها شعبيتها يقول فيها: "إن الفحش والروع والهوام هو الذى وافانا بالطاعون"[16]، لكن مثل تلك التعليقات وغيرها كتبت على نحو عام وبدون فهم واضح لارتباط الحشرات والقوارض بعُصيَّة يرسين.

كانت معظم تلك الأطروحات تنقسم إلى ثلاثة أجزاء[17]، أولها يختص بأسباب الطاعون، وثانيها يختص بمعايير الوقاية منه. وثالثها يختص بعلاجاته، وقد طرحت العديد من الأسباب: أكثرها نيوعًا يأتى من الفلك والتنجيم، فقد استمد أطباء جامعة باريس على سبيل المثال نظريتهم فى هذا الشأن من ابن سينا، فذهبوا إلى أنه فى يوم ٢. مارس (١٣٤٥م)، وفى تمام الساعة الواحدة بعد الظهر حدث اقتران بين ثلاثة من أعلى الكواكب فى الفضاء – زحل والمشترى والمريخ – فى هيئة دلو محدثًا فسادًا فى الهواء المحيط به، وكان ذلك التطير من المجاعة والوباء والموَتان قابلًا للتفسير من جهة نظرية الأخلاط المقبولة، وكان من المعتقد أن المشترى كوكب حار رطب، يتحكم فيه التراب والماء، وأن المريخ كوكب ساخن وجاف، الأمر الذى كان من شأنه أن يلتهب هذان العنصران، ولم يكن لأحد أن يتأكد من أمر زحل، لكن معظم العارفين كانوا يشعرون بأن اقترانهم جميعًا بشيء يكون نذير سوء، وتعود التأثيرات الجغرافية المختلفة للموت الأسود إلى التفاوتات الإقليمية فى كثافة الأشعة الصادرة من تلك الكواكب.

نهض للدفاع عن تلك النظرية الفلكية عدد من الأطباء الإيطاليين، وكان مواطن «فولينيو» Foligno وهو ابن لطبيب من بولونيا ومحاضر فى الطب بجامعة پادوا[18]، يذهب إلى أن اقتران تلك الكواكب أدى إلى "مادة سامة متولدة بين القلب والرئتين، ولا يعود تأثيرها إلى فرط حرارة الصفات الأولية، ولكن من خلال خصائص الأبخرة السامة التى يحملها الهواء المتنفس به، وامتد ذلك الوباء امتدادًا عظيمًا، وصار يتنقل ليس بين المرئ وآخر، ولكن بين قطر وآخر. وكما ألمعنا فى السابق، فليس من الأهمية بمكان فى تلك الأسباب، ما إذا كانت مجموعة من كواكب أو هيئة أرضية أو أثرية: إذ إن ما يجب معرفته هو كيف نقاومه نتصدى له حتى لا يدمرنا"[19].

لدينا كذلك تفسير آخر ذاع في ذلك الزمان، وهو تفسير بيئي أبرز من ذهبوا إليه إسبان خصوصًا "ألفونسو القرطبي"، ففي بعض الأحيان كانت النظرية البيئية ترتبط بأخرى فلكية، وذلك بالجمع بين أسباب الظواهر الطبيعية مثل الزلازل واقترانات الكواكب، وكانت أوراسيا قد عانت من سلسلة من الزلازل بين ١٣٤٥م و ١٣٤٧م، فذهب كثير من الأطباء إلى أن السبب يكمن في تلك الأبخرة الضارة التي كانت تنطلق من جوف الأرض، بل ذهب بعضهم الآخر إلى أن الشيطان كان يقف وراءها، على أنه لم يتحدث "جالينوس" ولا "ابن سينا" عن الزلازل، ويلوح لنا أن تلك النظرية ظهرت في القرن الرابع عشر.

لدينا كذلك نظرية بيئية أخرى تركز على ما طرأ من تغير في حرارة الأرض، ويذهب أصحابها إلى أن التغيرات المناخية جاءت بأجواء أكثر حرارةً ورطوبةً ورياح جنوبية حارة أفضت إلى الطاعون، وكانوا هؤلاء يتنبئون بذلك الطاعون من خلال مراقبة ألوان السماء في المساء والأمطار الغزيرة، والضباب المتواصل والرياح الهوجاء وتكون السحب، وظواهر أقل احتمالًا مثل ذلك الكم الهائل من الزواحف والضفادع وضفادع الماء. كما إن هناك أنواعًا عديدةً من الأحوال الجوية معروفة بتأثيرها على دورة حياة كل من القوارض والحشرات، يمكن أن تكون له صلات بانتشار الجائحة الطاعونية وتواترها، وهو ما نوَّه إليه "ابن سينا" الذي كان يذهب إلى أن معظم الأمراض الوبائية تأتي بها رياح قادمة من خط الاستواء ويكفينا جدًا ذكر أن أهم من ذهبوا إلى العوامل المناخية للطاعون هما الإسبانيان: "ابن خاتمة"(*)، و"ابن الخطيب"(**)(٢٠).

هناك من يحاجي استنادًا إلى "جالينوس" بأنه سواءً كان سبب الطاعون فلكيًا أو بيئيًا، فإنه يمكن تفسير تنقله بين البشر بعدوى متولدة من انبعاث عفن miasma في الهواء وكان "جالينوس" يرى أن المياسما مادة لمرض يحملها الهواء وتغزو الكائن الحي من الخارج، في حين أن العدوى هي مادة المرض تتولد بالفعل داخل الكائن الحي، ويحملها

(*) (توفي بعد ٧٧٠ هـ / ١٣٦٩م)، طبيب ومؤرخ وأديب من أهل المرية بالأندلس.

(**) (ت: ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م)، كاتب وشاعر ومؤرخ شغل منصب الوزارة في الأندلس لبني الأحمر، ملوك غرناطة. اتهم بالزندقة وقُتل ظلمًا، وما يزال قبره ظاهرًا في أغمات بالمملكة المغربية.

الهواء الفاسد خارجًا، وأن الفساد إما أن يكون جزئيًا أو كليًا، والفساد الجزئى هو تدهور وليس التدهور كله لعنصر الهواء، أما فى حال الفساد الكلّى فإن الهواء يكون ملوثًا لدرجة لا يسهل معها التعرف إليه فى هيئته الجوهرية. وفى أواخر القرن الرابع عشر كان كثير من الأطباء يذهبون إلى أن الروائح الكريهة هى مصدر آخر لفساد الجو، وهى روائح يمكن لها أن تنبعث من غائط الإنسان أو الحيوان، أو من الجثث المتحللة فى ميدان المعركة، أو عقب أى تلف يصيب إنسانًا وحيوانًا، وحيث إن الروائح الكريهة كانت ظاهرةً شائعةً فى أواخر العصور الوسطى، فربما تفسر تلك النظرية شمولية الطاعون.

بين أطباء القرن الرابع عشر الذين ركزوا على الهواء الفاسد ودوره كل من "ابن خاتمة" ومواطن فولينيو والطبيب الألمانى "جون هاكر" John Hakr وأساتذة كلية جامعة مونبلييه الطبية، فقد أعدوا على نحو سريع أطروحةً، يسبقون بها منافسيهم الباريسيين[٢١]، وكان هؤلاء الأساتذة يعتقدون بأن الأبخرة المميتة تهب من الجنوب، لذلك نصحوا بأن تنفتح أبواب البيوت ونوافذها إلى جهة الشمال، كما كانوا يعتقدون بأن الهواء يكون أشد فتكًا فى الصيف وأوائل الخريف – والحق أنه وقت الذروة فى شمالى أوروبا لطاعون الهواء وليس طاعون البراغيث– لأن الجو الحار يفتح مسام البدن، فيجعل الأفراد أكثر عرضةً للهجوم، وتفسر نظرية المسام المفتوحة تلك المعارضة الطبية العارمة للاستحمام والتمارين العنيفة فى أزمنة الوباء وقابلية الأفراد المتباينة للإصابة. وقد عبر أطباء مونبلييه ذلك بقولهم: "أحيانًا يقوم المخ بصرف تلك المادة كريهة الرائحة والسامة عبر الأعصاب البصرية المقعرة بالعينين، وعندها يعانى المريض آلامًا مبرحة، فيقبض على عينيه، كأنه لا يستطيع أن يحركهما من مكان إلى آخر، هناك تتلقى تلك الريحية خاصةً عجيبةً، تحقق لها الثبات والدوام، هى أن جوهرها السام يتجدد باستمرار، فتبحث عن مستقر لها فى كائن ما يمكن لها أن تقتحمه وتستقر داخله. فإذا ما أبصرها شخص ما فإنه لا يلبث أن يتلقى هجوم ذلك المرض الوبائي، ويصاب به على نحو أسرع من استنشاقه هواء رجل مريض، حيث إن ذلك السم الشفاف ينتشر على نحو أسرع من الهواء الثقيل"[٢٢].

كما يتضح من تلك الفقرة، فإن بعض المراجع تذهب إلى أن الهواء الفاسد يجعل الطاعون قابلًا لأن ينتقل من شخص إلى آخر. وكان يعتقد بأن التنفس والملامسة

والفراش أو حتى مجرد التحديق فى شخص ما مصاب بالعدوى يمكن أن يمرر ذلك الطاعون المميت.

قليل من المراجع تضيف أسبابًا أخرى تتراوح بين "التوق إلى مجامعة امرأة عجوز" إلى الإفراط فى تناول الطعام، لكنه فى التعامل مع أصول المرض فإن غالبها تختتم الأجزاء الأولى من أطروحاتها بالإشارة إلى الاستعداد للمرض والمناعة ضده[٢٣]. أما لماذا يصاب به بعض الناس دون غيرهم، فيذهب معظم الأطباء إلى أن الإصابة تكمن فى نظرية الأخلاط الأربعة؛ فالأشخاص من ذوى المزاج الحار الرطب يكونون أميل إلى تلك الإصابة، أما إذا كان سيئو الحظ هؤلاء شبابًا وعلى قدر من البدانة وعلى قدر أكبر من العاطفة والحساسية أو إناثًا، فإنهم يكونون أكثر قابليةً للإصابة، والحال ذاتها إذا كان هؤلاء أكولين ومدمنى خمور ورياضيين وأصغر سنًّا، وهم العناصر الأوفر نشاطًا فى المجتمع على نحو عام.

يختصُّ الشطر الآخر من أهم الأطروحات عن الطاعون بالوقاية منه ومقاومته، فقد تحقق للأطباء – بما لديهم من ملاحظات علمية صارمة– أن الوقاية تصبح أمرًا ملحًّا وضروريًّا، وذلك بعد أن تبين لهم عدم كفاية قدراتهم العلاجية، وكان المعيار الأفضل هو الصلاة، كما كان الكتاب المسيحيون والمسلمون جميعًا ينصحون باتخاذ رقىً وتعاويذ دينية[٢٤]، الصلبان عند المسيحيين والأسود الذهبية الصغيرة عند المسلمين، وكانت تلك الأسود حمايةً فلكيةً ترمز إلى فترة مؤاتية من العام، ولم يتفق الكتاب المسيحيون والمسلمون جميعًا على الهرب ودوره فى الوقاية من المرض؛ فكان الكتاب المسيحيون يؤمنون أنه الواقى الثانى من المرض، وكان الهرب من أى مكان يوجد به طاعون أمرًا ملحًّا، والأمر كذلك بالنسبة للأماكن المنخفضة والبرك والمياه الراكدة والواجهات الجنوبية للبيوت والمناطق الساحلية واللجوء إلى الضواحى الجميلة الباردة والجافة، فإذا تعذر الهرب فالبيئة فى المناطق "الآمنة" (كالجبال) يمكن أن تكون مناسبةً إلى حد بعيد، وكان الناس ينصحون بالبقاء حيث هم خلال النهار، تفصلهم ستر واقية عن النوافذ المضيئة ويحاولون قدر إمكانهم البقاء فى جو معتدل فى الرطوبة.

أما عن الكتاب الإسلاميين فقد كان يترفعون عن الهرب لأسباب دينية، ويتفقون مع أندادهم المسيحيين على أن السبب الجوهرى للموت الأسود هو غضب الله، لكنه بالنسبة

للمسلمين كانت إرادة الله حاسمةً، ولا جدوى من الهرب ولا ضرورة، وكان الموت بالطاعون عند المؤمنين المخلصين في حقيقته رحمةً من الله وراحةً من الحياة ومشاقها وتَذْكَرةً إلى الجنَّة، والكافر وحده هو الذي يكون بحاجة إلى الهرب، لأن الموت بالطاعون يعني عنده اللعنة.

على أن الكتاب المسيحيين والمسلمين جميعًا يتفقون في الجوانب الأخرى للطب الوقائي[٢٦]؛ فالروائح الزكية مهمة، لأنها تطرد الأبخرة الضارة المسببة للطاعون، وكانت تستنهض هؤلاء الذين يتهددهم ذلك الطاعون بأن يحرقوا الأخشاب العطرية الطرية ذات الروائح الطيبة كالعرعر والدرداء والبلوط والصنوبر وإكليل الجبل وعود الندّ والكهرمان والمسك والإجاص، وتجب المواظبة على غسل الأيدي والأقدام بانتظام وتغشيتها برفق بماء الورد والخل، ويجب اجتناب الاستحمام؛ لأنه يفتح مسام البدن، فيصبح المرء بالتالي عرضةً للهجوم، كما كان لا ينصح بالرياضة البدنية للسبب نفسه؛ لأن الإجهاد يجعل استجابة المرء للطاعون سريعةً.

هناك مدارس أخرى تنحاز إلى الصيدلة الوقائية، فهي توصي بتناول التين والبندق والسذاب قُبيل الإفطار على معدة خاوية، وأفضل التوابل التي تقي من الطاعون هي المر والزعفران والفلفل، فينصح بتناولها مضافةً إلى أفضل الخضروات؛ وهي البصل والكراث والثوم، وذلك في وقت متأخر من اليوم، شريطة ألا يستكثر منها، حتى لا تجعل الأخلاط أكثر سخونةً، فيصبح المرء معها أكثر قابليةً للإصابة بالطاعون، وكان القراء يستحثون على أن يظلوا في الحدائق، حتى يتهيأ لهم قَدْر جاهز من الأعشاب والتوابل رهن أيديهم.

إلى ذلك كانت توجد وسائل إضافية لجعل البدن على الأهبة لمجالدة المرض، فكان يوصى بتطهيره من خلال المسهلات ومدرات البول والفصد والكيّ، وكان الفصد يعد في فسيولوجيا أواخر العصور الوسطى جد معقول، و"علميًا" فثمة أوردة خاصة ترتبط بالعلامات الفلكية والأخلاط لتغيير تدفق الحرارة والسوائل في البدن، وكان التوازن الصحيح للأخلاط المتحقق عن طريق الإدماء أساسًا للوقاية من الطاعون.

كان الطعام غايةً في الأهمية[٢٦]، وكان أطباء العصور الوسطى يسيرون على نهج "أرسطو" في محاماته عن الاعتدال في مراحل العمر المختلفة، فيذهبون إلى أن الغذاء المتوازن يساعد المرء على أن تظل الأخلاط في كامل كفاءتها، فكان يوصى بالوجبات الخفيفة وتناولها ببطء شديد، وأن تمضغ جيدًا، بحيث ينهض المرء بعد تناول وجبته، وهو ما يزال جائعًا، ولأنه يمكن للَّحم ومنتجات الألبان والأسماك أن تفسد بسرعة، وتصبح رائحتها كريهة، لذا يستوجب اجتنابها، أما الخبز والبيض والفاكهة والخضروات، سيما النوعين الأخيرين، فهى الأفضل لأنها تساعد على الهضم، ويحظر تناول المقبلات فيما عدا البندق الذى كان يعتقد بفائدته للهضم، أما عن النبيذ والماء فهما المشروبان الوحيدان اللذان يُعدَّان آمنين.

أما عن النوم فكثيره سيء، خصوصًا بعد تناول الطعام مباشرةً أو في منتصف النهار كما كان ينصح بتحاشى النوم على الظَّهر؛ لأن من شأنه أن يتيح الفرصة للهواء الحامل للوباء بأن يتسلل من خلال المنخارين إلى الرئتين؛ لذا فالأفضل هو النوم على جانب واحد، والتقلب أمامًا وخلفًا، مما يساعد على الهضم والإخراج، وكلاهما مهم لتحقيق التوازن الصحى للأخلاط والقوة المناسبة لاجتناب الطاعون، وقد أُوجِز ذلك التراث الوقائى فى قصيدة تعود إلى أوائل القرن الخامس عشر، عنوانها "الحمية والمعتقد للوباء" للراهب الإنجليزى "جون ليدجيت" John Lydgate(*):

من يشاء أن يظل صحيحًا وبمنأى عن المرض

ويقاوم ضربات الوباء

لندعه سعيدًا غير مكتئب

يهرب من الهواء الرذيل وينأى بنفسه عن المتاعب

يحتسى النبيذ اللذيذ ويطعم اللحوم المفيدة لصحَّته

ويمشى في الهواء الطلق ويجتنب الضباب الأسود[٢٧].

(*) (ح ١٣٧٠ - ح - ١٤٢٠م)، شاعر إنجليزي، ألف كتاب طروادة.

القسم الثالث من الأطروحات الخاصة بالعلاجات والوقاية هو أصغرها، وحيث إنه قلما كان بمقدور الأطباء أن يقدموا عونًا إيجابيًا، فقد كتب بعض الثقات علاجات عامةً للطاعون والحاجة للتعامل معه بوسيلة جديدة، وكان الأطباء المسلمون اعتمادًا على «ابن سينا» يؤكدون على الإدماء؛ فيقول «ابن خاتمة»[*]: «ولما شاع ذلك في الناس وألفوا الانتفاع به صاروا يتفصدون من تلقاء أنفسهم، دون استشارة طبيب ولا توقف على إذن منه مرات فى الشهر الواحد، من غير اتقاء ولا حذر، فلا يجدون لذلك غائلة فساد»[٢٨].

وكان الأطباء يقترحون فقأ الدمامل ثم استخدام مرهم مصنوع من الطّين الأرمنى وأكسيد الحديد الذى حدثنا «جالينوس» عن خواصه العلاجية، فكان يوصى باللبخات خصوصًا تلك المصنوعة من زهور البنفسج، فيتم دعكها على الدمامل المفقوعة، بينما يتناول المريض عصائر الفاكهة.

أما عن الأطباء المسيحيين؛ فغالبًا ما كانوا أكثر علميةً فى مناقشة موضوع العلاجات، فما داموا يؤمنون بأن الطاعون يتسلل إلى البدن من خلال الأوردة، أو حتى كائنات كالديدان؛ لذا كانوا يركزون فى علاجاتهم على نزف الأوردة، وكانوا قبل البحث فى موضوع العلاج يصفون أعراض الطاعون من سعال وآلام فى الصدر وقصر فى التنفس وحمى ودمامل وتقيُّؤ، وكانت فسيولوجيا العلاج عادةً ما تنهج نهج كلية باريس الجامعية، وكان الباريسيون يذهبون إلى أن الجسم يحتاج إلى حرارة طبيعية، ليحافظ على نفسه، وفى الأحوال الطبيعية كان يظن بأن دورة الهواء خلال الرئتين هى السبب فى ذلك، ولكن عندما بات الطاعون يهاجم الجهاز الرئوي، فإن عصارات الجسم كانت تتعطل فالهواء يتوقف عن الدوران، ويموت الضحية في نهاية المطاف. وكان القلب يشغل المركز الأهم، من حيث إن عصارات الجسم تتدفق إليه، وبالتالى تكون إحدى الطرق فى التعامل مع الطاعون هى إدماء الأوردة القريبة من القلب، فإذا ظهرت الدمامل على مقربة من أعضاء أخرى أساسية كالكبد أو الطحال، فإن الأوردة الواصلة إليها تَدْمى، وبوجه عام كان الأطباء المسيحيون يؤمنون بأن الألم وظهور الدمامل يكشفان معًا عن المكان الذى تمت مهاجمته بالجسم، ويبدأون علاجاتهم من هذه النقطة.

(*) «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد»، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم ٤٨٥، صـ١٨ب.

وراء التطهر والإدماء والعلاجات الأخرى المساعدة كالحجامة والفصد كان هناك القليل الذى ينصح به للعلاجات. لكن معظم المراجع كانت تذهب إلى أن أهم دور لها، إنما هو فى مجال الوقاية من المرض، ويعد النص التالى واحدًا من أشهرها:

«دواء للوباء: خذ خمس كوبات من السذاب، إذا كنت رجلًا. أما إذا كنت امرأةً فلا تتناولينه: لأن السذاب مفيد للرجل مضر بالمرأة. بعدها خذ خمس حوصلات من حشيشة الملوك وخمس ورقات صغيرة من شُرَّابة الراعى Columbine وكميةً كبيرة من زهرة الأذريون ملأى ببصيلات صغيرة من محاصيل تشبه بصيلات الزعفران، وإذا ما أخذت الزهور، فلتدع الأوراق، وعندها يكون لديك من زهرة الأذريون أكثر مما لديك من غيرها، ثم خذ بيضةً طازجةً واثقبها من نهايتها، وأخرج ما بداخلها وضَعْها على النار إلى أن تتجمَر، وتصبح أشبه بالمسحوق، لكن دون أن تحترق، وعندها خذ مقدارًا من دبس السكر، واسحق كل ذلك مع جعة جيدة دون تصفيته، ثم اجعل المريض يشرب منها لثلاث ليال وثلاثة أيام. فإذا هو فعل ذلك يشفى"[٢٩].

كان يظن فى ذلك الزمان أن اليوم الرابع بعد الإصابة بالعدوى هو اليوم الحاسم، وبالتالى فقد كانت غالب الأدوية مُعدَّةً على أساس أن يتحملها المريض حتى ذلك اليوم، ويصبح من المأمول أن يستعيد بعدها قواه الطبيعية.

إلى ذلك كانت هناك علاجات أخرى تتضمن التمريض الصحيح والمرقد المريح وشرب الكثير من السوائل واستخدام دهانات عشبية ومراهم، وكان بعض الأطباء الملتزمين بنظرية اليوم الرابع الحاسم ينصحون بالانتظار والترقب، بيد أنهم فى واقع الحال كانوا يعتقدون بأنه لا يوجد علاج مؤكد. ويعد هذا الفهم الذى كانت له فائدته فى تغيير الممارسة الطبية واحدًا من أهم ما خلَّفه الموت الأسود من نتائج، وكان يُناط بمهنة الطب الحفاظ على صحة المجتمع، وكان إخفاقها فيها يفتح المجال واسعًا للملاحظة والمناقشة والنقد. وكان المشتغلون بالطب لا سيما الأطباء الجامعيين المتمرِّسين يعانون من الضربة التى سُدِّدَت إلى مكانتهم والاطمئنان إليهم، ولم يعد فى إمكان الطبيب الذى تجذَّرت داخله تعليمات "جالينوس" الزائفة أن يتغير أو أن يستجيب بنجاح لذلك التحدى الكبير الذى يجبهه. وكان التعليم الذى يستند إلى تحليل النصوص أكثر من استناده إلى ما هو قائم على الفحوص السريرية وطرح الفروض قد توقف عن النمو فى القرن الثالث

عشر، ولم يعد باستطاعته أن يكون في مستوى أزمة القرن الرابع عشر، وكانت المحصلة انهيارًا تامًا، وإعادةً في النظر والتنظيم.

خلال الحقبة التالية للموت الأسود، وتحت ضغوط الجائحة الطاعونية الثانية، شرع الطب في النهوض، بحيث إنه لدى عام ١٥٠٠م كان هناك تطور في الأفراد والمؤسسات وأضحى الطب أكثر مهنيةً، وكانت هناك عدة خطوات على الطريق، أولاها أنه مات كثير من المفكرين والمنظرين والممارسين[٣٠]، مثل مواطن فولينيو و"جون هاكر"، فضلًا عن كبار الأطباء بقصور إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا ودوق برجنديا، وكان يقوم على العناية بالبابا "كليمنت السادس" ١٣٤٢-١٣٥٢م إبان مدّة كهنوتيَّته تسعة من الأطباء وثلاثة من الجراحين، وقد فتك الطاعون بثلاثة من الأطباء واثنين من الجراحين، ويصعب علينا أن نحدد بوضوح نسبة الموتى من السجلات الجامعية؛ لأن الكراسي الخالية بها ربما كانت تدلّل على الفارّين من الطاعون أكثر من أن تدلل على الموتى، لكن لدينا في جامعة پادوا سجلات أفضل من تلك التي توافرت لدى غيرها من مدارس الطب في القرن الرابع عشر، فقد كانت كراسيها في الطب والجراحة جميعها شاغرةً في عام ١٣٤٩م، على أنه يمكننا أن نقيس نتائج الطاعون بطريقة أخرى؛ ففي ذلك العام أصبحت في پادوا ثلاثة كراس للطب، وصلت بعد عامين إلى اثنى عشر كرسيًا، ويتعذر علينا أن نعرف بالضبط ما يعنيه هذان الرقمان، وفي مدرسة الطب بجامعة باريس انكمشت تلك الكراسي بعد الموت الأسود من ستة وأربعين في عام ١٣٤٨م إلى ستة وعشرين في عام ١٣٦٢م إلى عشرين في عام ١٣٨٧م، وعلى أية حال فقد هلك كبار رجال الحرس القديم، وبتأملنا فيما كانت عليه حال الطب قبل الطاعون، فإن من شأن ذلك أن يفتح الباب لأفكار جديدة.

لدينا متغير آخر أتى به الطاعون، هو نهضة الجراحة والجراحين؛ فنتيجةً للإخفاق الذي أصاب الطب النظري، فقد تحول كثير من الناس إلى الجراحة وهي الأكثر عمليةً، واعترفت الجامعات بحاجتها إلى أفكار جديدة، وبدأت الكليات في شمالي أوروبا تتزود بالجراحين الذين كان لهم حضورهم الواضح في الجامعات الإيطالية، وأصبح التشريح والجراحة مقررين مهمين في برنامج جامعة باريس الطِّبِّي، أما في بولونيا التي كان الجراحون محل ترحيب بها منذ القرن الثاني عشر، فإنها زادت من ذلك الترحيب، واشتهرت قبل الموت الأسود بإجراء عمليات تشريح تتم في شهور الشتاء وكانت الواحدة

منها تستغرق يومًا كاملًا، وعلى الرغم من عواقب التحلل، فقد أصبح التشريح يتم فى كل الفصول، مما كان ينعكس على العلميات الجراحية فأصبحت الأخطاء أقل، وكانت محصلة ذلك أن أصبحت لدينا فى ثمانينيات القرن الرابع عشر كتب تشريح أشد إحكامًا وإتقانًا. كما كان من نتائج ذلك الاهتمام بالتشريح والجراحة في پادوا أن تحول التركيز فى مدرستها الطبية من الفلسفة إلى العلم الطبيعى التطبيقي، كما نهض بها ما صار يدعى فيما بعد بالمنهج العلمي[٢١]، وقد قام هذا المنهج على منطق "أرسطو" وأسلوب "أبيلار"، وكان يتضمن التسليم بنظرية يتم اختبارها على أساس الملاحظة الدقيقة والصارمة والتحليل بعد التفكير فى النتائج، وفرض يؤكد النتائج أو ينفيها وتقترح بديلًا لها. ويعتقد الكثير من الباحثين بأن نمو المنهج العلمى المستقى جزئيًّا من مناهج الجراحة العملية والتشريح بالجامعات أفضيا فى القرن السابع عشر إلى المزيد من المهنية فى الطب وإلى علم تجريبى حديث.

لم تتوقف تلك الإنجازات الجراحية عند الجامعات، فقد كانت لديها إنجازات أخرى خارجها؛ ففى سنوات ما بعد الموت الأسود سدَّد الجراحون ضربات قويةً لحلاقى الصحة، وصاروا يعتمدون أكثر فأكثر على مراجع مكتوبة، ولا يعد ذلك بذاته تراجعًا إلى أبراج عاجية فى التعليم الطبي، فقد كان التركيز على كتب جديدة موجزة وليس كتبًا قديمةً مفصلةً، قام عليها جراحون ممارسون، والحق أن أشهر طبيبَين ممارسَين فى أواخر القرن الرابع عشر كانا فى أصلهما جرّاحين؛ هذان الطبيبان هما "جى دى شولياك" و"جون أردرن" John Arderne[٢٢](*)، فكان "شولياك" جرَّاحًا لكل من ملك فرنسا والبابا، فى حين كان "أردرن يخدم ملك إنجلترا، وكان كتاب "الجراحة" Surgery، وهو دُرَّة أعمال "شولياك"، وكتاب "الممارسة" Practica وهو درة أعمال "أردرن" بين أكثر كتب الطب رواجًا فى مرحلة ما بعد الطاعون، وكان كلاهما على قدر فائق من الأهمية إذ استندا إلى سنوات عديدة من التجربة والتمرس بالعلاج والوقاية من المرض، بخلاف كتب الأطباء التي درجت على التعامل مع نظريات السببية.

(*) (١٣٤٩-١٣٧٠م)، جرّاح إنجليزي.

في أوروبا بأسرها اتخذ الجراحون مكانهم إلى جوار غيرهم من الأطباء باعتبارهم أطباء تابعين للبلديات[٣٣]، وفي عام ١٣٤٨م سمح حكام فلورنسا لجرَّاحيهم بتشريح جثث ضحايا الطاعون، وعلى النهج ذاته سارت مونبلييه والبندقية ومدن أخرى. وقام حكام البندقية في عام ١٣٤٩م بتكريم "نيكولاس فيرَّارا" Nicholas Ferrara باعتباره واحدًا من أفضل أطبائها، مع أنهم كانوا قبل عام واحد فقط قد فرضوا غرامةً على "أندرياس" Andreas من پادوا "لانتحاله دور الطبيب"، وكان "أندرياس" هذا قد قام على علاجٍ ما يزيد على الألف من ضحايا الطاعون، ولم يلبث أن أضحى ذلك النَّمط من التكريم يغذُّ الخطى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وفي ١٣٤٨م وافقت السلطات في أكسفورد على أن ينشئ الجراحون لأنفسهم نقابةً تختلف عن نقابة حلاقي الصحة، بل وأن تكون للأولى ولاية على الأخرى، ثم سُمح لهم بعد سنوات بأن يحاضروا في برنامج الجامعة الطبي، وتم إدراجهم في جامعة في لندن بين عامي ١٣٥٢م و ١٣٦٢م، وأصبحت لديهم هيئة تنظم ممارستهم بها، وفي ١٣٥٦م سمح لجراحي باريس أن يمنحوا درجتَي البكالوريوس والماجستير في الجراحة، بل وصلت الحال إلى حد أن صار من حقهم ارتداء العباءات الطويلة، تلك التي كان يختص بها الأطباء وحدهم، واعترفت كلية باريس الجامعية بتميزهم ودعتهم إليها، ولم يأت عام ١٤٠٣ م حتى كان الجراحون قد تم الاعتراف بهم في أوروبا بأسرها كجماعة تتميز عن حلاقي الصحة والمساواة بينهم وبينْ الأطباء في مجال العمل الطبي، وهكذا صار مرحبًا بالجراحين اجتماعيًّا، وبات ينظر إليهم على أنهم رجال المهام الصعبة الذين نجحوا حيث أخفق الأطباء.

هناك متغير آخر صاحب نهوض الجراحة، هو نمو الكتابات الطبية باللغات الدارجة[٣٤]، فحتى الأربعينيات من القرن الرابع عشر كانت كتب الطب جميعها تكتب باللاتينية، من حيث كونها اللغة السائدة في التعليم الطِّبِّي بالجامعات، لكنه لم يلبث أن تغيَّر ذلك كله زُهاء عام ١٤٠٠م فأضحى كثير من المراجع الطبية يُكتب باللغات الدَّارجة أو يُترجم على الأقل إليها، ولدينا أسباب كثيرة لذلك: أولًا أنها كانت انعكاسًا لما ران من وَهَن على نوعية التدريس باللاتينية، وهو من نتائج الموت الأسود، الأمر الذي نتناوله في الفصل التالي تفصيلًا، وثانيها أنها ترتبط بصعود الجراحة ونبوغها، فبينما لم يكن لدى معظم الجراحين في عام ١٤٠٣ م سوى اليسير من التدريب الجامعي واليسير كذلك من الدراية باللاتينية، فإنهم كانوا غير متعمقين في التراث الكلاسيكي، بخلاف ما كانت عليه

حال الأطباء، لذا كانوا يفضلون الكتابة بلغاتهم المحلية، وهى ظاهرة فطن إليها كثيرون من المعاصرين بمن فيهم المعلم الكبير "جون تريڤيزا" John Trevisa(*)، فى ترجمته كتاب "رانولف هيجدن" Ranulf Hidgen(**) "الأزمنة المتعددة" Polychronicon من اللاتينية إلى الإنجليزية.

هناك سبب ثالث لما جرى من كثرة الكتابات الطبية باللغات الدارجة هو الطلب المتزايد عليها من قِبَل جمهور العلمانيين: فبعد أن تحرر المتعلمون منهم من الأوهام الناشئة عن استجابات الأطباء للطاعون وبالروح ذاتها التى جعلتهم يسعون إلى خلاصهم، فقد انصرف كثير منهم إلى أن يتحصلوا على معارفهم الطبية من مصدر طازج، وصنفت عشرات الأدلة العملية لتغطى العلاجات الطبية بمختلف أطيافها وإجراءتها: من كيٍّ وصيدلة وأنظمة غذائية وغيرها، أو إفادة المريض بوسائل استخدامها، كما كانت هناك أطروحات أخرى باللغات الدارجة، وهى عبارة عن ترجمات لإصدارات شعبية من أعمال أساتذة سابقين، ولدينا مثال طيب على ذلك فى إصدارت "هنرى دانييل" Henry Daniel(***)، فى عام (١٣٧٧م) "القباب البول" The Domes of Urine(٣٥). وهو تبسيط لعمل أساس فى البول، وكان يعد وسيلةً مهمةً للتشخيص فى العصور الوسطى ألفه "إسحق اليهودي" Isaac Judaeus(****)، وكان هذا الكتاب حافلًا بتصاوير ملونة لقوارير البول، ويرد به نصح للقارئ بأن يضاهى عينة البول الخاصة به بالتصاوير الموجودة بالكتاب، فيصير أشبه بالتشخيص المنزلى فى إمكان أى امرئ النهوض به، ولدينا نمط آخر واسع الانتشار لدليل يتمثل فى وصفة طبية صيدلانية، يقال إنها صنعت للملكة "فيليبا" زوجة "إدوارد الثالث" ملك إنجلترا ١٣٢٧-١٣٧٧م، تستهدف إخراج مولود ميت "خذ أوراق كراث، وانزع حراشفها، واربطها بالرحم على مقربة من الصرة، فيتيسر خروج الطفل الميت، وانزع بعدها الأوراق أو تقوم هى بذلك"(٣٦).

(*) (١٣٢٦-١٤١٢م)، اشتهر بترجماته لحوليات تاريخية لاتينية.

(**) (ح ١٢٨٠ - ١٣٦٤م)، راهب بندكتي، وكاتب حوليات إنجليزي.

(***) (ت: ١٣٧٩م)، راهب دومينيكالى إنجليزي، مهر فى الطب والعلوم الطبيعية.

(****) (ح ٨٣٢- ح ٩٣٢م)، عرف عند العرب بـأبو يعقوب إسحق بن سليمان الإسرائيلي، من أشهر أطباء عصره وفلاسفته، ورائد الأفلاطونية الحديثة عند اليهود، ألف بالعربية ثم نقلت كتبه إلى اللاتينية والعبرية والإسبانية.

وحيث إنها كانت مكتوبةً باللغات الدراجة، فقد أضحت تلك الكتب الشعبية متاحةً لأى امرئ يستطيع القراءة سواء كان من العقاقيريين أو حلاقى الصحة أو ممارسين غير محترفين بل وسائر العوام، كانت شاهدةً على الاهتمام العام بالمرض وصحة البدن فى عالم ما بعد الموت الأسود، وعلى نحو ما كان ذلك الفيض الهائل فى كتب الطب الشعبى مثالًا آخر للإخفاق الذى حاق بكتب الطب التقليدية ذات الطابع النظرى والتى كانت تدرس بالجامعات فى تزويد الطبيب بما يكفيه فى ممارسته لمهنته، ومن ناحية أخرى فقد كان من شأن علاجات منزلية مثل تلك وشيوعها أن تتعارض مع تنامى المهنية فى الطب المنظم، لكنها من ناحية أخرى كان لها دورها فى تيسير خدمته: فالطب الاحترافى يقوم على أساس التجربة السريرية، والخبرة تقوم على نتائج تجارب مثل تلك، وفى مرحلة ما قبل الطاعون كان يمكن لمن له دراية باللاتينية ودراية كذلك بطبِّها الذى كان يقوم على الموضوعة ونقيضها أن يمهر فيه، وحالما تحقق لنخبة مثقفة من العلمانيين قدر من المعرفة بذلك الطب فإنه لم يعد ملغزًا، وسرعان ما تبدى لجمهور واسع ما كان عالقًا به من وهم، وأنه لا مندوحة عن تغييرات جذريَّة فى ممارسته، من أجل كبح جماح ذلك الطاعون.

هناك تطور طبى آخر كبير يتمثل فى تلك التطورات التى طرأت[٣٧] على المستشفيات؛ فلم يكن منوطًا بها علاج المرضى قدْر ما كان منوطًا بها عزلهم عن مجتمعهم، خشية العدوى، فيصيبون الأصحاء بضررهم، فعندما كان يؤتى بمريض ما إلى مستشفى، يتم التعامل معه كما لو كان ميتًا، فيجرى التخلص من ممتلكاته، وكانت تقام له فى بعض الأنحاء قداسات من أجل خلاص روحه، ويصبح من غير المتوقع أن يشاهد ذلك المسكين المعذب مرةً ثانيةً، ووصلت الحال ببعض المستشفيات إلى أن اتسعت مهامها، وأصبحت لها وظيفة مزدوجة، كمآو لعجَزة أو أرامل ويتامى أو حتى نزلاء بأجر، بينما لم يكن يقدم لضحايا الأمراض المعدية سوى اليسير، لكنها لم تلبث بعد الموت الأسود أن ابتعدت عما سبق أن اعتادت عليه، صحيح أنها أبقت على الأجنحة المخصصة للمعزولين والمتقاعدين، لكنه شرع فى تخصيص العدد الأوفر منها لعلاج نزلائها من المرضى، وكانت المناهج المتَّبعة فى غالبها فجةً، كما كان العلاج متدنيًا بمقاييس عصرنا الحاضر، ولدينا شواهد كثيرة على ذلك، بل إنه ربما كان أسوأ من المرض ذاته، لكنه مما يحسب للموت الأسود أنه غير من غايات معظم تلك المستشفيات، فبدأت تتجه نحو العلاج أكثر مما كانت تتجه نحو العزل.

بين أبرز معالم ما تم من متغيرات ظهور تقنيات جديدة فى الإدارة والتنظيم، فتم تقسيم مستشفيات ما بعد الطاعون إلى أجنحة، يختص بعضها بمن أصيبوا بكسور فى عظامهم وبعضها الآخر بأنواع مختلفة من الأمراض التنكسية، وثالثة للمصابين بأمراض معدية، وأصبح بكل جناح منها ما يتراوح بين خمسين سريرًا إلى مائة، وعلى غرار مستشفيات القرن العشرين، كانت تلك المستشفيات تضم أسرةً مصطفةً إلى جوار الحائط، وقد وضعت بزاوية قائمة أسفل النوافذ، مع مساحة في الوسط مخصصة للخدمة، وكان لذلك النظام أضراره في حال البرد القارص فى الشتاء، لكنه كانت له فوائده من توافر للضوء والهواء فى الصيف وسهولة العلاج والنظافة فى كل الفصول، وغالبًا ما كان يتم التشارك فى الأسرة، لكنه كان يتم تنظيف الملاءات بانتظام. كما كان لدى معظم تلك المستشفيات ماء جار وأفنية ومواسير للصرف.

يتوافر فى مستشفى أوتيل ديو Hetel Dieu بباريس أفضل شاهد على ما جرى من تطورات فى إدارة المستشفيات وتنظيمها[٣٨]، وجرت العادة فيه على أن يؤدى المريض لدى دخوله هبةً للمستشفى، حيث إن الإقامة فيه كانت مكلفةً، ومن واجبه أن يتحمل بعضًا من عبئها، بعدها كانت تؤخذ ملابسه، وما لديه من أشياء ثمينة لتودع بها – وهو ما يعد بذاته فَألًا حسنًا؛ لأنه يبشر بمغادرة محتملة- ثم يعطى ثوبًا وسريرًا، ويبدو المستشفى نظيفًا للغاية؛ فكانت الجدران تغسل بحمض الليمون مرتين فى السنة، ويتم شراء ألف وثلاثمائة مكنسة فى السنة، ويتضح لنا أنه كانت تنشأ مشكلات عندما يصبح المستشفى مزدحمًا، عندها كان يوضع كل ثلاثة من المرضى فى فراش واحد، أما عن الأسرة، فربما كانت تنطوى على مشكلات؛ فبها مراتب من القشّ مربوطة إلى أربعة أعمدة خشبيَّة، وكانت الوسائد مصنوعةً من ريش الطيور، ومع كون ملاءات السرير كتانيةً، فإن الأغطية كانت مصنوعةً من جلد حيواني، وعلى الرغم من تغييرها فى كل أسبوع إلا أن السَّرير وما عليه من فراش كانا يصيران فى حال يرثى لها، وكان الفرائون وحاكة الأغطية يتوافدون مرةً كل عام لتخليص المستشفى مما حلّ بها من هوام وإصلاح ما لحق بها من أضرار، وإذا ما أمعنا النظر فيما جرى من تحسن فى الخدمة بتلك المستشفيات، يلاحظ أنه كان فى أوتيل ديو طاقم مؤلف من خمسة عشرة، يعملون فى مغاسلها لخدمة مرضى لا يجاوز عددهم المائتين، وكان لمعظم المستشفيات ضياعها التى تحوزها بالريف، وتأتى لها بدخل ومؤن، وكان الطعام متوافرًا أو طازجًا. فكان اللحم يقدم أربع مرات أو خمس كل أسبوع،

وهى نسبة أعلى مما كانت يتحصل عليه معظم الناس فى ذلك الزمان، وكانت أوتيل ديو حريصةً على أن يستمتع نزلاؤها بنصيب وافر من الصحة، فكان يخصص لكل جناح عدة حمامات، تعمر بغسول للشعر وزيارات أسبوعية للحلاقين.

كانت الثقافة الطبية هى أخطر ما حلَّ بمستشفيات ما بعد الطاعون؛ فقد بدأ عديد منها فى إقامة مكتبات طبية، كما أقامت صلات متنامية مع العديد من الأطباء، صحيح أن بعضًا من ذلك كان قد نشأ فى مستشفيات إيطالية، وفى أوتيل ديو، لكنها لم تصبح ظاهرةً عامةً إلا بعد الطاعون، ولدينا مثال فى بيرى سانت إدموندز، وهى واحدة من المستشفيات الخمس الرئيسة فى إنجلترا، فقد عقدت صلات مع جامعة أكسفورد القريبة، وأصبح بإمكان طلاب تلك الجامعة الشباب أن يخدموا بها[٣٩]، وما إنْ أتى عام ١٤٥٠م، حتى كانت مستشفيات أخرى بالمدينة قد سارت على نَهْجِها، وهو اتجاه بات شائعًا على نحو متزايد فى أوروبا بأَسْرها.

كانت هناك خطوة أخرى على طريق الطب الحديث، تتمثل فى تقدم الصحة العامة والمرافق الصحية، وقد سبق لنا أن عرضنا فى الفصل الرابع للحالة الصحية المتدنية التى كانت عليها أوروبا قبل الطاعون ومع أنه صدرت إبانها قوانين للصحة العامة فى بعض المدن مثل نورمبرج[٤٠]، إلا أنها تنامت فى إيطاليا بعد الطاعون، ونهضت بها طواقم تابعة لبلدياتها، ولم تلبث أن انطلقت من إيطاليا إلى شمالى أوروبا ووسطها، حتى غدت فى القرن السادس عشر ظاهرةً عامةً فى معظم حواضرها. وكانت فكرة جراحى البلدية فكرةً عتيقةً فى إيطاليا، وتعود فى أصولها إلى القرن العاشر، وتقوم فى أساسها على العلاج المجانى للفقراء، لكن وجود طاقم مستقل يختص بالصحة العامة لم يولد إلا مع الموت الأسود، وكان همه فى البداية هو الوقاية من الوباء، لكنه لم يلبث أن أضيفت إليه زهاء عام (١٤٠٠م) مهمة الإشراف وأحيانًا التحكم فى الصحة العامة ومرافقها كافة.

يمكننا أن نتتبع تطور تلك الطواقم على نحو أفضل بتأمل ما حدث فى البندقية وفلورنسا وميلان[٤١]؛ ففى مارس ١٣٤٨م، وبينما الموت الأسود يعربد فى البندقية قام مجلسها البلدى بتشكيل لجنة من ثلاثة أشخاص، عهد إليها "بأن تتخذ كل الوسائل الممكنة للمحافظة على الصحة العامة وتفادى الإضرار بالبيئة"، وكانت تلك اللجنة مؤقتةً، وانتهى عملها فى عام ١٣٥١م، حين كان الموت الأسود يقارب نهايته، لكنه لم يلبث أن أعيد

تشكيلها بعد عشر سنوات، وذلك بسبب الموجات المتتالية للجائحة الطاعونية الثانية، وبذا يتضح لدينا أن إقامة هيئة مركزية دائمة للصحة العامة باتت أمرًا ضروريًا باعتبارها منارًا تنذر بطاعون وشيك، وهو ما تم في أوائل القرن الخامس عشر، حين عَيَّن المجلس البلدى ثلاثة نبلاء مفوضين للصحة العامة، ولم يكن في إمكان هؤلاء أن يُعْرضوا عن تلك المهمة، وإلا تعرَّضوا للحَبْس والغرامة، وتوجب عليهم الإشراف على أطباء المدينة، وتعيين موظفين مسئولين عن الصحة، مهمتهم العناية بأحيائها كافة، وعليهم أن يشرفوا على الممارسين الطبيين في المناطق المجاورة، ويتفقدوا المرافق الصحية، ويخطروا تلك اللجنة بأية حالة من حالات الطاعون.

على النَّهْج ذاته أقيمت فى فلورنسا إبان عام ١٣٤٧م هيئة للصحة العامة، كان يقصد بها كما كانت الحال فى البندقية[٤٢]، أن تكون مؤقتة، ولم تصبح دائمةً إلا بعد أن تكررت الطواعين، وفى غضون القرن الخامس عشر كانت واجبات طواقمها قد تحددت بوضوح وهى أن "تخوَّل لها السلطة كاملةً لمدى يصل إلى ثلاثة أشهر من أجل أن تتخذ ما تراه من احتياطيات لازمة، ولها أن تصدر ما تشاء من مراسيم خاصة بالصحة العامة والوقاية من الطاعون واجتناب أية أوبئة أخرى"، وتأسيًا بفلورنسا وأحيانًا برعايتها أقيمت خلال القرن الخامس عشر هيئات مماثلة فى مدن توسكانية أخرى بينها ليڤورنو Livorno وأورڤييتو وبيشة وبيستويا وپونتريمولى Pontremoli.

على أن أعمق تلك الهيئات تأثيرًا كانت فى ميلان التى كانت معاناتها من الموت الأسود أقل منها فى مدن إيطالية أخرى كبيرة، وربما كان أحد الأسباب فى تلك المعاناة الأقل يكمن فى الفعل الحاسم والسريع الذى نهضت به سلطات المدينة، فما إن ترامى إلى سمعها الخبر باقتراب الموت الأسود، حتى قام حكامها من آل ڤيزكونتى Visconti – والذين كانت قد اجتمعت لديهم سلطات أقوى من تلك التى اجتمعت لدى حكام البندقية أو فلورنسا– بتشكيل هيئة للصحة العامة، خولت سلطات كاسحةً، وكان كل رؤسائها من النبلاء، وبعضهم من أسرة ڤيزكونتى نفسها، وكان رئيسها يبعث بتقاريره رأسًا إلى الدّوق، وكانت تلك الهيئة تضمّ – وإن كان على نحو جزئي– أطباءً وجراحين وعقاقيريين، وكانت للبعض منهم شهرة واسعة، فكان "فيرارى دى جرادو" Ferrari de Grado وهو أستاذ الطب فى جامعة پادوا وطبيب خاصّ للحاكم مستشارًا للهيئة، وإبان مدة إقامته بالمدينة

كانت الهيئة تتكون من مفوَّضٍ للصحة - استقرت الحال على أن يكون علمانيًّا- وطبيبٍ تلقَّى تدريبه بالجامعة وجراحٍ وشاهد عدل وحلاق صحة وثلاثة من الفرسان يستفاد بهم في المقام الأول كرسل، يعاونهم بعد ذلك ثلاثة من المشاة كشرطة. وهناك موظَّف يختصُّ بالإعلان عن الموتى وسائق عربة، يفترض أن يأتي بجثثهم في الأوقات الطبيعية، فضلًا عن مهام إضافية في أزمنة الطواعين، واثنان من حفَّاري القبور الذين تزداد مهامُّهم كذلك في تلك الأزمنة، وكان الطبيب والجراح أرفع مقامًا من غيرهم، ويتحصَّلان على أجور أعلى منهم، لكنهما كانا كحفارَي القبور مجرد مستخدمين عند المجلس البلدي، وفي الأحوال جميعها كان الإشراف على تلك الهيئة منوطًا بعلمانيين.

كانت المهمة الأولى لتلك الهيئة الإخبار عن وقوع طاعون ما، وكانت المهمة التي تليها السعي إلى عزله، وهي مهمّة كانت من شأن الحَجْر الصحي الذي قلَّما كان يُوَفَّق في التعامل مع الطواعين، وكانت الغاية من ذلك الحجر في العصور الوسطى هي عزل البشر وليس عزل الحشرات أو القوارض، وكان العاملون به يتبعون النظرية التقليدية التي تقول بانتقال العدوى عن طريق المياسما، وكان يتم عزل المصابين وما يملكون بعيدًا عن الأصحاء، وتفرض قيود على تحركاتهم، كما يفرض حظرٌ على المنطقة المنكوبة فلا يتم التحرك منها أو إليها إلا بتصريح خاص يصدر عن هيئة الصحة العامة، ويرد بالتصريح اسم حامله وموطنه الأصلي وعمله وشهادة بسلامته الصحية، وكان أي امرئ يأتي إلى المنطقة المحظورة يتعرض لخطر جسيم، وكانت قواعد الحظر تلك تطبق على المقيمين والوافدين على حد سواء، وتوجب على السكان المحليّين الذين يرغبون في أن يتنقلوا داخل مدينتهم في أزمنة الطواعين أن يحملوا معهم تصاريح خاصة.

بعد إقامة الحَجْر الصحّي كانت تلك الطواقم تجمع معلومات معينة عن قوائم الموتى، وجرت العادة على أن يكون المسئول عنها شاهد عدل، يقوم بتسجيل الأسماء والأعمار والأسباب في هلاك الضحايا، وكان يستهدف من تلك القوائم تحديد نوعيّة المرض الكامن وراء الطاعون، من أجل التَّسريع بعزله، وفي أواخر القرن الخامس عشر أصبحت تلك الطَّواقم من النَّجاح بمكان حتى أنها مُنحت من السلطات ما يضاهي مثيلاتها في زماننا الحالي، وتتضمن فحص المواد الغذائية وتحديد مدى سلامتها، وما إذا كان من الممكن

تسويقها، كما نيطت بها فى ميلان والبندقية مهام الإشراف على المرافق الصحية والمستشفيات وإجراءات الدَّفن والنُّزُل وتحضير العقاقير وبيعها. وعندما تصاعدت سلطات تلك الطواقم، تدنَّت فى المقابل شعبيتها، فقد عمَّ الاستياء سكان المدن بسبب ما فرض عليهم من قيود وتدخل فى حركاتهم وسكناتهم ومصادرة لسلعهم وممتلكاتهم. واستياء مثل ذلك خصوصًا إذا ما صدر عن قوم لهم نفوذ، يمكن أن يفسر لنا ما كان يتوخى فى اختيار هؤلاء أن يكونوا من عائلات نبيلة، حتى يصبح بمقدورهم التصدى لما قد يقع ضدهم من اعتداءات، وهى اعتداءات كانت تصل أحيانًا إلى ما هو أسوأ، وهو ما عبَّر عنه أحد أعضاء تلك الطواقم من ميلان فكتب يقول:

"أقدم هؤلاء على شتمنا، وذلك بعد أن أصاخوا السَّمع لعدد من الأطباء الذين لا دراية لهم بالصِّحَّة العامة والذين يزعمون بأنه ليس ثمة طاعون ... وحيث إن مثل تلك الضلالات كانت تعد عندهم بمثابة طعامهم وشرابهم، فقد بدأ هؤلاء الغوغاء بالافتراء علينا (على مسئولى الصحة العامة) وحين كنا نجتاز مصادفة بالطرقات الضيقة فى الأحياء الشعبية، كان يتم الحط من قدرنا بكلمات غبية ومنحطة، وأحيانًا ما كانت تصل الحال بهم إلى رَشْقنا بالحجارة"[٤٣].

كان من شأن أفعال مثل تلك أن تدفع إلى تفويض المسئولين عن الصحة العامة السلطة فى أن يفرضوا غرامات على من يقْدمون على الاعتداء عليهم بل حبسهم أو حتى تعذيبهم، وسلطات مثل تلك جرى تقنينها فى البندقية فى عام ١٥٠٤ م، وما لبث أن تم تعميمها فى منتصف القرن السادس عشر فى كل أنحاء إيطاليا، وكان تأثير تلك السلطات يتفاوت تبعًا لموقف المعتدي؛ ففى عام ١٤٩٠ م على سبيل المثال قام قوَّاد بندقانى معروف يدعى "جون الشرير" بالقَدْح فى طاقم الصحة العامة، وتصدى لبعض ضوابط الحجْر الصحّى التى كانت تحدّ من ممارسة الدّعارة، وبالتالى فهى تحدُّ من مكاسبه، فأمر مسئولو الصحّة العامة بالقبض عليه وسيط علانيةً، وطيف به وهو فى الأغلال بشوارع المدينة، ثم أُمر بنفيه.

على العكس من ذلك كانت تلك الطواقم أقل توفيقًا فى تعاملها مع أشخاص ذوى حيثيّة؛ فعندما قام طاقم مدينة فلورنسا بحظر القداسات الكنسية، فإنهم لم يلبثوا أن لانوا أمام الكهنة، وعندما كانت تتوقف حركة انتقال السلع أو تصادر، كانت تلك الطواقم تهاجم

التجار. فإذا كانت لدى هؤلاء التجار سلطات كافية فإنهم كانوا يحظون بإعفاءات. والواقع أنه كان من اللازم لتلك الطواقم في سياق ذلك الزمان أن تعتمد على إسناد من الحكومات، وكما ذكرنا فقد نهض الحجر الصحي باليسير للتصدي للطواعين المتكررة، لكنه نجح في أن ينهض بالصحَّة في مدنه، ويتحكَّم في انتشار العدوى المنقولة بحرًا والعدوى الرئوية، وربما كان الأهم من ذلك كله تنظيم فعاليات محترفي الطبابة.

إلى ذلك وكجزء من النهضة التي عمت طواقم الصحة، تطالعنا في حقبة ما بعد الطاعون ظاهرة أخرى؛ هي ظاهرة "طبيب الطاعون"، فقد بدأت في إيطاليا التي كانت أكثر أقطار أوروبا تمرُّسًا بذلك الطاعون، ثم امتدت إلى فرنسا وانجلترا والبلاد الواطئة وألمانيا، فكانت البلديات أو طواقم الصحة العامة تستأجر أطباءً بلديين وجراحين، يتفرغون للتعامل مع ضحايا الطاعون، وكانت مهامهم صعبةً ومحفوفةً بالمخاطر وغير مَرْضِيٍّ عنها، والأدهى من ذلك أن الواحد منهم كان عليه بعد أن يفرغ من التعامل مع مرضاه أن يكابد مدةً طويلةً من الحجْر الصحّي، لذلك فلم ينخرط في صفوف أولئك الأطباء سوى قليل من كبارهم، وكان السواد الأعظم منهم أطباءً من الدرجة الثانية يواجهون صعوبات جمةً في ممارستهم لمهنتهم أو أطباءً شبابًا وجراحين يعودون في أصولهم إلى الريف.

يمكننا التعرف إلى عمل طبيب طاعون شاب من تعاقد أجري في عام ١٤٧٩م يصف "الشروط التي تم الاتفاق عليها بين اللجنة السامية بباڤيا والطبيب "جيوڤاني دي ڤنتورا" Giovanni de Ventura من أجل علاج من يعانون من الطاعون"[٤٤]، وكان "ڤينتورا" هذا طبيبًا معترفًا به وحاصلًا على درجة جامعية، اتفق على أن يتقاضى ثلاثين فلورينًا في الشهر فضلًا عن "منزل مناسب في مكان مناسب" كما يمنح نفقات معيشية أخرى ودفعةً مقدمةً وراتب شهرين بعد تركه وظيفته، وفي المقابل كان على "ڤنتورا" أن يتفرغ لعلاج ضحايا الطاعون كافة، وتم فيما بعد التوسع بالاتفاق ليشمل ضحايا الأمراض المعدية أيًّا كانت تلك الأمراض، ويعد ذلك الاتفاق مجزيًا، لكنه ليس فيه مما يدعو للاستغراب، فكان في إمكان العامل الماهر أن يظفر بعمل نظير ستين فلورين في العام، وبالمقارنة فقد كان الراتب السنوي لعمدة باڤيا زهاء خمسمائة وأربعين فلورينا، بينما يتقاضى المحاضر في الجامعة مائتين، أما الأستاذ الجامعي المرموق فكان راتبه يصل إلى ألف فلورين، وربما لم يكن الدافع لـ"ڤنتورا" كي يوافق على اتفاق مثل ذلك ماليًّا، قدر ما كان رغبته

في الحصول على المواطنة، فيتسنى له بالتالى الحصول على عمل مجز بالمدينة، بعد أن تنتهي مدة تعاقده كطبيب للطاعون.

باختصار كانت فكرة طبيب البلديَّة فكرةً عتيقةً تعود إلى العصور الوسطى العليا، وبدأت بمفهوم العلاج المجانى للمرضى الفقراء، ثم علا زخمها مع الموت الأسود والجائحة الطاعونية الثانية، كذلك حفز الموت الأسود إلى إقامة هيئات للصحة العامة، كانت في الأصل مؤقتةً، لكنها وبعد أن توالت الطواعين أصبحت دائمةً، ونيطت بالسلطات الحاكمة، وما كاد ينتهي القرن الخامس عشر حتى أضحت تلك الهيئات شائعةً، وامتدت إلى المدن الصغيرة وبعض القرى فى شمالى إيطاليا ووسطها، ومنها اتخذت طريقها إلى الأطراف الشمالية من القارة الأوربية ووسطها، وكان نظام نورمبرج الصحى قد أصبح مضرب المثل، وكذلك نظام ميلان التى انخفضت بها نسبة الموتان خلال العصور الوسطى المتأخرة، وهو ما يحسب لفعاليات واحدة من أفضل هيئات الصحة العامة فى أوروبا.

لدينا ظاهرة أخرى نشاهدها فى مرحلة ما بعد الطاعون، وتعود فى بداياتها إلى أواخر القرن الرابع عشر، تلك الظاهرة هى بزوغ ما صار يعرف بآداب المهنة أو أخلاقياتها، وكان منشؤها في روابط الممارسين للطبابة، وتتمثل فى إعلام الطبيب بما يتوجب عليه لدى نهوضه بعمله[٤٥]. ويوضح "دى شولياك" ذلك: يقول:

"من واجب الطبيب أن يكون خلوقًا جريئًا ما استطاع، لا يأبه بتبعات خطأ وقع فيه، رفيقًا فى تعامله مع زملائه، حكيمًا فى توقعاته، ويجب عليه كذلك أن يكون عفيفًا حريصًا شفيقًا رءوفًا، ولا يكون طماعًا (أو) جشعًا فى مجال المال، عندها سوف يتقاضى أجرًا يتكافأ مع ما بذله من جهد، كما يتكافأ مع قدرات مرضاه المالية وبخاصة فى علاجهم وجلالة منصبه[٤٦]".

ويتفق "جون أردرن" مع "شولياك" فيما كان يذهب إليه، وذلك فى أطروحته عن الناسور Fistula: فهو يقول:

"أما بخصوص الملابس وما إليها، فمن واجبه أن يكون أمينًا، ولا يتشبه فى هيئته ومظهره بأرباب الملاهي، إنما عليه أن يتشبه بالكتاب من أجل ماذا؟ لأن أى امرئ حصيف

تزيا بزى الكتاب، يقتعد مكانًا بين علية القوم، ومن واجبه كذلك أن يكون مهذبًا فى حضور أحد من النبلاء ولا ينال أحدًا ممن يختلفون معه بسوء قولًا وفعلًا، يستمع كثيرًا ويتكلم قليلًا ... وحينها يتوخى الإيجاز قدر ما يستطيع، نزيهًا مصدقًا، دون حاجة إلى قسم، صريحًا مستقيمًا، ومادام كذلك فلن يرتاب أحد فيه، ولا فيما يقْدم عليه من أفعال"(٤٧).

يستكمل جراح آخر هو "يان إيبرمان" Jan Yperman(*)، تلك الأطروحة مع اهتمام خاص بالتعامل مع الإناث من المرضى، فمن واجب الطبيب أن يكون حسن السلوك معهن "ولا يتطرق إلى موضوع أيًا كان خارج موضوع العلاج، ولا يثرثر مع ربة البيت أو ابنتها أو خادمتها، ولا ينظر إليهن بعينين ماكرتين، فيجعل الناس يرتابون فيه، ويستجلب بالتالى عداوتهم، فى حين أن الأجدى بالطبيب أن تكون صِلاته بهم طيِّبة"(٤٨).

ويحدثنا «هنرى دى موندفيل» عن تعامل الطبيب مع مريضه، فيقول فى كتابه عن «الجراحة»: «إذا ما كانت روح المريض المعنوية عاليةً، فعليه أن يتخفف من نصائحه له، أو أن يظل هادئًا إذا ما كان المريض خائر العزم، وعلى الجراح كذلك أن يعِدَ المريض بأنه إذا أمكن له أن يتحمل داءه ويطيعه ... فإنه لا يلبث أن يشفى، ويفلت من المخاطر التى تلوح له، وبذا يتيسر علاجه وبسرعة»(٤٩).

ويصف «أردرن» آداب المهنة؛ فيقول:

«من الأفضل له إذا ما كان لديه عذر مقبول أن يرفض طلباتهم (أى طلبات أطباء سواه) بأن يدعى إصابته بجرح أو مرض أو أى عذر آخر، لكنه فى حال ما إذا وافق على طلباتهم، فليضع ميثاقًا لعمله ويجعله مقدمًا... بعد زيارته للمريض، وإذا ما فكر فى أنه فى طريقه إلى الشفاء، فعليه مع ذلك أن يحذِّر مريضه من معاودة المرض له، إذا لم يلتزم بالعلاج الذى نصحه به»(٥٠).

كان هناك عنصران مهمان من أجل أن تصبح تلك الممارسة الطبية احترافيةً؛ أولاهما المساندة الخارجية من قِبَل الملك والأرستقراطية المحلية والكنيسة والمجلس البلدي، فالظفر بتلك المساعدة من شأنه أن يهيئ قوةً للأطباء والمؤسسات الطبية، وثانيهما ما

(*) (ح ١٢٦٠ – ح ١٣٣١م)، جراح فلمنكي، اشتهر بأنه «أبو الجراحة» فى البلاد الواطئة.

يتحقق لتلك الممارسات من مكانة وشعور بالتمكن منها كمهنة وعلم معًا واعتداد بالنفس ودخل جيد، وأصبح المشتغلون بمهنة الطب -أطباء وجراحين وعقاقيرين وغيرهم في العصور الوسطى المتأخرة- من الصفوة الموسرة، يقفون في مرتبة واحدة مع المحامين وكبار التجار، وهو ما يتضح من تلك الفقرة التي ترد على لسان طبيب في حكايات «كانتر بري» لـ«تشوسر»(*):

« وكان يحافظ على كل ما يكتسبه

أثناء أوقات انتشار الأوبئة والطاعون

ولما كان من المعروف أن الذهب في الطب منشط للقلب

فإنه كان بصفة خاصة يحب الذهب»[٥١].

هذا الاتجاه نحو حياة رخية يحظى بها الطبيب، نقف عليه كذلك عند «أردرن» المعاصر لـ«تشوسر» والذي يوصي بأنه «بعد أن يستفسر عن صحة (المريض) (يجب على الطبيب) أن يسأل بوضوح (عن أتعابه) ولكن عليه أن يكون حذرًا في سؤاله هذا، حيث إن الإلحاح فيه لا يفضي إلى شيء يفيده»[٥٢]، وكان «أردرن» يعتقد كذلك أنه: «يتوجب على الطبيب ... أن يعود خمس فئات من الناس فحسب (١) أولئك الفقراء ابتغاء مرضاة الله (٢) أصدقاؤه الذين لا يرغب في أن يتحصَّل منهم على دخل ثابت أو مبلغ محدد من المال (٣) هؤلاء الذين سوف يشعرون تجاهه بالعرفان بعد شفائهم نهائيًا من مرضهم (٤) هؤلاء الذين لن يكافئوه بما يفترض عليهم مثل حكامنا وأقربائهم ومن إليهم من حجاب وقضاة ومأمير ومحامين وغيرهم من الذين لا يجرؤ على صدهم (٥) هؤلاء الذين يؤدون له أتعابه مقدمًا»[٥٣].

كان من شأن تلك التطورات في مجال الطب - من نهضة في الجراحة وتحول في المستشفيات والدور المنوط بها والنهوض بمرافق الصحة العامة وآداب المهنة- أن ترتفع بمستوى الأطباء، كما كان لها دورها الحاسم والمهم عندما عاود الطاعون هجماته.

(*) ترجمة: مجدي وهبة وعبد الحميد يونس، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٣م، ص٥٩.

ولدى القرن السادس عشر كان الطب قد أصبح مجمعًا مفصلًا ومتشابكًا للمعارف والمهارات بأنواعها كافة والتى تحققت بعد دراسات مكثفة ومتخصصة، ولم يكن الطب الحديث قد انبثق تمامًا بعد، وتبقت خطوة رئيسة هى أن يتحقق الفوز للعلم الطبيعى لدى الدراسة الطبية، وهى تلك العملية التى بدأت فى القرن السادس عشر مع «باراسلسوس» Paracelsus(*)، و"فيساليوس" Vesalius(**)، وكانت جزءًا أو حزمةً من الثورة العلمية وصعود الكيمياء والفيزياء فى القرن السادس عشر، ولم يتم استكمالها قبل القرن الثامن عشر، لكنه يكفى أنه تم وضع أساسها خلال المائة والخمسين عامًا التالية للموت الأسود.

(*) (١٤٩٣-١٥٤١م). طبيب سويسرى أغرم بالسحر والكهانة.

(**) أندرياس فيساليوس (١٥١٤-١٥٦٤م). طبيب بلجيكى اشتهر على نحو خاص بما كتبه عن التشريح.

الفصل السابع

المرض والتحولات الكبرى في تاريخ أوروبا
في العصور الوسطى

إذا كان قد قُدِّر للموت الأسود أن يكون الوباء الطاعوني الوحيد الذي حلَّ بأوروبا في العصور الوسطى المتأخرة، فقد كان قمينًا بأن يخفت وقعه بمرور الوقت، وربما كان يجري استذكاره كجائحة كارثية، والنوع الإنساني بطبيعته يتَّسم بالمرونة، ويمكنه أن يستوعب ما قد يعرض له من ضربات: بل إنه ومنذ عام ١٣٦٠م بدأت مستويات السكان تعود تدريجيًا إلى ما كانت عليه قبل الطاعون، وأعان على ذلك ما جرى من اتساع في قاعدة الزواج، وارتفاع في نسبة المواليد، وانخفاض في نسبة الوفيات، الأمر الذي كان من شأنه أن تعاني معه بعض أقطار أوروبا من مشكلات غذائية، ولدى عام ١٣٦١م بدا كثير من الأوربيين وكأنهم نسوا الموت الأسود، وعاودوا مرةً أخرى حياتهم الطبيعية التي شابتها كذلك تغييرات في نظام الوظيفية الثلاثية الذي بات يهتز بشدة، أما ما عدا ذلك من متغيرات اجتماعية واقتصادية ناشئة، فعلى الرغم مما اعترضها من عقبات، إلا أنه أمكن لها أن تتسيد الساحة في نهاية المطاف.

ويعتبر الطاعون – كما سبق وأوضحنا في السابق – هو الفاعل الوحيد الذي يمكن له أن يؤدي إلى نسبة موَتان عالية، وإذا نحن استخدمنا التعبير المالثوسي فقد كان بمثابة الكابح الإيجابي Positive Check الذي يحول دون تجدد الأزمة الغذائية التي كانت تجتاح أوروبا منذ منتصف القرن الثالث عشر، وصار الطاعون يتجدد طيلة ما تبقى من القرن الرابع عشر، وعلى مدى القرن الخامس عشر كله، وبدأت مرحلة جديدة من الانحدار

السكاني استمرت حتى القرن السادس عشر، وسوف ترافق ذلك الانحدار السكاني تطورات، ربما كانت أعمق تأثيرًا من تلك التي أتى بها الموت الأسود[١].

يطلق على ذلك الطاعون تعبير pestis puerorum[*]، في إشارة إلى تلك الأعداد الهائلة من الشباب الذين فتك بهم، واستمر حتى ربيع ١٣٦٢م[٢]، وليس بغريب أن يعاود الطاعون نشاطه بمثل تلك الدرجة من السرعة، إذا نحن فهمنا إتيولوجية عُصَيَّة يرسين، وبيئة الحشرات والقوارض العائلة لها، فالطاعون حين يتوطن في مكان بعينه، فإنه يعاود نشاطه من جديد، استجابةً لمجموعة من العوامل المناخية والطبيعية، وهو ما لم يُتمكن القوم في العصور الوسطى من إدراكه، وأصبحت تلك العودة والتوجس منها كابوسًا مفزعًا لا مفر منه، وعلى الرغم من كونه من النوع الدُّمَّلي، كما إنه لم يكن في عنف الموت الأسود وشراسته، إلا أنه يظل مع ذلك من أعنف الطواعين على مدى التاريخ وأفتكها· ويذهب كثيرون من المراقبين المعاصرين - وبينهم «جي دي شولياك»- إلى أنه كان يختص ببطشه صغار السن، أي هؤلاء الذين ولدوا بعد الموت الأسود، فضلًا عن كبار ملاك الأراضي، ويبالغ أحد كتاب الحوليات البولنديين، فيسجل انطباعًا كان سائدًا وقتذاك، حين يقول: «إن الأرستقراطيين وحدهم والأطفال هم الذين فتك بهم الطاعون». ونجد صدىً لتلك الشهادات في السجلات الإدارية بإنجلترا، فنستخرج من شهادات الموتى من أصحاب الأراضي Inquisitiones Post Morten أن نسبة الموتى بين أعيان الريف جاوزت خمسًا وعشرين بالمائة، لتصل تقريبًا إلى ما كانت عليه إبان الموت الأسود[٣]، وإذا كانت تلك النسبة عاليةً، فإنها كانت عاليةً كذلك بين فئات أخرى بالمجتمع، فكانت في ريف "نورماندي" تدور حول العشرين بالمائة، وهي النسبة ذاتها التي نقف عليها في المناطق الحضرية ببيشة وبيستويا ويبالغ بوكاتشيو فيقدرها بمائة ألف من أهل فلورنسا[٤]، في حين يذهب "بترارك" إلى أن عشرة آلاف فقط من سكانها هم الذين ظلوا على قيد الحياة. وبصرف النظر عن تلك المبالغات فإنه يتأكد لنا أنه ربما مات من أهل فلورنسا ما تقدر نسبتهم بعشرين بالمائة، وهي نسبة عالية بأي قياس ما خلا الموت الأسود.

(*) تعني Puer باللاتينية: طفلًا أو يافعًا، والجمع: Pucreri.

ليس بمقدورنا أن نحدد على نحو عام جملة من ماتوا خلال ذلك الطاعون. ومثلما كانت الحال مع الموت الأسود، فإن أفضل ما لدينا من سجلات، هي تلك التي تأتينا من إنجلترا، وبالتالي فإن أفضل الدراسات عن ذلك الطاعون تأتينا أيضًا من هناك، ويتضح منها أن زهاء العشرين بالمائة من النبلاء ماتوا، وكانت نسبة هؤلاء الموتى في بيري سانت إدموندز في ١٣٦١ – ١٣٦٢م أعلى عشر مرات منها في أية سنة خلال الشطر الثاني من القرن الرابع عشر(٥)، ووصلت في أبروشية كبير أساقفة يورك إلى العشرين بالمائة بين الكهنة(٦)، وكان الموَتان يتفاوت بين إقليم وإقليم آخر، لكن نسبته كانت تقدر على نحو عام بعشرين بالمائة وهي نسبة معقولة، أما في سائر أنحاء القارة الأوربية فقد فتك ذلك الطاعون بما يتراوح بين عشرة بالمائة إلى عشرين بالمائة من جملة سكانها.

كانت الصدمة التي أصابت الناس من عودة الطاعون مروعةً، ولدينا مثال على ذلك في كتابات "بوكاتشيو" و"بترارك"، على أن الأسوأ لم يكن قد أتى بعد، وسبق لنا أن أوضحنا في الفصل الأول أن مثل ذلك الطاعون لا يعدو كونه جزءًا من حلقة طاعونية تكرر خلالها ذلك المرض المخيف على فترات خلال الأربعمائة سنة التالية؛ لذا فقد وقع الطاعون الثالث في عام ١٣٦٩م، مما دفع كثيرين من المعاصرين إلى التسليم بأن الطاعون صار جزءًا من بيئتهم، وبدأت الحوليات تسجل حضوره على أنه واقع لا فكاك منه، وكان ذلك الطاعون الثالث pestis tertia يدعى كذلك بطاعون ١٣٦٩م، ويتواتر ذكره في العديد من السجلات(٧)، ومع أنه كان أقل فتكًا من الطواعين السابقة له إلا أن حجم ضحاياه كان ما يزال كبيرًا، فكانت نسبتهم بين الأعيان ورجال الدين زهاء ١٣٪، أما على المستوى الأوروبي فتراوحت بين عشرة بالمائة وخمس عشرة بالمائة، ويقول "وليم لانجلاند" "الأمطار التي تتساقط علينا حيث نرقد هي سقامنا والأسى الذي نعانيه"(٨).

بعد عام ١٣٦٩م لم تعد مستويات الموت من أي طاعون هي الملمح الأهم في الجائحة الطاعونية الثانية، بل كان الأهم هو تواليها: فبين ١٣٦٩م و ١٤٧٩م لم يعد لأي طاعون أن يفتك بأكثر من عشرة بالمائة إلى خمس عشرة بالمائة من جملة السكان في إقليم بعينه، وأحيانًا لم يكن يجاوز بالكاد خمسًا بالمائة(٩)، لكن الجديد هو أن تلك الطواعين كانت تحدث كل خمس سنوات أو ست أو عشر أو حتى اثنتي عشرة سنة، تبعًا للظروف المناخية وإيكولوجية الحشرات، ونعاود مرةً أخرى إنجلترا، فقد تفجر الطاعون بها في ١٣٧٥م

فشملها جميعها، ثم اختص بشماليها في ١٣٧٩م، ثم الميدلاندز في ١٣٨١-١٣٨٢م، وإيست إنجليا وإسكس وكنت في ١٣٨٣م و ١٣٨٧م، ووقع طاعونان شاملان بنسبة موّتان تصل إلى عشرة بالمائة في ١٣٩٠م و ١٣٩٩-١٤٠٠م ، وتجدد الطاعون الشامل في ١٤٠٥-١٤٠٦م تبعه تفجر ثلاثة طواعين خلال خمسة عشر عامًا، وكان هناك طاعون في غربي إنجلترا وويلز في ١٤١٠-١٤١١م أضحى شاملًا في ١٤١١ - ١٤١٢م، وبعد سنتين كانت الجزر البريطانية جميعها مصابةً بالطاعون، وأتى بعدها طاعون في إيست إنجليا في ١٤٢٠م ثم طاعون شامل في ١٤٢٣م ثم في لندن في ١٤٢٦م تبعه كذلك طاعون شامل في ١٤٢٨-١٤٢٩م، وربما يبدو من هذا العرض أن الوضع كان غايةً في السوء في إنجلترا، لكنه كان كذلك في حدته وتواليه في القارة ذاتها، وخلّف آثارًا عميقةً لثلاثة أجيال أو أكثر، وأيًا كانت مستويات الزواج والمواليد.

على غرار ما كان من سوء خلال الأعوام ١٣٦٩-١٤٣٠م كان الأمر كذلك خلال نصف القرن التالي، بل وأكثر، ونعاود إنجلترا ثانيةً: ففي ثلاثينيات القرن الخامس عشر، كان الطاعون قد اجتاز إلى حلقة من التكرار وإن كانت قصيرةً: ففي ١٤٣١م كان قد ضرب إنجلترا بأسرها من كنت إلى لنكلنشاير **Lincolnshire** شمالًا وإلى هامشاير **Hampshire** غربًا، ثم تبعه طاعون شامل استمر من ١٤٣٣م إلى ١٤٣٥م، وزاد من حدته ما جرى من انخفاض شديد في درجات الحرارة في أواخر نوفمبر من عام ١٤٣٤م، مما أفسح الطريق للطاعون الدُّمَّلي، لأن يتحول إلى طاعون رئوي، وكانت هناك طواعين محلية في ١٤٣٧م بلندن وكانتر بري وسانت ألبانز **St. Albans** وبريستول وبيري سانت إدموندز، تبعها طاعون شامل في ١٤٣٨ - ١٤٣٩م، وترتب على خريف بارد طاعون رئوي بنسبة موّتان عالية، زاد منهاً ما جرى من تناقص في الغلال عم القرن الخامس عشر، وفي عام ١٤٣٨-١٤٣٩م وصلت نسبة الموّتان في إيست إنجليا إلى حوالي اثنتي عشرة بالمائة، لكنه لا تتوافر لدينا نسبة للموّتان على المستوى القومي، وإن كان ثمة إشارات إلى أن تلك النسبة بلغت في مدينتين أسقفيتين بين ثلاثة بالمائة إلى ما يناهز الثلاثين بالمائة في العام.

هناك أجزاء من إنجلترا عانت من تلك الطواعين إحدى عشرة سنة خلال ثمانية عشرة سنة (١٤٤٢-١٤٥٩م)، وكانت الإصابة عاليةً في لندن على مدى ست سنوات متقطعة وبين

١٤٦٣م و ١٤٦٥م كانت هناك ضربات طاعونية عنيفة في المملكة بأسرها، تبعتها واحدة أشد عنفًا في ١٤٦٧م، بين أن ذلك كله كان مجرد استهلال لما وقع من أهوال خلال عقد السبعينيات وربما كان لازدهار التجارة الإنجليزية مع القارة الأوروبية أثره في دخول سلالات بكتيرية جديدة أو أن تغييرًا طرأ على مجتمعات القوارض والحشرات الحاملة للوباء، وأيًا كان السبب، فقد شمل الطاعون بريطانيا بأسرها، ووصلت الوفيات بين البالغين في إيست إنجليا إلى عشرين بالمائة، وبهذه المناسبة وإبان مقام في لندن كتب "جون پاستون" John Paston(*)، وهو من أعيان نورفولك إلى أهله يقول:

"أتوسل إليكم أن تبعثوا إلي بكلمة واحدة، عما إذا كان واحد من أصدقائنا وأعزائنا قد مات، فأنا أخشى من أن يكون هناك موت عظيم في نورويتش ومدن أخرى وقرى في نورفولك، حيث إنه يعد يقينًا أكبر موت شهدته إنجلترا، ولتصدقوني القول فقد تناهى إلى سمعي من الحجاج الذين كانوا يمرون هناك بأن لا أحد راكبًا كان أم راجلًا في إنجلترا بأسرها كان بنجوة من المرض"[١٠].

كان طاعون ١٤٧١م قصير الأمد، لكنه كان شديدًا في عنفه، لذا بات مثالا كلاسيكيًا للطاعون الدُّمَّلي في أسوأ حالاته، وكان قد بدأ في أواخر أغسطس، وبلغ ذروته في سبتمبر والأسبوع الأول من أكتوبر، وظل كذلك إلى أن اختفى مع بداية الصقيع في نوفمبر، بعد أن أهلك ما يتراوح بين عشرة بالمائة إلى خمسة عشرة بالمائة من جملة سكان إنجلترا.

في منتصف السبعينيات من هذا القرن وقعت المزيد من الطواعين المحلية، لكنها جميعها كانت مجرد استهلال لطاعون ١٤٧٩-١٤٨٠م الذي استطال من الخريف إلى الخريف، وكان دمَّليًا ورئويًا في آنٍ واحد، ووصلت نسبة الموَتان التي يمكن حسابها بدقة إلى العشرين بالمائة، أي في مستوى موَتان الطاعون الثاني ١٣٦١-١٣٦٢م، ونلمس ذلك بوضوح في المرويات التي ملؤها النوح على ضحاياه، حتى أن سجلات مثل حوليات لندن العظمى، وهي حوليات لها أهميتها والتي لم يرد بها خبر من طواعين طيلة القرن الفائت، فإنها تلفت نظرنا إلى ما ترتب على ذلك الطاعون[١١]، فقد أرجئ عقد البرلمان، وتعطل مجلس الملك منذ عيد الفصح لسنة ١٤٨٠م إلى منتصف الصيف، وتوقفت نشاطات بلدية لندن، ومات ثلاثة أفراد على الأقل من قرابة پاستون.

(*) (١٤٤٢-١٤٧٩م)، نبيل كان أحد أفراد حاشية الملك كما كان أديبًا.

لم تكن الشواهد التي تهيأت لنا من القارة الأوربية في معظمها على القدر ذاته من الدقة والدراسة المعمقة التي نلمسها في إنجلترا، لكننا نستنتج مما تم تدقيقه منها ما يعزز تلك الصورة التي تحصلنا عليها من إنجلترا؛ ففي البلاد الواطئة كانت هناك طواعين في السنوات (١٣٦٠-١٣٦٢، ١٣٦٣-١٣٦٤ و ١٣٦٨-١٣٦٩ و ١٣٧١-١٣٧٢ و ١٣٨٢-١٣٨٤ و ١٤٠٠-١٤٠١ و ١٤٠٩ و ١٤٢٠-١٤٢١ و ١٤٣٨-١٤٣٩ و ١٤٥٠-١٤٥٤ و١٤٥٦-١٤٥٩ و ١٤٦٦-١٤٧٢ و ١٤٨١-١٤٨٢ و ١٤٨٧-١٤٩٠ و ١٤٩٢-١٤٩٤م)[١٢]. وعصفت بنورماندي حلقات طاعونية تشبه في تواترها تلك التي كانت في شرقي إنجلترا أو البلاد الواطئة؛ فكانت تتوالى كل أربع سنوات إلى اثنتي عشرة سنة، تخللتها حلقات عنيفة في تسعينيات القرن الرابع عشر ثم في ١٤٤٠م وخمسينيات القرن الخامس عشر وسبعينياته[١٣]. وكان هناك تواتر مماثل في كامبراي في ثلاثينيات القرن الخامس عشر وخمسينياته وكان العقد الأخير هو أسوأ العقود[١٤]. كما عصف الطاعون بباريس ثمانية مرات بين (١٤١٤م) و (١٤٣٩م) وبرشلونة إحدى عشرة مرة بين ١٣٩٦م و ١٤٣٧م[١٥]. وكان الطاعون قد حلّ بأيبيريا أربع عشرة مرة بين ١٣٩١م و ١٤٥٧م. أما في بتروجيا بإقليم أومبريا الإيطالي، فقد ظل الطاعون حالًا بها لتسع عشرة سنة في القرن الخامس عشر، بينما ظلت المدن الألمانية الثلاث هامبورج ونورمبرج وكولونيا تعاني من عشرة طواعين على الأقل لكل واحدة منها. وكما كانت الحال في إنجلترا، فقد كانت الأنماط القارية من الطاعون تشي بأنه كان يأتي مرتين على الأقل أو ثلاث في الجيل الواحد، وكان من العنف بحيث يهبط بأعداد السكان، ولا أدل على ذلك من أنه تهاوى بتلك الأعداد في أوروبا بين ١٣٤٩م و ١٣٥٠م بما يتراوح بين ستين بالمائة إلى خمسة وسبعين بالمائة لا سيما في المناطق الريفية.

لا يتفرد القرنان الرابع عشر والخامس عشر بحضور واضح للطاعون فحسب، لكنهما يتفردان كذلك بحضور دائم لأمراض معدية أخرى أو مقدمة لذلك الحضور؛ فقد ظل الجدري La Petité Verole مشكلةً كبرى ومرضًا مزمنًا للأطفال، وأضحى وبائيًا في أربعينيات القرن الخامس عشر وستينياته في بعض أنحاء غربي أوروبا[١٦]؛ ففي الأربعينيات أهلك هذا المرض – الذي كان يطلق عليه أحيانًا تعبير "الطاعون الأحمر" – في شمالي فرنسا أكثر مما أهلكه الطاعون الدُّمَّلي. وكانت البركاء Argue (الملاريا) مزمنة في مناطق مختلفة بما فيها شمالي إيطاليا وجنوبي فرنسا وجنوبي إسبانيا والبرتغال

والبلاد الواطئة ومعظم شبه جزيرة يوتلاند Jutland(*)، وجنوبي السويد وشرقى إنجلترا وشماليها. على أن الأهم من ذلك هو الحميات المعوية، وكانت تلك الأمراض التي تنتقل عن طريق الماء ذات صلات مديدة بالعناية الصحية السيئة التي كانت ما تزال حاضرةً في المناطق الحضرية، على الرغم من كل ما جرى في أعقاب الموت الأسود من إصلاحات في الصحة العامة، وكان أشدها فتكًا هو الجفاف dehydration أي إسهال الأطفال الذي كان سببًا في موتهم، وصلت نسبته إلى الخمسين بالمائة، وكذلك الزحار (الدوسنتاريا) المعوي وهو ما يعرف بالإسهال الدموي bloody flux[١٧]، الذي كان أشد إماتةً لا سيّما للجيوش المتحاربة ويمكن له أن يصبح عارمًا في بعض الجهات التي يمر بها؛ ففي ١٤١١م كان الزحار الوبائي يكتسح سافوي وفرنسا وإنجلترا، وينتقل إلى إيست إنجليا في ١٤٧٣م، فيفتك بما يتراوح بين خمسة عشرة إلى عشرين بالمائة من سكانها البالغين، وذلك خلال مدى لا يزيد على ثلاثة أشهر. وعندما نقارن بين تلك الأمراض وبين الطواعين يتكشف لنا أنها كانت وباستثناء الفترة بين ١٣٧٠م و ١٤٧٠م تتكرر كل ثلاث سنوات إلى خمس.

يمكننا أن نتلمس آثار الجائحة الطاعونية الثانية عن طريقين؛ أولاهما العواقب المذهلة والفورية للموت الأسود وما تخللها من هلاك ما يتراوح بين ثلث السكان إلى نصفهم، والثانية تلك الهجمات القاسية والعنيفة لطواعين متوالية. وما أفضت إليه من تناقص واضح في أعداد السكان. حيث إن هؤلاء السكان كانوا من المرونة بمكان، إلا أن ما كانت تخلفه الطواعين الأخيرة المتوالية كان هو الأهم. وتذهب إحدى النظريات الحديثة إلى أن الحد الاجتماعي – الاقتصادي الفاصل للعصور الوسطى المتأخرة لم يكن في عام ١٢٥٠م ولا عام ١٣٤٨م، إنما كان مع طاعون ١٣٧٤ – ١٣٧٥م[١٨]. وأيًّا كان الأمر فمن المهم لنا أن نؤكد على أن تلك الهجمات المتكررة للطاعون في مدى جيل واحد كان من شأنها أن تجعل النمو السكاني مستحيلًا خلال قرن كامل على الأقل بعد الموت الأسود، وبسببه صار سكان أوروبا في ١٤٣٠م أقل بنسبة تتراوح بين خمسين بالمائة إلى سبعين بالمائة مما كانوا عليه في ١٢٩٠م. وفي بعض الأنحاء بدأ يتصاعد في خمسينيات القرن الخامس عشر وفي أنحاء أخرى في ثمانينياته، وفي أنحاء أخيرة لم يتصاعد حتى مطالع القرن السادس

(*) وهي معظم أراضي دولة الدنمارك.

عشر، ويتفق معظم المراقبين على أن أوروبا لم تستطع أن تستعيد مستويات السكان التي كانت عليها في القرن الثالث عشر إلا عند منتصف القرن السادس عشر، على أن ما جرى من متغيرات كان لها تأثيرها الواسع على تاريخ الغرب كانت هي تلك الفترة التي بدأت في أواخر القرن الرابع عشر، وعلى مدى القرن الخامس عشر، والتي اتسمت بالتناقص في عدد السكان وفي القوى العاملة على حد سواء.

كان أهم تلك المتغيرات ما ارتبط منها بالاقتصاد[١٩]؛ فقد ترتب على الموت الأسود تفسخ هائل قصير المدى، لكن التناقص المتوالي في عدد السكان كان هو المسئول عن التغيير الاقتصادي بعيد المدى، وأول تلك المتغيرات وأهمها أنها أثَّرت في حياة ما يقدر عددهم بثمانين بالمائة من السكان من حيث زراعتهم للأرض وحيازتهم لها. فقد أجهز التناقص السكاني على نظام الضيعة، وظل الباحثون – وعلى مدى سنوات طويلة– يصدقون بأن هذا النظام استمر حتى القرن الرابع عشر إلى أن تم القضاء عليه بسبب الموت الأسود، ولكن القضية ليست كذلك تمامًا، فهذا النظام كان يعيش في مأزق منذ أواخر القرن الثالث عشر، لكن الموت الأسود والطواعين التالية له والانحدار السكاني هو الذي أكد على اختفائه من معظم الأراضي الزراعية في غربي أوروبا ووسطها زهاء عام ١٥٠٠م.

لدينا أسباب أخرى عديدة شاركت في موت هذا النظام في طليعتها ما يعرف بالـ Wüstungen، أي تناقص السكان بالمناطق الريفية؛ فعلى الرغم من كون الطاعون قد أتى على نسبة من سكان الحضر، ربما أكثر ممن أتى عليهم في الريف، فإن المدينة كانت تهيئ فرصًا اقتصادية أوفر[٢٠]، على الرغم من أن الطاعون كاد يفرغها من سكانها، فكان هناك دائمًا من يأتون من الريف ليحلوا محلّ هؤلاء، وكانت لتلك الهجرة إلى المدينة – فضلًا عمّا خلفه الطاعون في الريف– أثرها في ظهور نقص واضح في عمال الزراعة؛ صحيح أنه استمرت فلاحة الأراضي الصالحة للزراعة، لكنه كانت توجد هناك حقول هامشية خصوصًا لتلك التي تمّ تجريفها إبان العصر الذهبي التوسع في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ويعد ذلك في حدّ ذاته شيئًا طيبًا فقد تمّ استرجاع الغابات والمراعي، وانتهى عهد الإنتاج المفرط الذي كان يجرف معه جزءًا من خصوبة الأرض، ومع الحقول المراحة هجر الناس العديد من القرى[٢١]: ففي إنجلترا بلغ عدد تلك القرى في المدة بين ١٣٥٠م

و ١٥٠٠م ما يناهز ألفًا وخمسمائة، لدى غالبها أراض هامشية قابلة للاستزراع، ولدينا مثال على ذلك في بريكلاندز Brecklands بشرقي المملكة، فقد كان ذلك الإقليم جافًا ورمليًا وظلَ مهجورًا حتى ١١٠٠م ولكن ما جرى من ضغط سكاني بين ١١٠٠م و ١٣٤٩م أدَى إلى تعميرها وزراعتها، وفي ١٤٠٠م انعكس الوضع؛ فقد أقفرت ثمانية وعشرون قريةً من أهلها أي ما يناهز نصف عدد سكان الإقليم، وكان المعاصرون على دراية بهذا الموقف، وكان "جون روس" John Rous(*)، وهو مؤرخ قد ارتحل إلى غربي إنجلترا في ستينيات القرن الخامس عشر، وأحصى ما جملته ثمانية وخمسون قريةً ضاعت، ويزعم أن هذا ليس سوى قمة جبل الجليد فيقول: "إذا تكرر مثل هذا الخراب الذي حل بواروويكشاير Warwickshire بأنحاء أخرى من البلاد فإن من شأنه أن يشكل خطرًا داهمًا على المستوى القومي، وليست قرى واروويكشاير وحدها هي المثال الوحيد، فهناك قرى أخرى وإن كانت قليلةً في جلوسسترشايرGloucestershire وورسترشاير Worcestershire ولكن لا أحد فيها يبعد عن وارويك بأكثر من اثني عشر ميلًا"(٢٢).

امتدت الـ Wüstungen إلى البلاد الواطئة وفرنسا وألمانيا وشرقي أوروبا؛ ففي تورونجيا Thurungia وعلى طول السهل الألماني الشمالي، وبعد أن كان هناك مائة وتسعة وسبعون قرية في عام ١٣٠٠م، فقد أقفرت ستة وأربعون من أهلها، وكانت أشد المناطق تضررًا في شمالي شرقي أوروبا، وكانت الهجرات المتواصلة لفلاحين قادمين من البلاد الواطئة وغربي ألمانيا إلى شرقي أوروبا معلمًا رئيسًا لما عُرِف بالزحف نحو الشرق Drang nach Osten(**)، وهو الفتح الألماني لبوميرانيا Pomerania وبروسيا Prussia وشمالي بولندا وليفونيا Livonia واستعمارها. وكان نزوح هؤلاء الفلاحين شرقًا من إحدى الزوايا، بسبب ما تهيأ لهم من شروط أفضل لحيازة الأرض(٢٣)، لكن وكما نفصل أدناه، فقد كان معظم الفلاحين في غربي أوروبا قد تخلصوا في أعقاب الموت الأسود من التزامات الضيعة، وبذا أضحت الأراضي الزراعية متاحةً لكثيرين منهم وعلى مقربة من ديارهم، ولم يعد هناك سوى اليسير الذين يجعلهم يقدمون على الهجرة، وترتب على

(*) (١٤١١-١٤٩١م)، جامع للآثار القديمة.

(**) عاد ذلك المصطلح إلى الحياة مرة أخرى في أواخر القرن التاسع عشر مع اتجاه ألمانيا القيصرية بعد توحيدها وتكوين إمبراطوريتها إلى الزحف شرقًا.

انقضاء العهد بتلك الهجرات الألمانية أن عادت الحياة إلى القرى المقفرة من ناحية، كما عادت الحياة إلى اللغة السلافية والثقافة السلافية في بعض الجهات من ناحية أخرى.

ربما كان الأهم من ذلك أن الـ Wüstungen أدى إلى تغييرات بيئية لافتة؛ ففي عام ١٢٠٠م كانت الأراضي حول البحر المتوسط وفي معظم أنحاء السهل الألماني الشمالي قد اقتلعت غاباتها، وتمَّت زراعتها، وحلت الحشائش والحيوانات المستأنسة محل ما كان بها من حياة نباتية وحيوانية سابقة، وتلاشت الغابات الثمينة، لكنه مع التناقص الحاد في أعداد السكان تحول الأمر إلى نقيضه، فعاد الغطاء النباتي السابق، وتحولت معه الحقول المهجورة والمراعي إلى غابات، وبسبب ما كان للأخشاب من أهمية باعتبارها مادة للبناء والوقود، فإنه كان من شأن ذلك أن يضمن ارتفاعًا في مستويات المعيشة؛ ففيما خلا مناطق قليلة منعزلة تم اقتلاع بعض ظواهر الحياة البرية القديمة مثل حيوان الأرخص Auroch، Wisent[*]، لكنه لم تلبث أن عادت أنواع أخرى، ولدينا بارومتر مناسب لتحديد ما صارت إليه الحالة البرية هو وجود الذئاب؛ ففي عام ١٣٠٠م كان هناك إسراف في صيدها، بحيث إنه لم تعد توجد إلا في أقاصي الشمال وفي المناطق الجبلية وروسيا، لكنه لم يلبث أن تغير الموقف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فتنوه الحوليات الإنجليزية والفرنسية إلى وجودها حول المدن، وفي عشرينيات القرن الخامس عشر كان من المألوف أن تُرى وهي تجوس في ضواحي باريس[٢٤]، وكانت الكثافة السكانية في أوروبا قبل الطاعون عالية للغاية، كما كانت مساحة الأراضي الصالحة للزراعة واسعةً، لدرجة أن صارت هناك خشية من أن تعاني من فقدان خصوبتها الأمر الذي شاهدنا مثيلًا له في أجزاء من إفريقيا وآسيا، وقد عكس الموت الأسود كل ذلك - ففيما عدا بعض الاستثناءات- فغابات القرن العشرين في أوروبا تعود إلى العصور الوسطى المتأخرة.

حدثت تطورات هائلة في حيازة الأرض[٢٥]؛ فقد أتى التناقص الحادّ في عدد السكان من الناحية العملية على نظام القنانة في غربي أوروبا، فلأول مرة منذ قرون أصبحت للفلاحين مطلق الحرية في سعيهم وراء رزقهم؛ فكانوا ينتقّلون من ضَيعة إلى أخرى في حال عدم ارتياحهم لشروط الحيازة، بل وصل الأمر إلى حد أن يغادر الفلاح ضيعته

(*) أي البيسون الأوروبي (والبيسون حيوان بري أشبه بالجاموس، إلا أنه أصغر في حجمه).

في منتصف الليل إلى ضيعة أخرى مجاورة، وهو يتوقع أن يكون موضع ترحيب من صاحبها. ولما كان هناك افتقار إلى الأيدي العاملة، توجب على المالك من أجل أن يحتفظ بعمالته أن يتقدم بشروط أفضل من التي كانت موجودةً قبل الموت الأسود. وما إن أتت ستينيات القرن الرابع عشر حتى كانت الإيجارات في معظم أنحاء أوروبا الغربية قد انخفضت إلى حد كبير، وتبع ذلك أن حل الدفع نقدًا محل خدمات العمل التقليدية والهبات، وعلى مدى القرن الخامس عشر كان ما تبقى من خدمات العمل قد انتهى، وحلّت محلّها النُّقود وعقود إيجار طويلة الآجل. والواقع أن سادة الإقطاع الذين كانت لا تزال لديهم أراضيهم أو الأراضي التي سبق أن منحها لهم إقطاعيون كبار، كانوا يعتمدون في زراعتها على العمل المأجور أكثر من اعتمادهم على فلاحين غير أحرار يعتاشون من عملهم في الضيعة. وكان الفلاح يزاول عمله في أيّة أرض يمكنه أداء إيجارها، ولم تلبث أن حلّت محلّ القنانة والحيازة العرفية صيغة أخرى من الحيازة تدعى الالتزام Copyhold بدأت في إيطاليا وإنجلترا زهاء عام ١٤٠٠م. وفي فرنسا والبلاد الواطئة إبان عام ١٤٥٠م ثم في معظم أنحاء أوروبا الوسطى حول عام ١٥٠٠م، وكان كل من المالك والفلاح يحتفظ بنسخة من ذلك الالتزام وبمقتضاه يفيد الفلاح من الأرض في مقابل مبلغ ثابت يؤديه سنويًا للمالك.

لم تنته القنانة تمامًا في أوروبا، فقد استمرت في بعض المناطق بغربيها، بل إنها لم تبدأ في شرقيها إلا في أعقاب الموت الأسود[٢٦]، وكانت بولندا وبروسيا والمجر أفضل مناطق إنتاج الحبوب في أوراسيا، وفي ظل نظام الزراعة المتخصصة الذي نما بعد ١٣٥٠م أصبحت سلة غلال أوروبا، وعليها تعتمد مدن البلاد الواطئة والراينلاند في غذائها. وكانت زراعة الحبوب قمينةً بأن تصبح مجزيةً في حال استخدام عمالة رخيصة غير حرة، وجرت العادة عند كثير من ملاك الأراضي في شرقي أوروبا على استخدام القوة لإرغام فلاحيهم على البقاء حيث هم، وحيث إنه لم تتهيأ لهؤلاء بدائل من ملوك يستمدون عونهم أو مدن يلوذون بها فإنه لم تتهيأ لهم موارد ولا حرية في الحركة مثل التي تهيأت لأندادهم في الغرب، وكان الانحدار السكاني بالنسبة لهم ابتلاءً، وبذا فقد غيرت الجائحة الطاعونية الثانية من طبيعة حيازة الأرض في أوروبا بأسرها، ففي الغرب أفضت إلى ظهور طبقة فلاحية حرة ومزدهرة، حالها أشبه بحال طبقة صغار الملاك في زمن "شكسبير"، وفي الشرق أفضت إلى القنانة والبؤس الذي شمل الفلاحين وتواصل في بعض الأنحاء حتى القرن التاسع عشر.

بالنسبة لكبار الملاك في الغرب، فربما كانت شروط الحيازة كارثية[٢٧]؛ لأن كثيرين منهم كانوا يضطرون إلى التخلي عن أي شكل من أشكال الزراعة المباشرة وأن يقدموا على تأجير ضياعهم بأسرها، ويحصلوا على مقابل نقدي، بحيث يتحولون في النهاية إلى ملاك غائبين، وبالتالي فهم في حال ارتفاع الأسعار يصابون بأضرار فادحة، لا سيما إذا كانت عقود المستأجرين تمتد لفترة طويلة، لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لبعضهم الذين وجدوا حلًا لتلك المشكلة بالإقدام على زراعة أراضيهم الجديدة على نحو مكثف، وكان ارتفاع نفقات العمالة وانخفاض أسعار المواد الغذائية يعنيان نهاية زراعة القمح، فيما عدا أن تكون تلك الزراعة على نطاق واسع وفي أماكن تتوافر فيها أفضل الأراضي المستصلحة مثل جنوبي إنجلترا أو الميدلاندز وأواسط فرنسا وبروسيا وبولندا، لكنه كانت هناك ما تزال سبل أخرى يستطيع المزارعون عن طريقها أن يتحصلوا على أموال: فبالنسبة لمن لديه مساحة كبيرة من الأراضي، تعتبر تربية الحيوانات بديلًا مربحًا لزراعة الغلال ولدينا أسباب كثيرة لذلك؛ أولها أن ارتفاع مستويات المعيشة كان يعني طلبًا متزايدًا على اللحوم، وكانت الأغنام بالذات تحظى بعناية خاصة، فهي لا تحتاج في تربيتها إلا إلى راع واحد فقط وبعض الكلاب، كما إنه يمكن لها أن تتلمس غذاءها في المراعي البرية والأعشاب أكثر من العلف، وكان لحم الضأن هو المفضل دائمًا، ويعد ذلك اعتبارًا مهمًا في زمان لم يكن قد عرف التجميد بعد. ووصلت إلينا من الشرق الأوسط شواهد على الطلب المتزايد على تلك النوعية من اللحوم وغيرها[٢٨]؛ ففي أوائل القرن الرابع عشر وقبل الموت الأسود كان متوسط استهلاك الفرد بالقاهرة من سعرات حرارية في طعامه قرابة ١١٥٤ سعرًا من ٤٥,٦ جرامًا من البروتين و١٩٦ جرامًا من الكربوهيدرات و٢٠ جرامًا من الدهون، ولم يلبث أن ارتفع ذلك المتوسط في منتصف القرن الخامس عشر إلى ١٩٣٠ سعرًا من ٨٢ جرامًا من البروتين و٢٩٤ جرامًا من الكربوهيدرات وما يزيد على ٤٥ جرامًا من الدهون، وقبل الموت الأسود كانت حصة الضأن الشهرية لأسرة مكونة من أربعة أفراد حوالي اثني عشر كيلو جرامًا ثم ارتفعت بعد الموت الأسود إلى الثلاثين.

هناك سبب آخر للتوجه نحو تربية الحيوانات: فهي تهيئ سبلًا واسعةً للإثراء، فإلى جانب لحومها كان يستفاد من جلودها بعد ذبحها، وكانت الفائدة أكبر في جزة الغنم التي تتحول إلى صوف، كان يشكل طلبًا خاصًا عليه، ويمكن الحصول عليه طول العام، مما يجعله أكثر جدوىً من جلد البقر، وفي أنحاء متفرقة من أوروبا غامر بعض الملاك فتوقفوا

عن زراعة القمح، وشرعوا في تربية الأغنام، ومن هنا أتى المثل الإنجليزي "أظلاف الغنم تُحَوِّلُ الرَّمْلَ إلى ذهبٍ" Sheep's hoovers turn sand into gold .

كانت تربية الغنم والماشية على نطاق واسع من شأن كبار الملاك وحدهم[٢٩]، ومع ذلك فقد كانت هناك إمكانية لأن ينهض بعض من صغارهم بها، وكانت لمزارع الألبان شهرتها الخاصة في شمال غربي أوروبا، وكانت هناك تقنية أخرى توصل إليها الفلاحون في المناطق المنخفضة بالغرب، مثل شرقي إنجلترا والبلاد الواطئة وبوتلاند. فكان الحقل يغمر بالمياه ويملأ بالأسماك خصوصًا الشبوط Carp، وخلال عام أو عامين يكون قد تم صرف مياه البرك، فتجمع أسماكها، ويصبح الحقل الذي تمّ تخصيبه صالحًا للبذر.

كذلك كان هناك نهج آخر له شهرته قام عليه بعض من صغار الملاك في أنحاء أوروبا، وهو زراعة المحاصيل النقدية، ففي فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وبعض أنحاء ألمانيا جرى التوسع في زراعة الكروم، وخصوصًا بعد أن تعاظم الطلب على النبيذ، وهو مظهر آخر لارتفاع مستويات المعيشة. وفي أنحاء متفرقة من حوض البحر المتوسط جرى التوسع في زراعة قصب السكر والفواكه. وفي الشمال حيث يحد المناخ البارد من نمو معظم أنواع الفاكهة تمت زراعة أشجار التفاح والإجاص (الكمثرى) في الغياض الصغيرة، كما انتشرت في الشمال كذلك زراعة غلال مثل الشعير والشوفان، وكان يستفاد بالشعير في إعداد المزر Ale والجعة beer المستحدثة مؤخرًا، بينما يستفاد بالشوفان كعلف للماشية التي تم التوسع في تربيتها. وكانت الزراعة المتخصصة تشمل عددًا من المحاصيل الصناعية، ويرتبط معظمها بأهم صناعة في أوروبا وهي المنسوجات؛ ففي إيطاليا وأجزاء من إسبانيا انتعشت تربية دودة الحرير، وفي شمالي أوروبا لا سيَّما ألمانيا انتعشت زراعة القنب والكتان ونباتات الصباغة مثل الوسمة Woad والفوة Madder والقرمز Kermes، وكانت تلك المحاصيل غالبًا ما تتطلب جهدًا كبيرًا في زراعتها شأنها في ذلك شأن القمح، لكنها كانت تختلف عنه في استحواذها على أسعار سوقية أعلى.

ترتب على ما طرأ من تطورات على نظام الحيازة والزراعات الاقتصادية وقع اجتماعي هائل[٣٠]؛ فبالنسبة للأستقراطيين الذين يمتلكون مئات الضياع وعشرات الآلاف من الإيكرات. فإنهم تعرضوا لقدر من الخسائر في دخولهم، لكن تلك الخسائر كانت أضعف من أن تنال من امتيازاتهم، مثلما نال تفكك نظام الوظيفية الثلاثية وما طرأ من متغيرات في

التقنيات العسكرية، واكتفى معظمهم بكونهم مؤجرين وملاكًا غائبين، وارتحل كثير منهم إلى المدن أو إلى ضياعهم الريفية التي تخلو من مزارع ناشطة. أما بالنسبة لصغارهم – ممن يمتلكون عددًا أقل من الضياع ومئات من الإيكرات – فكانت الشّروط الجديدة كارثيةً، وكثير منهم إن لم يكونوا معظمهم لم يكن لديهم ما يكفيهم من أراض تمكنهم من العيش في زمان العقود المنخفضة القيمة الطويلة المدى، فضلًا عن ارتفاع أسعار السلع، مما كان يضطرّهم إلى زراعة أراضيهم على نحو مباشر أو يتلمسون لأنفسهم دخولًا إضافيّة، دفعت عديدًا منهم إلى الانخراط في الخدمة العسكرية أو الكنسية أو الإصهار إلى واحد من كبار التجار، أما مَن كان يُعْرِض منهم عن التلاؤم مع ما استجد من متغيرات، فإنه كان يغامر بالهبوط إلى وهدة الفقر، ويفقد في النهاية وضعه الخاص المتميز.

بينما كان هؤلاء يهبطون كان هناك فلاحون يصعدون[٣١]: فقد كان عصر ما بعد الطاعون هو عصر الفلاحين الأغنياء المزدهرين، أي أصحاب الضِّياع الصغيرة أو الكولاك Kulak[*]: فقد اتسعت حيازاتهم في معظم الأنحاء على نحو لافت. ولدينا مثال على ذلك في ضيعة ردجريف بإنجلترا، فكان متوسط حيازة الفلاح في إنجلترا عام ١٣٠٠م زهاء اثني عشر إيكرًا[٣٢]، ارتفعت عام ١٤٠٠م إلى عشرين ثم في عام ١٤٥٠م إلى ما يزيد على الثلاثين، ولدينا ما يماثل ذلك في فرنسا وألمانيا وإسبانيا وبولندا. يضاف إلى ذلك حقيقة إنه بسبب الانحدار السكاني أصبحت أفضل الأراضي الصالحة للزراعة هي التي يجري استغلالها، وصار يتناوب على زراعة الحقول، وهكذا فلدى أوائل القرن الخامس عشر أو قبله بقليل كان ما جرى من إجهاد للتربة في أوائل القرن الرابع عشر قد شارف نهايته، وبدأ إنتاج البذور يتصاعد وأصبحت حصيلة شتلات القمح في ضياع أسقف ونشستر بجنوبي إنجلترا ٤,٢ إلى ١ في ١٣٠٠م[٣٣]، و٤,٤ إلى ١ في ١٣٥٠م و ٥ إلى ١ في ١٤٠٠م، وبين ١٣٠٠م و ١٤٠٠م ارتفعت بالنسبة للشعير من ٣,٨ إلى ٤,٣ كما ارتفعت بالنسبة للشوفان من ٢,٤ إلى ٣,٨، والواضح أنه لم تتسع حيازات الفلاحين جميعهم، وكان هناك نقص في الطعام، ووقعت بعض المجاعات في مرحلة ما بعد الطاعون، لكنه نادرًا ما كان يقع نقص في التغذية أو شقاء، وأضحت الأجور أعلى لدرجة أنه كان في إمكان سكان

(*) تعبير روسي كان يطلق على مياسير الفلاحين، وكانوا موضعًا للمضايقات من قبل السلطة السوفييتية بعد الثورة الروسية (١٩١٧م).

العشش والعمال المهاجرين Famuli أن تتهيأ لهم أحوال طيبة، وهو ما لم يكونوا قادرين عليه خلال السنوات ١٢٥٠-١٣٤٧م.

كان من اليسير لفلاح طموح أن يزيد من مساحة أراضيه الصالحة للزراعة، وينهض على زراعة محاصيل من أجل أسواق جديدة متنوعة، ومما يذكر أنه كان بمقدور أي فلاح غير راض بحاله أو بحصته في أرض بضيعة ما أن يتوجه إلى ضيعة أخرى، فيصبح موضعًا للترحيب بها. ومن المؤشرات على ما طرأ من رخاء عند الفلاحين هو ذلك التغيير في أنماط التوريث[٣٤]: فقبْل الموت الأسود وفي أتون الأزمة الغذائية التي أناخت بظلالها على أوروبا، كان الأبناء الذكور وبالتحديد الابن الأكبر هو الذي تتهيأ له الفرصة لأن يرث بمفرده ممتلكات أبيه. ثم تغير ذلك كله في القرن الخامس عشر، فصار معظم الأبناء يحصلون على نصيب من التركة، وما إن أتى عام ١٤٥٠م حتى لم يعد من المستغرب أن تحصل البنات بدورهن على نصيب آخر من تلك التركة.

ومثلما كانت هناك متغيرات في مجال الزراعة خلال مرحلة ما بعد الطاعون، كانت هناك متغيرات في مجال الصناعة خلال المرحلة ذاتها، وكانت تلك المتغيرات تعكس ما جرى من انحدار سكاني[٣٥]، وأضحى إجمالي الناتج الصناعي في أوروبا في ١٤٥٠م أدنى مما كان عليه في ١٣٠٠م: ذلك لأنه في أواخر العصور الوسطى كانت قُوى العمل هي الأساس في الإنتاج، وحتى مع نُمُوِّ الأسواق المتخصصة بعد الموت الأسود، فقد أفضى النقص السكاني إلى نقص في القُوى العاملة وفي محصلة العمل، وتهاوى الإنتاج في بعض أقاليم الصناعة التقليدية، خصوصًا في أنحاء متفرقة من البلاد الواطئة وشمالي إيطاليا ووسطها، وهي حال يُفضل أن نَصِفَها بالكساد[٣٦]. واستخرج بعض الباحثين من ذلك التهاوي سيّما في صناعة النسيج الفلمنكية كشاهد على انكماش اقتصادي عام وشامل ساد القرنين الرابع عشر والخامس عشر. بين أن هذا التفسير يستلزم بعض التعديلات، فقد كانت حال الصناعات الفلمنكية هي نفسها حال الصناعات الأوروبية قبل الطاعون، فهي تنتج ملابس صوفية غير باهظة الثمن بسيطة تتلاءم مع الذوق لسوق واسعة، وكانت عملياتها البعيدة المدى تستخدم أكثر من نِصْف العمالة في مدن مختلفة، وكان على هؤلاء أن ينتظموا في حضورهم وانصرافهم، كما يحدث الآن في القرن العشرين.

أسهم الانحدار السكاني في تخريب تلك الصناعة، فقد أضر بتلك السوق الواسعة، وتوجب على الباقين الحريصين على أموالهم أن يتحولوا إلى الثياب الأدنى في جودتها، وأسهمت عوامل أخرى في تخريب الاقتصاد الفلمنكي، فقد عطلت حرب المائة عام طرق التجارة، كما كانت هناك مشكلات عمالية واضطرابات اجتماعية بين العمال والإدارة، وربما كان الأهم هو أن عمال الصوف الفلمنكيين فشلوا في الحصول على مصادر بديلة للأصواف يعوَّل عليها، وذلك عندما بدأت الأصواف الإنجليزية وهي المصدر الرئيس تتناقص زهاء عام ١٤٠٠م، والحق أنه كانت الصناعة الفلمنكية أشبه بهؤلاء المزارعين الذين استمرءوا زراعة القمح، وأخفقوا في أن يتلاءموا مع الظروف الاقتصادية الجديدة.

بيد أنه كانت هناك صناعات جديدة، وصلت إلى سن الرشد في أواخر العصور الوسطى[٣٧]؛ ففي أنحاء أخرى من البلاد الواطئة خصوصًا برابان Brabant وهولندا تطور الإنتاج النسجي المتنوع، بعد أن أفاد من المذاق الجديد الذي ظهر بعد الموت الأسود، فكان هناك طلب متزايد على الأثواب المطرزة والكتان، وكانت شهرة الأخير مستمدةً من استخدامه في صناعة ملابس داخلية أثبتت كفاءتها، وكان يتم إنتاج الفساتين الكتانية والقطنية في جنوبي ألمانيا، وأحد الأمثلة لما جرى من تكيف صناعي يأتي من توسكانيا، فقبل الطاعون كان ما تنتجه من ثياب صوفية يحل في المرتبة التالية لما كانت تنتجه الفلاندرز، أما بعد الطاعون فتوجب على المنتجين التوسكانيين أن يواجهوا المشكلات ذاتها للأسواق المتغيرة والإخفاق مع الموردين التقليديين والمتاعب مع العمال، لكن الصناعة الإيطالية تغيرت على نحو ما، وإذا كان عدد القطع التي صنعت في عام ١٤٥٠م أقل مما كانت تصنعه في عام ١٣٠٠م، فإن التدهور كان أدنى منه في فلاندرز، وأقدم عدد من التجار التوسكانيين المغامرين على الارتحال إلى قشتالة وشمالي إفريقيا بهدف الظفر بالأصواف، بعد أن أصبحت غير متاحة من إنجلترا، وكان البديل لهم شراء أقمشة إنجليزية أو حتى فلمنكية غير متقنة، ثم يقومون على صقلها وتطريزها، وعلى نحو آخر تحسينها، وقامت بعض المدن التوسكانية بتطوير صناعة الحرير، وتصدير منتجاتها إلى أوروبا والشرق الأوسط، وكانت مرونة الأذواق المتغيرة وردود فعلها السريعة مفاتيح النجاح في عصر الانحدار السكاني.

كان الانحدار السكاني مسئولًا كذلك على نحو مباشر عن التقدم الذي تم إحرازه في مجال التقنية الصناعية[٣٨]. فقد كان العصر الذي يمتد من ١٢٥٠م حتى ١٥٠٠م واحدًا من أهم العصور في مجال الابتكار، وكان بعض ذلك الابتكار سابقًا للموت الأسود والبعض الآخر تاليًا له، لكنه لم يكن لديه ما يفعله تجاه الطاعون، وكانت تلك هي الحال مع إتقان صناعة العوينات وإلى حد ما مع البارود والساعات، لكنه لم يلبث أن تصاعد النمو في مجال المدافع والساعات بسبب النقص في الأيدى العاملة وأيضًا المفهوم الجديد للزمن، كما جرى تقدم مطَرد لعدد من التقنيات المهمة خصوصًا الطباعة، يجعلنا نتدبر فيما حدث من انخفاض سكاني، فهناك علاقة مباشرة بين التقنية والانحدار السكاني؛ ففي إنجلترا والبلاد الواطئة وفرنسا على سبيل المثال وفي أعقاب الموت الأسود تضاعفت قيمة طواحين الهواء وطواحين الماء. وبالإضافة إلى ذلك ففي أوروبا بأسرها والشرق الأوسط تسبب الطاعون في نقص للعمالة الماهرة خصوصًا بين البنائين والنجارين الذين كان يتطلب تدريبهم وقتًا طويلًا وشاقًا، وقد انعكس ذلك النقص على الأجور؛ ففي فرنسا ومن أجل التلاؤم مع التضخُم كان الأسطوات وعمال المياومة في كلتا الحرفتين يحصلون في عام ١٥٠٠م على ضِعفي ما كانوا يحصلون عليه في عام ١٣٠٠م، مما أفضى إلى صعوبات، وفي بعض الجهات إلى تدهور صناعي.

بيد أن العجز في العصور الوسطى كان أُم الاختراع؛ فقد كان للنقص السكانى فائدته التي تتجلى في ظهور تقنيات جديدة تختصر وقت العمل، ولدينا مثال على ذلك في صناعة صيد الأسماك[٣٩]؛ فقد كانت في العصور الوسطى المتأخرة صناعةً لها خطرها، من حيث كون السمك مصدرًا مهمًا للبروتين عند معظم الشعوب، خصوصًا في مناسبة الصيام الكبير Lent(*)، وكان الصيادون قبل الموت الأسود يأتون إلى الشواطئ من أجل تمليح (أي حفظ) ما يصطادونه من أسماك، لكنهم زهاء ١٣٨٠م كان الهولنديون منهم قد أثبتوا مهاراتهم في ابتكارهم أسلوبًا جديدًا لتمليح ما يصطادونه وتجفيفه وتخزينه، وذلك على متن سفنهم، مما كان يسمح لهم بأن يظلوا في البحر لمدىً أطول، ولأن يرتحلوا بعيدًا عن الساحل ثم يعودون إلى أوطانهم بالمزيد من الأسماك، كما حدث تقدم في تقنيات التعدين،

(*) مدة من الصيام تمتدُ أربعين يومًا -مع استبعاد أيام الآحاد- تبدأ بأربعاء الرماد وتنتهي بحلول عيد الفصح.

ويتفق معظم الخبراء على أنه جرى توسع كبير في التعدين وصناعته بعد الموت الأسود، حفز إليه الطلب المتزايد على السبائك الذهبية والفضية واحتياجات المدافع، ولم يكن عدد عمال المناجم كبيرًا قبل الطاعون، كما كانوا يعانون من استنزافهم، شأنهم في ذلك شأن عمال البناء والنجارة، والواقع أن صناعة التعدين واجهت كارثةً في زمن الطلب الأمثل، لكنه حدثت في القرن الخامس عشر ابتكارات جديدة في صناعة المضخات، تتيح الفرصة للنفاذ إلى أعماق المناجم، فضلًا عن تقنيات جديدة لتهوية تلك المناجم، تسمح للعمال أن يهبطوا إلى الأعماق على نحو أكثر أمنًا من ذي قبل.

يمكننا كذلك أن نلمس التغييرات الاقتصادية التي أتت مع الانحدار السكاني في أنماط التجارة[٤٠]؛ ففي المراحل السابقة للطواحين كان الإيطاليون وإلى حد ما العصبة الهانزية يتحكمون في طرق التجارة؛ ففي عام ١٣٠٠م كانت طرق التجارة البعيدة المدى تتجمع حول مدن البلاد الواطئة، بينما كان الإيطاليون يتحكمون في معظم التعاملات التجارية، مستعينين على ذلك بمهاراتهم التجارية العالية والعملات الذهبية البندقانية والفلورنسية المستقرة كوسيلة للتبادل، على أن ذلك كله بدأ يتغير في عام ١٥٠٠م بعد ما أضحى الشماليون يقومون بدور أكبر واختل التوازن التجاري فجرَّف موارد الجنوب، ويرجع ذلك إلى أسباب تتماشى بالكاد مع الجائحة الطاعونية الثانية، ومن بينها انتشار التعليم في دول الشمال وسيطرة تجارها، بعد ثلاثمائة عام من تمرس الإيطاليين بالأعمال التجارية والتقنيات المصرفية.

كان للتدهور الذي حلَّ بالإيطاليين معانٍ سياسية كذلك؛ فعلى مدى مائة عام كان هؤلاء يعملون كوسطاء في نقل التوابل الثمينة والسلع الفاخرة بين الغرب وجنوبي القارة الآسيوية، ومن أجل ذلك أقاموا لهم مستعمرات تجارية في الليڤانت وعلى سواحل البحر الأسود، وحصلوا من الحكَّام المحليِّين المسلمين على امتيازات تجارية، لكنه لدى القرن الرابع عشر أمكن للأتراك العثمانيين – وهم شعب مسلم ناهض مقاتل– أن يسيطروا على معظم أقطار الشرق الأوسط، وانصرفوا إلى تحجيم الإيطاليين، ودورهم كوسطاء، ثم في إقصائهم فيما بعد، وعلى الرغم من ذلك فليس لنا أن نرسم في عام ١٥٠٠م صورةً جديدةً لإنحدار جنوبي وازدهار شمالي؛ فقد ظلت البندقية هي الأوفر ثراءً والأكثر ازدهارًا والأضخم ازدحامًا بسكانها في أوروبا بأسرها، وكان كثير من الأنحاء الشمالية –بما في

ذلك مدن الهانزا وكونتية فلاندرز- تعيش انكماشًا اقتصاديًا، وكان ذلك الانكماش شاملًا لدرجة جعلت باحثين كُثر يميلون إلى أن يسموا العصور الوسطى المتأخرة بالانكماش التجاري فضلًا عن الانكماش الصناعي.

على الرغم من كل ذلك فإنه يصعب علينا أن ندعو حالة أوروبا الاقتصادية بالكساد، ويذهب مؤرخ اقتصادي له مكانته، فيلخص الموقف على نحو دقيق حين يقول: «عندما يتأمل المؤرخ التطور الاقتصادي لذلك العصر، يتولد لديه انطباع بأنه يشاهد سباقًا للتتابع، فهناك مشعل تتناوب على حمله مدينة من مدينة أخرى»[٤١]، وفي نهاية القرن الخامس عشر كانت مدن الهانزا قد فقدت احتكارها لظهيرها على البحر البلطي لصالح التجار الهولنديين والإنجليز[٤٢]، وأضحى رجال الصناعة الفلمنكيين في البلاد الواطئة وعمالهم والتجار ورجال المصارف الإيطاليون يلعبون دورًا متناقصًا، ولم يعد لديهم سوى قليل من السلع ليتاجروا بها، وتدهورت الحال ببريجس **Bruges** في الفلاندرز، بعد أن كانت أهم مركز تجاري في أوروبا خلال القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر، وحلت محلها أنتويرب في إقليم برابان المجاور، وصار للألمان الجنوبيين في نورمبرج وأوجزبورج وغيرهما من المدن نصيب متزايد من التجارة عبر جبال الألب، وبلغت الجسارة بهؤلاء الألمان في أواخر القرن الخامس عشر إلى حد أنهم أقاموا فنادق **Fondaci**[*]، أو مراكز تجارية في مدن شهيرة؛ مثل البندقية مع أنهم ظلوا حتى منتصف القرن السادس عشر لا يحملون كمًا هائلًا من السلع التي كان يحملها الإيطاليون قبلهم، وشرعت أعداد متزايدة من تجار القرن الخامس عشر الهولنديين والإنجليز مثل "جون فري" **John Free** ، و"روبرت ستورمي" **Robert Sturmy**[**]، في الإقدام على مشروعات تجارية بالبحر المتوسط[٤٣]، ولدى عام (١٥٠٠م) كان المركز الاقتصادي لأوروبا قد تحول إلى الشمال الغربي.

لعبت الظروف البيئية العامة دورًا رئيسًا في ذلك التحول الاقتصادي، فقد حدثت بعض التغيرات الجوية[٤٤]، وعلى سبيل المثال، فقد كان أحد الأسباب في الانحدار التجاري

(*) كانت الفنادق في مصر وأقطار المشرق العربي في ذلك الزمان تختص بالتجار الأجانب لا سيما الإيطاليين، بينما كانت الوكالات تختصُّ بالتجار المحليين.

(*) عاش في بريستول في القرن الخامس عشر. أشرف في عام (١٤٤٥م) على ارتحال مائتين من الحاج إلى ضريح القديس يعقوب في إسبانيا، وحاول في (١٤٥٧م) أن يكسر احتكار الإيطاليين للتجارة.

لكل من بريجز وبيشة وفلورنسا ما جرى من انسداد للأنهار التي كانت تُحْمَل عبرها معظم تجارات تلك المدن. وهناك تغيير آخر "طبيعي" يختص بتأمين المواد الخام. فقد كان الشمال هو أوفر أنحاء العالم الغربي ثراءً. فكانت توجد به أفضل الأراضي الزراعية والمواد الخام (مثل الأخشاب والحديد والصوف والمواد الغذائية) وكانت هذه الموارد تستهلك، لكنها لم تكن قد استنزفت خلال التوسع الذي حدث في العصور الوسطى العالية، وفي حال الموارد المتجددة كالأراضي الصالحة للزراعة ذات الجودة العالية، فإن الانحدار السكاني في حقيقته كان نعمةً ولم يكن نقمةً.

على النقيض من ذلك كان حوض البحر المتوسط فقيرًا في المواد الخام وفي الموارد الطبيعية، ويعوزه توزيع متوازن لتساقط الأمطار، وعلى الرغم من الانحدار السكاني، فلم يُجْدِ معه توسُّع القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بسبب ما جرى من تجريف للتربة الفوقية واقتلاع للغابات، وعاش التجار الجنوبيون على ما سبق أن توافر لهم من نشاطات تجارية ومالية معينة وما اكتسبوه من خبرة، وعندما تهيأت تلك التقنيات للتجار الشماليين، لم يعد لدى الجنوبيين ما يلوذون به.

نهض الطاعون كذلك بدور مباشر في التغييرات الاقتصادية. فقد كان الانحدار السكاني يعني أن أيام الأسواق التجارية المتسعة دومًا قد ولت على الأقل في صميم القارة الأوروبية، ولم تعد الحدود الشمالية الشرقية أو الأيبيرية متاحةً لهم. فضلًا عن أن التغييرات السيكولوجية المترتبة على الطواعين المتوالية خلقت أنواعًا جديدةً من الأسواق، فقد صار لدى الناس أموال كثيرة، يسعون إلى إنفاقها في سلع أكثر ترفًا ورفاهةً[44]، وكان تهاوي نظام الوظيفية الثلاثية يعني لهم وضعًا أفضل مما كانوا عليه قبل الموت الأسود، وكانت أسواق ما بعد الطاعون متاحةً في القرن الخامس عشر، وكانوا في معظمهم بزّازين من لندن ويورك يقومون ببيع الأقمشة أو أي شيء آخر يستطيعون حمله، ويحملون سلعهم عبر البحر ثم عبر القارة الأوروبية، فينتهون في بعض الأحيان إلى بروسيا ليحلوا محل التجار القراريين المعروفين بتجار الإسطبل Staple[*]، (وهم جماعة من التجار احتكروا تجارة الأصواف في القرن الرابع عشر) تلك كانت روح المغامرة التي

(*) مدينة تعتبر مركزًا لبيع سلع – غالبًا ما تكون رئيسة – أو تصديرها بالجملة.

دفعت التجار الأيبيريين والإنجليز والهولنديين إلى البحث عن أسواق جديدة والتجارة المفتوحة من أوروبا إلى بقية أنحاء العالم بين سنتي ١٤٠٠م و ١٦٠٠م ولكن ليس في إمكاننا تمامًا أن نصف الاقتصاد الأوروبي في مرحلة ما بعد الطاعون بكونه في حال انحدار، وربما كان هذا الانحدار في بعض القارة وليس فيها كلها. والأحرى بنا القول بأن تلك المرحلة كانت مرحلةً انتقاليةً لعبت أقطار الشمال فيها دورًا تجاريًا غايةً في الأهمية، وخلالها انتقل مركز النشاط التجاري من البحر المتوسط إلى الأنحاء الشمالية الغربية.

أسهم الانحدار السكاني كذلك في إحداث تغييرات مؤسسية وقيام حكومات بيروقراطية. فقد سرّع الموت الأسود والجائحة الطاعونية الثانية بالتطورات التي وقعت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وربما يفضل مقاربتها بما يمكن وصفه بعلمنة المجتمع[٤٦]؛ ففي عام ١٢٠٠م كانت هناك ثلاثة أنواع من الحكومات في أوروبا؛ بارونية وملكية وإمبراطورية / مسيحية، وكان النوعان الباروني والإمبراطوري المسيحي معًا هما النمط السائد، لكنه كان للحكومة الملكية دورها المتميز كذلك، وفي غضون القرن الثالث عشر، ومع بداية تداعي المجتمع الثلاثي الوظيفية، بدأ كذلك تداعي السلطة الثلاثية الأطراف، فقد ازداد عدد المسئولين العلمانيين الأمر الذي حد من هيمنة البيروقراطيين الكنسيين الذين كانوا يسيطرون على الحكومة منذ نهاية العالم الكلاسيكي القديم. فضلًا عما استجد من تطورات في المدارس العلمانية، وتوجه كثير من خرّيجيها للعمل في الحكومات التي توسعت في نشاطاتها خلال القرن الثالث عشر، وتحول كثير من الشباب اللامعين – الذين كانوا مهيئين لأن يخرطوا في سلك الكهنوت– للعمل كموظفين علمانيين، وقلما كان هؤلاء يمتلكون أراض واسعة قبل أن يحصلوا على مناصبهم. لذا فإنهم أصبحوا يعتمدون في معاشهم على الحكومات التي يعملون بها، فانصرفوا إلى مساندتها والترويج لها، وهي عملية تستلزم دخلًا ثابتًا من الضرائب التي بدأت الحكومات الملكية في جبايتها على نحو أكثر فعاليةً من الحكومات البارونية أو الإمبراطورية / المسيحية، وكانت تلك مؤشرات على استمرار تلك العملية حتى بدون تدخل من الدولة.

عجّل الانحدار السكاني من علمنة الدولة؛ ففي المقام الأول نهض الموت الأسود بالفتك بالجميع؛ علمانيين وكنسيين بدون تمييز، واقتضى الأمر دهرًا طويلًا لتدريب موظفين جدد ثم تصعيدهم بعد ذلك إلى مستويات أعلى، وكان علينا أن ننتظر جيلًا على الأقل، لكنه

بدا لنا أن أعداد الموظفين العلمانيين كانت تنمو بسرعة، ربما لأن الحكومات العلمانية كان بمقدورها أن تحسن إدارة مواردها وتتبنى عملية تدريب موظفيها على نحو جيد. وبدأت المدارس العلمانية في الوقت نفسه تعافيها على نحو أسرع من مدارس الأبروشيات. ففي مدينة بيري سانت إدموندز، وفي غمار الطاعون الذي اجتاحها أغلقت مدارسها الثلاث جميعها، لكنه بينما شرع المواطنون المدنيون الذين كانوا يديرون المدارس الثانوية، ومدارس الإنشاد في فتح مدارسهم في عام ١٣٥١م لم تبدأ السلطات الكنسية التدريس بمدارسها إلا في عام ١٣٥٥م، وفي عام ١٥٠٠م كان أعضاء البيروقراطية الملكية يتلقون تدريباتهم في مدارس علمانية مثل تلك التي في بيري. وما لبثوا أن أصبحوا طبقةً لها أهميتها الفائقة، وعرفوا فيما بعد «بأرستقراطية العباءة» تمييزًا لهم عن «أرستقراطية السيف» التي كانت تلازم طبقة كبار الملاك أصحاب الضِّياع، ومثلما كانت الطبقة النبيلة القديمة تتميز بالنسب العريق، كانت الطبقة النبيلة الجديدة تتميز بالمنصب.

عديد من هؤلاء البيروقراطيين الجدد كانوا محامين[٤٧]، وكما كانت حال الأطباء، فقد نهض هؤلاء المحامون بمهنتهم، فأصبحت مهنة متميزةً، وتحولوا إلى صفوة، وربما فاقوا الأطباء في أهميتهم، المهم أن هؤلاء المحامين نشطوا في أواخر القرن الرابع عشر وطيلة القرن الخامس عشر، من أجل إنجاح نظرية الدولة التي تستند إلى السلطة الملكية والحكومة، وأصبحت لتلك الدولة حدودها الثابتة والمعروفة، بدلًا من مجالات النفوذ التي كانت لها في المرحلة السابقة للطاعون، وبفضل تلك الحدود الثابتة كان في إمكان صاحب السيادة أن يصدر أوامره –لا سيما جباية الضرائب التي ينفق منها على جهازه الإداري– وأن يقيم العدل، وهما حقًّا أهم الواجبات المنوطة بالحاكم، ومن خلال تلك الصيغة فلا توجد سلطة أعلى من سلطته، وما دامت تلك السيادة قد صارت متاحةً في ذلك الزمان، على الرغم من محدودية وسائل الاتصال والمواصلات، فقد ترسخ وجودها في دولة علمانية يسيطر عليها الملوك في إنجلترا وفرنسا ومعظم أيبيريا، لا أن يسيطر عليها البارونات أو الكنيسة أو الإمبراطور.

ثانيًا: فقد تسبب الموت الأسود في تداعٍ مؤقت لأشكال السلطة الحكومية[٤٨]، وهو ما كان يعني أن أية سيادة تستعيد قواها سريعًا، تتاح لها الفرصة لأن تمتد بنفوذها إلى آفاق جديدة، وكانت تلك الاستعادة تستند إلى ما يتهيأ لها من موارد يمكنها تعبئتها لا

سيما في مجال الضرائب ووسائل جبايتها. وفي مبدأ الأمر قد أضعفت الطواعين وغيرها من ثورات القرن الرابع عشر من سلطة الملك، وأدت إلى بعث السلطات المحلية، تلك التي كانت فيما سبق من شأن البارونات، لكن هؤلاء لم يعودوا هم أنفسهم الذين شاهدناهم في القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر، فقد كان من شأن التصدُّع في نظام الوظيفية الثلاثية أن تتصدع معه قوى أولئك البارونات الاقتصادية والعسكرية وأن تتآكل، وبالتالي فقد حدَّ ذلك من قدرتهم على الإفادة من تلك الفرص الجديدة.

إلى ذلك فقد تغيرت طبيعة الرابطة بين النبلاء أنفسهم، فلم تعد «إقطاعيةً» بما تحتويه تلك الإقطاعية من ولاء وخدمات وحيازة واعتماد متبادل وتراتبية ومكانة ونظام، والأحرى بنا القول بأن الإقطاع في إنجلترا وفرنسا على الأقل قد تطور – أو تفسخ في رأي بعضهم– وتحوَّل إلى ما صار يطلق عليه تعبير «الإقطاع الهجين» Bastard Feudalism، وفي هذا الإقطاع كان يتجمع حول النبيل عدد من المستأجرين الذين يرتبطون معه بقدر من التبعية، تتمثل في أجور نقدية يُعْطاها سنويًا، بخلاف ما كانت عليه الحال في السابق، ومع ما كان يتحقق للنبيل من خلال ذلك النظام من موارد مالية كبيرة، إلا أن الملوك – وعلى الرغم من نكسات عرضت لهم وتعثر في جباية الضرائب بسبب الطاعون– كانت مواردهم تفوق موارد أولئك النبلاء مهما علا شأنهم.

من ناحية ثالثة فقد أسهم الموت الأسود في صعود الحكومة الملكية المركزية، لأنه مثلما غيَّر الطاعون من الاقتصاد الأوروبي، فقد غيَّر كذلك من قاعدته الضريبية، وأصبح من الصعوبة بمكان جباية الضرائب في مجتمع تصدَّعت فيه هيئاته الإدارية والقانونية، فبينما ارتفع دخل الفرد في أواخر القرن الرابع عشر، كان هناك قليل ممن كان يتوجَّب عليهم أداء ضرائبهم، ولم يكن من اليسير أن تعود تلك الضرائب إلى المستوى الذي كانت عليه قبل الطاعون، وعندما كانت تستخدم وسائل عنيفة في جمعها، كان رد الفعل، كما حدث في إنجلترا فى ١٣٨١م، هو الانتفاضات المتتالية، مما كان يعنى أن حكومات القرن الرابع عشر جميعها كان يتم تحديها على نحو جذري، وبعضها نجح فى مواجهة تلك التحديات، والبعض الآخر لم ينجح، وكان من شأن تلك الأخيرة أن تحل محلها أشكال جديدة من الحكومات.

لدينا ثلاثة نماذج على ذلك من مدينتي سيينا وبيري سانت إدموندز ومملكة فرنسا – تمثل جميعها تلك التفاوتات في الاستجابة[٤٩]؛ فإبان الموت الأسود فقدت سيينا ما يناهز نصف عدد سكانها، الأمر الذي أناخ بثقله على بيروقراطيتها وعمالها المهرة وصار هناك شح في أهم ضريبتين بها؛ وهما Gabelle , Biccherna واللتين عهد في جبايتهما إلى أشخاص علمانيين وليسوا كنسيين- مما يعد مثالًا آخر لعلمنة المجتمع- لذا كانت الأولوية عند أهل سيينا بمجرد أن استتبت الأحوال هي أن تتخذ ما من شأنه أن يعطي الموظفين والجنود وغيرهم من العاملين أجورهم التي أصبحت أعلى مما كانت عليه في السابق، وتصرفت السلطات سريعًا وكان أداؤها طيبًا، فهي بدايةً أعدت تقديرًا بأعداد السكان المقيمين في المدينة ذاتها وفي الكونتادو Contado أي الريف التابع لها، من أجل إدراج أكبر عدد ممكن في قائمة دافعي الضرائب، ثم فرضت الـ gabelle وهي ضريبة جديدة غير مباشرة على الملح، وقد تحقق لها النجاح، وبدا أنه قد عاد لسيينا ما كانت تنعم به قبل الموت الأسود من استقرار.

لكنه لم يكن كل شيء طيبًا؛ ففي حين أتاحت حصيلة تلك الضرائب الفرصة للمسئولين في سيينا من أجل إصلاح موازنتهم، إلا أنه كانت له عواقبه الاجتماعية الوخيمة، فقد كان من شأن ما درجت عليه المدينة من رواتب عالية وفرص موعودة وتحولات كبيرة، فإنها اجتذبت الفلاحين المقيمين بما جاورها من ريف، فانتقلت أعداد كبيرة منهم للإقامة بها، خصوصًا بعد ما جرى من انخفاض في أسعار الطعام أو كساد في اقتصادهم، وتناقصت بالتالي أعداد سكان الريف، ويعقِّب كاتب حولي معاصر فيقول: "كان من شأن عمال الزراعة وهؤلاء الذين اعتادوا العمل بالفلاحة وبساتين الفاكهة، أنهم وبسبب جشعهم والأجور التي يحصلون عليها من أعمالهم اليومية أن ألحقوا الضرر بمزارع المواطنين وسكان دولة سيينا وخلفوها قفرًا بلقعًا"[٥٠].

كان موظفو سيينا يتعسفون في جباية الضرائب من أريافها، ويبذلون غاية جهدهم من أجل مواجهة النفقات، لكن الطاعون كان قد أتى على القاعدة الضريبية، بحيث لم يجد ممكنًا لهم أن يعودوا بها إلى ما كانت عليه من قبل، فأقدموا على مصادرة ضياع هؤلاء الذين ماتوا دون أن يخلِّفوا وصايا، وحاولوا أن يفرضوا ضرائب أخرى غير مباشرة بالإضافة إلى الـ Gabelle ، وعندما لم يعد ذلك بكافٍ لأن يفي بالحاجة في أواخر القرن الرابع عشر انصرفوا إلى أن يقبضوا ضِياع الأرامل واليتامى بوسائل عنيفة.

ترتب على إجراءات مثل تلك أن تصاعدت أعمال العنف والجريمة، صحيح أن ذلك كان في معظمه مصاحبًا لتداعي نظام الوظيفية الثلاثية، إلا أنه كانت له في سيينا أسبابه الخاصة، فبعض تلك الجرائم كان يعود إلى أن هناك ريفيين جرى اقتلاعهم من أرضهم، ليحلوا في بيئة حضرية غير مألوفة بالنسبة لهم، وفي حالات قليلة أفاد هؤلاء بما كانت عليه حال سكان المدينة من رفه، وفي حالات أخرى أصابهم الإحباط منها. ولدينا أسباب أخرى للقلاقل الاجتماعية؛ فقد حاول بعض المغامرين منهم أن يندرج في دوائر الطبقة الحاكمة في سيينا وكان رد فعل الأوليجاركية الحاكمة أن تصدر بين عامي ١٣٤٨م و١٣٥٠م أربعة قوانين تنظم الأجور والنفقات، لكنها أخفقت فيها، وتحقق لكثيرين من هؤلاء الأثرياء الجدد قوة سياسية. وشرعوا في سبعينيات القرن الرابع عشر في الأخذ بثأرهم؛ فعلى سبيل المثال صدر قانون ينهي احتكار الحرس القديم للأعمال المصرفية، وترتب على ذلك أن عانت سيينا في أواخر القرن الرابع عشر من عدم الاستقرار في أحوالها المالية، ثم واجهت انهيارًا عامًّا في أواخر العصور الوسطى؛ فقد عطل الطاعون الحكومة، وأجهز على القاعدة الضريبية، وكان لاستجابة حكامها السريعة وما أقرته من ضرائب جديدة أن جرى انتعاش سريع لكنه مؤقت. أما على المدى البعيد فقد أدت تلك الضرائب إلى إفقار الريف وتدمير الاقتصاد الحضري، وبالنسبة لدولة صغيرة مثل سيينا فقد كان في الموت الأسود وتلك الإجراءات الاقتصادية نهايتها، بحيث إنه لم يأت عام ١٣٧٠م حتى كان مجدها قد ذهب، وأصبحت عام ١٤٣٠م في جملة ممتلكات فلورنسا.

على أن تأثير الطاعون والنظام الضريبي ونمو الحكومات كان مختلفًا تمامًا في دولة كبيرة كالمملكة الفرنسية، وكانت فرنسا قبل الموت الأسود تعاني من مشكلات مالية، بسبب الأزمة العامة للغذاء، تلك الأزمة التي بدأت في منتصف القرن الثالث عشر وحرب المائة عام مع إنجلترا، وفي عام ١٣٤٦م حاقت بالفرنسيين هزيمة كاسحة ومذلة في كريسي Cresy، وبعد عام استدعي مجلس طبقات الأمة Estates General وهو الهيئة التمثيلية لفرنسا للانعقاد، من أجل إقرار ضرائب جديدة في مواجهة نفقات الحرب المتزايدة، وفرضت ضريبة جديدة في مارس ١٣٤٨م، هي الأعلى والأكثر شمولًا في تاريخ فرنسا، في وقت كان الموت الأسود قد عم المملكة بأسرها، وهو وما أتينا على ذكره في الفصلين الثالث والرابع، وكما كتب "بيروي Perroy" بأنه تحت ضغوط الطاعون فإنه قد "تبخرت أموال الضرائب كما يتبخر الثلج في أشعة الشمس"[٥١]، ولم تلبث أن تقلصت القاعدة الضريبية على مدى الجيلين التاليين إلى حد بعيد.

توضح مدن فرنسا ومقاطعاتها ذلك الترابط بين الانحدار السكاني وتقلص القاعدة الضريبية وتطور الحكومة فكانت برپنيان Perpignan قد ضربها الموت الأسود بشدة[٥٢]، وإذا كانت السجلات البلدية دقيقةً، فقد كان غالب الموتي من الذكور متوسطي العمر والأغنياء، وهم الفئة التي يقع على كاهلها أداء القدْر الأكبر من الضرائب، إلى جانب أنها كانت تضم معظم الكتاب وشهود العدل الذين ينهضون على جباية تلك الضرائب وتسجيلها، وفي تلك المدينة كما في معظم المدن الفرنسية، كان جمع الضرائب وهو وقود الإدارة الحكومية قد شارف نهايته بالفعل، وانعكست صورة مشاكل برپنيان على البلاط الملكي على مستوى واسع، فقد مات زهاء ثلث الموثقين، الأمر الذي كان من شأنه أن يصعب من عمليات المحاسبة حتى في حال عودة الموارد. وكانت برلمانات المقاطعات التي تتكفل بجمع الضرائب للحكومات المحلية تواجه مشكلات مماثلةً؛ ففي بعض الجهات بما فيها نورماندي ولانجدوك، وتولوز وكاوور Cahors كانت نسبة الموتان عاليةً الأمر الذي أدى إلى فض تلك البرلمانات جميعها[٥٣]، وقد أجريت كذلك دراسات عن تأثير الطاعون في جباية الضرائب في مونبلييه ومرسيليا؛ ففي أوائل ١٣٤٨م وعد حكام مونبلييه ملكهم بستة آلاف جنيه، وذلك دعمًا لجيشه، وفي ذلك الوقت كان الموت الأسود قد ضربها، وأقفرت المدينة وأطيح بقاعدتها الضريبية وتبدد جمعها وأنظمة تسجيلها، وحدث الأمر نفسه في مرسيليا، وكانت نسبة الموَتان في يناير ١٣٤٩م عاليةً للغاية لدرجة أن أعفى التاج سكانها من كل متأخراتهم.

في سيينا – وهي دويلة صغيرة– كان انهيار قاعدة الضريبية كارثيًا وهيَّأ السبيل إلى نهاية استقلالها، أما في فرنسا – وهي الدولة الكبيرة– فقد كانت العواقب مختلفةً بعض الشيء؛ فأولًا كان نمو المجالس المركزية والبلدية متخلفًا إلى أبعد مدى، فقد كانت مهام تلك المجالس في أساسها ماليةً، ثم نمت في أوائل القرن الرابع عشر، عندما ازدادت مواردها وبالتالي جبايتها، وبعد أن تلقت دعمًا من الدولة لا سيما في ١٣٤٧–١٣٤٨م فإنها عاودت جمعها بنجاح، وكان قمينًا بالبرلمان وغيره من مؤسسات محلية أن تواصل نموها، وقد أعاق الطاعون من ذلك النمو، ومن ناحية أخرى كانت تأثيراته على المناخ الفرنسي مختلفةً تمامًا: فقد أناخ الموت الأسود بثقله على قوى المملكة الفرنسية، وبدا مميتًا لملكية "فيليب السادس"، وكما كتب "جون هينمان" John Henneman فقد كان الموت الأسود "هو سوء الحظ المتوج لحكم بعيد عن السعادة"[٥٤]، لكن ذلك كان مجرد نكسة عابرة، فقد

كانت الملكية الفرنسية مستقرةً ولديها مواردها الواسعة، وبينما كان للطاعون خطره، من حيث كونه السبب في معاناتها المالية، شأنه في ذلك شأن حربها مع إنجلترا، إلا أن تلك الحرب لم تلبث أن تحولت لصالح فرنسا، وكان من اليسير لملك فرنسا أن ينهض من الدمار الذي أحدثه الطاعون أكثر من البرلمانات وغيرها من المؤسسات الإقليمية أو البارونات، وبذا فقد أضحى الملك أكثر من أي وقت مضى أوفر قوة مقارنةً بغيره من جماعات محلية أو أفراد، وبوجه عام فقد أعان الانحدار السكاني هؤلاء الذين كانوا في السلطة بموارد جاهزة، ليصبحوا قادرين على الاستجابة السريعة للظروف الاقتصادية الجديدة.

لدينا مثال أخير هو ما جرى من تصاعد في قُوى بلدية "بيري سانت إدموندز"(**): ففي بدايات القرن الرابع عشر كان يهيمن على تلك المدينة دير سانت إدموندز البندكتي، وكان هذا الدير من أوفر الأديرة المسيحية ثراءً، ومع كون تلك المدينة سوقًا مزدهرةً، إلا أنها كانت تدين بمعظم ما حققته من نجاحات إلى ذلك الدير، ولم يكن لدى نخبتها العلمانية سوى اليسير من الاستقلال المؤسَّسي، الأمر الذي كان يجعلها تتميز غضبًا، وقامت بالانتفاض على ذلك الدير عدة مرات، لكنه كان في إمكانه وبمعونة من الملك أن يقمع المتمردين، ويستعيد ما كان لديه من امتيازات.

على أن الموت الأسود غيَّر من ذلك كله؛ فقد أتى على ما يقارب النصف من سكان المدينة، وعوّق نظامها التجاري، مما جعل رفاهيتها على المحك، لكنها لم تلبث أن استعادت شهرتها التجارية في سبعينيات القرن الرابع عشر، وهو ما يتمثل فيما كانت تنتجه من ثياب صوفية ذات القيمة العالية في الغرب، وأصبح سكانها أغنى مما كانوا عليه في السابق، كما أصبح بعضهم في بدايات القرن السادس عشر من بين أثرياء إنجلترا، ولم تكن الحال كذلك بالنسبة للدير، فقد كان يعود فيما حققه من ثروة إلى ما كانت تغله عليه ضياعه الريفية من محصولات وإيجارات، كما كانت إدارته محافظةً في تقنياتها، فرفضت أن تتحول إلى الزراعة الكثيفة أو إلى المحاصيل النقدية، وواصلت إصرارها على زراعة القمح بالأساليب العتيقة، مما كان يعد كارثيًا في اقتصاد جديد، نشأ في ظل الانحدار السكاني، وبذا كانت المدينة تنمو، في حين كان الدير ينحدر إلى وهدة الفقر، واضطر في نهاية القرن الخامس عشر إلى أن يبيع بعضًا من ممتلكاته، حتى يتمكن من الاستجابة لما توجب عليه من التزامات.

واصل أبناء المدينة جهودهم من أجل الحصول على ما كانوا يتطلعون إليه من قوة سياسية، تتناسب مع ما تحقق لهم من قوة اقتصادية. ولم يلبثوا أن قاموا في عام ١٣٨١م بانتفاضة مثل تلك الانتفاضات التي سبق أن قاموا بها قبل الموت الأسود، وعاود الملك نجدة الدير، وتم قمع المنتفضين، مما دفع النخبة إلى أن تغير من أساليبها، وأفادت بما توافر لديها من قدرات مالية في أن تُقاضي الدير مرةً ومرةً، واستعانت بكبار محاميِّي لندن ليمثلوها أمام المحاكم، وفي الوقت نفسه توجهوا إلى الملك الذي كان في أمسِّ الحاجة إلى أموالهم، واشتروا الامتيازات والإعفاءات، ولم تلبث أن تكللت جهودهم بالنجاح، وقبل أن ينتهي القرن الخامس عشر حتى كانت المدينة قد تحررت من ربقة ذلك الدير الذي طالما تحكم في معظم جوانب حياتها السياسية والاقتصادية.

على غرار ما كانت عليه الحال في العالم المسيحي، فقد أتى الموت الأسود بتحولات سياسية ومؤسسية في العالم الإسلامي[٥٦]؛ ففي مصر كان الطاعون قد سدد ضربةً قويةً للنخبة الحاكمة بها أي المماليك، وهم سلالة من الرقيق كان يؤتى بهم من بلاد الچراكسة الواقعة على طول الساحل الشمالي الشرقي للبحر الأسود، وكان استقدام رقيق جديد أمرًا أساسًا بالنسبة لهم، حتى يحتفظوا بأعدادهم، وبعد ما جرى من انحدار سكاني، لم يعد هؤلاء الذين يتفردون بزرقة عيونهم وشقرتهم متاحين على نحو كافٍ، تلك المشكلة إلى جانب ما تعرض له المماليك من إنهاك بيولوجي – وهي مشكلة يبدو أنها كانت عامةً للنخب السياسية في أوراسيا بأسرها – كان له أثره في إضعاف دولتهم، وكان طبيعيًّا أن تأتي موجة جديدة من الغزاة الأتراك، أي العثمانيين الذين فتحوا مصر في أوائل القرن السادس عشر[٥٧]. ولم يكن العثمانيون يعدون أنفسهم نخبةً كالمماليك، وكان بإمكانهم أن يصعدوا ببعض من رعاياهم إلى طبقة الحكام، ثم إنهم بدورهم تعرضوا لبطش الموت الأسود. وفي أوائل القرن الرابع عشر عَبَر هؤلاء الأتراك آسيا الصغرى إلى بلاد البلقان، وأفادوا من ضعف الإمبراطورية البيزنطية والدول الصربية، ففتحوا معظم الجهات الجنوبية الشرقية من أوروبا، لكن الطاعون أنقص من أعدادهم، ففي حين كان في إمكانهم هزيمة الشعوب البلقانية، إلا أنه لم تتهيأ لهم أعداد كبيرة تجاورهم في بلادهم، وتحولوا من ثم إلى أرستقراطية إسلامية تحكم رعيةً من المسيحيين، وباستثناء الألبان، فقليل من شعوب أوروبا العثمانية هي تلك التي تحولت إلى الإسلام بأعداد كبيرة، ويذهب "ماكنيل" – وهو واحد من كبار الثقات في الطاعون وفي شعوب الاستبس– إلى أن تلك الحقيقة

بالمقابل أتاحت الفرصة لبقاء المسيحية بالبلقان، كما أنها أعانت على عملية الاسترداد فيما بعد[٥٨].

يذهب "ماكنيل" كذلك بعيدًا في تقديره لما أسفر عنه الطاعون من دمار سياسي، وينوّه – شأنه شأن غيره من الخبراء المتخصصين– إلى أن الجائحة الطاعونية الثانية التي أتت من الاسبتس كانت كاسحةً، وعاثت بمجتمعات الرحل في أواسط آسيا، وحددت النهاية لآلاف من السنين من غزوات هؤلاء وفتوحهم في أوروبا والشرق الأوسط والهند والصين، وفي المقابل فقد نهضت المجتمعات المستقرة على حافة الأراضي العشبية، وأفاقت سريعًا من الموت الأسود، وكانت معاناتها من الطواعين التالية أقل من معاناة غيرها، وكانت تلك الشعوب المستقرة تعكس عملية الفتح تدريجيًا، وشرعت في اقتحام الأراضي العشبية، وبذا فقد أفضى الموت الأسود إلى "الإجهاز على مجتمعات الاستبس"[٥٩].

كانت الحكومات المدنية والملكية في معظم أنحاء أوروبا قد غدت خلال القرن الثالث عشر أكثر قوةً من البارونات والسلطة الإمبراطورية، لكن ما وقع خلال القرن الرابع عشر من كوارث بيئية – أخصها الطاعون– وأزمات مالية تالية له أفضى في بعض الأنحاء – ولوقت قصير– إلى إحياء سلطة البارونات، لكن الجائحة الطاعونية الثانية غيرت من التوازن الاقتصادي في أوروبا، فقد فقدت الأراضي الزراعية وهي الأساس في القوة الاقتصادية للأرستقراطية معظم قيمتها، كما إن جانبًا كبيرًا من الثروة، وإن كان أقل في الدرجة، كان يأتي من التجارة والصناعة، وكان التاج يفيد بما تتيحه له من ضرائب. كذلك كان الاتجاه المتصاعد نحو التعليم العلماني يعني في حقيقته ازديادًا في أعداد العلمانيين سيما المحامين وموثقي العقود الذين كانوا يتطلعون إلى الخدمة في الحكومات، وكان للأوضاع الجديدة الناجمة عن الانحدار السكاني أثرها في تشكيل بيروقراطيات مركزية، تعد هي الأصل في تلك الحكومات التي بزغت لدى مطالع العصر الحديث.

كان للجائحة الطاعونية الثانية تأثيرها كذلك في التطور الثقافي والفكري بأوروبا، وقد أتينا فيما سبق على ذكر تأثيرها في الفنون الجميلة، ونأتي الآن على ذكر تأثيرها في الفلسفة والتعليم وما شابها، من مغالاة في اتجاهات بعيدة عن التفكير العقلاني[٦٠]؛ ففي عام ١٢٧٧م وبعد نصف قرن من الجدال العنيف، تم استبعاد أعمال "أرسطو" وشراحه

الإسلاميين من المناهج الدراسية في جامعة باريس، وهي كبرى مؤسسات التعليم العالي في أوروبا، كما تم إقصاء بعض مفسريها من هيئتها للتدريس، ولم تلبث أن امتدت الإدانة إلى مؤلفات أخرى يركز أصحابها على العقل أو ارتباط العقيدة به في دراسة اللاهوت، وشمل ذلك معظم مفكري أوروبا الكبار، ومنهم "توما الأكويني" Thomas Aquinas(*)، ومع أن أعمال "أرسطو" ظلت تدرس في بعض الجهات، إلا أنه في معظم الجامعات تفردت بالساحة أطروحات لمثقفين يمينيين، لا سيما كتابات الفرانسيكان المحافظين مثل بونافينتورا Bonaventura(**)، الذي يؤكد على أهمية الإيمان والإلهام في المسيحية ولاهوتها.

وبعد ١٢٧٧م تحول معظم المفكرين المهمين إلى نوع من الشك العقيم، فهم يتشككون في قدرة الإنسان على فهم اللاهوت[٦١]، وكانت تلك هي الطريق التي سلكها ثلاثة من كبار المفكرين في العصور الوسطى المتأخرة: هم «جون دونس سكوتوس» John Duns Scotus(***) و"وليم أوكام" William Ockham(****)، و"جابرييل بيل" Gabriel Biel(*****)، ومن هنا يتضح لدينا أن مجتمع المثقفين الأوروبيين كان في حال انحدار قبيل مقدم الطاعون، الذي كان من شأنه "التعجيل بالهرب من التفكير العقلي".

يمكننا أن نتلمس ذلك الهرب بعدة طرق: أولاها ذلك الاتجاه نحو الألفية عند عدد من المثقفين[٦٢]، وكانت تلك الألفية كما سبق أن تحدثنا عنها في الفصل الرابع هي الاعتقاد بأن العالم بسبيله لأن يصل إلى نهايته، وأن مملكة السماء آتية بلا ريب، وارتبطت من إحدى الزوايا بالسياطية، لكنها في معظم الأحوال لم تكن كذلك، والأحرى أنها كانت حركة شعورية "بعيدةً" عن العقل، قام عليها عدد كبير من الدارسين ورجال الكنيسة، وكان كثير من الألفيين يربطون بين المجيء الثاني للمسيح والحركة الفكرية المحافظة التي تحققت لها السيادة في مناهج الدراسة بالجامعات بعد ١٢٧٧م والحاجة إلى

(*) (١٢٢٥-١٢٧٤م)، القديس كبير فلاسفة العصور الوسطى، وأهم كتبه: Summa Theologiae.

(**) (١٢٢١-١٢٧٤م)، القديس، راهب فرانسكاني إيطالي ولاهوتي ومن كبار علماء الكنيسة.

(***) (ح ١٢٦٦-١٣٠٨م)، فيلسوف إسكتلندي أسس مدرسة مناهضة للتوماوية.

(****) (ت: ١٣٤٩م)، فيلسوف مدرسي إنجليزي، صاغ ما صار يعرف بـ «مبدأ النصل الأوكامي».

(*****) (١٤٣٠-١٤٩٥م)، لاهوتي ألماني وفيلسوف.

الإيمان والكفارة والإلهام، ولدينا مثال على ذلك في كتاب "جون روبيسسا" John Rupecissa(*)، «كتاب الوقائع السرية» Liber Secretum Eventum الذي انتهى من تأليفه في نوفمبر ١٣٤٩م، فهو يقدم الألفية على أنها استشراف للمستقبل، وأنه في عام ١٣٧٠م سوف يعود المسيح ويصرع الدجال ويبزغ عالم جديد سعيد. وفي عام ٢٣٧٠م أي بعد ألفية أخرى يأتي يوم الحساب، وتقام مملكة السماء على الأرض، والحق أن "روبيسيسا" كان يقدم نظرة تعبق بالتفاؤل، لكنه يسعى إلى شرح الميتافيزيقا والأهم الإبستمولوجيا على أسس غير عقلانية.

لدى مقدم الموت الأسود فإنه أسهم في ذلك الانحراف الثقافي على نحو آخر[١٣]. فقد كان رجال الدين وعلى الرغم من منافسة البورجوازية لهم هم أكثر فئات المجتمع تعليمًا، وهلكت أعداد كبيرة منهم بالطاعون، وربما كانت تلك الأعداد أكبر من أعداد من هلكوا من عامة الناس، وفي المدة بين مايو وأغسطس ١٣٤٨م مات من الكرادلة ما لا يقل عن ٢٨٪، فضلًا عن خمسة وعشرين من كبار الأساقفة ومائتين وسبعة من الأساقفة، وكان أمراء الكنيسة هؤلاء بين أكبر الرعاة للمثقفين سخاءً، وكان موتهم يعني توقفًا مؤقتًا لمورد مهم من موارد الرعاية، ثم إن الموت الأسود حصد كذلك أرواح عدد كبير من أعيان المثقفين والمفكرين بمن فيهم الرياضيان "برنارد بارليان" Bernard Barleian و"توماس برادواردين" Thomas Bradwardine(**)، والمؤرخ "جيوفانّي فيللاني" ومن المرجح كذلك الفيلسوف واللاهوتي "وليم أوكام"، وخسارة مثل تلك شملت كذلك ما بين ربع أساتذة الجامعات بأوروبا إلى ثلثهم: بمعنى أنها أصابت النظام الجامعي بالشلل، وكان ذلك النظام يتقدم بخطىً ثابتة منذ القرن الثاني عشر: فقد كان لدى أوروبا في عام ١٣٤٩م ما يقدر بثلاثين جامعةً، اختفت خمس منها في ١٣٦٠م وخمس عشرة أخرى في ١٤٠٠م، فقد ترتب على الانحدار السكاني تقلص في أعداد الطلاب أو الطلاب المحتملين شأنهم في ذلك شأن كلياتهم. وعانت كامبردج ذاتها من النقص في أعداد الحاصلين على البكالوريوس

(*) ولد (ح ١٣٦٦م)، في أفينيون راهب فرنسي فرانسكاني وكيميائي، قام بتجارب في مجال تقطير المياه وصنع ما دعاه «ماء الحياة» Aqua Vitae لعلاج الأمراض كافة، كما كانت له انتقادات موجهة للكنيسة.

(**) (١٢٩٠ – ١٣٤٩م)، كبير أساقفة كانتربري.

والمؤهلين لأن يصبحوا قساوسةً، حتى إن أسقف نورويتش(*)، الذي كانت كامبردج تدخل في نطاق سلطاته القضائية بدأ تلك العملية التي انتهت إلى تأسيس ترينتي هول Trinity Hall، ولأسباب أخرى مشابهة تأسست كلية جونفيل Gonville College في ١٣٤٩م وكلية كوربوس Corpus College في ١٣٥٢م ونيوكوليدج أكسفورد New College Oxford في ١٣٧٩م[٦٥].

كانت الجامعات في القارة الأوروبية تعاني من المشكلات ذاتها، بل إن الحال كانت أسوأ في جامعة أفينيون، لدرجة أن طلابها تقدموا بالتماس إلى البابا "إنوسنت السادس"(**)؛ يقولون فيه: "أيها الأب المقدس: في الوقت الذي يتم فيه حرمان طاقم الجامعة في رواقكم من محاضراتهم بعد أن غادره الجميع، بسبب الموت الناجم عن الوباء؛ من أطباء ومجازين (أشخاص منحوا إجازات من البابا لممارسة مهنة بعينها، وفي هذه الحال فربما كانوا معلمين) فإننا نحن الحاصلين على البكالوريوس وطلابًا آخرين ممن لا يزالون موجودين في تلك الرواق والذين أمضوا ليال طويلةً ساهرين دون نوم، من أجل أن يتحصلوا على المعارف الكنَسيّة، فإنه وبسبب ما أحدثته الحروب من خراب كما هي حال بعضهم وآخرين بسبب الصراعات على المناصب الكنسية، وبسبب أثقال الفقر، فإن هؤلاء جميعهم لم تعد لديهم القدرة على أن يخدموا أنفسهم ولا أن يخدموا الآخرين، وأن يستعيدوا ما كان لديهم من كتب أو يصعدوا إلى ما يستحقونه من مكانة"[٦٦].

من المتفق عليه بين المؤرخين أنه كان للموت الأسود تأثيره في التعليم العالي، لكنهم يختلفون في تحديد مداه، وشاعت قبل الحرب العالمية الثانية فكرة تقول بأن الانحدار السكاني كان كارثةً لم تبرأ منها الجامعات قبل القرن السادس عشر، وكان من نتائج تلك الكارثة أن نهضت الثقافات خاصةً ما عرفت بالإنسانية الإيطالية خارج الجامعة، وقد عدّل البحث الحديث من ذلك المنظور، ويذهب بعض المؤرخين الآن إلى أن نسبة الموَتان بين الأكاديميين كانت أدنى بكثير قياسًا بغيرهم من السكان[٦٧]، وأفضل ما تم إجراؤه في هذا الشأن كان في أكسفورد؛ حيث تتوافر قوائم ضافية بكليتها الجامعية وطلابها، وتوضح

(*) وهو «وليم بيتمان» William Bateman.

(**) (١٣٥٢-١٣٦٢م)، من بابوات أفينيون.

المادة التي تختص بمدرسة اللاهوت أن نسبة الموَتان بها كانت أدنى منها في كامبردج، وفي معظم الجامعات الأوروبية، وتتراوح بين ٥٪ – ١٠٪ بالنسبة للكلية وزهاء ٣٠٪ بين طلابها، على أن مما تجب ملاحظته أن تلك الأرقام لا تتضمن كثيرين من الأكاديميين الذين كانوا قد لاذوا بالفرار قبل أن يلاحقهم الطاعون. وبعد الموت الأسود كان الطلب على أماكن في أكسفورد ما يزال شديدًا، ومع أن التسجيل بها قد تعطل لعدة سنوات، لكنه لم يلبث أن استرد عافيته في منتصف الخمسينيات وظل على ثباته حتى أواخر القرن الرابع عشر ومعظم سنوات القرن الخامس عشر، وذلك على الرغم من الانخفاض الحاد في عدد السكان بإنجلترا، وفي ستينيات القرن الرابع عشر كانت هناك زيادة مؤقتة في أعداد الطلاب بمدارس الإنشاد واللغة وهي المؤسسات التي تغذي الجامعات بطلابها.

لم يكن ما جرى – من انخفاض نسبي في عدد الموَتان ثم البرء السريع منه– يعني أن أكسفورد وغيرها من مؤسسات التعليم العالي في إنجلترا كانت بنجوة من الطاعون، فقد هلك عدد من كبار أساتذتها بمن فيهم «توماس براد واردين» و»ريتشارد رول» Richard Rolle(*)، و"جون باكونثورب" John Baconthorp(**)[٦٨]، وشرعت كلية ميرتن Merton في برنامج متطور في علم الفيزياء التجريبية، وكان من جملة ما أنجزته في مراحلها الأولى نظريات جديدة في الحركة والدفع Impetus، وهي نظرية صحيحة في أساسها، لكنه في المقابل قد مات عدد من منظّريها الأساسيين في الطاعون، ولم يحل محلهم من كانوا في مستواهم، وسرعان ما باء برنامج ميرتن بالفشل.

كان النقص في أعداد الباحثين المهرة والمنظرين والأساتذة كارثيًا في مجال التعليم الكنسي[٦٩]، ومن أجل شغل مناصب الكلية والإبقاء على الالتحاق بها، نهضت السلطات الكنسية ببرنامج متفق عليه لتدريب كَهَنَة جُدُد، وبالنتيجة كان القساوسة بوجه عام يؤتى بهم إلى الجامعة، غالبًا من مدارس ابتدائية وثانوية كانوا يعملون بها مدرسين، وأدى ذلك إلى أن شُغلَت تلك المناصب بمن هم أقل قدرةً وفي أحيان أقل تدريبًا أو غير أكفاء، مما أفضى إلى تدهور واضح في نوعية التعليم قبل الجامعي، ولدى عام ١٤٠٠م

(*) (ح ١٢٩٠–١٣٤٩م)، كاتب ومتصوف وألف باللاتينية والإنجليزية.

(**) (ت: ١٣٤٨م)، راهب كرملي وكاتب.

إن لم يكن قبله التحق بالجامعة عدد كبير من الطلاب الذين لم يكونوا قد حظوا بتدريب كافٍ، كما كانوا غير قادرين على أن يكتبوا باللاتينية أو أن يترجموا منها، وفي المقابل قد كان من شأن ذلك أن يكون سببًا فيما أصاب المدرسية من عقم في أواخر العصور الوسطى وإخفاق.

كان لعملية التجريف تلك نتائج أخرى مهمة؛ تكمن إحداها في التحول الشامل إلى استخدام اللغات الدارجة[٧٠]؛ ففي إنجلترا كانت اللاتينية والفرنسية معًا هما لغتا الثقافة والحكومة منذ القرن الحادي عشر، وقد تغير كل ذلك بعد الموت الأسود؛ ففي عام ١٣٥٣م أعلنت الإنجليزية لغةً رسميةً في محاكم لندن وفي عام ١٣٦٢م اعترف بها لغةً في المحاكم القضائية العليا، وبعدها بسنة افتتح قاضي قضاة لندن البرلمان بخطبة باللغة الإنجليزية، وفي عام ١٣٨٥م أعلن «جون تريفيزا» John Trevisa، وهو أشهر ناظر مدرسة في زمانه "إن الأولاد (الإنجليز) في زماننا لم يعودوا يعرفون من الفرنسية أكثر مما يعرفون عن أعقاب أقدامهم اليسرى".

مثلما قام الموت الأسود والجائحة الطاعونية الثانية بدور بارز فيما جرى من تطورات تعليمية وفكرية مهمة، فقد قام بالدور ذاته في التطور الاقتصادي والمؤسسي، فقد هلك كثير من المتدرِّبين المهرة، ولم يعد هناك من يحل محلهم، فعلى سبيل المثال فقد فتك الطاعون بالعديد من كبار البنائين في إنجلترا: هؤلاء الذين نهضوا بالتصاوير التفصيلية على الكاتدرائيات والقلاع ومباني البلديات[٧١]، ولم يكن بمقدور من تبقى منهم أن يقوموا بتدريب ما يكفي من الحرفيين أو أن يقوموا بالأعمال الخاصة بالعمارة القوطية السابقة للطاعون، وكانت النتيجة انهيارًا شاملًا في مستويات العمارة، لم يتمكن من علاجه قبل نهاية القرن الخامس عشر.

من الواجب صرف مزيد من العناية لتقدير الآثار البعيدة المدى للجائحة الطاعونية الثانية، ومن الخطورة بمكان إقامة سجالات بعدية لتحديد حالة أوروبا ومشكلاتها في أواخر القرن الخامس عشر والعودة بها إلى الوراء، بادعاء أن الانحدار السكاني كان هو السبب فيها، فلم تكن الجائحة الطاعونية الثانية مسئولةً وحدها عن تلك التغيرات المهمة التي وقعت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فكثير منها -خصوصًا ما يتصل بالحكومات- ربما يكون قد وقع في ظروف مختلفة، لكنها ربما كان يقدر لها - وبدون

الطاعون- أن تنمو على نحو مختلف وتحتاج وقتًا أطول من أجل أن تتخذ هيئتها. وبذا كان للموت الأسود وغيره من طواعين العصور الوسطى المتأخرة تأثيره الحاسم في تلك التغيرات المعقدة.

وصلت الجائحة الطاعونية الثانية إلى نقطة تحول إتيولوجية في أواخر القرن الخامس عشر، هي التي بدأت التحول بأوروبا إلى مرحلة مرضية جديدة[٧٢]: ففي ١٤٧٨-١٤٨٠م ضرب الطاعون القارة بأسرها، وكانت تلك الضربة واحدةً من أفدح الضربات التي مرت بها أوروبا في أواخر العصور الوسطى، وربما كانت أشدها حدّةً منذ الطاعون الثاني pestis secunda الذي وقع في ١٣٦١-١٣٦٢م ويبين لنا أن ١٥٪ على الأقل من سكان إنجلترا والبلاد الواطئة وفرنسا قد هلكوا، لكنه يبدو لنا أنه في أعقاب ذلك الطاعون جرى تطوُّر مهمٌّ للحشرات والقوارض الحاسمة في نقل عُصَيَّة يرسين إلى البشر وهو ما يتضح في أنه صارت هناك مسافة زمنية أطول ما بين طاعون وطاعون آخر. فإذا استخدمنا الجُزُر البريطانية كمثال، فلم تقع بها بعد عام ١٤٨٠م ولمدى يصل إلى عشرين عامًا طواعين مهمة. لكن الطاعون لم يختف تمامًا؛ فوقعت طواعين عنيفة في بريطانيا كلها في ١٤٩٩م و١٥٠٩ - ١٥١٠م، و١٥١٦-١٥١٧م و١٥٢٧ - ١٥٣٠م[٧٣]، وإذا كانت تلك الطواعين تصل في شدتها وعنفها إلى ما كانت عليه طواعين القرن الخامس عشر من شدة وعنف، فإنها كانت تختلف عنها في تواترها؛ فلم يعد الطاعون يأتي كل ثلاث سنوات أو أربع أو حتى خمس في الجيل الواحد، مما كان يسمح بفترة من التعافي بين الطواعين، ونتيجةً لذلك. فقد بدأ السكان في النمو على نحو بطيء في ثمانينيات القرن الخامس عشر، ثم على نحو متسارع في بدايات القرن السادس عشر، وفي عام ١٥٣٠م عاود السكان ما كان عليه تعدادهم قُبيل الموت الأسود.

لدينا شواهد متاحة من أجزاء أخرى في غربي أوروبا تنوّه إلى اتجاهات الحلقات الطاعونية والسكان على نحو مماثل لتلك التي شاهدناها في الجزر البريطانية[٧٤]: ففي عام ١٥٠٠م كانت الأزمة الديموغرافية التي وقعت في أواخر العصور الوسطى قد شارفت نهايتها، ومع أنه قُدِّر للجائحة الطاعونية الثانية أن تتواصل حتى أواخر القرن السابع عشر، إلا أنها لم تعد لها أهميتها كمحدد اجتماعي، مثلما كانت عليه حالها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

لدينا كذلك شواهد أخرى تعود إلى أواخر القرن الرابع عشر على أمراض كانت بسبيلها للصعود إلى مسرح الأحداث[٧٥]. فحالما تبدلت أنماط الطاعون برزت إلى الساحة أمراض جديدة، كما عاودت أمراض أخرى قديمة ما كان لها من خطورة. وأول ما لدينا من روايات عن التيفوس typhus أو حمى السجون تعود إلى القرن الخامس عشر، وحيث إنه كان يتلازم دائمًا مع القذارة فكان السبب فيه مجهري يدعى ريكتسيا Rickettsia تحمله قملة البدن البشري، وهو شديد السُّمِّيَّة وربما يكون مميتًا، والحق أنه كان لبعض الجوائح التيفوسية في القرن السادس عشر من الإماتة ما كان للطواعين ويعود التيفوس في أصله إلى شبه القارة الهندية، ويحيط الغموض بأوان ظهوره في القارة الأوروبية، وبما أن المجاعة وسوء التغذية يفاقمان منه، فربما أخَّر الانحدار السكاني - الناشئ في أعقاب الموت الأسود- من انتشاره، لكنه توافرت لدينا المؤشرات المتزايدة عن حضوره المحتمل في القرن الخامس عشر، فكانت هناك حالات موت كثيرة في الربيع، دون ذكر لأمراض "البثور" وحصاد أقل من المعتاد يتزايد مع نسبة موتان غير عادية. وربما أصاب ذلك المرض ألمانيا وفرنسا في مرحلة مبكرة تعود إلى ثلاثينيات القرن الخامس عشر، وهناك إشارات محددة إليه في خمسينيات ذلك القرن وسبعينياته، وربما تمرست به بريطانيا في ثلاثينيات القرن الخامس عشر، لكن الإشارة الواضحة إليه تأتينا في عام ١٤٤٤م من سجن نيوجيت Newgate بلندن[*]؛ فخلال أسبوع واحد كان قد هلك خمسة من سجانيه وأربعة وستون من مساجينه، ومن هنا يأتي وصفه بحمى السجون، ثم وصل التيفوس إلى ذروته في القرنين السادس عشر والسابع عشر، لكنه يعود في أصوله إلى العصور الوسطى.

كان للنزلة الوافدة أو الإنفلونزا Influenza حضورها كذلك في الغرب وفي الشرق الأوسط خلال العصور الوسطى، لكنها توحشت عندما غدا الطقس في القرن الثالث عشر أكثر بردًا، وأغزر مطرًا[٧٦]، وتعد الإنفلونزا من أكثر الأمراض المعدية انتشارًا، ولها ما يزيد على ثلاثمائة ألف سلالة، الأمر الذي يجعل الحصانة منها كلها مستحيلًا، وكان تنقُّلها عبر الهواء والجهاز التنفسي كفيلًا بأن يتمرَّس المرء بها عدة مرات في حياته، وبوجه عام

(*) سجن إنجليزي يعود تاريخه إلى القرن الثالث عشر أو قبله، أعيد بناؤه في (١٧٧٠-١٧٨٣م) على يدي المهندس المعماري «جورج دانس» George Dance، وتم هدمه في (١٩٠٤م).

فإنه ينشأ عنها رد فعل متوسط. لكنه يكون خطيرًا بالنسبة لصغار السن وكبارهم وذوي الصحة العليلة، وأحيانًا ما كانت تظهر منها سلالة فتاكة تصبح قاتلةً، مثلما كانت الحال في المدة ١٩١٨-١٩٢٠م، حين أتت الأنفلونزا الإسبانية على حيوات عدد أكبر ممن فتكت بهم معارك الحرب العالمية الأولى، وكذا كانت حال وباء الإنفلونزا الذي وقع في ١٤٢٦-١٤٢٧م واكتسح إسبانيا وفرنسا والبلاد الواطئة والجزر البريطانية: ففي شرقي إنجلترا حيث تتهيأ لدينا مادة مناسبة، أهلك ذلك الوباء خمسةً بالمائة من جملة سكانها. وكان الأكثر منه في قساوته ما يعرف بـ"داء العرقان" Sweating Sickness أو "عرق پيكاردي" Picardy الذي ظهر لأول مرة في ١٤٨٥م في الأراضي المتاخمة للقناة الإنجليزية English Channel ، ثم عاود هجماته ست مرات على الأقل حتى ١٥٥١م. وفي خريف ١٤٨٥م كان قد فتك بثلاثة من عُمَد لندن. وإذا كانت الإنفلونزا أقل في إماتتها من الطاعون، إلا أنها في بعض الحالات كانت تصل في إماتتها إلى عشرة بالمائة من جملة السكان.

ظهر الزهري Syphilis كذلك في أواخر القرن الخامس عشر[٧٧]، وكان للأمراض الجنسية خصوصًا السيلان Gonorrhea حضورها في أوروبا منذ عهد قديم، وكان ينظر إليها على أنها مشكلة ترتبط بالجيوش على نحو خاص، وبعد حملته إلى فرنسا في عام ١٤٧٥م عقَّب "إدوارد الرابع"(*)، ملك إنجلترا على إصابة جنوده بـ"الزهري الفرنسي" French Pox: فيقول: "لقد فقدت كثيرًا من رجالي الذين أفرطوا في ممارسة الجنس مع النساء، فيشوب الإحمرار ذكر الواحد منهم، ولا يلبث أن يصاب بالوهن في بدنه ثم يموت"؛ بيد أن الغموض يحيط بذلك المرض لدى حضوره اللافت في أواخر العصور الوسطى، وهو المرض الذي أضحى أشد الأمراض الجنسية إماتةً(**)، في العصر الحديث. ولدينا في هذا الخصوص نظريتان أساسيتان: أولاهما هي النظرية الكولومبية Columbian(***)، فهي تعزو وصوله إلى اكتشاف العالم الجديد، فيستدل من الشواهد الأثرية والحفرية على أن الزهري كان متوطنًا بالفعل بين السكان القدامى في أمريكا الوسطى، وأنه قد أتي به إلى أوروبا على أيدي رجال "كولمبوس" وبعض أسراه من

(*) (١٤٦١-١٤٨٣م)، عزل لسنة واحدة (١٤٧٠-١٤٧١م) ثم عاود حكمه.

(**)بطبيعة الحال فقد انتزع الصدارة منه في عصرنا مرض نقص المناعة المكتسب (الإيدز أو السيدا).

(***) نسبة إلى «كريستوفر كولمبوس» مكتشف العالم الجديد.

الهنود الأمريكيين، ولا تخلو تلك النظرية من ضعف؛ خصوصًا فيما يتعلق بانتشار ذلك المرض على أيدي عدد قليل من الأفراد، لكن هناك من الأمراض الجديدة ما ينتشر بسرعة في مجتمعات مكشوفة، والأهم من ذلك أن المراقبين الطبيين المعاصرين كانوا على قناعة بالأصول الأمريكية لهذا المرض.

التفسير الآخر يُدعى بالنظرية التوحيدية Unitarean وتركز تلك النظرية على الأصول الإفريقية للزهري، وتتمثل في الداء العليقي Yaws(*)، وهو مرض جلدي تتسبب فيه اللولبيات Treponema Spirochetes ذاتها المسئولة عن مرض الزهري؛ ففي منتصف القرن الخامس عشر، وفي سياق سعيهم وراء الذهب والعبيد، وفي سياق سعيهم كذلك وراء طريق بحرية مباشرة إلى الهند، شرع الملاحون البرتغاليون في إقامة مراكز تجارية لهم على طول السواحل الغربية للقارة الإفريقية، وما كانت تمضي سنوات قليلة حتى كانوا قد أتوا بعبيد أفارقة، ربما كان بعضهم مصابًا بهذا المرض، ومن أجل أن تتهيأ للتريبونيما فرصة للبقاء كمرض جلدي، فلا بُدَّ من أن يكون المناخ شديد الحرارة رطبًا، على أنه من الممكن أن تكون قد حدثت لها طفرة في الشمال البارد، وتذهب تلك النظرية إلى أن تلك اللولبيات كانت تمضي متعمقةً داخل البدن إلى أن تصل إلى الجهاز العصبي، وخلال عدة عقود تصير زهريةً وتحتمى بالمواضع الدافئة الرطبة من جسم الإنسان. ولهذه النظرية وجاهتها، من حيث إن أعداد الأفارقة بالقارة الأوروبية في تسعينيات القرن الخامس عشر كانت أكبر بكثير من أعداد الهنود الأمريكيين أو الأوربيين الذين مارسوا الجنس معهم، ومن حيث إنها تتلاءم مع فترة الحضانة الطويلة للمرض، لكن ضعف هذه النظرية يكمن في قوة النظرية الكولومبيَّة أي اقتناع المعاصرين بها وتوقيت التسعينيات من القرن الخامس عشر.

أيًّا كان السبب الحقيقي للزهري، فإن عواقبه كانت مذهلةً؛ فقد أتى به إلى الشمال جيش "شارل الثامن"(**)، ملك فرنسا بعد حملته في عام ١٤٩٢-١٤٩٤م إلى جنوبي

(*) أو الزنجي.

(**) (١٤٧٠-١٤٩٨م)، عُرِف بـ«النُّمِث».

إيطاليا التابع لإسبانيا، وكان جيشه يضم فرنسيين وألمان ووالون Walloons(*)، وسويسريين وإسكتلنديين وإيرلانديين تم تسريحهم بعد الحملة، وقد اصطحب هؤلاء الجنود ذلك المرض في طريق عودتهم إلى بلادهم، ولم يلبث أن انتشر في صيف العام التالي عبْر الأراضي المتحدثة بالألمانية في أوروبا الوسطى. ووصل إلى البلاد الواطئة والجزر البريطانية في شتاء ١٤٩٦م، وفي نهاية العام ذاته كان قد وصل إلى روسيا البعيدة شرقًا، وقد دعا الإيطاليون ذلك المرض بـ"الزهري الفرنسي»(**)، وهو الاسم الذي صار أكثر شهرةً، لكن الفرنسيين دعوه بـ"الزهري الإيطالي"، ودعاه الإنجليز بـ"الزهري الإسباني"، والبولنديون بـ"الزهري الألماني"، والروس بـ"الزهري البولندي"، وقد كتب الإنساني الألماني "أولريتش فون هوتون" Ulrich Von Hutton(***)، أطروحةً وصَفَ فيها معاناته الشخصية مع هذا المرض، وبين هؤلاء المظنون إصابتهم به "كريستوفر كولمبوس" و"فريناند الأول"(****) ملك إسبانيا و»هنري الثامن»(*****)، ملك إنجلترا، ووزيره الكردينال «وولزي» Wolsey(******)، و"شارل الثامن"(*******) و"فرانسيس الأول"(********) ملكا فرنسا، والبابا "ألكسندر السادس"(*********)، و"إيفان الرابع"(**********) قيصر روسيا، والكاتب الإنساني "إراسموس" Erasmus(***********). وكما كانت حال الطاعون فقد تطرق الزهري إلى الفن والأدب، ومن أحسن الأمثلة عليه رائعة ديرر Albrecht Dürer، في الحفر على الخشب التي تعود إلى عام ١٤٩٦م وتدعى بـ"مريض الزهرى" The Syphilitic.

(*) أو الفالون، ويمثلون زهاء نصف سكان بلجيكا المعاصرة.

(**) إلى وقت قريب كان المصريون يطلقون على الزهري تعبير «الأفرنجي».

(***)(١٤٨٨-١٥٢٣م)، نبيل ألماني ذو نزعة إنسانية ساند «مارتن لوثر» في دعوته، كما إنه مؤلف ملهاءات.

(****) ليس الأول وإنما الخامس (١٤٧٤-١٥١٦م) بزواجه من «إيزابلا» وحَّد إسبانيا كلها، وعلى يده سقطت غرناطة في (٨٩٧ هـ/١٤٩٢م).

(*****) (١٤٨٥-١٥٠٩م)، أول ملوك إنجلترا من أسرة تودور، انتصر في حرب الوردتين.

(******) (ح ١٤٧٥-١٥٣٠م)، كبير أساقفة يورك، ووزير «هنري الثامن».

(*******) (ح ١٤٧٠ – ١٤٩٨م)، اشتهر بغزوه لإيطاليا.

(********) (١٥١٥-١٥٤٧م)، خاض حروبًا طويلة ضد الإمبراطور «شارل الخامس» النمساوي الإسباني.

(*********) (١٤٩٢-١٥٠٣م)، اشتهر برعايته للفنون، كما كرس حياته لتأكيد السيادة الزمنية للبابوية.

(**********) أو الرهيب (١٥٣٣-١٥٨٤م)، دوق موسكو الكبير، وأول قياصرة روسيا.

(***********) رسام هولندي، ومن كبار فناني عصر النهضة بألمانيا.

لم يكن الزهرى بذاته سريع الفتك بضحيته، والنوع الأكثر انتشارًا منه هو الذي كان يتخذ هيئة مرض انحلالي degenerative؛ ولذلك السبب كان أضأل في أهميته التاريخية من الطاعون أو الجدري أو النزلة الوافدة أو التيفوس. لكنه كان يخلّف آثارًا مفزعة في ضحاياه وصحتهم، وفي ذريتهم بعدهم، وغالبًا ما كان هؤلاء جميعًا يصابون بالعقم، فضلًا عن ذلك فقد بدا بانتشاره وبائيًا في تسعينيات القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر وما صاحب ذلك الانتشار من عنف، وكأنه يمكن أن يأتي بطرق غير جنسية ويفتك ببعض ضحاياه.

بوصول الزهري إلى أوروبا تكون قد انتهت مرحلة العصور الوسطى من الأمراض المعدية، وإذا نحن استخدمنا مصطلحات الطب الحيوي، فإن تلك تُعَدُّ العصور الأكثر احتفالًا أو الأكثر أهمية في تشكيل الأمراض المعدية بالغرب. وقد كانت الهجرات المتتابعة للإنسان والحيوان من إفريقيا وآسيا إلى أوروبا – وعلى نحو خاص أوروبا المتوسطية– قد أتت معها بالجدري والحصبة والطاعون والجذام والزحار والنزلة الوافدة والتيفوس وغيرها من الأمراض المعدية أو حين بدأ الأوروبيون في توسعهم الكوكبي وفتوحاتهم زهاء عام ١٥٠٠م، فقد امتدوا بتلك الأمراض إلى آفاق جديدة، وبمصطلح ديموغرافي كانت الأمراض المعدية هي العنصر الأهم في التحكم في الموّتان خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وواحدة من أهمها خلال الحقبة السابقة مباشرة الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر. بالإضافة إلى أن مستويات الخصوبة في أواخر العصور الوسطى كانت منخفضةً للغاية، وعلى الرغم من الظروف الملائمة والفرص المتاحة لملكية الأرض وتوريثها كان المحدد المعتاد يكمن في الزواج وإنجاب الأطفال في مناطق بها أزمة كتلك[٧٨]، وقد عجز الديموغرافيون عن تفسير لماذا كان ذلك، على الرغم من كون كثيرين يعتقدون أنه كانت هناك أسباب نفسية بما تتضمنه من التعويل على إنجاب أطفال في مناطق بها أزمة مثل تلك، لكن كان هناك شيء واحد واضح هو أن العصر الذي يمتد من ١٣٥٠م إلى ١٥٠٠م يعد واحدًا من عصور الانحدار السكاني وما يصحبه من نسبة موتان عالية وانخفاض في مستويات الخصوبة، وبتعبير فج فعندما يتفشى الطاعون أو غيره من الأمراض المعدية فإن السكان يتناقصون، وعندما تكون تلك الأمراض أقل تواترًا أو أقل عنفًا فإن عدد هؤلاء السكان يزداد.

خاتمة

بين منتصف القرن الثالث عشر ونهاية القرن الخامس عشر كانت أوروبا ومعظم أقطار الشرق الأوسط وشمالي إفريقيا وآسيا تعاني من أعنف أزمة بيئية تمرَّست بها على مدى تاريخها كله؛ فقد خلَّفت المحددات البيولوجية والمناخية -على نحو غير مسبوق منذ فجر الحضارة- تأثيرها الفاعل وغير المسبوق في حياة الإنسان بجوانبها كافة، وكان أشد تلك المحددات هو الطاعون؛ فقد تعاقبت الطواعين التي كانت تتحكَّم فيها القوارض والحشرات على مدى العصور الوسطى المتأخرة، فباتت تعصف بالبشر حيثما تتهيأ الفرصة لتلك القوارض والحشرات، وربما كان المفتاح لفهم القرنين الرابع عشر والخامس عشر أي خط تقسيم المياه بين العصور الوسطى والعصور الحديثة هو عجز الإنسان في تعامله مع الطبيعة حوله.

بين جملة ما أتت به تلك الأزمة البيئية ما كان له فائدة للإنسان: فقد تحصل معظم من قُدِّرت لهم الحياة بعدها على قَدْر من الرفاهية، كما تحرر الفلاحون بالغرب من معظم ما تمرَّسوا به من أغلال، وأضحى الأوروبيون في عمومهم بمأمن من الحاجة، الأمر الذي كان من شأنه أن يطلق العنان لنمو سكاني متسارع، على أنه لا ينبغي لنا أن نعظِّم من غالب تلك النتائج[1] بالنسبة لمن عاشوا في زمن المجاعة والطاعون ثم قدر لهم أن يعيشوا بعدها، إنما يمكن أن نعظمها لمن عاشوا بعدها بسنوات أبعد. صحيح أنه تحقق ارتفاع في دخولهم أو زيادة في أعداد ما كانوا يمتلكونه من مواش، لكنهم كان ينفقون بسخاء ما استجد عليه من فوائض في شراء أشياء ثمينة أو إعداد ولائم، والأهم هو أن تجربتهم مع طاعون – مثل ذلك الطاعون وغيره من بلايا عرضت لهم- كانت تجربة فظيعة وأليمةً وقاسيةً، وبدا الأمر حتى عند أشد الناس إيمانًا، وكأن يوم الحساب الذي يتوقعه الجميع يلوح للعيان، فلم تأت الجائحة أو الانحدار السكاني بشيء طيب لأولئك الذين انتهت حيواتهم قبل الأوان، كما

إنها لم تأت بالراحة ولا الطمأنينة أو الأمان لهؤلاء الذين أفلتوا بحيواتهم، بل إنهم صاروا يتوجسون من فقْد بعض أحبائهم أو يتخوفون من هجمات تالية للطاعون.

لهذه الأسباب وغيرها فقد أتت الأزمة البيئية لأهل العصور الوسطى المتأخرة بمنظور للحياة قلِق ومنحرف وعنيف، وتعاظمت الأزمة الأخلاقية التي تعود في بداياتها إلى القرن الثالث عشر. وقبلها وعلى مدى العصور الوسطى كان هناك ملمح عام مهمّ يسود حيوات الناس جميعهم هو الإحساس بالجماعة: فهم - نظريًا على الأقل- يتشاركون في حياة روحية ومادية، ويسعون نحو غاية واحدة، ولم تكن ثمة ملكية. فقد كانت تلك الملكية منوطةً بسلطة أعلى هي سلطة الرب في نهاية المطاف، وكان مفكرو ذلك الزمان يذهبون إلى أن المجتمع قد ابتني على نحو واضح وتراتبي بين من يملكون ومن لا يملكون، وأن الحياة الدنيا قصيرة الأمد سريعة الزوال، والأهم منها الروح والحياة الأبدية والخلاص ومملكة السماء. ومذهب مثل ذلك قَمِينٌ بأن يفسر لنا ما كان للرهبانية من مكانة عند المعاصرين وشأن؛ فالحياة في الدير هي أقرب حياة إلى المجتمع المثالي في السماء.

بطبيعة الحال فإن أفكارًا مثاليةً مثل تلك، لم توضع أبدًا على المحك حتى في الأديرة ذاتها، وزهاء عام (١٠٠٠م) شرع عديد من الناس كالتجار الذين يجعلون الربح نصب أعينهم والفلاحين ببطونهم الخاوية يتلمسون مُثلًا عليا، تتلاءم معهم أكثر مما تتلاءم مع المجتمع حوْلهم؛ دنيويًا كان هذا المجتمع أو ديريًا، وكان علينا أن ننتظر حتى تأتي الجوائح المتوالية والمجاعات القاسية والمناخ المتقلِّب، فيهتز عالم العصور الوسطى العليا بشدة، وينتهي الأمر بالإطاحة بمُثله. صحيح أن بعضًا من روح تلك العصور الجماعية قد تباطأ حتى القرن التاسع عشر، لكن زوالها كان قد بدأ بالفعل إبان عام ١٣٠٠م، وذلك مع بروز النزعة الفردية التي هي ملمح مهم من ملامح العالم الحديث. وقد أفضى الطاعون والموت الأسود بوجه خاص إلى جَيَشان هائل "عالم يتراوح بين تحت وفوق "The world turned upside and down" كما يرد في قصيدة شعبية[٢]. لقد تولّد مجتمع جديد بمواقف جديدة وطبقات وحزم سلطوية ومصادر ثروة والأهم أفكار جديدة، وقليلة هي تلك العصور التي حفلت بسيولة مثل تلك التي كانت للعصور الوسطى المتأخرة.

ويذهب "لين وايت" Lynn White[*]، إلى أن المسيحيين الأوروبيين كانوا ينظرون إلى العالم حولهم باعتباره مختلفًا عن عوالم جيرانهم من غير المسيحيين[٣]، فكان المسيحيون يرتعبون فزعًا من الطبيعة، لكنهم كانوا يحاولون فهمها والتعايش معها: «فالطبيعة هي كاهن الرب القدير»، ولا بُدَّ أن تتحقق لها السيادة، وكانت تلك الفكرة بالتأكيد هي الحافز الرئيس لصانعي الساعات وللمكتشفين الكبار، وكانت إلهامًا للأطباء في مزاولتهم لمهامهم بعد الموت الأسود، وتمت إزاحة المناهج العقيمة والمؤسسات التقليدية والشروع في تطبيق أفكار جديدة وأدوات وتقنيات، وعندما كانت تبوء مثل تلك الأفكار الجديدة بالفشل يتم الشروع على الفور في أفكار أخرى أكثر جدةً منها، ومما يجدر ذكره أنه وضعت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر بذور العلم الوضعي التجريبي، الذي ربما كان أهم ملمح من ملامح الحضارة الغربية الحديثة.

كان للموت الأسود باعتباره جيشانًا إيكولوجيًّا عظيمًا من الوقع مثلما كان للحربين العالميتين الكبيرتين في القرن العشرين[٤]، لكنه من حيث ارتباطه بطواعين توالت الواحدة تلو الأخرى إبان الجائحة الطاعونية الثانية وعدم استقرار في أحوال الجو، كان قمينًا به أن يكون أعمق في تأثيره منهما؛ لأن الحضارات ما هي إلا المحصلة النهائية لمجموعة متراكبة من الخصائص المؤسسية والثقافية والمادية والبيئية في سياق واحد، وعندما تتصدَّع تلك الخصائص فإن الحضارات سرعان ما تتداعى؛ فقد أفضت الأزمة البيئية التي وقعت في العصور الوسطى المتأخرة إلى نكوص للأنظمة السياسية والاجتماعية القائمة وقتذاك وتراجعها، وتمَّ اقْتلاع ما سبق أن تَجذَّر من قناعات أخلاقية وفلسفية ودينية، وكشف عن خوائها، أو بوجه عام فلم يعد يلتفت إلى المعايير التقليدية. وبذا فقد غيَّرت تلك الكوارث الطبيعية والبشرية من أوروبا ربما بأكثر من أي شيء آخر، لذلك السبب ولذلك السبب وحده يعد الموت الأسود أكبر حدث بيولوجي / بيئي في التاريخ ونقطةً من نقاط التحول الرئيسة في الحضارة الغربية.

(*)(١٩٠٧-١٩٨٧م). أستاذ التاريخ الوسيط بجامعتي برنستون وستانفورد، ركَّز على تطور الابتكارات التقنية في العصور الوسطى.

الهوامش

1. Michael of Piazza, *Bibliotheca scriptorum qui res in Sicilia gestas retulere*, I, p. 562.
2. Agnolo di Tura del Grasso, *Cronaca senese*, in *The Black Death*, ed. William Bowsky (New York: Holt, Rhinehart & Winston, 1971), pp. 13–14.
3. Francesco Petrarch, *Epistolae Familiares*, VIII, p. 290.
4. F.A. Gasquet, *The Great Pestilence* (London: Marshall, Hamilton & Kent, 1893).
5. G.G. Coultan, *The Black Death* (New York: Cope & Smith, 1930).
6. J.W. Thompson, "The Aftermath of the Black Death and the Aftermath of the Great War," *The American Journal of Sociology*, 26: 1920–21.
7. Yves Renouard, "Conséquences et intérêt démographique de la Peste Noire de 1348," *Population*, 3 (1948).
8. E.A. Kosminsky, *Studies in the Agrarian History of England* (New York: Kelley & Millman, 1956).
9. M.M. Postan, *Medieval Agriculture and General Problems* (Cambridge: Cambridge University Press, 1973).
10. Raymond Delatouche, "La crise du XIVe siècle en Europe occidentale," *Les Études Sociales*, n.s. 1959.
11. J.F.D. Shrewsbury, *A History of Bubonic Plague in the British Isles* (Cambridge: Cambridge University Press, 1970).
12. David Herlihy, *Medieval and Renaissance Pistoia* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1967); Élizabeth Carpentier, *Une Ville devant la Peste* (Paris: S.E.V.P.E.N., 1962).
13. Édouard Baratier, *La Démographie Provençale du XIII au XVI Siècle* (Paris: S.E.V.P.E.N., 1961); Guy Bois, *Crise du Feodalisme* (Paris: Presses de la Fondation Nationale des Sciences Politiques, 1976).
14. E. Jutikkala & M. Kauppinen, "The Structure of Mortality during Catastrophic Years in a Pre-Industrial Society," *Population Studies*, 25 (1971); J.D. Chambers, *Population, Economy, and Society in Pre-Industrial England* (Oxford: Oxford University Press, 1972); John Hatcher, *Plague, Population, and the English Economy, 1348–1530* (Macmillan: London, 1977); J–N. Biraben, *Les Hommes et la Peste*, 2

vols. (The Hague: Mouton, 1975); E. LeRoy Ladurie, "Un Concept: L' Unification Microbienne du Monde," *Schweizerische Zeitschrift Für Geschichte*, (1973).

15. William McNeill, *Plague and Peoples* (New York: Doubleday, 1976).
16. Philip Ziegler, *The Black Death* (New York: Harper & Row, 1969).
17. Stephan d'Irsay, "Notes on the Origin of the Expression *'Atra Mors'*," *Isis*, 8 (1926).

Chapter 1

1. Fernand Braudel, in his classic, *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, has shown how crucial a study of environmental conditions is for understanding premodern history. Also see: Georges Duby, *Rural Economy and Country Life in the Medieval West* (London: Edward Arnold, 1968); and B.H. Slicher van Bath, *The Agrarian History of Western Europe* (London: Edward Arnold, 1966). One of the best environmental studies is W.G. Hoskins, *The Making of the English Landscape* (London: Hodder & Stoughton, 1955).
2. The following books deal with the broad sociological effects of disease: Henry Sigerist, *Civilization and Disease* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1943); MacFarlane Burnet & D.O. White, *Natural History of Infectious Disease*, 4th ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 1972); William McNeill, *Plagues and Peoples* (New York: Doubleday, 1976).
3. Thomas Smith Hall, *A Source Book in Animal Biology* (New York: McGraw-Hill, 1951). Also see A.H. Gale, *Epidemic Diseases* (London: Penguin Books, 1951); Major Greenwood, *Epidemics and Crowd Diseases* (New York: Macmillan, 1935); Ronald Hare, *An Outline of Bacteriology and Immunity* (London: Longmans, 1956).
4. This position is taken by McNeill in *Plagues and Peoples* (New York: Doubleday, 1976) and *The Human Condition: An Ecological and Historical View* (Princeton: Princeton University Press, 1980).
5. McNeill, *Plagues and Peoples*, pp. 77–147.
6. August Hirsch, *Handbook of Geographical and Historical Pathology* (London: New Sydenham Society, 1886).
7. Galen, *On the Parts of Medicine*, ed. Malcolm Lyons (Berlin: Verlag Paul Parey, 1969).

8. St. Cyprian, *Treatises*, ed. Roy Deferrari (New York: Fathers of the Church, 1958), p. 210.
9. Arthur E.R. Boak, *Manpower Shortage and the Fall of the Roman Empire* (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1955).
10. The definitive study of plague is J-N. Biraben, *Les Hommes et la Peste*, 2 vols. (The Hague: Mouton, 1975). A good supplement is "The Plague Reconsidered," *Local Population Studies*, (1977).
11. There are two studies of the first plague pandemic: J.C. Russell, "That Earlier Plague," *Demography*, 5 (1968); J-N. Biraben & J. LeGoff, "The Plague in the Early Middle Ages," in *Biology and Man in History*, ed. Robert Forster & Orest Ranum (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1975).
12. Procopius, *History of the Wars*, I, ed. H.B. Dewing (New York: Macmillan, 1914).
13. The data are from Russell, "That Earlier Plague."
14. Biraben and LeGoff, "The Plague in the Early Middle Ages," pp. 58–59.
15. Russell, "That Earlier Plague."
16. The best European record for the period is Georges Duby, *The Early Growth of the European Economy* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1974). A good study of England is Charles Creighton, *A History of Epidemics in Britain* (Cambridge: Cambridge University Press, 1894).
17. Saul N. Brody, *The Disease of the Soul: Leprosy in Medieval Literature* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1974).
18. There is a good discussion in McNeill, *Plagues and Peoples*, pp. 144–47.
19. A good example is *A Leechbook or Collection of Medical Recipes of the Fifteenth Century*, ed. W.R. Dawson (London: Macmillan, 1934).
20. McNeill, *Plagues and Peoples*, pp. 176–78.
21. Medievalists are usually reluctant to give population figures. One who is not is Carlo Cipolla, and the figures have been taken from his *Before the Industrial Revolution* (New York: Norton, 1980), pp. 150–57.
22. McNeill, *Plagues and Peoples*, pp. 134–47.

Chapter 2

1. This point was first made by Lynn White, Jr., in *Medieval Technology and Social Change* (Oxford: Oxford University Press, 1962).
2. Rates of growth are discussed in: Georges Duby, *The Early Growth of the European Economy* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1974); Carlo Cipolla, *Before the Industrial Revolution* (New York: Norton, 1980).
3. Wilhelm Abel, *Agarkrisen und Agarkonjunktur,* 3rd ed. (Hamburg & Berlin: Verlag Paul Parey, 1978).
4. Georges Duby, *The Three Orders: Feudal Society Imagined* (Chicago: University of Chicago Press, 1980).
5. The best descriptions of tenure are to be found in the works of R.H. Hilton, particularly his Ford Lectures in *The English Peasantry in the Later Middle Ages* (Oxford: Oxford University Press, 1975). A nice survey is J.Z. Titow, *English Rural Society* (London: George Allen & Unwin, 1969).
6. Seed yields and the productivity of the land are discussed in: Georges Duby, *Rural Economy and Country.Life in the Medieval West* (London: Edward Arnold, 1966); B.H. Slicher van Bath, *The Agrarian History of Western Europe* (London: Edward Arnold, 1966); J.Z. Titow, *Winchester Yields: A Study in Medieval Agricultural Productivity* (Cambridge: Cambridge University Press, 1972).
7. There are many studies; see Cipolla, *Before the Industrial Revolution,* pp. 143–49; J.C. Russell, *Medieval Regions and Their Cities* (Bloomington, Ind.: Indiana University Press, 1972).
8. Joseph R. Strayer has described the state and development of medieval government. A good starting point is his *On the Medieval Origins of the Modern State* (Princeton: Princeton University Press, 1970).
9. The initial formulation of this approach was by Charles Homer Haskins, *The Renaissance of the Twelfth Century* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1927). The best recent approach is that of M-D. Chenu, *Nature, Man, and Society in the Twelfth Century* (Chicago: University of Chicago Press, 1980).
10. High medieval Christian expansion is discussed in many works. A good starting point is R.W. Southern, *The Making of the Middle Ages* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1953).

11. Two good summary accounts of historical studies of climate are: E. Le-Roy Ladurie, *Times of Feast, Times of Famine* (New York: Doubleday, 1971); Robert I. Rotberg & Theodore K. Rabb, eds., *Climate and History* (Princeton: Princeton University Press, 1981).
12. LeRoy Ladurie, *Times of Feast, Times of Famine,* p. 253.
13. These patterns are summarized in B.H. Slicher van Bath, *The Agrarian History of Western Europe;* J.Z. Titow, "Evidence of Weather in the Account Rolls of the Bishopric of Winchester, 1209–1350," *Economic History Review,* 2nd series (1960).
14. These problems are discussed in detail in M.M. Postan's *Medieval Agriculture and General Problems* and *Medieval Trade and Finance,* both (Cambridge: Cambridge University Press, 1973).
15. Duby, Postan, and Titow discuss this "pauperization." Also see Wilhelm Abel, *Massenarmut und Hungerkrisen in vorindustriellen Europa* (Hamburg & Berlin: Verlag Paul Parey, 1974).
16. Postan, in the works cited in note 14, has made this case. A good general discussion of Malthusian-subsistence crises is E.A. Wrigley, *Population and History* (New York: McGraw-Hill, 1969).
17. R.H. Hilton, *The Decline of Serfdom in Medieval England* (London: Macmillan, 1969); Georges Duby, *Rural Economy and Country Life in the Medieval West.*
18. The classic study is J. Hajnal, "European Marriage Patterns in Perspective," in *Population in History,* ed. D.V. Glass & D.E.C. Eversley (London: Edward Arnold, 1965). The most comprehensive treatments of medieval marriage are: Georges Duby, *Medieval Marriage* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978); F.R.H. DuBoulay, *An Age of Ambition* (New York: Viking, 1970); Zvi Razi, *Life, Marriage, and Death in a Medieval Parish* (Cambridge: Cambridge University Press, 1980).
19. Two general studies of famine are: Cornelius Walford, "The Famines in the World, Past and Present," *Journal of the Statistical Society,* 41 (1879); H.W.F. Curschmann, *Hungersnöte in Mittelalter* (Leipzig: B.G. Teubner, 1900). The best accounts of the fourteenth-century famines are: H.S. Lucas, "The Great European Famine of 1315, 1316, and 1317," *Speculum,* 5 (1930); Ian Kershaw, "The Great Famine and Agrarian Crisis in England," in *Peasants, Knights, and Heretics,* ed. R.H. Hilton (Cambridge: Cambridge University Press, 1976); E. Carpentier, "Famines et epidemies dans l'histoire du XIVe siècle," *Annales E.S.C.*, 6 (1962).

20. As quoted in Lucas, "The Great European Famine of 1315, 1316, and 1317," pp. 343–347.
21. There are many studies of this process. Two summary accounts are: Daniel Waley, *The Italian City-Republics* (New York: McGraw-Hill, 1969); Lauro Martines, *Power and Imagination: City-States in Renaissance Italy* (New York: Knopf, 1979).
22. Giovanni Villani, as quoted in Ferdinand Schevill, *History of Florence* (New York: Frederick Ungar, 1961), p. 237.
23. Behavior during the famine is described in *The Cambridge Economic History of Europe*, I, 2nd ed., pp. 672–74.
24. Kershaw, "The Great Famine and Agrarian Crisis in England." Also see John Bellamy, *Crime and Public Order in the Later Middle Ages* (London: R.K.P., 1973).
25. Kershaw, ibid.
26. The fundamental work on famine is Wilhelm Abel's *Agarkrisen und Agarkonjunktur.* Other important studies include: Helen Robbins, "A Comparison of the Effects of the Black Death on the Economic Organization of France and England," *Journal of Political Economy* (1928); M.J. Larenaude, "Les Famines in Languedoc aux XIVe et XVe Siècle," *Annales du Midi* (1952).
27. A brilliant discussion of late medieval social change is Jacques LeGoff, *Time, Work, and Culture in the Middle Ages* (Chicago: University of Chicago Press, 1980), especially the essays in Parts I and II. Other good studies are: Robert Boutruche, *La Crise d'une Societé: Seigneurs et Paysans du Bordelais pendant La Guerre de Cent Ans* (Paris: Belles Lettres, 1947); Robert Brenner, "Agrarian Class Structure and Economic Development in Pre-Industrial Europe," *Past and Present,* 70 (1976).

Chapter 3

1. William McNeill, *Plagues and People* (New York: Doubleday, 1976), pp. 149–98.
2. J.D. Chambers, *Population, Plague, and Society in Pre-Industrial England* (Oxford: Oxford University Press, 1972), pp. 9–72.
3. In describing the course of plague in Asia, I have made extensive use of Michael Dols's *The Black Death in the Middle East* (Princeton: Princeton University Press, 1977).
4. Dols, *The Black Death in the Middle East*, pp. 38–43.
5. Robert S. Lopez, *The Commercial Revolution of the Middle Ages, 950–1350* (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1971), pp. 56–122.

6. Dols, *The Black Death in the Middle East*, p. 49.
7. As described in Dols, *The Black Death in the Middle East*, p. 62.
8. See V.J. Derbes, "De Mussis and the Great Plague of 1348," *The Journal of the American Medical Association* 196 (1966).
9. C.S. Bartsocas, trans., "Two Fourteenth Century Greek Descriptions of the Black Death," *Journal of the History of Medicine and Allied Sciences*, 21 (4) (1966).
10. Bartsocas, "Two Fourteenth Century Greek Descriptions of the Black Death," p. 395.
11. Angeliki E. Laiou-Thomadakis, *Peasant Society in the Late Byzantine Empire* (Princeton: Princeton University Press, 1977), pp. 223–98.
12. Dols, *The Black Death in the Middle East*, pp. 35–67.
13. Ibid., pp. 241–42.
14. Ibid., p. 61.
15. Ibid., p. 64.
16. Ibid., p. 67.
17. Bartsocas, "Two Fourteenth Century Greek Descriptions of the Black Death," p. 395.
18. Michael of Piazza, *Bibliotheca scriptorum qui res in Sicilia gestas retulere*, I, p. 562.
19. Ibid., pp. 562–63.
20. After England, the most detailed research has been done on Italy. For Genoa, see Jacques Heers, *Gênes au XV^e Siècle* (Paris: S.E.V.P.E.N., 1961).
21. David Herlihy, *Pisa in the Early Renaissance* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1958).
22. Iris Origo, *The Merchant of Prato* (New York: Knopf, 1957); also see her article, "The Domestic Enemy: Eastern Slaves in Tuscany in the Fourteenth and Fifteenth Centuries," *Speculum*, 39 (1955).
23. David Herlihy, *Medieval and Renaissance Pistoia* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1967).
24. E. Carpentier, *Une Ville devant la Peste: Orvieto et la Peste de 1348* (Paris: S.E.V.P.E.N., 1962).
25. William Bowsky: "The Impact of the Black Death upon Sienese Government and Society," *Speculum*, 39 (1964); and *Finances of the Commune of Siena, 1287–1355* (Oxford: Oxford University Press, 1970).
26. Angolo di Tura, *Cronaca senese*, in *The Black Death*, ed. William Bowsky (New York: Holt, Rhinehart & Winston, 1971), pp. 13–14.
27. The two best books on plague in Florence are: Ferdinand Schevill, *History of Florence* (New York: Frederick Ungar, 1961); Gene A. Brucker, *Renaissance Florence* (New York: Wiley, 1969).

28. Giovanni Boccaccio, *The Decameron,* trans. Frances Winwar (New York: Modern Library, 1955), xxiii–xxiv.
29. Ibid., p. xxviii.
30. Frederic C. Lane, *Venice: A Maritime Republic* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1973).
31. Carlo Cipolla, "Per la Storia delle Epidemie in Italia," *Rivista Storica Italiana,* 75 (1963).
32. There are three good accounts for southern France: E. LeRoy Ladurie, *The Peasants of Languedoc* (Urbana, Ill.: University of Illinois Press, 1974); John Bell Henneman, "The Black Death and Royal Taxation in France, 1347–1351," *Speculum,* 43 (1968); Richard Emery, "The Black Death of 1348 in Perpignan," *Speculum,* 42 (1967). Henneman's *Royal Taxation in Fourteenth Century France* (Princeton: Princeton University Press, 1971) is also useful.
33. Emery, "The Black Death of 1348 in Perpignan."
34. Yves Renouard, "La Peste Noire," *Revue de Paris* (1950).
35. LeRoy Ladurie, *The Peasants of Languedoc,* pp. 11–50.
36. This concept is attributed to Wilhelm Abel, *Wüstungen des ausgehenden Mittelalters* (Stuttgart: Fischer, 1955). Also important is Maurice Beresford, *Lost Villages of England* (London: Lutterworth, 1954).
37. Gabriel Jackson, *The Making of Medieval Spain* (New York: Harcourt, Brace, Jovanovich, 1972), 146–54.
38. In *The Making of Medieval Spain,* Jackson describes anti-Semitism in Europe.
39. Giovanni Villani, as quoted in Schevill, *History of Florence,* pp. 239–40.

Chapter 4

1. L. Pouquet, *La Peste en Normandie* (Paris: Librairie Hachette, 1926), p. 77.
2. Guy Bois, *Crise du Feodalisme* (Paris: Presses de la Fondation Nationale des Sciences Politiques, 1976), pp. 239–70.
3. E. Carpentier, "Autour de la Peste Noire," *Annales E.S.C.* (1962), p. 1065.
4. Jean de Venette, *The Chronicle,* ed. Richard Newhall (New York: Columbia University Press, 1953), pp. 48–49.
5. Carpentier, "Autour de la Peste Noire."
6. Jean de Venette, *The Chronicle,* p. 49.
7. There are three fundamental works. Two are by H. van Werveke: *De Zwarte Dood in de Zuidelijke Nederlanden, 1349–1357* (Brussels: H.

Hayez, 1950); "La Famine del An 1316 en Flandre et dans les Régions Voisines," *Revue du Nord* (1959). The third is W.P. Blockmans, "Effects of Plague in the Low Countries," *Revue Belgie de Philologie et Histoire*, 58 (1980).

8. J. Schreiner, *Pest og Prisfall i Sen Middelalderen et Problem i Norsk Historie* (Olso: J. Dybwad, 1948). A good general source is Karl Helleiner, "The Population of Europe from the Black Death to the Eve of the Vital Revolution," in *The Cambridge Economic History of Europe*, IV, ed. E.E. Rich & C.H. Wilson (Cambridge: Cambridge University Press, 1967), pp. 5–20.
9. Gwyn Jones, *The Norse Atlantic Saga* (Oxford: Oxford University Press, 1964), pp. 72–74.
10. Three general studies are: Charles Creighton, *History of Epidemics in Britain*, I (Cambridge: Cambridge University Press, 1894); J.F.D. Shrewsbury, *A History of Bubonic Plague in the British Isles* (Cambridge: Cambridge University Press, 1971); John Hatcher, *Plague, Population, and the English Economy, 1348–1530* (London: Macmillan, 1977).
11. Henry Knighton, *Chronicon*, ed. J. Lumby (London: Rolls Series, 92), p. 61.
12. C.E. Boucher, "The Black Death in Bristol," *Transactions of the Bristol and Gloucestershire Archeological Society*, 60 (1938).
13. John Hatcher, *Rural Economy and Society in the Duchy of Cornwall, 1300–1500* (Cambridge: Cambridge University Press, 1970), pp. 102-21.
14. Hatcher expresses this opinion generally for England in *Plague, Population, and the English Economy, 1348–1530.*
15. P.D.A. Harvey, *A Medieval Oxfordshire Village: Cuxham, 1240–1400* (Oxford: Oxford University Press, 1965), pp. 49–154.
16. Zvi Razi, *Life, Marriage, and Death in a Medieval Parish* (Cambridge: Cambridge University Press, 1980), pp. 99–113.
17. Wilkins, *Concilia*, II, pp. 735–36.
18. F.A. Gasquet, *The Great Pestilence* (London: S. Marshall, Hamilton, Kent & Co., 1893), p. 96.
19. Thomas Courtenay, "The Effect of the Black Death on English Higher Education," *Speculum*, 55 (1980).
20. A. Hamilton Thompson: "The Pestilences of the Fourteenth Century in the Diocese of York," *Archeological Journal*, 71 (1914); and "Registers of John Gynewell, Bishop of Lincoln, for the Years 1347–50," *Archeological Journal*, 68 (1911).
21. G.G. Coultan, *The Black Death* (New York: Cope & Smith, 1930), p. 496.

22. S.L. Thrupp, *The Merchant Class of Medieval London* (Chicago: University of Chicago Press, 1948), pp. 41-52.
23. Robert S. Gottfried, *Epidemic Disease in Fifteenth Century England* (New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press, 1978), pp. 142–50.
24. Barbara Green & Rachel M.R. Young, *Norwich: The Growth of a City* (Norwich: City Museum, 1972), pp. 16–18.
25. Robert S. Gottfried, *Bury St. Edmunds and the Urban Crisis, 1290–1539* (Princeton: Princeton University Press, 1982), pp. 46–72.
26. A. Hamilton Thompson, "Registers of John Gynewell."
27. John Fordun, *Chronicle*, ed. W.F. Skene (Edinburgh: Edmonston and Douglass, 1880), p. 225.
28. W. Rees, "The Black Death in Wales," in *Essays in Medieval History*, ed. Richard Southern (London: Macmillan, 1968).
29. Ibid., p. 186.
30. John Clyn, *Annalium Hibernae Chronicon*, ed. R. Butler (Dublin: Irish Archeological Society, 1849), p. 37.
31. The work of Wilhelm Abel is the best guide, especially *Agarkrisen und Agarkonjunktur*, 3rd ed. (Hamburg & Berlin: Verlag Paul Parey, 1978). Also see R-H. Bautier, *The Economic Development of Medieval Europe* (New York: Harcourt, Brace & Jovanovich, 1971), pp. 180–88.
32. Philippe Dollinger, *The German Hansa* (Stanford, Cal.: Stanford University Press, 1970), pp. 59–61.
33. Gerald Strauss, *Nuremberg in the Sixteenth Century* (New York: Wiley, 1966), pp. 190–93.
34. There are two good accounts of flagellism: Norman Cohn, *The Pursuit of the Millenium* (New York: Harper & Row, 1961), pp. 124–48; and Gordon Leff, *Heresy in the Later Middle Ages*, II (Manchester: Manchester University Press, 1967), Chapter 4.
35. Jean de Venette, *The Chronicle*, pp. 51-52.
36. Jean Froissart, *Chronicles*, ed. Geoffrey Brereton (Baltimore: Penguin Books, 1968), pp. 111-12.
37. Cohn, *The Pursuit of the Millenium*, p. 141.
38. Jean de Venette, *The Chronicle*, pp. 51-52.
39. This topic has not received the attention it deserves. See Cohn, *The Pursuit of the Millenium*, pp. 49-139; Cecil Roth & I.H. Levine, eds., *The World History of the Jewish People*, 2nd series (New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press, 1966); Seraphine Guerchberg, "The Controversy Over the Alleged Sowers of the Black Death in the Contemporary Treatises on Plague," in *Change in Medieval Society*, ed. S.L. Thrupp (New York: Appleton-Century-Crofts, 1964), pp. 209–24.
40. Jean de Venette, *The Chronicle*, pp. 49–50.

41. A good survey is Geoffrey Barraclough, ed., *Eastern and Western Europe in the Middle Ages* (New York: Harcourt, Brace, & Jovanovich, 1970), especially Chapter 4 by M.M. Postan.
42. Jerome Blum, *Lord and Peasant in Russia* (Princeton: Princeton University Press, 1961), p. 60.

Chapter 5

1. See Philip Ziegler, *The Black Death* (New York: Harper & Row, 1969), pp. 224–31; Jean Froissart, *Chronicles*, ed. Geoffrey Brereton (Baltimore: Penguin Books, 1968), p. 111.
2. Giovanni Boccaccio, *The Decameron*, trans. Frances Winwar (New York: Modern Library, 1955), pp. xxv–xxvi.
3. Geoffrey Chaucer, *The Canterbury Tales*, ed. Nevill Coghill (Baltimore: Penguin Books, 1951).
4. François Villon, *Poems, Including the Testament*, ed. Norman Cameron (New York: Harcourt, Brace and World, 1962).
5. Jacques LeGoff, *Time, Work, and Culture in the Middle Ages* (Chicago: University of Chicago Press, 1980), pp. 3–97.
6. Leon Battista Alberti, *The Family in Renaissance Florence*, trans. Renee Neu Watkins (Columbia, S.C.: University of South Carolina Press, 1969), p. 165.
7. LeGoff, *Time, Work, and Culture in the Middle Ages*, p. 40.
8. Michael Dols, *The Black Death in the Middle East* (Princeton: Princeton University Press, 1977), pp. 109–21.
9. Ibid., p. 113.
10. The bibliography of works about the late medieval church is vast. A starting point is Owen Chadwick, *The History of the Church: A Select Bibliography* (London: Historical Association, 1962). Three monographs of great use are: J.B. Morrall, *Gerson and the Great Schism* (Manchester: Manchester University Press, 1960); Brian Tierney, *The Foundations of the Conciliar Theory* (Cambridge: Cambridge University Press, 1955); Walter Ullman, *The Origins of the Great Schism* (Hamden, Conn.: Archon Books, 1967).
11. The data are in two articles by A. Hamilton Thompson: "The Pestilences of the Fourteenth Century in the Diocese of York," *Archeological Journal*, 71 (1914); "The Registers of John Gynewell, Bishop of Lincoln, 1347–50," *Archeological Journal*, 68 (1911).
12. Thomas Wright, *Political Poems and Songs* (London: Rolls Series, 14, 1859–61), p. 251.
13. British Library, British Museum, Digby MS. 102, f. 33.

14. William Langland, *Piers Ploughman*, ed. J.F. Goodridge (Baltimore: Penguin Books, 1959), pp. 194–95.
15. Joel Rosenthal, *The Purchase of Paradise: The Social Function of Aristocratic Benevolence, 1307–1485*, (London: R.K.P., 1972).
16. These ideas are dealt with in Geoffrey Barraclough, *The Medieval Papacy* (New York: Harcourt, Brace, & Jovanovich, 1968), pp. 118–96.
17. *Calendar of Papal Letters, 1362–1404* (London: H.M.S.O., 1906–55), p. 163.
18. Jonathan Sumptien, *Pilgrimage: An Image of Medieval Religion* (Totowa, N.J.: Rowman & Littlefield, 1975).
19. Margaret Aston, *The Fifteenth Century: The Prospects of Europe* (New York: Harcourt, Brace & Jovanovich, 1968), pp. 85–116.
20. Henry Sigerist, *Civilization and Disease* (Chicago: University of Chicago Press, 1943), pp. 131–47.
21. Aston, *The Fifteenth Century: The Prospects of Europe*, pp. 117–73.
22. An example is G.G. Coultan, *The Black Death* (New York: Cope & Smith, 1930).
23. J. Huizinga, *The Waning of the Middle Ages* (New York: Anchor, 1954).
24. Robert S. Gottfried, *Bury St. Edmunds and the Urban Crisis, 1290–1539* (Princeton: Princeton University Press, 1982), p. 217.
25. Eustace Deschamps, as quoted in Huizinga, *The Waning of the Middle Ages*, p. 65.
26. Three good books are: Philippe Ariès, *Western Attitudes Toward Death* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1974); T.S.R. Boase, *Death in the Middle Ages* (New York: McGraw-Hill, 1972); Philippa Tristram, *Figures of Life and Death in Medieval English Literature* (New York: New York University Press, 1976).
27. Georges Duby, *The Age of Cathedrals: Art and Society, 980–1420* (Chicago: University of Chicago Press, 1980), pp. 191–274.
28. Described in Millard Meiss, *Painting in Florence and Siena after the Black Death* (Princeton: Princeton University Press, 1951), a fundamental text that I have used extensively.
29. The next few pages are based on the Duby and Meiss books cited in notes 27 and 28. Also used is Aston, *The Fifteenth Century: The Prospects of Europe* pp. 175–203.
30. Meiss, *Painting in Florence and Siena after the Black Death* pp. 105–65.
31. Giovanni Boccaccio, *The Corbaccio*, as quoted by Meiss, Ibid., p. 161.
32. LeGoff, *Time, Work, and Culture in the Middle Ages*, pp. 43–52.
33. K.B. McFarlane, *The Nobility of Later Medieval England* (Oxford: The Clarendon Press, 1973).

34. Henry Knighton, *Chronicon,* ed. J. Lumby, (London: Rolls Series, 92), pp. 61–62.
35. P.D.A. Harvey, *A Medieval Oxfordshire Village: Cuxham, 1240–1400* (Oxford: Oxford University Press, 1965), pp. 84–86.
36. William Langland, *Piers the Ploughman,* ed. J.F. Goodridge (Baltimore: Penguin Books, 1959), p. xiv. Also see Morton Bloomfield, *Piers Plowman as a Fourteenth Century Apocalypse* (New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press, 1961).
37. Elspeth M. Veale, *The English Fur Trade in the Later Middle Ages* (Oxford: The Clarendon Press, 1966), pp. 133–55.
38. McFarlane, *The Nobility of Later Medieval England* pp. 142–76.
39. Huizinga, *The Waning of the Middle Ages,* pp. 85–107.
40. George Holmes, *The Estates of the Higher Nobility in Fourteenth Century England* (Cambridge: Cambridge University Press, 1957), pp. 90–91.
41. Edward P. Cheyney, *The Dawn of a New Era* (New York: Harper, 1936), pp. 110–41. Two excellent studies are: Michel Mollat & Philippe Wolff, *Popular Revolts in the Late Middle Ages* (London: Allen, Unwin, 1973); Rodney Hilton, *Bond Men Made Free* (London: Temple-Smith, 1973).
42. John Bellamy, *Crime and Public Order in England in the Later Middle Ages* (London: R.K.P., 1973). No one disputes the fact that crime increased, but opinions differ as to the degree of increase. See Richard Kaeuper, "Law and Order in Fourteenth Century England," *Speculum,* 54 (1979).
43. *Le Despit au Vilain,* as translated in Barbara Tuchman, *A Distant Mirror: The Calamitous Fourteenth Century* (New York: Knopf, 1978), p. 175.
44. Froissart, *Chronicles,* pp. 151–52.
45. Carlo Cipolla, *Money, Prices, and Civilization in the Mediterranean World* (Princeton: Princeton University Press, 1956), pp. 27–37.
46. Froissart, *Chronicles,* p. 212.

Chapter 6

1. Three general works that I have used are: Thomas McKeown, *The Role of Medicine* (Princeton: Princeton University Press, 1979); Charles Talbot, *Medicine in Medieval England* (London: Oldbourne, 1967); Vern L. Bullough, *The Development of Medicine as a Profession* (New York: Hafner, 1966). The growth of medicine as a profession is outlined in three other works: A.M. Carr-Saunders & P.A. Wilson, *The Profes-*

sions (Oxford: Clarendon Press, 1933); Carlo Cipolla, "The Professions," *The Journal of European Economic History* (1973); Thomas McKeown, "A Sociological Approach to the History of Medicine," *Medical History* (1970).

2. The works described in note 1 are helpful. Also important are the following: Loren MacKinney, *Early Medieval Medicine* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1937); C.D. O'Malley, *The History of Medical Education* (Berkeley, Cal.: University of California Press, 1970); George Gask, *Essays in the History of Medicine* (London: Butterworth & Co., 1950); Charles H. Talbot, "Medicine," in *Science in the Middle Ages,* ed. David Lindberg (Chicago: University of Chicago Press, 1978).
3. These books discuss university medical education in general terms: Hastings Rashdall, *The Universities of Europe in the Middle Ages,* 3 vols., ed. F.M. Powicke & A.V. Emden (Oxford: Oxford University Press, 1936); John W. Baldwin, *The Scholastic Culture of the Middle Ages, 1000-1300* (New York: Heath, 1971); Gordon Leff, *Paris and Oxford Universities in the Thirteenth and Fourteenth Centuries* (New York: Wiley, 1968).
4. A fine interpretation of Peter Abelard's importance can be found in Norman Cantor, *Medieval History* (New York: Macmillan, 1969), pp. 361-71.
5. Two good references for humoral theory are: Henry Sigerist, *Civilization and Disease* (Chicago: University of Chicago Press, 1943), pp. 150-156; E.D. Phillips, *Greek Medicine* (London: Thames & Hudson, 1973).
6. The following studies are helpful for particular universities: Stephan d'Irsay, "Teachers and Textbooks of Medicine in the Medieval University of Paris," *Annals of Medical History,* 8 (1926); P.O. Kristeller, "School at Salerno," *Bulletin of the History of Medicine* (1945); and the following works of Vern L. Bullough—"Teaching of Surgery at the University of Montpellier in the Thirteenth Century," *Journal of the History of Medicine,* 15 (1960); "The Medieval Medical School at Cambridge," *Medieval Studies,* 24 (1962); "Medieval Medical University at Paris," *Bulletin of the History of Medicine* (1957); "Medical Study at Medieval Oxford," *Speculum* (1961). Also see Pearl Kibre & Nancy Siraisi, "The Institutional Setting: Universities," in *Science in the Middle Ages,* ed. David Lindberg.
7. Two books by Charles Singer are fundamental: *The Evolution of Anatomy* (London: Paul, Trench, 1925); *A Short History of Anatomy and Physiology* (New York: Dover, 1957).
8. Mondino de'Liuzzi, *Anatomia,* ed. Charles Singer, *Monumenta Medica,* II (Florence: R. Lier, 1925), i, pp. 80-81.

9. Hedley Atkins, *The Surgeon's Craft* (Manchester: Manchester University Press, 1965). Bullough, *The Development of Medicine as a Profession,* is best on surgery.
10. One of the best preplague surgical manuals is Lanfrank of Milan, *Science of Surgery,* ed. Robert von Fleishhacken, *Early English Text Society,* 102 (1874).
11. Most of the work on barber-surgeons has been on local groups. See: G. Parker, *The Early History of Surgery in Great Britain* (London: Black, 1920); Sidney Young, *The Annals of the Barber-Surgeons of London* (London: Blades, East & Blades, 1890).
12. Leslie G. Matthews, *History of Pharmacy in Britain* (Edinburgh: E. & S. Livingston, 1962); G.E. Trease, *Pharmacy in History* (London: Bailliere, Tindall, 1964).
13. Margaret Pelling & Charles Webster, "Medical Practitioners," in *Health, Medicine and Mortality in the Sixteenth Century,* ed. Charles Webster (Cambridge: Cambridge University Press, 1979).
14. Eileen Power, "Some Women Practitioners of Medicine in the Middle Ages," *Proceedings of the Royal Society of Medicine,* 15 (1928).
15. An original copy of this tractate is in the British Library, The British Museum, Harl. MS. 3050. Substantial portions are analyzed and translated in: D.W. Singer, "Some Plague Tractates," *Proceedings of the Royal Society of Medicine,* 9 (2): 159; and Anna Montgomery Campbell, *The Black Death and Men of Learning* (New York: Columbia University Press, 1931).
16. Bengt Knuttson, *A Little Book for the Pestilence* (Manchester: John Rylands Library, 1911), p. 6.
17. Campbell, *The Black Death and Men of Learning.*
18. Ibid., pp. 9–13.
19. Gentile of Foligno, as quoted in Campbell, ibid., pp. 38–39.
20. Michael W. Dols, *The Black Death in the Middle East* (Princeton: Princeton University Press, 1977), pp. 84–109.
21. They are discussed in Campbell, *The Black Death and Men of Learning,* pp. 7–33.
22. The University of Montpellier, as quoted in Campbell, ibid., pp. 61–62.
23. Robert S. Gottfried, *Epidemic Disease in Fifteenth Century England* (New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press, 1978), pp. 63–77.
24. Dols, *The Black Death in the Middle East,* pp. 121–42.
25. There are many medieval leechbooks. A good one is *A Leechbook or Collection of Medical Recipes of the Fifteenth Century,* ed. W.R. Dawson (London: Macmillan, 1934).
26. There are many dietary books. One is *Tacuinum Sanitatis (Medieval*

Health Handbook), ed. Luisa Cogliati Arano (New York: George Braziller, 1976).

27. John Lydgate, "Dietary and Doctrine for the Pestilence," in *Lydgate's Minor Poems, II,* ed. H.N. MacCracken, *Early English Text Society,* 192 (1933), p. 702.
28. Dols, *The Black Death in the Middle East,* p. 105.
29. "Recipe for Edward IV's Plague Medicine," *Notes and Queries,* 9:343 (1878).
30. See Campbell, *The Black Death and Men of Learning,* pp. 147–80; Bullough, *The Development of Medicine as a Profession,* pp. 74–111.
31. John Herman Randall, *The School of Padua and the Emergence of Modern Science* (Padua: Editrice Antimore, 1961); Jerome Bylebyl, "The School of Padua," in *Health, Medicine, and Mortality in the Sixteenth Century,* ed. Charles Webster; Nancy G. Siraisi, *Taddeo Alderotti and His Pupils* (Princeton: Princeton University Press, 1981).
32. John of Arderne, *De Arte Phisicali et de Cirurgia,* ed. d'Arcy Power (Oxford: Oxford University Press, 1923); Guy de Chauliac, *Surgery,* ed. M.S.Ogdan (Oxford: Oxford University Press, 1971).
33. Carlo Cipolla, *Public Health and the Medical Profession in the Renaissance* (Cambridge: Cambridge University Press, 1976). This is a seminal study.
34. Talbot, *Medicine in Medieval England,* pp. 186–97.
35. Henry Daniel, *On the Nature of Urines.* To the best of my knowledge, it has not been printed. A manuscript reference is The British Library, The British Museum, Sloane MS. 433.
36. Dawson, *A Leechbook or Collection of Medical Recipes of the Fifteenth Century,* pp. 96–97.
37. R.M. Clay, *Medieval Hospitals of England* (London: Frank Cass Reprints, 1966); Cipolla, *Public Health and the Medical Profession in the Renaissance;* Talbot, *Medicine in Medieval England,* pp. 170–85.
38. Talbot, ibid., pp. 170–85.
39. Robert S. Gottfried, *Bury St. Edmunds and the Urban Crisis, 1290–1539* (Princeton: Princeton University Press, 1982), pp. 193–207.
40. Gerald Strauss, *Nuremberg in the 16th Century* (New York: Wiley, 1966), pp. 191–93.
41. Cipolla, *Public Health and the Medical Profession in the Renaissance,* pp. 11–66.
42. Carlo Cipolla, *Cristofano and the Plague* (London: Collins, 1973).
43. Cipolla, *Public Health and the Medical Profession in the Renaissance,* p. 37.

44. Carlo Cipolla, "A Plague Doctor," in Harry A. Miskimin, et al., *The Medieval City* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1977).
45. There are a few good studies of deontology. See: Darrel W. Amundsen, "Medical Deontology and Pestilential Disease in the Late Middle Ages," *Journal of the History of Medicine*, 23, (1977); M.C. Welborn, "The Long Tradition: A Study in Fourteenth Century Medical Deontology," in *Medieval and Historiographical Essays in Honor of James Westfall Thompson*, ed. J.L. Cate and E.N. Anderson (Chicago: University of Chicago Press, 1938).
46. Chauliac, *Surgery*, p. 19.
47. John of Arderne, *Treatise of Fistula in Ano*, ed. d'Arcy Power, *Early English Text Society*, 139 (1910), pp. 4–7.
48. Jan Yperman, *De Cyryrgie*, ed. E.C. van Leersum (Leiden: E.J. Brill, 1912), pp. i, iv.
49. Henri de Mondeville, *Chirurgie*, ed. E. Nicaise (Paris: Félix Alcan, 1893), p. 145.
50. Arderne, *Treatise of Fistula in Ano*, p. 5.
51. Geoffrey Chaucer, *The Canterbury Tales* (Baltimore: Penguin Books, 1952), Prologue.
52. Arderne, *Treatise of Fistula in Ano*, p. 5.
53. Arderne, *Treatise of Fistula in Ano*, p. 110.

Chapter 7

1. Sylvia Thrupp, "The Problem of Replacement Rates in Late Medieval English Population," in *Society and History: Essays by Sylvia L. Thrupp*, ed. Raymond Grew & Nicholas Steneck (Ann Arbor, Mich: University of Michigan Press, 1977); on p. 186, Thrupp calls the Late Middle Ages "the golden age of bacteria." See: John Hatcher, *Plague, Population, and the English Economy* (London: Macmillan, 1977); Robert S. Gottfried, *Epidemic Disease in Fifteenth Century England* (New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press, 1978); Edouard Baratier, *La Démographie Provençale du XIIe Siècle* (Paris: S.E.V.P.E.N., 1961).
2. Not much has been written on the *pestis secunda*. See: Hatcher, *Plague, Population, and the English Economy;* Guy Bois, *Crise du Feodalisme* (Paris: Presses de la Fondation Nationale des Sciences Politiques, 1976).
3. K.B. McFarlane, *The Nobility of Later Medieval England* (Oxford: Clarendon Press, 1973), pp. 168–71.
4. Bois, *Crise du Feodalisme*; David Herlihy, "Population, Plague, and Social Change in Rural Pistoia," *Economy History Review*, 18 (1965).

5. Robert S. Gottfried, *Bury St. Edmunds and the Urban Crisis, 1290-1539* (Princeton: Princeton University Press, 1982).
6. A. Hamilton Thompson, "The Pestilences of the Fourteenth Century in the Diocese of York," *Archeological Journal*, 71 (1914).
7. Hatcher, *Plague, Population, and the English Economy*; Charles Creighton, *History of Epidemics in Britain* (Cambridge: Cambridge University Press, 1894).
8. William Langland, *Piers the Ploughman*, ed. J.F. Goodridge (Baltimore: Penguin Books, 1959).
9. Robert S. Gottfried, "Plague, Population, and the Sweating Sickness: Demographic Movements in Late Fifteenth Century England," *Journal of British Studies* (Fall 1976).
10. *The Paston Letters*, III, ed. J. Gairdner (London: Chatto & Windus, 1904), pp. 74-75.
11. *The Great Chronicle of London*, ed. A.H. Thomas (London: G.W. Jones, 1938), p. 226.
12. W.P. Blockmans, "Effects of Plague in the Low Countries," *Revue Belgie de Philologie et Histoire*, 58 (1980).
13. Bois, *Crise du Feodalisme*, pp. 270-308.
14. H. Neveux, "La Mortalité des Pauvres à Cambrai, 1377-1473," *Annales Demographie Historique*, 1968.
15. Most of the subsequent epidemics are nicely summed up in R-H. Bautier, *The Economic Development of Medieval Europe* (New York: Brace, Harcourt, & Jovanovich, 1971), pp. 170-200.
16. *Journal d'Un Bourgeois de Paris sous Charles VI et Charles VII*, ed. André Mary (Paris: Henri Jonquières, 1929), p. 265.
17. Gottfried, *Epidemic Disease in Fifteenth Century England*, pp. 43-46.
18. A.R. Bridbury, "The Black Death," *Economic History Review*, 2nd series, 24 (1973).
19. A good general survey of late medieval Europe is: John Hale, Roger Highfield, Beryl Smalley, *Europe in the Late Middle Ages* (Evanston, Ill.: Northwestern University Press, 1975). I have followed the themes in: A.R. Bridbury, *Economic Growth*, 2nd ed. (New York: Barnes & Noble, 1975); Douglass C. North & Robert Paul Thomas, *The Rise of Western Europe: A New Economic History* (Cambridge: Cambridge University Press, 1973). Another viewpoint is expressed in *The Cambridge Economic History*, I-III (Cambridge: Cambridge University Press, 1941-66).
20. Wilhelm Abel, "Wüstungen und Preisfall in Spätmittelalterlichen Europe," *Jahrbuch für Nationalökonomie und Statistik*, 1953.
21. M.W. Beresford, *The Lost Villages of England* (London: Lutterworth, 1954).

22. John Rous, *Historia regni Angliae,* as quoted in Beresford, ibid., pp. 81–82.
23. Philippe Dollinger, *The German Hansa* (Stanford, Cal.: Stanford University Press, 1970); M.M. Postan, "Economic Relations Between Eastern and Western Europe," in *Eastern and Western Europe in the Middle Ages,* ed. Geoffrey Barraclough (London: Thames & Hudson, 1970).
24. Fernand Braudel, *Capitalism and Material Life* (New York: Harper Torchbooks, 1974), p. 34.
25. For English land tenure, see R.H. Hilton: "Freedom and Villeinage in England," in *Peasants, Knights, and Heretics,* ed. R.H. Hilton (Cambridge: Cambridge University Press, 1976); *The Decline of Serfdom in Medieval England* (London: Macmillan, 1969). For the Continent, see: Georges Duby, *Rural Economy and Country Life in the Medieval West* (London: Edward Arnold, 1968); Jerome Blum, *Lord and Peasant in Russia* (Princeton: Princeton University Press, 1965); E. Perroy, "Wage Labour in France in the Later Middle Ages," in *Change in Medieval Society,* ed. S.L. Thrupp (New York: Appleton-Century-Crofts, 1964).
26. F.L. Carsten, "Medieval Democracy in the Brandenburg Towns and its Defeat in the Fifteenth Century," in *Change in Medieval Society.* ed. S.L. Thrupp. Also see the books cited in note 23.
27. Among the many very good studies are: F.R.H. DuBoulay, *The Lordship of Canterbury* (London: Nelson, 1966); Edward Miller, *The Abbey and Bishopric of Ely* (Cambridge: Cambridge University Press, 1951); E. LeRoy Ladurie, *The Peasants of Languedoc* (Urbana, Ill.: University of Illinois Press, 1974).
28. Eli Ashtor, "An Essay on the Diet of the Various Classes in the Medieval Levant," in *Biology of Man in History,* ed. Robert Forster and Orest Ranum (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1975).
29. Bautier, *The Economic Development of Medieval Europe,* pp. 188–209; Harry Miskimin, *The Economy of Early Renaissance Europe* (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1969).
30. Margaret Aston, *The Fifteenth Century* (New York: Harcourt, Brace, & Jovanovich, 1968).
31. F.R.H. DuBoulay, *An Age of Ambition* (New York: Viking, 1970); F. Graus, "The Late Medieval Poor in Town and Countryside," in *Change in Medieval Society,* ed. S.L. Thrupp.
32. The Redgrave Records, University of Chicago. I have followed the guide outlined by Richard Smith; see *The Sir Nicholas Bacon Collection: Sources of English Society, 1250-1700* (Chicago: University of Chicago Library Publication, 1972), pp. 3, 14, 18, 24, 30, 34.
33. J.Z. Titow, *Winchester Yields* (Cambridge: Cambridge University Press, 1972).

34. Alan MacFarlane, *The Origins of English Individualism* (Cambridge: Cambridge University Press, 1978).
35. Bautier, *The Economic Development of Medieval Europe*, pp. 209–233; Miskimin, *The Economy of Early Renaissance Europe*, pp. 81–115.
36. R.S. Lopez & H.A. Miskimin, "Economic Depression of the Renaissance," *Economic History Review*, 2nd series, 15 (1962).
37. H. Van der Wee, *The Growth of the Antwerp Market and the European Economy* (The Hague: Mouton, 1963).
38. Carlo Cipolla, *Before the Industrial Revolution* (New York: Norton, 1976); Lynn White, "Cultural Climates and Technological Advances in the Middle Ages," *Viator*, 2 (1971).
39. A.R. Bridbury, *England and the Salt Trade in the Later Middle Ages* (Oxford: Clarendon Press, 1955).
40. Bautier, *The Economic Development of Medieval Europe*, pp. 233–46; Miskimin, *The Economy of the Early Renaissance Europe*, 116–63; Ralph Davis, *The Rise of the Atlantic Economies* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1973), pp. 1–36; M. Malowist, "Poland, Russia, and Western Trade in the Fifteenth and Sixteenth Centuries," *Past and Present*, 13 (1958).
41. Bautier, ibid., p. 176.
42. Dollinger, *The German Hansa;* M.M. Postan, *Medieval Trade and Finance* (Cambridge: Cambridge University Press, 1973), pp. 232–304.
43. E.M. Carus-Wilson, *Medieval Merchant Venturers* (London: Methuen, 1954), pp. 1–97; R.J. Mitchell, *John Free: From Bristol to Rome in the Fifteenth Century* (New York: Longmans, 1955).
44. Fundamental works on environmental changes are: Wilhelm Abel, *Agarkrisen und Agarkonjonktur*, 2nd ed. (Hamberg & Berlin: Verlag Paul Parey, 1966); B.H. Slicher van Bath, *The Agrarian History of Western Europe* (London: Edward Arnold, 1966).
45. DuBoulay, *An Age of Ambition; The Secular Spirit: Life and Art at the End of the Middle Ages*, ed. Thomas Hoving (New York: Dutton, 1975); J. Huizinga, *The Waning of the Middle Ages* (New York: Anchor, 1954); Christopher Dyer, "Redistribution of Incomes in Fifteenth Century England," in *Peasants, Knights, and Heretics*, ed. R.H. Hilton.
46. Joseph R. Strayer, "The Laicization of French and English Society in the Thirteenth Century," in *Medieval Statecraft and the Perspectives of History*, ed. Joseph R. Strayer (Princeton: Princeton University Press, 1971). This is one of the most important articles on the Middle Ages.
47. Carlo Cipolla, "The Professions: A Long View," *Journal of European Economic History*, 2 (1973).

48. The works of Joseph Strayer are fundamental. A good starting point is *On the Medieval Origins of the Modern State* (Princeton: Princeton University Press, 1970).
49. William Bowsky, *The Finances of the Commune of Siena* (Oxford: Oxford University Press, 1970).
50. Agnolo di Tura del Grasso, *Cronaca senese,* as quoted in William Bowsky, "The Impact of the Black Death upon Sienese Government and Society," *Speculum,* 39 (1964).
51. Edouard Perroy, *The Hundred Years' War* (New York: Capricorn Books, 1965), pp. 121–26.
52. Richard Emery, "The Black Death of 1348 in Perpignan," *Speculum,* 42 (1967).
53. Two works by John Henneman are fundamental: "The Black Death and Royal Taxation in France, 1347–1351," *Speculum,* 43 (1968); *Royal Taxation in Fourteenth Century France* (Princeton: Princeton University Press, 1971). See also: Elizabeth A.R. Brown, "Taxation and Mortality in Thirteenth and Fourteenth Century France," *French Historical Studies* (1973); Joseph Strayer, *The Reign of Philip the Fair* (Princeton: Princeton University Press, 1980).
54. Henneman, *Royal Taxation in Fourteenth Century France,* p. 237.
55. Gottfried, *Bury St. Edmunds and the Urban Crisis, 1290–1539.*
56. Michael Dols, *The Black Death in the Middle East* (Princeton: Princeton University Press, 1977), pp. 185–92.
57. William H. McNeill, *Europe's Steppe Frontier* (Chicago: University of Chicago Press, 1964).
58. William H. McNeill, *Plagues and Peoples* (New York: Doubleday, 1976), pp. 187–91.
59. Ibid., pp. 191–98.
60. F. van Steenberghen, *Aristotle in the West* (New York: Humanities Press, 1970).
61. Heiko Oberman, *The Harvest of Medieval Theology* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1963).
62. Robert Lerner, "The Black Death and Western European Eschatological Mentalities," *The American Historical Review,* 86 (1981).
63. Anna Montgomery Campbell, *The Black Death and Men of Learning* (New York: Columbia University Press, 1931.)
64. The total number of universities actually increased in the fourteenth century, especially in the Holy Roman Empire, but many of them were weak foundations and quickly died out.
65. The best information on university collapses and foundations is Hastings Rashdall, *The Universities of Europe in the Middle Ages,* ed. F.M. Powicke & A.B. Emden (Oxford: Oxford University Press, 1936).

66. Campbell, *The Black Death and Men of Learning*, p. 155.
67. Thomas Courtenay, "The Effect of the Black Death on English Higher Education," *Speculum*, 55 (1980).
68. Courtenay suggests that these scholars may not have been in residence.
69. Courtenay, ibid.; Nicholas Orme, *English Schools in the Middle Ages* (London: Methuen, 1973).
70. DuBoulay, *An Age of Ambition*, pp. 160–78; Philippe Wolff, *Western Languages* (New York: McGraw-Hill, 1971), pp. 197–239; Louise Loomis, "Nationality at the Council of Constance: An Anglo-French Dispute," in *Change in Medieval Society*, ed. S.L. Thrupp; Dorothy Kirkland, "The Growth of National Sentiment in France before the Fifteenth Century, *History* (1938).
71. Georges Duby, *The Age of Cathedrals* (Chicago: University of Chicago Press, 1980), pp. 195–220.
72. Robert S. Gottfried, "Population, Plague, and the Sweating Sickness: Demographic Movements in Late Fifteenth Century England." *The Journal of British Studies* (Fall 1977); William H. McNeill, *Plagues and Peoples* (New York: Doubleday, 1976), pp. 199–230.
73. Robert S. Gottfried, "Bury St. Edmunds and the Populations of Late Medieval English Towns," *The Journal of British Studies* (Fall 1980).
74. Édouard Baratier, *La Démographie Provençale du XIIe au XVIe Siècle* (Paris: S.E.V.P.E.N., 1961); Roger Mols, *Introduction à la Démographique Historique des Villes d'Europe du XIVe Siècle*, 3 vols. (Gembloux: J. Duculot, 1954–56).
75. Two additional sources for England are the articles by Paul Slack and Andrew Appleby in *Health, Medicine, and Mortality in the Sixteenth Century*, ed. Charles Webster (Cambridge: Cambridge University Press, 1979).
76. Gottfried, "Population, Plague, and the Sweating Sickness."
77. Aflred W. Crosby, Jr., *The Columbian Exchange: Biological and Cultural Consequences of 1492* (Westport, Conn.: Greenwood Press, 1972), pp. 122–64.
78. Louis Chevalier, "Towards a History of Population," in *Population in History*, ed. D.V. Glass & D.E.C. Eversley (London: Edward Arnold, 1965); E.A. Wrigley, *Population and History* (New York: McGraw-Hill, 1969), pp. 61–106.

Epilogue

1. *Caveats* are nicely presented by Sylvia L. Thrupp, "Medieval Economic Achievement in Perspective," in *Essays on the Reconstruction of Medieval History*, ed. Vaclav Murdoch and G.S. Couse (Montreal: McGill–Queen's College University Press, 1974).
2. "The World Upside Down," in *Historical Poems of the Fourteenth and Fifteenth Centuries*, ed. R.H. Robbins (New York: Columbia University Press, 1959), pp. 150–52.
3. Lynn White, "Cultural Climates and Technological Advance in the Middle Ages," *Viator*, 2 (1971).
4. James Westfall Thompson, "The Aftermath of the Black Death and the Aftermath of the Great War," *American Journal of Sociology*, 26 (1920–21).

مقالة ببليوجرافية

موارد عامـــة

The literature on the Black Death is extensive. Two surveys that present the fundamental issues are: G.G. Coulton, *The Black Death* (New York: Macmillan, 1930); Philip Ziegler, *The Black Death* (New York: Harper & Row, 1969). Three studies are fundamental to the study of the Black Death and its effect on civilization: J-N. Biraben, *Les Hommes et la Peste*, 2 vols. (The Hague: Mouton, 1975), considered by many authorities to be the best study of plague; Henry Sigerist, *Civilization and Disease* (Chicago: University of Chicago Press, 1943); William H. McNeill, *Plagues and Peoples* (New York: Doubleday, 1976). Also important is McNeill's *The Human Condition: An Ecological and Historical View* (Princeton: Princeton University Press, 1980).

There are many important thematic approaches to the Black Death. Two are by Yves Renouard: Conséquences et Intérêst Démographiques de la Peste Noire de 1348," *Population*, 3 (1948); "Le Peste Noire de 1348-50," *La Revue de Paris*, 57 (1950). Other fine studies are: Élizabeth Carpentier, "Autour de la Peste Noire," *Annales E.S.C.* (1962); J.D. Chambers, *Population, Economy and Society in Pre-Industrial England* (Oxford: Oxford

187

University Press, 1972); E. LeRoy Ladurie, "Un Concept: L'Unification Microbienne du Monde," *Schweizerische Zeitschrift für Geschichte* (1973); A.R. Bridbury, "The Black Death," *Economic History Review*, 2nd series, 24 (1973). A useful and well-organized survey that presents excerpts from different interpretations of the Black Death is *The Black Death: A Turning Point in History?*, ed. William Bowsky (New York: Holt, Rhinehart and Winston, 1971).

The best way to get a sense of the physical and psychological impact of the Black Death is through contemporary descriptions. The following give narratives of the Black Death and other plagues: Giovanni Boccaccio, *The Decameron* and *The Corbaccio*; Agnolo di Tura del Grasso, *Cronaca senese*; Giovanni Villani, *Cronica*; Gabriel de Mussis, *Historia de Morbo*; Matthew of Neuberg, *Cronica*; Jean de Venette, *The Chronicle*; C.S. Bartsocas, "Two Fourteenth Century Greek Descriptions of the Black Death," *Journal of the History of Medicine*, 21 (1966); Henry Knighton, *Chronicon;* Geoffrey the Baker, *Chronicon*; *The Paston Letters*; Procopius, *History of the Wars*; W.R. Dawson, *A Leechbook or Collection of Medical Recipes of the Fifteenth Century* (London: Macmillan, 1934).

There are a number of good contemporary medical treatments. Excerpts from many of them are printed in D.W. Singer, "Some Plague Tractates in the Fourteenth and Fifteenth Centuries," *Proceedings of the Royal Society of Medicine*, 92 (1916). Important treatises are: *Guy de Chauliac, La Grand Chirurgie*; John of Arderne, *Treatise of Fistula in Ano*; and *De Arte Phisicali et de Cirurgie*; John La Barba, *Treatise on Pestilence*; Bengt Knuttson, *A Little Book ...for...the Pestilence.* Other important, influential medical works include: Avicenna, *Poem on Medicine*; Henry Daniel, *On the Nature of Urines*; John of Gaddesden, *Rosa Medica*; Galen, *On the Parts of Medicine;* Hippocrates, *Diet and Hygiene;* John of Mirfield, *Surgery*; Lanfrank of Milan, *Surgery*; Henri de Mondeville, *La Chirurgie*; and, one of many general guides to health and diet, *The Salerno Regimen.*

البيئة والمجتمع حتى (١٣٤٧)

Disease, famine, climate, and environment are discussed in a series of works by the eminent German historian, Wilhelm Abel. These works include: *Agarkrisen und Agarkonjunktur in Mitteleuropa* (Hamburg & Berlin: Verlag Paul Parey, 1978); *Die Wüstungen des Ausgehenden Mattelalters* (Stuttgart: Fischer, 1955); *Massenarmut und Hungerkrisen in Vorindustriellen Europe* (Hamburg & Berlin; Verlag Paul Parey, 1974); "Wustungen und Preisfall in Spätmittelalterlichen Europa," *Jahrbuch für Nationalökonomie und Statistik* (1953). Two important general works about disease are: MacFarlane Burnet & David O. White, *Natural History of Infectious Disease*

(Cambridge: Cambridge University Press, 1972); *Biology of Man in History*, ed. Robert Forster & Orest Ranum (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1975). The first plague pandemic is discussed in: J.C. Russell, "That Earlier Plague," *Demography*, 5 (1968); J-N. Biraben & J. LeGoff, "The Plague in the Early Middle Ages," in *Biology of Man in History*, ed. Forster & Ranum. Saul N. Brody's *The Disease of the Soul: Leprosy in Medieval Literature* is a model study of a particular disease.

Two summaries of climatology are: E. LeRoy Ladurie, *Times of Feast and Times of Famine: A History of Climate Since the Year 1000* (New York: Doubleday, 1971); and Robert I. Rotberg & Theodore K. Rabb, *Climate and History* (Princeton: Princeton University Press, 1981). Other studies of weather conditions are: J.Z. Titow, "Evidence of Weather in the Account Rolls of the Bishopric of Winchester," *Economic History Review*, 2nd series (1960); and Gustav Utterström, "Climatic Fluctuations and Population Problems in Early Modern History," *Scandinavian Economic Historical Review* (1955).

A fine study of famine is Ian Kershaw, "The Great Famine and Agrarian Crisis in England," in *Peasants, Knights, and Heretics*, ed. R.H. Milton (Cambridge: Cambridge University Press, 1976). Other studies include: É. Carpentier, "Famines et Épidemies dans L'Histoire du XIVe Siècle," *Annales E.S.C.*, 6 (1962); H.W.F. Curschmann, *Hungersnöte in Mittelalter* (Leipzig: B.G. Teubner, 1900); E. Jutikkala & M. Kauppinen, "The Structure of Mortality during Catastrophic Years in a Pre-Industrial Society," *Population Studies*, 25 (1971); M.J. Larenaude, "Les Famines en Languedoc aux XIVe et XVe Siècle," *Annales du Midi* (1952); H.S. Lucas, "The Great European Famine of 1315, 1316, and 1317," *Speculum* (1930); H. van Werdeke, "La Famine del An 1316 en Flandre et dans les Régions Voisines," *Revue du Nord* (1959). A good study of diet is Eli Ashtor, "An Essay on the Diet of the Various Classes in the Medieval Levant," in *Biology of Man in History*, ed. Forster & Ranum.

Europe's development to the thirteenth century is discussed in general social, economic, and cultural terms in the following: M-D. Chenu, *Nature, Man, and Society in the Twelfth Century* (Chicago: University of Chicago Press, 1980); Georges Duby, *The Early Growth of the European Economy* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1974) and *The Three Orders: Feudal Society Imagined* (Chicago: University of Chicago Press, 1980); Robert Lopez, *The Commercial Revolution* (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1971); R.W. Southern, *The Making of the Middle Ages* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1953); Lynn White, Jr., *Medieval Technology and Social Change* (Oxford: Oxford University Press, 1962).

The socioeconomic and cultural developments of thirteenth- and fourteenth-century Europe are covered in: Robert Boutruche, *La Crise d'une société: Seigneurs et Paysans du Bordelais pendant La Guerre de Cent Ans* (Paris: Belles Lettres, 1947); Robert Brenner, "Agrarian Class Structure and Economic Development in Pre-Industrial Europe," *Past and Present*,

70 (1976); Georges Duby, *Medieval Marriage* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1978) and *Rural Economy and Country Life in the Medieval West* (London: Edward Arnold, 1965); J. Hajnal, "European Marriage Patterns in Perspective," in *Population in History*, ed. D.V. Glass & D.E.C. Eversley, (London: Edward Arnold, 1965); M.M. Postan, *Essays on Medieval Agriculture and General Problems of the Medieval Economy* (Cambridge: Cambridge University Press, 1973); B.H. Slicher van Bath, *Agrarian History of Western Europe* (London: Edward Arnold, 1966); J.Z. Titow, *Winchester Yields: A Study in Medieval Agricultural Productivity* (Cambridge: Cambridge University Press, 1972); E.A. Wrigley, *Population and History* (New York: McGraw-Hill, 1969). Fundamental to an understanding of thirteenth-and fourteenth-century society are the essays in Jacques LeGoff's *Time, Work, and Culture in the Middle Ages* (Chicago: University of Chicago Press, 1980), particularly "Labor Time in the 'Crisis' of the Fourteenth Century."

الموت الأسـود

It is difficult to provide precise population figures for medieval Europe, but there have been several attempts. Among the more successful are: Edouard Baratier, *La Démographie Provençale du XIII^e au XVI^e Siècle* (Paris: S.E.V.P.E.N., 1961); K.J. Beloch, *Bevölkerungsgeschichte Italiens*, 3 vols. (Berlin & Leipzig: De Gruyter, 1961); John Hatcher, *Plague, Population, and the English Economy* (London: Macmillan, 1977); Karl Helleiner, "The Population of Europe from the Black Death to the Eve of the Vital Revolution," in *The Cambridge Economic History of Europe*, IV, ed. E.E. Rich & C.H. Wilson (Cambridge: Cambridge University Press, 1967); David Herlihy & C. Klapish, *Les Toscans et leur Families: Une Étude du Catasto Florentin de 1427* (Paris: Presses de la Fondation Nationales des Sciences Politiques (1978); R. Mols, *Introduction à la Démographie Historique des Villes d'Europe du XIV^e au XVIII^e Siècle* (Gembloux: J. Duculot, 1954-56); Zvi Razi, *Life, Marriage, and Death in a Medieval Parish* (Cambridge: Cambridge University Press, 1980); Josiah Cox Russell, *Medieval Regions and their Cities* (Bloomington, Ind.: University of Indiana Press, 1972); A. Hamilton Thompson, "The Pestilences of the Fourteenth Century in the Diocese of York," *Archeological Journal*, 71 (1914) and "Registers of John Gynewell, Bishop of Lincoln, for the Years 1347-50," *Archeological Journal*, 68 (1911).

There are many national and regional studies that show the impact of the Black Death. One of the best is Michael Dols's *The Black Death in the Middle East* (Princeton: Princeton University Press, 1977). Other important studies are: Guy Bois, *Crise du Feodalisme* (Paris: Presses de la Fondation

des Sciences Politiques, 1976); C.E. Boucher, "The Black Death in Bristol," *Transactions of the Bristol and Gloucestershire Archeological Society*, 60 (1938); Elizabeth A.R. Brown, "Taxation and Mortality in Thirteenth and Fourteenth Century France," *French Historical Studies* (1973); E. Carpentier, *Une Ville devant la Peste: Orvieto et la Peste Noire de 1348* (Paris: S.E.V.P.E.N., 1962); Charles Creighton, *History of Epidemics in Britain* (Cambridge: Cambridge University Press, 1894); Richard Emery, "The Black Death of 1348 in Perpignan," *Speculum*, 42 (1967); Seraphine Guerchberg, "The Controversy Over the Alleged Sowers of the Black Death," in *Change in Medieval Society*, ed. S.L. Thrupp (New York: Appleton-Century-Crofts, 1964); John Henneman, "The Black Death and Royal Taxation in France, 1347-51," *Speculum*, 43 (1968); William Rees, "The Black Death in Wales," in *Essays in Medieval History*, ed. R.W. Southern (London: Macmillan, 1968); J. Schreiner, *Pest og Prisfall i Sen Middlealderen et Problem i Norsk Historie* (Oslo: J. Dybwad, 1948); J.F.D. Shrewsbury, *A History of the Bubonic Plague in the British Isles* (Cambridge: Cambridge University Press, 1971); H. van Werdeke, *De Zwarte Dood in de Zuidelijke Nederlanden, 1349-57* (Brussels: H. Hayez, 1959); W.P. Blockmans, "Effects of Plague in the Low Countries," *Revue Belgie de Philologie et Histoire*, 58 (1980).

Norman Cohn, *The Pursuit of the Millenium* (Oxford: Oxford University Press, 1957), discusses flagellism and anti-Semitism. The dance of death is discussed by: J. Brossolet, "L'influence de la Peste du Moyen Age sur le Thème de la Danse Macabre," *Pagine di storia della Medicina*, 13 (1969); James M. Clark, *The Dance of Death in the Middle Ages and the Renaissance* (Glasgow: Glasgow University Press, 1950).

Two fine studies of plague in Italy are: William Bowsky, "The Impact of the Black Death upon Sienese Government and Society," *Speculum*, 39 (1964); David Herlihy, "Population, Plague, and Social Change in Rural Pistoia," *Economic History Review*, 2nd series, 18 (1965).

There is an interesting debate about the origins of the Black Death in *The Bulletin of the History of Medicine*. See: Stephan R. Ell, "Interhuman Transmission of Medieval Plague," *BHM* (1980), 54:497-510; John Norris, "East or West: The Geographic Origin of the Black Death," *BHM* (1977), 51:1-24; Michael Dols, "Geographical Origin of the Black Death: Comment," *BHM* (1978), 52:112-113; John Norris, "Response," 114-120.

بيئة ومجتمع ما بعد الطاعون

The Decameron and *The Corbaccio* of Giovanni Boccaccio give contrasting perspectives of late medieval attitudes. Other sources which give a sense of late medieval psychology include: Geoffrey Chaucer, *The Canterbury Tales*; Jean Froissart, *Chronicle*; William Langland, *Piers Ploughman*; and François Villon, *Poems*. Modern scholars who have captured the

tenor of late medieval life are: Margaret Aston, *The Fifteenth Century: The Prospects of Europe* (New York: Harcourt, Brace, & Jovanovich, 1968); J. Huizinga, *The Waning of the Middle Ages* (New York: Anchor, 1954); F.R.H. DuBoulay, *An Age of Ambition* (New York: Viking, 1970); and Barbara Tuchman, *A Distant Mirror: The Calamitous Fourteenth Century* (New York: Knopf, 1978). *The Secular Spirit: Life and Art at the End of the Middle Ages*, ed. Thomas Hoving (New York: E.P. Dutton, 1975), published for the Metropolitan Museum of Art in New York, is a fine catalogue, with accompanying text, of late medieval art and artifacts; and *Change in Medieval Society*, ed. Sylvia L. Thrupp (New York: Appleton, Century, Crofts, 1964) is a good collection of essays.

The following are excellent guides to the postplague economy: R-H. Bautier, *The Economic Development of Medieval Europe* (New York: Harcourt, Brace, & Jovanovich, 1971); A.R. Bridbury, *Economic Growth* (New York: Barnes & Noble, 1975); Carlo Cipolla, *Before the Industrial Revolution* (New York: Norton, 1976); Robert Lopez & Harry Miskimin, "Economic Depression of the Renaissance," *Economic History Review*, 2nd series, 15 (1962); Harry Miskimin, *Economy of Early Renaissance Europe* (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1969); Douglass C. North & Robert Paul Thomas, *The Rise of the Western World* (Cambridge: Cambridge University Press, 1973); M.M. Postan, *Medieval Trade and Finance* Cambridge: Cambridge University Press, 1973); Sylvia Thrupp, "Medieval Economic Achievement in Perspective," in *Essays on the Reconstruction of Medieval History*, ed. Vaclav Mudroch & G.S. Couse (Montreal: McGill-Queen's College University Press, 1974).

Phillipe Aries, *Western Attitudes to Death* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1974), describes new attitudes toward death. Maurice Beresford, *Lost Villages of England* (London: Lutterworth, 1954), discusses changes in the landscape, while Alan MacFarlane, *The Origins of English Individualism* (New York: Cambridge University Press, 1978), describes, among other things, changes in inheritance patterns. Changes in standards of living are discussed in: Christopher Dyer, "A Redistribution of Incomes in Fifteenth Century England?" in *Peasants, Knights, and Heretics*, ed. R.H. Hilton (Cambridge: Cambridge University Press, 1976); F. Graus, "The Late Medieval Poor in Town and Countryside" and E. Perroy, "Wage Labour in France in the Later Middle Ages," both in *Change in Medieval Society*, ed. S.L. Thrupp.

Among the many demographic and epidemiological studies of postplague Europe are the following: Louis Chevalier, "Towards a History of Population," in *Population in History*, ed. D.V. Glass & D.E.C. Eversley (London: Edward Arnold, 1965); Alfred Crosby, *The Columbian Exchange* (Westport, Conn.: Greenwood Press, 1972); Robert S. Gottfried, *Epidemic Disease in Fifteenth Century England* (New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press, 1978) and "Population, Plague, and the Sweating Sickness in Late Fifteenth Century England," *The Journal of British Studies* (Fall

1976); H. Neveaux, "La Mortalité des Pauvres a Cambrai, 1377–1473," *Annales Demographies Historiques* (1968).

The following are important studies of late medieval rural life, work, and tenure: Jerome Blum, *Lord and Peasant in Russia* (Princeton: Princeton University Press, 1961); F.R.H. DuBoulay, *The Lordship of Canterbury* (London: Nelson, 1966); P.D.A. Harvey, *A Medieval Oxfordshire Village* (Oxford: Oxford University Press, 1965); John Hatcher, *Rural Economy and Society in the Duchy of Cornwall* (Cambridge: Cambridge University Press, 1970); R.H. Hilton, *Bond Men Made Free* (London: Temple-Smith, 1973), *The Decline of Serfdom in Medieval England* (London: Macmillan, 1969), and *The English Peasantry in the Later Middle Ages* (Oxford: Oxford University Press, 1975); G.A. Holmes, *The Estates of the Higher Nobility in Fifteenth Century England* (Cambridge: Cambridge University Press, 1957); Angeliki Laiou, *Peasant Society in the Late Byzantine Empire* (Princeton: Princeton University Press, 1977); Edward Miller, *The Abbey and Bishopric of Ely* (Cambridge: Cambridge University Press, 1969).

The following are studies of late medieval urban life and trade: William Bowsky, *Finances of the Commune of Siena* (Oxford: Oxford University Press, 1970); F.L. Carsten, "Medieval Democracy in the Brandenburg Towns and its Defeat in the Fifteenth Century," in *Change in Medieval Society*, ed. S.L. Thrupp; Phillipe Dollinger, *The German Hansa* (Stanford, Cal.: Stanford University Press, 1970); Robert S. Gottfried, *Bury St. Edmunds and the Urban Crisis, 1290–1539* (Princeton: Princeton University Press, 1982); Jacques Heers, *Gênes au XVe Siècle* (Paris: S.E.V.P.E.N., 1961); Frederic C. Lane, *Venice: A Maritime Republic* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1973); M. Malowist, "Poland, Russia, and Western Trade in the Fifteenth and Sixteenth Centuries, *Past and Present*, 13 (1958); Gerald Strauss, *Nuremberg in the Sixteenth Century* (New York: Wiley, 1968); Sylvia L. Thrupp, *The Merchant Class of Medieval London* (Chicago: University of Chicago Press, 1948); E.M. Veale, *The English Fur Trade in the Later Middle Ages* (Oxford: Clarendon Press, 1966); H. van der Wee, *The Growth of the Antwerp Market* (The Hague: Mouton, 1963).

Fundamental to an understanding of medieval medicine are: Vern L. Bullough, *The Development of Medicine as a Profession* (New York: Hafner, 1966); Carlo Cipolla, *Public Health in the Medical Profession in the Renaissance* (Cambridge: Cambridge University Press, 1976); Thomas McKeown, *The Role of Medicine* (Princeton: Princeton University Press, 1979); C.H. Talbot, *Medicine in Medieval England* (London: Oldbourne, 1967); and Nancy G. Siraisi, *Taddeo Alderotti and His Pupils* (Princeton: Princeton University Press, 1981). Other important works are: David W. Amundsen, "Medical Deontology and Pestilential Disease in the Late Middle Ages," *Journal of the History of Medicine*, 23 (1977); Carlo Cipolla, "The Professions: A Long View," *The Journal of European Economic History*, 2 (1973); Stephan d'Irsay, "Teachers and Textbooks of Medicine in the Medieval University of Paris," *Annals of Medical History*, 8 (1926); A.M.

Carr-Saunders & P.A. Wilson, *The Professions* (Oxford: Clarendon Press, 1933); C.D. O'Malley, *The History of Medical Education* (Berkeley, Cal.: University of California Press, 1970); and Charles Webster, ed., *Health, Medicine, and Mortality in the Sixteenth Century* (Cambridge: Cambridge University Press, 1979), especially his entry "Medical Practitioners."

Anna Montgomery Campbell, *The Black Death and Men of Learning* (New York: Columbia University Press, 1931), offers a general discussion of the relationship between plague, learning, and culture. Two brilliant studies on art are: Millard Meiss, *Painting in Florence and Siena after the Black Death* (Princeton: Princeton University Press, 1951); Georges Duby, *The Age of the Cathedrals: Art and Society, 980–1420* (Chicago: University of Chicago Press, 1980). Other useful studies include: William J. Courtenay, "The Effect of the Black Death on English Higher Education," *Speculum*, 55 (1980); Gordon Leff, *Heresy in the Later Middle Ages* (Manchester: Manchester University Press, 1967); Robert E. Lerner, "The Black Death and Western European Eschatological Mentalities," *American Historical Review*, 86 (1981); Heiko Oberman, *The Harvest of Medieval Theology* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1963); Philippe Wolff, *Western Languages* (New York: McGraw-Hill, 1971).

The works of J.R. Strayer are fundamental to a full understanding of the Middle Ages. Two of his most notable studies are: *On the Medieval Origins of the Modern State* (Princeton: Princeton University Press, 1970); "The Laicization of French and English Society in the Thirteenth Century," in *Medieval Statecraft and the Perspectives of History*, ed. J.R. Strayer (Princeton: Princeton University Press, 1971). Other important works on government, politics, and social class include: Geoffrey Barraclough, ed., *Eastern and Western Europe in the Middle Ages* (London: Thames & Hudson, 1970); John Bellamy, *Crime and Public Order in England in the Later Middle Ages* (London: R.K.P., 1973); John Bell Henneman, *Royal Taxation in Fourteenth Century France* (Princeton: Princeton University Press, 1971); Dorothy Kirkland, "The Growth of National Sentiment in France before the Fifteenth Century," *History* (1938); Louise Loomis, "Nationality at the Council of Constance: An Anglo-French Dispute," in *Change in Medieval Society*, ed. S.L. Thrupp; K.B. McFarlane, *The Nobility of Later Medieval England* (Oxford: Oxford University Press, 1973); Michel Mollat & Philippe Wolff, *Popular Revolt of the Late Middle Ages* (London: Allen, Unwin, 1973).

المؤلف فى سطور:

روبرت س. جوتفريد

أستاذ تاريخ العصور الوسطى ومدير مركز دراسات العصور الوسطى فى جامعة رتجرز بالولايات المتحدة.

من كتبه:

- الأمراض الوبائية فى إنجلترا فى القرن الخامس عشر ١٥٧٨.
- بيى سانت إدموند والأزمة الخضراء (١٢٩٠– ١٥٩٣).
- الطب والأطباء فى إنجلترا فى العصور الوسطى (١٣٤٠– ١٥٣٠).

المترجم في سطور:

أبو أدهم عبادة بن عبد الرحمن رضا كحيلة

- كاتب ومؤرخ وأستاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة.
- عضو مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية منذ ٢٠٠٠.
- عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة (٢٠٠٨– ٢٠١١).
- عضو الجمعية العربية المشاركة للمقاومة الفلسطينية منذ عام ٢٠٠٧.

من أعمالـــه:

- خمسة عشر كتابا مؤلفا، وأربعة كتب مترجمة وكتاب محقق واثنا عشر كتابًا محررًا
- عشرون مقالا في دوريات علمية وكتب جامعية بمصر والوطن العربي وخارجه.
- خمسون مقالا في الأدب والسياسة والشأن العام بجرائد ومجلات مصرية وعربية.
- صدر عن المشروع القومي للترجمة كتاب "الغجر"، تأليف: سير أنجوس فريزر، ٢٠٠١م، العدد رقم ٢٥٨.

التصحيح اللغوى : هشام زغلول
الإشراف الفنى : حسن كامل